

سلسلة التربية الإسلامية المعاصرة

الحلقة الأولى

التربية الإسلامية في البيت

تأليف

الدكتور علي عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٤٠٣/٢٠٠٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977-265-571-3



دار التوزيع والنشر الإسلامية

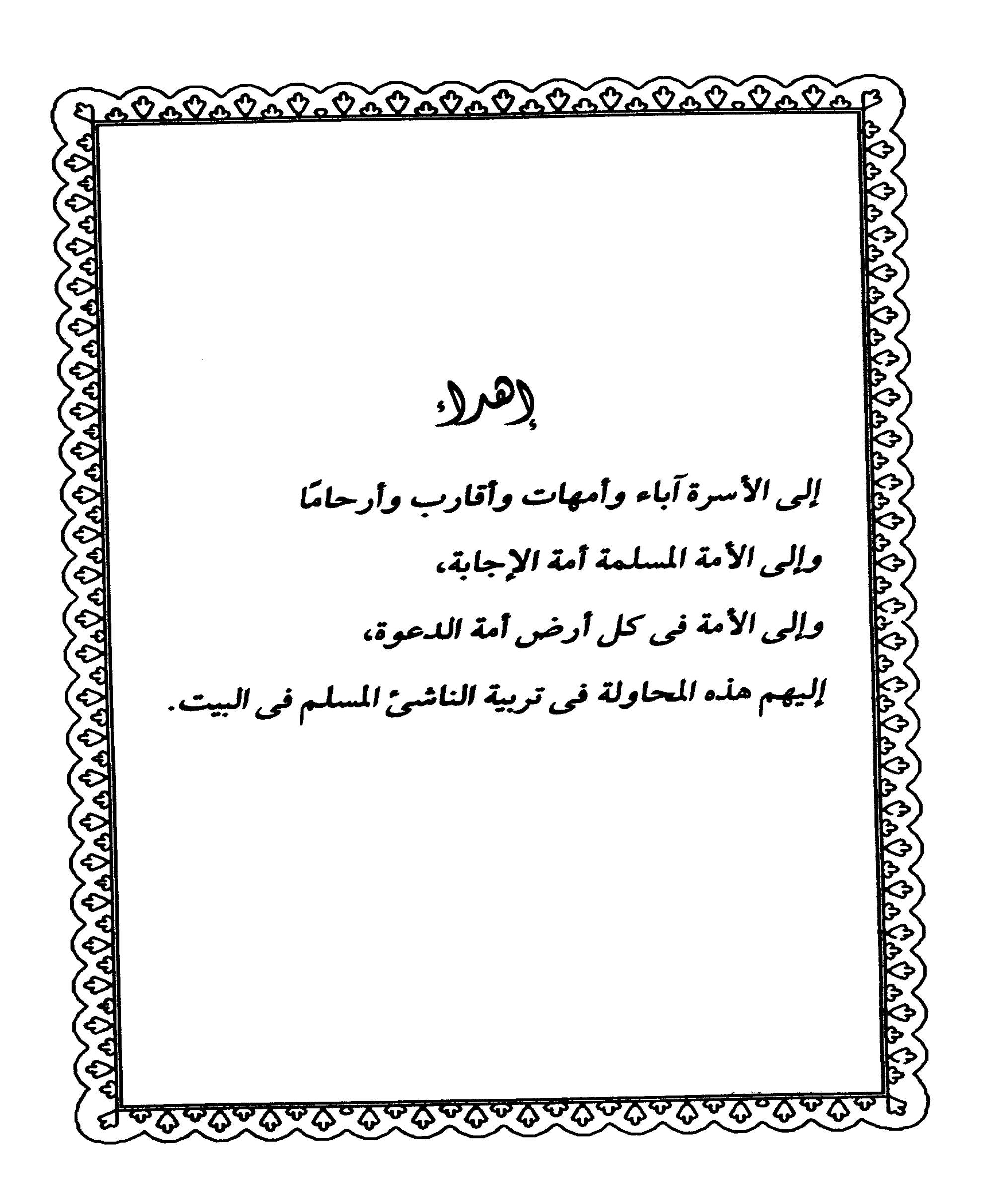
مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com



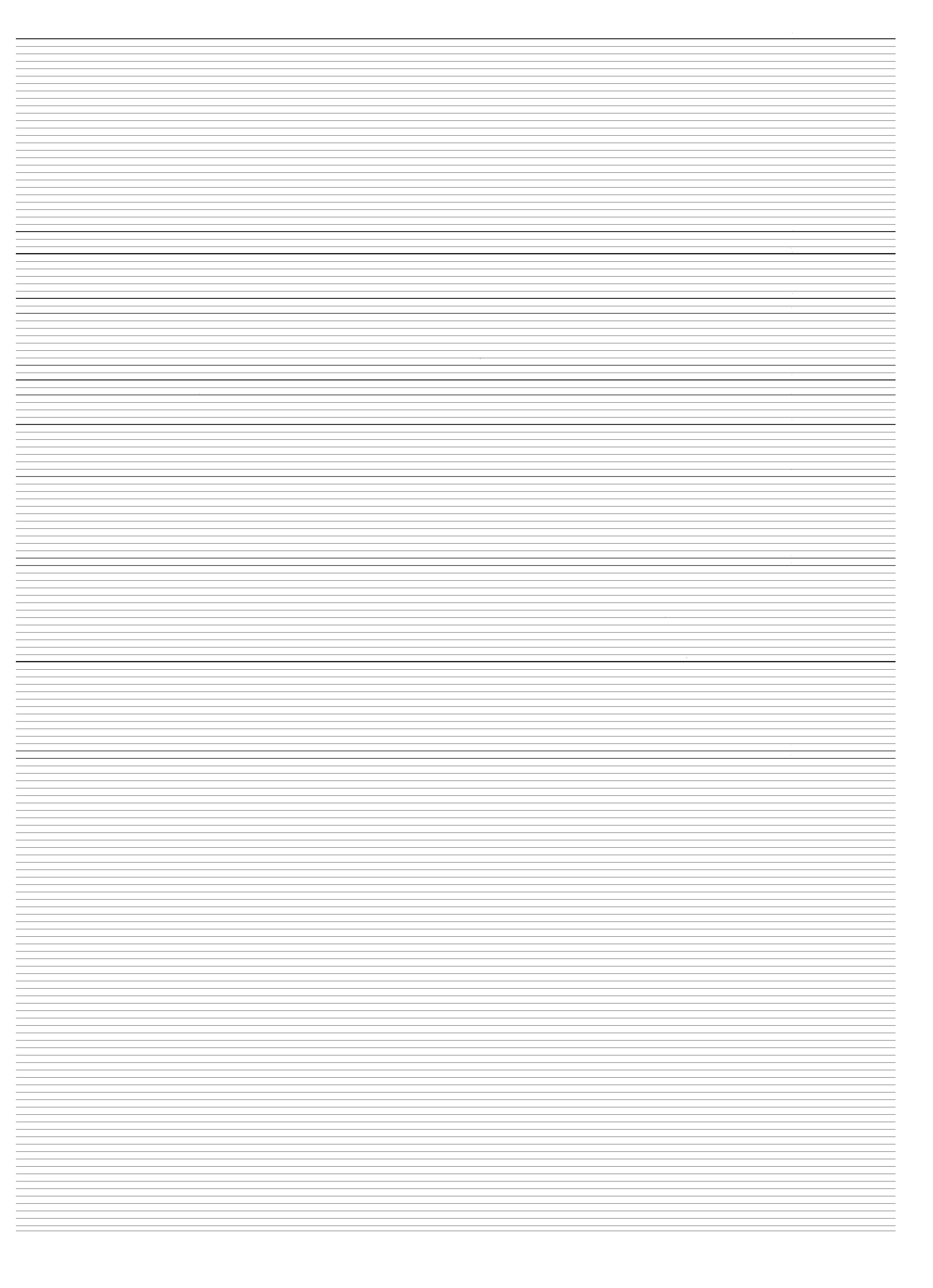
إهداء

إلى الأسرة آباء وأمهات وأقارب وأرحامًا

وإلى الأمة المسلمة أمة الإجابة،

وإلى الأمة فى كل أرض أمة الدعوة،

إليهم هذه المحاولة فى تربية الناشئ المسلم فى البيت.



بين يدى هذه السلسلة

الحمد لله تعالى على نعمه التى أعظمها علينا أن كنا مسلمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه، والسائرين على دربه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن هذه السلسلة: «التربية الإسلامية المعاصرة»[1] تتناول الحديث عن مؤسسات التربية الإسلامية الأساسية، وهى: البيت والمدرسة والمجتمع، كما تتناول الحديث عن الأنموذج التربوى الإسلامى التطبيقى المعاصر الذى أرسى فى المجتمع قواعد هامة من قواعد التربية الإسلامية، كان المسلمون فى أشد الاحتياج إليها، ذلك الأنموذج الذى قدمته حركة الإخوان المسلمين فى مجال التربية الإسلامية منهجًا ووسائل لتطبيق هذا المنهج[2].

ولعل هذا الأنموذج التطبيقى للتربية الإسلامية المعاصرة التى سنته وطبَّقته حركة الإخوان المسلمين فى شُعبها ومدارسها وكان له الأثر الفعَّال فى إحداث اليقظة الإسلامية المعاصرة، لعل ذلك هو الذى جعل أعداء الإسلام فى خارج العالم الإسلامى وفى داخله يوجهون إلى حركة الإخوان المسلمين الضربات تلو الضربات من يوم عبَّرت هذه الحركة عن منهجها ووسائلها فى المشاركة العملية فى الدفاع عن فلسطين ومقدساتها ضد اليهود منذ عام ١٩٣٦م؛ يوم قدمت للفلسطينيين الدعم الأدبى والمعنوى، والدعم المالى والمادى، وإلى أن دخلت كتائب الإخوان المسلمين فلسطين تجاهد فى سبيل الله تعالى وتقاوم اليهود، وتلقنهم دروسًا فى الجهاد وفى الدفاع عن المقدسات الإسلامية، وكان ذلك فى عام ١٩٤٨م، وقد أبلت حركة الإخوان المسلمين فى ذلك بلاء حسنًا وقدمت الشهداء وهى تعلم أنها تحارب اليهود ومَنْ وراءهم من حكومات الغرب التى ترفع شعار الحرية والديمقراطية وعدم الاستيلاء على أراضى الغير بالقوة!!! ومن حكومات الشرق التى تضلِّل الناس بالاشتراكية والشيوعية، والحكومات التابعة لهؤلاء الأعداء تبعية منظورة أو غير منظورة.

كما واجهت حركة الإخوان المسلمين تيارات فكرية وثقافية عاتية موجهة ضد الإسلام؛ فكره وثقافته ودينه ومنهجه ونظامه، كما واجهت إصرار أعداء الإسلام على عزل الإسلام

---

(١) هى ثالث سلسلة فى التربية الإسلامية؛ إذ سبقتها، سلسلة التربية فى القرآن الكريم فى سبعة كتب، و«سلسلة مفردات التربية الإسلامية» فى عشرة كتب، وهذه السلسلة: «التربية الإسلامية المعاصرة» صدرت فى ثلاثة كتب، هذا الكتاب أحدها.

(٢) صدر لى فى ذلك كتابان هما: منهج التربية عن الإخوان المسلمين، ووسائل التربية عند الإخوان المسلمين.

منهجًا ونظامًا عن حياة المسلمين -كما عزل الغرب الدين المسيحى عن الدولة لأسباب معروفة فيمن سموا أنفسهم رجال الدين، وهو أمر لم يرد فى الإسلام على نحو ما فعلت الكنيسة فى المجتمع المدنى الغربى-.

ولقد خُدع مسيحيو الغرب بذلك فانعزلوا بالدين المسيحى عن سياسة الناس ونظام حكمهم، متجاهلين أنهم عملوا على إنشاء دولة يهودية دينية فى قلب العالم العربى هى: إسرائيل!!!

ومنذ شهور من يومنا صرح جورج بوش الابن بأنه يؤيد تأييدًا غير محدود للدولة اليهودية فى فلسطين!!! فلماذا يحارب أى دولة مسلمة تتخذ من مبادئ الإسلام نظامًا؟ إنها سياسة الكيل بمكيالين، وسياسة التفرقة بين الناس لأديانهم وأعراقهم التى تعلن دائمًا أنها ضدها!!!

ولم تكتف حركة الإخوان المسلمين بالجهاد فى فلسطين، وإنما جاهدت الوجود البريطانى المحتل لمصر المسيطر عليها عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا، بما قامت به من جهاد للبريطانيين على طول قناة السويس عام ١٩٥١م، ووجهت إلى قناة السويس فدائييها من طلاب الجامعات وغيرهم، وقامت هناك بأعمال أضرت بالوجود البريطانى فى مصر وكبدته خسائر ليست بالهينة.

- وكان المتوقع بل المرجح أن توجه لحركة الإخوان المسلمين الضربات وراء الضربات، على أن تسبق هذه الضربات حملات إعلامية تشويهية للحركة وللإسلام الذى تدعو إليه وتربى الناس على منهجه ونظامه.
- وكان أول حظر لعمل الجماعة سنة ١٩٤٨م فى مصر بلد منشأ الجماعة؛ لتحول حكومات الظلم بين الجماعة ومنهجها فى تربية الناس ووسائلها إلى ذلك.

ولقد أتى على مصر حين من الدهر كان نشاط حركة الإخوان يمتد فى أكثر من أربعة آلاف مدينة أو قرية، من خلال شُعبها ومدارسها، ومن خلال بيوت أعضائها والموالين لمنهجها دون أن يكونوا أعضاء فيها، ولقد استمر ذلك على مدى عقدين من الزمان من سنة ١٩٢٨م سنة النشأة إلى سنة ١٩٤٨م. وفى خلال هذين العقدين استطاعت حركة الإخوان أن توقظ الأمة الإسلامية، وأن تحيى فيها روح الجهاد، وأن تربى المجاهدين وأن تخوض بكتائبها حربين ضد اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٨م وضد الإنجليز فى قناة السويس عام ١٩٥١م.

- وليس سراً -لأنه يعرفه كثير من الناس- أن حركة الإخوان المسلمين هى التى ربَّتْ وحركت أكثر الضباط الذين قاموا بثورة ١٩٥٢م؛ لأن عدداً منهم كانوا أعضاء فى الجماعة.

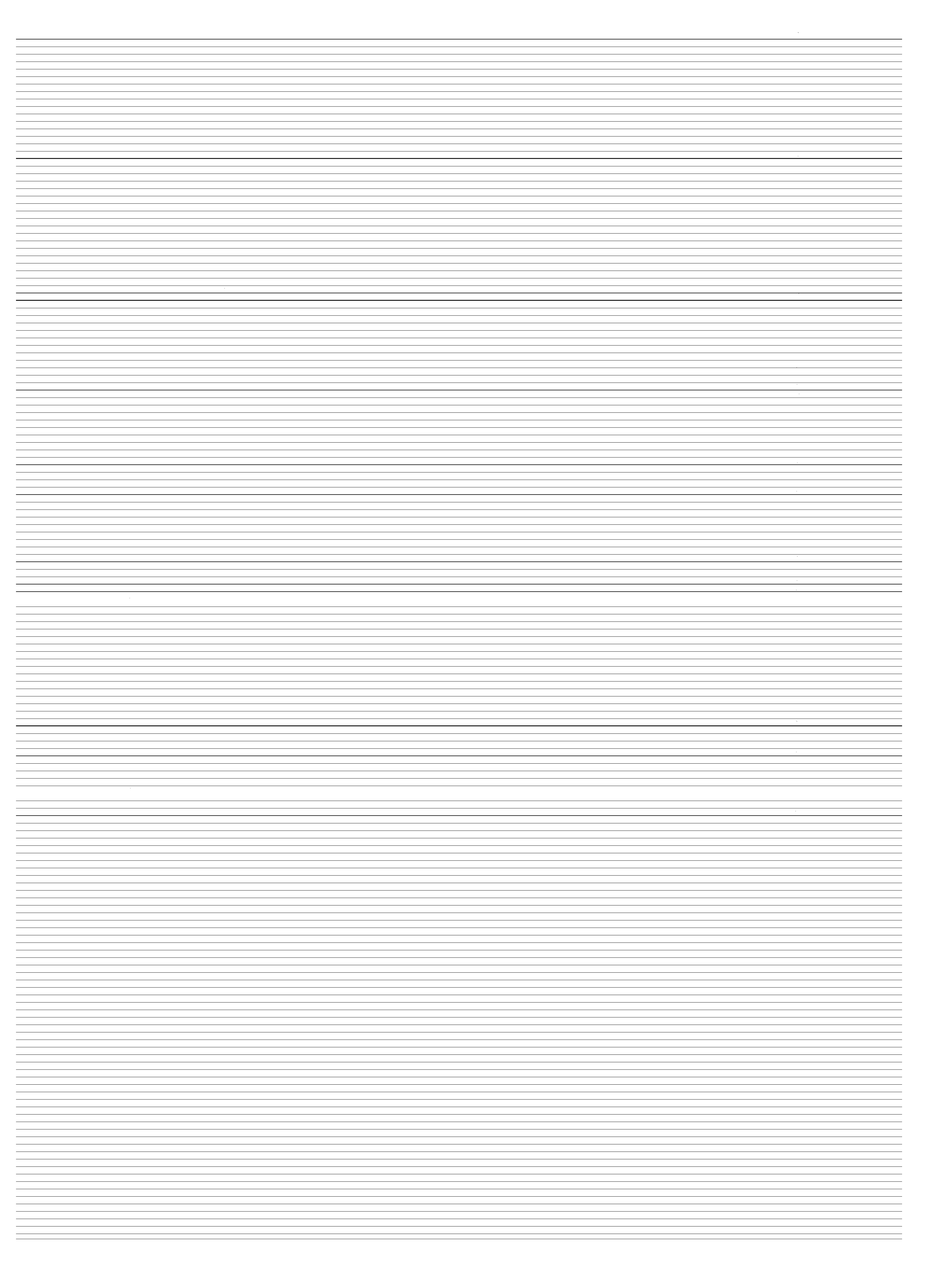
- وليس سراً -لأنه يعرفه كثير من ضباط الثورة- أن حركة الإخوان المسلمين أيدت ثورة ١٩٥٢م وحرستها بكل ما أوتيت من قوة أملاً فى الخلاص من نظام حكم فاسد، ليحل محله نظام حكم يتخذ من الإسلام منهجًا ونظامًا.

- وليس سراً -لأن عدداً غير قليل من الناس يعرفه- أن تحوُّل الثورة عن الإسلام قد ارتبط بعدائها لحركة الإخوان المسلمين بعد أن أفرجت عن مسجونيها فى عهد الملك وفتحت شعبها وسمحت لها بممارسة عملها وفتح شعبها ومركزها العام فى حى الظاهر بالقاهرة، فلفقت لها التهم واعتقلت قادتها سنة ١٩٥٣م - وأعملت قانون حظرها، ثم بطشت بها عام ١٩٥٤م وأعدمت ستة من قادتها بعد محاكمات صورية ساخرة، وتعذيب وقتل لكثير من أعضائها دون محاكمة، ثم عاودت البطش بها عام ١٩٦٥م وحاكمت وأعدمت، وسجنت وعذبت واعتقلت الألوف، وأعلن عبد الناصر عن كفاءته وكفاءة أجهزة القمع عنده أنه اعتقل فى ليلة واحدة ثمانية عشر ألفًا من الإخوان المسلمين، وكان هذا الإعلان فى قبلته الجديدة موسكو بعد التحول إلى الاشتراكية!!!

● وليس هنا مجال الحديث عن هذا التاريخ الذى عايشناه وصبرنا على مجرياته، ولكن المجال هو الحديث عن الأعمال التربوية التى مارستها حركة الإخوان المسلمين فى العالم الإسلامى كله، وليس فى مصر وحدها، من خلال وسائلها المستمرة العازمة المصرة، التى قلتُ عنها فى أول كتاب لى يؤرخ لوسائل التربية عند الإخوان المسلمين، قلت ذلك منذ ما يقرب من عشرين عامًا، قلت: «إن التربية عند الإخوان المسلمين، أشبه ما تكون بقطرة الماء التى تسيل دائمًا أبدًا من منبعها، فهى لابد ملاقية أرضًا صالحة، ومنبتة نباتًا صالحًا -على الرغم من كل العقبات والعراقيل-. وماذا يمنع القطرة فى هدوئها واستمرارها وإصرارها على أن تغادر منبعها، من أن تمضى فى طريقها بنفس الهدوء والإصرار مستعصية على أعتى الضربات وأعنف الحواجز؟

هذه السلسلة: «التربية الإسلامية المعاصرة» فى البيت والمدرسة والمجتمع، عمل أسأل الله تعالى أن يثيبنى عليه على قدر إخلاصى فى إعداده، وبذلى فيه أقصى ما فى وسعى، وما أوتيت من العلم والجهد إلا قليلاً.

●●●●



بين يدى هذا الكتاب

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلوات الطيبات على عبده ورسوله محمد ابن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه والداعين إلى دينه ومنهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا الكتاب: «التربية الإسلامية فى البيت»، موضوعه «تربية الناشئ المسلم»، الناشئ المسلم الذى جاوز حد الصغر، وشب وكبر، إن هذا الناشئ يرادف الشاب -كما تنبئنا بذلك كتب اللغة- ولم يصل بعد إلى سن الرجولة، إن هذا الناشئ يُنشَّأ ويربى فى ظل متناقضات حضارية تملك عليه أقطار نفسه، قبل أن تملأ أقطار أرضه التى يعيش عليها.

إن الناشئ المسلم فى هذا العصر قد أحيط به من كل جانب، بثقافات مضادة ومراجع شائهة، وحضارات مناوئة، وأعداء ألداء، وجملة هائلة من المتناقضات، وكل ذلك يغرقه فى بحر عميق الأغوار متلاطم الأمواج، والمسكين مضطرب فى هذا الخضم، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب إذا أخرج يده لم يكد يراها، وكلما امتدت إليه يد تحاول إنقاذه جذبته يد أخرى، ربما كانت أقوى أو أكثر تأثيرًا وجاذبية.

إن هذا الناشئ المسلم محاط فكريًا بما يغريه ويخدعه، من باطل زائف مبهرج، وتسميات براقة خالبة، وشعارات كاذبة ليس تحتها إلا الأفاعى وسمومها، إنه محاط بكثير مما يصرفه عن دينه ومنهجه وأصالته، ليُلقى به لقمة سائغة، وقنيصة مخدرة فى مخالب صائديه وأفواه أعدائه.

إن التفسيرات التى تُفسَّر له بها الطبيعة المحيطة به، والمجتمع الذى يعيش به بل التى تفسر له بها ذاته، إن هذه التفسيرات لتفرض عليه بما يملك أصحابها من قوة مادية أن يتجاهل بل يتنحى عن تفسير دينه للطبيعة والمجتمع والفرد تفسيراً قيميًا مرتبطًا تمامًا بالعقلانية الواعية التى تقدر غائية المعرفة. إنها تحمله على التنحى عن ذلك؛ لتلقى به فى أتون هذا التفسير المادى غير القيمى، المرتبط دائمًا بتحقيق الملذات والشهوات، والمنتكس بالإنسان عن إنسانيته وكرامته إلى حيوانية لا يليق بها تكريم.

وكلما حاول مصلح أو غيور أن يوضح للناشئ المسلم أو ذويه أن تفسير الإسلام للطبيعة والمجتمع والفرد هو التفسير الصحيح الذى جاء به الوحى وأيده العقل، حورب هذا المصلح

أو ذاك الغيور على الحق، من أصحاب المصلحة المادية وأصحاب الهوى الحريصين على أن يظل الناشئ المسلم متنحيًا عن دينه ومنهجه فى الحياة.

وهذه الحرب -كما يعرف كل متابع لها- تبدأ بتشويه المصلح وتشويه الحق الذى يدعو إليه، والسخرية من هذا الغيور ووصفه بالتشدد والتخلف، والعجز عن مواكبة الحياة والرجعية والعيش فى الماضى وإهمال الحاضر والمستقبل، ولا تزال به هذه الحرب تطارده وتضيق عليه حتى يُغلب على أمره فى كثير من الأحيان.

إن الناشئ المسلم اليوم لم يعد حرًا فى أن يثبت على عقيدته وإيمانه ومبادئه وقيمه، وإنما تُستلب منه هذه الحرية بشكل أو بآخر، حتى يجد نفسه فى كثير من الأحيان مسوقًا إلى عقيدة زائفة وافدة، وإلى مبدأ غريب عنه معادٍ له، وإلى قيم ضارة لحاضره ومستقبله، فأين هى حرية الاختيار وسط هذا الزخم الضاغط العنيف؟

إن أجهزة الإعلام ومؤسساته -على مستوى العالم كله- فى أيدى أعداء الإسلام ومنهجه، وهى مستمرة فى بث سمومها العلمانية،وفى التخذيل عن الدين والتدين، واتهام كل متدين بالرجعية والنكوص، فأين هى حرية الاختيار أمام الناشئ المسلم؟

إن أجهزة الإعلام لها توجهات غير إسلامية بالقطع فى عمومها، وهى بهذا التوجه المعادى للإسلام تقتل عند الناس حرية الاختيار؛ إذ لا تريهم إلا ما ترى، وما تهديهم إلا إلى التخلى عن الدين، وإن المتأبى على ما تنفثه هذه الأجهزة من سموم عليه أن يرضى لنفسه أن يوصف بالرجعى المتخلف العاجز عن مواكبة التقدم والرقى!!!

وقصة الذين يوجهون أجهزة الإعلام ومؤسساته -على مستوى العالم- سردها، فضلاً عن شرحها، يطول؛ لأن أحداثها وأبطالها وحبكتها وحلها أكثر بكثير من أن نقحمها فى هذا التقديم، بل فى هذا الكتاب.

إن الحديث عن الصهيونية العالمية، وبروتوكولات حكماء صهيون، والحديث عن الصليبية الظاهرة أو المقنَّعة، والحديث عن الإلحاد، وكل ما يفرزه هذا الثالوث الخبيث، هو الذى يسيطر على وسائل الإعلام وأجهزته فى العالم كله، وكلها تضغط على المستقبِل، وتحمله على اعتناق ما تدعو إليه حملاً، فأين هى حرية الاختيار أمام الناشئ المسلم، بل أمام ذويه؟

إن القوى المؤثرة فى العالم اليوم فكرياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، تدعو الناس عمومًا والناشئ على وجه الخصوص إلى رفض الدين، ورفض الأسرة، ورفض

الأنظمة، ورفض سلطة الأبوين وسلطة المدرسة، ورفض كل مقتضيات القرابة، ورفض الولاء للمجتمع، وكل ذلك سوف يفضى فى النهاية إلى رفض الذات نفسها.

وإن التشجيع على هذا الرفض يتم بأسماء خادعة براقة، كالحرية الشخصية، والتحرر من القيود، والتخلى عن النظم السابقة والعادات القديمة، والتخلص من التصورات الغيبية، وهجر الإيمان بما وراء المادة والحواس، والناشئ مسير فى كل ذلك لا خيار له، يستجيب لما يدعى إليه، أو يتأبى على ذلك فيجرفه التيار ليلقى به مع الزبد وما يصاحبه من مخلفات الماضى.

إن الناشئ المسلم اليوم بحُسْن نيته وبراءته فى التصور، أو بجهله بحقيقة التحدى الذى يوجه إليه، أو بغفلته عن طبيعة المتناقضات التى تحيط به، يجد نفسه ينحاز ضد دينه ومنهجه ونظامه ومجتمعه وأمته الإسلامية وكل ذلك يجعله -على وجه الحقيقة- ضد تقدمه الحضارى الذى طالبه به الإسلام حين طالبه بأن يعمر الأرض.

إن هذا الكتاب يحاول أن يدل الناشئ المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم على الوسائل والأساليب الملائمة التى تحول بينه وبين الانحراف أمام هذه التيارات، ويَمُدُّه بمصادر المعرفة الصحيحة التى يغذى بها قلبه وعقله، ويرسم له الأبعاد التى ينبغى أن تكون فيها حركته، وهى أبعاد المنهج الإسلامى الشامل المتكامل، الذى يلتمس فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته، ذلك المنهج الذى يضمن للناشئ المسلم، بل لكل مسلم، أن يشق طريقه اللاحب فى حياته الدنيا، محققًا المطالب المشروعة لروحه وعقله وجسده فى غير إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا مخيلة.

إن هذا الكتاب يحاول بعون من الله وتوفيق، أن يؤكد أن منهج الإسلام فى تربية الناشئ والكبير، قد عُنى بكل مراحل حياة الإنسان، حتى قبل أن يولد، عناية تستهدف صالح دنياه وأخراه.

إنه المنهج الذى وضع معايير ثابتة لاختيار من ستكون أمًا للأولاد، ومعايير صحيحة لتربية الأولاد، من يوم أن يستهل الوليد فيؤذن أبوه فى أذنه اليمنى ويقيم فى أذنه اليسرى، ثم يتعهده بالرعاية والتربية وهو ينمو حتى يصير رجلاً. إن تلك هى عظمة المنهج التربوى فى الإسلام.

إن هذا الكتاب سوف يوضح -بإذن الله- للأبوين كيف يرعيان الأبناء، وكيف يتعهدان الناشئين والشباب، وسوف يشير لكل مسلم إلى أسلوب فى تربية الذات -بحيث يربى نفسه بنفسه- وفق برنامج إسلامى للتربية الذاتية لا يوازيه -فضلا عن أن يساويه- برنامج من وضع البشر، برنامج يقوم على قاعدة عريضة وصلبة فى التربية هى قاعدة: ﴿بَلِ

الإنسانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] وتحت مظلة مترامية الأبعاد عمودها: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم».

إن هذا الكتاب سوف يبرز لكل من يتولى أمر غيره من الناس، أن منهج الإسلام فى تربية الآخرين ينادى على المربين بنص قرآنى كريم هو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وبنص نبوى كريم يقول فيه المعصوم ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته»(١).

إن هذا الكتاب ينبه كل حاكم مسلم فى أى بلد من بلاد المسلمين إلى أن الدين النصيحة، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ثم يدمج لهم هذه النصيحة فى كلمات قرآنية خالدة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ٢٠].

إن هذا الكتاب يريد أن يقول للمسلمين جميعًا فى كل مكان وفى هذا الزمان وفيما يأتى من الزمان: إنه لا منجى لكم من هذه المهالك التى تحيط بكم إلا بأن تأخذوا بكل ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الأخذ بذلك هو الذى يحول بين المسلمين وبين الضلال، ويكشف لهم كيد الأعداء، ويضمن لهم سعادة المعاش والمعاد.

ألا ما أكثر ما يريد أن يقوله هذا الكتاب!!! ولكن حسبنا أن نركز على ما فيه نفع الناشئ المسلم؛ فهو مستقبل الأمة الإسلامية، وربان سفينتها نحو شاطئ الأمن والأمان، نحو الصراط المستقيم، صراط الله الذى لا يزيغ عنه إلا هالك، إن صراط الله هو الطريق الذى تعترضه سبل كثيرة، على رأس كل طريق منها شيطان يدعو إلى باطل، ويزينه ويصرف عن صراط الله ويقيم أمامه العراقيل.

حسبنا من هذا الكتاب أن تكون هذه نيتنا، وعلى الله قصد السبيل، ولو انتفع بما فيه واحد من الناس فحسب، لكان ذلك عندنا خيرًا من حمر النعم.

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن.

الباب الأول

الإسلام والأسرة

ويتناول:

التمهيد.

الفصل الأول: أهمية الأسرة في بناء المجتمع المسلم، ويشمل:

١- بنية المجتمع المسلم.

٢- وسِمات المجتمع المسلم وخصائصه.

٣- وأهداف المجتمع المسلم.

الفصل الثاني: رعاية الإسلام للأسرة، ويشمل:

١- تكوين الأسرة المسلمة.

٢- ومكانة الأسرة في الإسلام.

٣- وأهداف الأسرة المسلمة



التمهيد

بعون من الله سبحانه نحاول فى هذا الباب أن نوضح موقف الإسلام من الأسرة وكيف تحتل فى منهجه ونظامه مكانة عليا تجعل منها اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع المسلم.

كما نوضح أن منهج الإسلام فى تنظيم الحياة الاجتماعية يعتبر الأسرة فى تكوينها الصالح القائم على مبادئ الإسلام الاجتماعية، علامة بارزة على أن المجتمع المسلم قد استوفى أهم خصائصه وسماته، وشرع يشق بذلك طريقه نحو تحقيق أهدافه فى الحياة الإنسانية.

إن الإسلام وهو يبنى المجتمع من الأسرة، يضع للأسرة أحكم النظم وأرقاها وأدقها فى التفاصيل، من حيث الزواج والمعاشرة وحقوق جميع أفراد الأسرة وواجباتهم، من حيث الميراث والطلاق والخلع، وغير ذلك من الأحكام العادلة التى تضمن للأسرة حياة اجتماعية جيدة.

هذه الأسرة بتلك النظم والضمانات هى التى يتكون منها المجتمع فالأمة فى ظل أحكام عادلة تخص كلا منهما، وكل هذه الوحدات: الأسرة والمجتمع والأمة إنما ينسج الإسلام خيوطها من أسس ركينة من العقيدة والعبادة والمعاملة، العقيدة الصحيحة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، والعقيدة الصحيحة فى الإنسان والشيطان والحياة نفسها، والعبادة السليمة وفق ما شرع الله، والمعاملات بين الناس وفق شريعة الله ومنهجه ونظامه، سواء أكانت هذه المعاملات بين المسلمين أم بينهم وبين غيرهم من الناس.

إن الفرد والأسرة والمجتمع والأمة لا يمكن أن يمارس أحد منهم حقوقه وواجباته فى هذه الحياة الدنيا بعيداً عن منهج الإسلام الذى يقوم على تلك الدعائم الصحيحة، فى العقائد والعبادات والمعاملات، وإلا فإنه يخسر دنياه وآخرته باتباعه غير سبيل المؤمنين.

إن المجتمع المسلم له بنية أساسية تكونه، هى مجموعة الأسر المسلمة، وله خصائص وسمات تمايز بينه وبين غيره من المجتمعات، وهذه الخصائص والسمات تبدو أوضح ما تكون فى أنه يخضع لمنهج عادل؛ لأنه من صنع الله لا من صنع الناس، وأن هذا المنهج فيه من المبادئ العامة المرنة ما يمكنه من تلبية احتياجات البشرية كلها فى كل زمان ومكان، بشرط أن تكون متوازنة ولا تطغى فيها حاجة على حاجة.

إنه منهج يمكن تفصيل كلياته وعمومياته إلى أقصى درجات التفصيل، بحيث يشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى، فى أى زمان وأى مكان.

وسنحاول فى هذا الباب من الكتاب أن نحدد أهداف المجتمع المسلم الذى بنى من هذه الأسرة، وهى أهداف يمكن الإشارة إليها فى خطوط عريضة هى: معرفة الله سبحانه وتوحيده وعبادته وفق شريعته، والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم نبين مدى رعاية الإسلام للأسرة، تلك الرعاية التى فاقت كل رعاية عرفتها البشرية فى ماضيها فى مجال الأديان والنظم والحضارات، الرعاية التى تناولت كيفية بناء الأسرة، واختيار عناصرها الأولى - الزوجين - وفق معايير ثابتة، لا تنخدع بالعرض عن الجوهر، ولا بالشكل عن الموضوع، فإذا بنيت الأسرة على هذا النحو فإن الإسلام يضعها فى أرفع مكانة فى المجتمع، ويحيطها بكل أسباب القوة والنماء، ويغذيها بالقيم والمبادئ والمعانى، فضلاً عن تغذيته إياها بكل ما يلزمها من ماديات الحياة، ويهتم بكل فرد من أفرادها اهتمامًا كبيرًا؛ بحيث يضمن لجميع الأفراد فيها الصحة النفسية، والصفاء الروحى، والصحة العقلية، والرفاهية الاجتماعية، والقدرة على العطاء والإنتاج.

وكما يوضح الإسلام للمجتمع أهدافه، كذلك يفعل بالأسرة فيرسم لها أهدافها بدقة ووضوح، وربط وثيق بين المعاش والمعاد؛ بحيث يحقق لها سعادة الدنيا والآخرة.

هذه جملة ما نود أن يفسره هذا الباب الأول من الكتاب، وعلى الله قصد السبيل.

••••

الفصل الأول

أهمية الأسرة فى بناء المجتمع

١- بنية المجتمع المسلم

ونعنى بالبنيـة: البناء أو البنيان الذى يـقوم عليه المجـتمع، وهذا البنـاء أو الأساس هو الأسرة بحيث يصح لنا أن نقول:

إن لم تكن أسرة فلا مـجتمع، وإن لم تكن أسرة فلا أمة، وإن لم تكن أسـرة فلا حياة إنسانية لائقة بالتكريم الذى كرم الله سبحانه به بنى آدم.

إن المجتمع المسلم له أسـاس - أى قاعدة بناء يقوم عيهـا بناؤه - وله لبنات يتكون منها هذا البناء.

ونحاول هنا أن نحدد هذه الأسس وتلك اللبنات.

أما الأسس التى يقوم عليها المجتمع المسلم فـهى فى إيجاز شديد - لا مجال لتفصيله - ما يلى:

١- العقيـدة الصحيحة فى الله، وفى الكون، وفى الحيـاة، وفى الإنسان، والشيطان، وفى ملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

٢- والعبـادة السليـمة لله سبـحانه وتعـالى وفق ما شـرع، والتى تستـوجب طهارة الـبدن والقلب، والنطق بالشهادتين، والعمل بمقتضـاهما، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

٣- والتعامل وفق النـظم والقيم والمبادئ التى أقرتها الشـريعة الإسلاميـة فى كل ما يتصل بالناس من عقود، وما يسودهم من آداب وثقافات.

٤- وممارسة العدل والإحـسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهـاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

٥- والأخذ بمبدأ ممـارسة الحقوق وأداء الواجبـات بين أفراد الأسرة الواحدة والأسـر كلها، والمجتمع فى مختلف قطاعاته، بل المجتمع المسلم مع غيره من المجتمعات.

٦- والالتزام بالدعوة إلى الله إلى هذه المبادئ كلها؛ بحيث تبلغ للناس جميعًا وفق منهج الدعوة إلى الله الذى يقوم على: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

٧- والالتزام بتربية الناس وفق هذا المنهج ومبادئه عن طريق الكلمة والقدوة والمؤسسة والمدرسة والمسجد.

تلك هى الأسس التى يجب أن يقوم عليها بناء المجتمع المسلم.

أما اللبنات التى يتكون منها هذا البناء فهى على الترتيب التالى:

١- الأسرة: وهى الوحدة الاجتماعية الأولى فى المجتمع، وهى التى يتم عن طريقها حفظ النوع الإنسانى كله، وهى فى أبسط صورها: رجل وامرأة تربط بينهما علاقة زواج شرعى، وما ينتج عن هذا الزواج من أبناء.

وما يسود هذه الأسرة من قيم أخلاقية جاء بها الإسلام، ليلتزم بها جميع أفراد الأسرة.

وما يحكم هذه الأسرة من نظم وقوانين جاءت بها الشريعة الإسلامية، فى كل ماله علاقة بهذه الأسرة ومن يتعامل معها.

٢- والجماعات التى تتكون من مجموعة من الأسر، على ما بين أسماء هذه الجماعات من تنوع.

وما يسود هذه الجماعات من قيم أخلاقية جاء بها الإسلام.

وما يحرك هذه الجماعات من دوافع، وما يرغبون فى تحقيقه من أهداف، وما تلجأ إليه من وسائل، بشرط أن يكون كل ذلك مما يقره الإسلام ويرضاه.

وما ينتشر بين هذه الجماعات من ثقافات.

وما تمارسه هذه الجماعات من أعمال وتعاملات، فى حدود ما شرع الله سبحانه أمرًا أو نهيًا أو ندبًا أو إباحة.

٣- والأفراد الذين انفرطوا من عقد الأسرة لأن الظروف لم تمكنهم من الإسهام فيها؛ لأمور خرجت عن إرادتهم، فهؤلاء يعتبرون من لبنات المجتمع كالأسر والجماعات، وما ينبغى تجاهل إسهامهم فى بناء المجتمع ماداموا ملتزمين بأدب الإسلام وأخلاقه.

هذه هى لبنات المجتمع المسلم التى يجب أن تلتزم كل منها بشريعة الإسلام، وأن تعرف من خلال هذا الالتزام أهدافها ووسائلها، وسياساتها فى ممارسة الحياة.

كل لبنة من هذه اللبنات ينبغى أن تمارس حياتها فى ظل المنهج الإسلامى بين طرفين رئيسين هما:

أداء الواجبات.

وممارسة الحقوق

إذ الأصل أن يؤدى كل فرد من هؤلاء جميعًا واجباته كاملة فى حدود ما يستطيع إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها - وأن يمارس حقوقه جميعًا، إلا أن يتنازل عن بعضها سماحة منه لأحد الناس.

إن هذا المجتمع المسلم القائم على تلك الأسس وهذه اللبنات، لا يعترف بحال بالتناقضات الشائعة فى كثير من المجتمعات ذات الأنظمة الرأسمالية أو الاشتراكية أو غيرها، وإنما يسوده الوئام والتوازن والانسجام بديلاً عن هذه التناقضات.

إن المجتمعات البشرية التى قامت على أنظمة غير إسلامية قديمًا أو حديثًا، اعتمدت التناقض بين طبقاتها وفئاتها أساسًا من أسس قيامها واستمرارها، ولابد لنا - لكى تتضح هذه الصورة - من ضرب بعض الأمثلة:

* إن الشيوعية الأولى - التى يزعمون - والتى لا يكاد يصدق بها عقل عاقل؛ حيث يرددون أن البشرية كانت تعيش حياة حيوانية، ثم انتقلت من هذه المرحلة الحيوانية إلى الشيوعية الكاملة إذ اشترك الناس فى الملكية وفى الجهد المبذول وفى التمتع بثمرة هذا الجهد!!!

والتى يزعمون أنها انتهت بمعرفة الإنسان للزراعة واستئناسه للحيوان، وهذه مزاعم كلها غير معقولة أولاً، ولم يقم عليها دليل من تاريخ الإنسان ثانيًا، ثم - وهو الأهم - إنها تتناقض مع المعلومات والمعارف الإسلامية التى تجعل حياة البشر على هذه الأرض مبتدئة بآدم أبى البشر عليه السلام، حيث خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها، وهو الذى شق للبشرية طريق الحياة الاجتماعية، ولم يكن حيوانًا ثم استأنس الحيوان!!!

* ونظام الرق واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، هو من النظم الاجتماعية التى تعد وصمة عار فى جبين الإنسانية بكل مقياس من المقاييس، إذ الناس أصلاً لأب واحد وأم واحدة.

وإن التأمل فى نظام الرق يوقع العين والقلب على ما يُخْزِى ويزرى، حتى عند تلك الدول التى تشامخت وادعت لنفسها مكانة فى الحضارة عريقة كالأمة الرومية مثلاً، فقد كان نظامها الاجتماعى يقوم على أساس أن المجتمع طبقتان: أحرار وعبيد، ولكل طبقة منهما قانون ينظم حقوقها وواجباتها. وقد بلغ من هوان أمر العبيد - فى هذه الأمة المتحضرة - أن كان الأحرار يلقونهم فى حلبات مصارعة الأسود الجائعة، ليتسلى الأحرار ويرفهوا عن أنفسهم ساعة من نهار!!!

كما كان الأرقاء يقومون بكل الأعمال الشاقة المضنية، ثم لا يجدون بعد هذا العناء مكانًا يهجعون فيه يليق بالإنسان، إذ كانوا يرمون فى كهف يقوم عليه حراس غلاظ الأكباد، يلهبونهم بالسياط لسبب أو لغير سبب، بل كانوا يعاقبون بالجلد والصلب لأتفه الأسباب.

وظل أمر هذه الحضارة على هذا النحو حتى قامت ثورة العبيد، التى سببتها المعاملة الوحشية القاسية التى انعكست على قلة الإنتاج وسُوئه، وبهذه الثورات انتهى عهد الرق والعبودية نسبيًا أو شكليًا، ليحل محله نظام اجتماعى لا يقل عنه سوءا هو نظام الإقطاع.

* ونظام الإقطاع نظام اجتماعى ظالم، يقوم على تقسيم المجتمع إلى أغنياء وفقراء، وعلى تحكم الأغنياء فى الفقراء، والأغنياء هم أصحاب الأرض أو الإقطاع والفقراء هم الذين يفلحون الأرض.

ويلتزم فالح الأرض أو المنتج نحو سيده ومولاه بأداء واجبات بعينها كالخدمة فى الأرض أو فى غيرها كمصنع يملكه صاحب الأرض، كما يلتزم بدفع قدر من المال لصاحب الأرض نقدًا أو عينًا.

وكان هؤلاء العمال أو الفلاحون هم بقايا العبيد بعد ثورتهم، وكان لهم الحق فى حيازة مساحة بعينها من الأرض يزرعونها أو يمارسون فيها بعض الصناعات الزراعية؛ ليعيشوا وليدفعوا لصاحب الإقطاع.

ولم يكن هذا وحده هو واجب الفلاحين، وإنما كان عليهم إلى جانب ذلك واجبات أخرى من أهمها ما يلى:

١- خدمة يوم من كل أسبوع فى أرض السيد مع الآلة والماشية دون مقابل.

٢- والخدمة الإضافية فى المواسم الزراعية والحصادية فى أرض السيد دون مقابل كذلك.

٣- وتقديم الهدايات للسيد فى الأعياد والمناسبات.

٤- والالتزام بطحن الغلال وعصر الكروم فى مطاحن السيد ومعاصره.

٥- والرضا بحكم السيد فى المنازعات، إذ هو القاضى والحكم.

وفى مقابل كل ذلك، ليس على السيد أو الإقطاعى إلا شئ واحد، هو الدفاع عن هذا العامل أو الفلاح إذا حدث عليه اعتداء. وكان الإقطاعيون ملاك الأرض أو الإقطاعيات إما من رجال الكنيسة، أو من العلمانيين، ولم يكن الإقطاعى غير ظالم حتى ولو كان من رجال الكنيسة. ولم يكن هذا النظام الإقطاعى أو نظام الرق وقفًا على الدولة الرومية، ولكنه تسرب إلى كثير من أقطار الأرض.

وفيما يتصل بتاريخنا معشر المسلمين حيث بدأ الإسلام أولاً فى الجزيرة العربية، يهمنا أن نقول: إن الإسلام جاء وفى الجزيرة العربية رواسب من نظام الرق وبقايا من نظام الإقطاع، حيث كان يسود الجزيرة نظام اجتماعى بدوى يقوم على الترحال، ويسوده عدم الاستقرار فى مكان ثابت طوال العام - إذا استثنينا بعض المدن الكبرى المستقرة نسبيًا كمكة والطائف وغيرهما - وتحكمه قيم وعادات تستدعيها طبيعة الحياة.

فلما منّ الله على البشرية بالإسلام، وخطا الإسلام خطواته الأولى على أرض الجزيرة العربية، جاء بنظام اجتماعى، عالج هذين الخطرين: الرق والإقطاع علاجًا منطقيًا جيدًا، أما الرق فقد قضى عليه الإسلام بتجفيف مصادره ومنابعه، وحارب استحداثه إلا معاملة بالمثل فى أسرى الحرب، وجعل كثيرًا من الكفارات عتق رقبة، وأما الإقطاع فإن الإسلام لم يقر شيئًا مما جاء به، ومع ذلك عالج آثاره بنظام التوريث الذى يفتت الثروة فى عدد كبير من الورثة، وبالنظام الأخلاقى الإسلامى الذى يحرم أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان دون مقابل من عمل أو مال ودون عقد يكتنفه الإيجاب والقبول ولا يتضمن شيئًا حرّمه الله.

* ثم عرفت أوربا - الوسيطة - نظامًا اجتماعيًا متأخرًا فى التاريخ نسبيًا (القرن الحادى عشر الميلادى - قرن بداية الحروب الصليبية ضدّ الشام ومصر التى استمرت قرنين من الزمان ٤٩٢هـ إلى ٦٩١هـ)، هذا النظام الذى عرفته أوربا هو النظام الرأسمالى فارةً به من نظام الإقطاع وما جلبته عليهم الكنيسة به من مآسٍ وآلام.

والنظام الرأسمالى الأوربى فى تلك الآونة متأثر دون ريب بنظام الإسلام الاجتماعى، بعد أن احتك بالمسلمين فى هذين القرنين من الزمان، فقد تعامل الأوربيون مع المسلمين فى

تجارات وأعمال كثيرة مما تسبب فى نشأة مدن تجارية ضخمة كالبندقية وغيرها، التى ازدادت ثروة تجارها واتسع نفوذهم، مما حدا بهذه المدن وأهلها إلى التخلص من سيطرة النظام الإقطاعى، وأن تنشط فى داخلها كثير من الحرف والصناعات التى مارستها الطبقة «البرجوازية»، التى كان على يديها القضاء على نظام الإقطاع.

على أن النظام الرأسمالى تأثر - فى تصورنا - بنظام الإسلام من حيث حق الملكية وحق الإرث وحق الاستثمار الفردى، وتحريم الظلم واستغلال جهود الناس دون مقابل، غير أن أوجه الشبه هذه لا تقرب النظام الرأسمالى من النظام الإسلامى؛ لأن الرأسمالية عالجت جانبًا على حساب جانب - إذ أقرت الربا والاحتكار - فى حين أن النظام الإسلامى عالج جميع الجوانب، مع تقديره واحترامه لكل جانب من جوانب حياة الإنسان واحتياجاته.

ولقد ظل هذا النظام الرأسمالى يستبد بالأفراد شيئًا وراء شىء، حتى غلب عليه الاحتكار وتسخير العامل من أجل صاحب العمل، وحرمان العامل من بعض حقوقه لتضاف إلى حقوق صاحب العمل.

وعندئذ تعالت الأصوات تنادى بوضع حد لهذا الصراع، ومما عاون على ذلك أن كبار أصحاب الأعمال أخذوا يتنافسون فيما بينهم على الاستيلاء على المواد الأولية، ثم انتقلت هذه المنافسة من أصحاب الأعمال إلى الدول الأوربية نفسها، وزاد أُوَارُ هذا التنافس فأنتج حربين عالميتين ضاريتين هما الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م - ١٩١٨م والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م - ١٩٤٥م، ولم يكن لهما سبب أقوى من رغبة بعض بلدان أوربا فى التوسع المكانى على حساب بلد آخر.

وقد أدى هذا إلى اتجاه بعض دول أوربا - كإنجلترا - إلى النظام الاشتراكى لدى بعض أحزابها ومفكريها؛ هروبًا من عيوب الرأسمالية.

كما اتجهت روسيا القيصرية إلى الماركسية أو الاشتراكية أو الشيوعية منذ نجحت ثورتها «البلشفية» عام ١٩١٧م.

على أنّ الماركسية أو الاشتراكية لم تستطع أن تقدم للإنسان نظامًا يحقق العدل والمساواة والحرية - كما زعموا - بل قدمت ما هو عكس ذلك، بدليل أن نمط المعيشة الذى هيأته للمواطنين كان أسوأ الأنماط، وقهر الإنسان وإذلاله وحرمانه من حقوقه الأصيلة كحق التملك

للأرض وحق التعبير عن الرأى، كل ذلك كان أوضح ما يكون وأسوأ ما يكون فى ظل ممارسات الحزب الواحد فى الاتحاد السوفيتى، على مدى أكثر من سبعين عامًا، بشهادة الشيوعيين أنفسهم؛ وبشهادة كثير من الهيئات والمنظمات العالمية، ثم بشهادة الاتحاد السوفيتى نفسه؛ بدليل عدوله عن الشيوعية والاشتراكية معًا، والأخذ بنظام هدم البناء نفسه الذى أسموه إعادة البناء، والأخذ بمبدأ إعلان الكفر بالشيوعية والاشتراكية الذى سموه التفكير بصوت مسموع. إن جوهر إعادة البناء والتفكير بصوت مسموع هو التراجع الكامل عن هذا النظام الاجتماعى الذى أدَّى بروسيا إلى دحر الإنسان وتحويله إلى ترس أصمَّ فى آلة صماء لا إرادة له ولا ملكية، ولا تنافس فى إتقان العمل، ولا أمل فى حاضر أو مستقبل.

وما إن فعلت روسيا هذا حتى بادرت كل دول أوربا الاشتراكية تحذو حذو أمها، وكان ما كان مع «شاوشيسكو» ونظرائه، من عتاة الظالمين باسم الاشتراكية.

وليس ما جاءت به الاشتراكية أو الماركسية من دعوى إنصاف العمال الكادحين إلا سرابا خادعًا، سريعًا ما وضح خداعه فى ممارسة الأحزاب الشيوعية، من تعذيب وتشريد ونفى، وكتم لكل صوت غير صوت صنم سموه الشعب - أى الحزب أو الحاكم - وكان الويل كل الويل لأعداء الشعب ممن يضيقون بالظلم والقهر، لقد صنفوهم ثورة مضادة للشيوعية والاشتراكية والحزب والزعيم!!! وكان فى مجاهل سيبريا وأمثالها مثوى لهم.

والذى أحب أن أؤكده هنا - وفى كل ما كتبت - أنه ليس فى الإسلام شئ يسمى الاشتراكية، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المضمون، وأن كل ما زعمه بعض الكتاب المسلمين - غفر الله لنا ولهم - من: «اشتراكية الإسلام» ونحو ذلك، إنما هو تقية لأنظمة حكم باطشة ارتمت فى مستنقع هذه النظم، ثم توعدت من لم يُحَسِّنْ لها هذا الصنيع.

إن الاشتراكية كانت كالرأسمالية تعالج جانبًا على حساب جانب من حياة الإنسان، هذه تطحن الفرد من أجل صاحب المال، وتلك تطحن الفرد أيضًا من أجل الحزب والحاكم المطلق المسيطر على الحزب، فلا الفرد يستفيد منهما شيئًا، ولا المجتمع نفسه يستفيد شيئًا.

كما أحب أن أؤكد أنه ليس بصحيح بحال من الأحوال أن يقول أحد من الناس واعيًا بما يقول يأخذ بمذهب التقية، أو غافلاً عما يقول: بزعم أن الإسلام قد جاء بأحسن ما فى الرأسمالية وأحسن ما فى الاشتراكية أو الشيوعية، إن هذا الزعم مردود شكلا وموضوعًا، أما الشكل فإن هذا الزعم يعطى لهذه الأنظمة أصالة وسيادة يجعلانها مصدرًا يؤخذ منه،

وهذا ليس بصحيح؛ لأن كلا منـهما إنما هو رد فعل لتيار معـاند سابق، فأين هى الأصالة وأين هى السيادة؟

وأما المضمون، فإن الإسلام نظام اجتمـاعى خضع لمنهج وضعه الله لعباده، وبلغهم إياه عن طريق رسوله ﷺ، وبديهى أن ما وضعه الله مختلف تمامًا عما يضعه الناس.

إن المجتمع الإسلامى الذى وَضَـعَتْ أُسسَه - على النحو الذى أشرنا إليـه آنفًا - شريعة الله - مجـتمع مكتفٍ بنظامه عن الحـاجة إلى أى نظام، ومـستغنٍ بمنهـجه عن كل منهج، وقادر وحده على أن يكفل للناس حياة إنسانية كريمة، يحققون فيها سعادة الدارين.

إن الأسس التى جاء بها الإسـلام فى نظامه الاجتمـاعى، من عقيدة وعبـادة، ومعاملة وعدل وإحـسان، وأمر بمعـروف ونهى عن منكر، وجهـاد فى سبيل الله، وأداء للواجـبات وممارسة للحـقوق، والتـزام بالدعوة إلى الله، وتربيـة الناس وفق منهجـه ونظامه، إن هذه الأسس التى جاء بها الإسلام لا تستطيع أن تدانيها نظم، فضلاً عن أن تساويها.

وإن اللبنات التى يتكون منها بناء النظام الاجتماعى الإسلامى من أسر وجماعات وأفراد فى ظل أدب الإسلام وأخلاقه ومنهجه ونظامه وكـفالة الحقوق والالتزام بأداء الواجبات -إن هذه اللبنات- هى أقدر على الفاعلية والإنتاج وصناعة الحياة الإنسانية الكريمة.

وسوف تزداد هـذه الأسس وتلك اللبنات وضوحًـا ، فى حديثنا عن سـمات المجـتمع المسلم وخصائصه وأهدافه بإذن الله تعالى فى بقية هذا الفصل الأول.

●●●●

٢- سمات المجتمع المسلم وخصائصه

المجتمع المسلم أو الإسلامى مجتمع كوّنه رسول الله ﷺ بنفسه، وبناه بيده على النحو الذى أوحى به إليه رب العالمين سبحانه فكان بحق مجتمعًا أنموذجًا للإنسانية كلها فى عهده ﷺ وفى العصور التى تلت عهده، وفى كل عصر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

إن الإسلام جاء والبشرية كلها لم تكن حظيت بمجتمع خال من التناقضات والصراعات، وكل دين سبق دين محمد عليه الصلاة والسلام حاول أن يخفف من هذه التناقضات ما وسعه وما شاء الله لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولكن نبيًا من أنبياء الله السابقين لم يستطع، ولم يرد له الله سبحانه أن يبنى المجتمع المتكامل، لأن الدين المتكامل الخاتم لم يكن قد أوحى الله به من بعد إلى محمد خاتم أنبيائه ورسله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ولما أراد الله للبشرية أن تبلغ نضجها الروحى والعقلى، وللمجتمع الإنسانى أن يكون على أرقى مستوى ممكن أرسل محمدًا خاتم أنبيائه ورسله عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه خاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله سبحانه، كى تدين به الإنسانية جمعاء.

إن المجتمع الذى أقامه محمد ﷺ وفق منهج الله ونظامه، وهو المجتمع الذى استطاع فيما يقارب نصف قرن من الزمان أن ينشر مبادئه وما تتضمنه من عقائد وعبادات ومعاملات وعدل وإحسان وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وجهاد فى سبيل الله، فيما يقرب من نصف الكرة الأرضية المعروفة آنئذ، ولم يكن ذلك إعجازًا وإنما كان ميسرًا بفضل الله والالتزام بمنهج الإسلام فى بناء المجتمع الراشد.

إن هذا المجتمع الذى حقق هذا، والذى نقل الناس من ضلال المعصية إلى هدى الطاعة، هو الذى عاش حقيقة ماثلة فى الواقع، على عهد النبى ﷺ وصحابته وتابعيهم وتابعى التابعين - أى فى القرون الثلاثة الأولى، التى كانت خير القرون كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ.

إنه المجتمع القادر على أن يكون حقيقة ماثلة فى أى عصر من العصور، وفى أى مكان من دنيا الناس، فالعبرة فى وجوده الحقيقى بالتزامه بمنهج الإسلام، وليست العبرة فى الذين يتمسكون بهذا المنهج من حيث عرقهم أو قوميتهم، وإنما كل قبيل من الناس أسودهم وأحمرهم وأصفرهم يستطيعون إذا آمنوا بالله وصحت عقيدتهم وسلمت عبادتهم والتزموا

بمنهج الله فى الحياة، أن يكوّنوا هذا المجتمع المثالى الأنموذج دون تقيد بزمان بعينه، أو بمكان دون سواه، أو بأشخاص بذواتهم.

إن هذا المجتمع الإسلامى له سمات أو خصائص، هى التى تمكنه دائمًا من أن يكون الأنموذج المحتذى.

وسوف نحاول فى هذه الصفحات أن نوضح تلك السمات والخصائص؛ لعل المسلمين يعون ويدركون كيف يمكن أن تدين لدينهم الدنيا كلها، لو أنهم التزموا منهج الله فى الحياة، وتأملوا هذه السمات والخصائص التى تمايز بين مجتمع المسلمين وغيره من المجتمعات.

السمة الأولى للمجتمع المسلم:

سمة المجتمع المسلم الأولى أنه مجتمع مؤمن، أى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وفق ما جاء به خاتم المرسلين محمد ﷺ.

مجتمع يؤمن بذلك إيمانًا نابعًا من القلب والعقل والتصور الصحيح لوظيفة الإنسان فى الحياة الدنيا، وهى أنه خليفة عن الله فى الأرض ليعمرها وفق منهجه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

إنه مجتمع الإيمان الإيجابى الفاعل القادر على أن يعمر الحياة الإنسانية أفضل ما يكون الإعمار وفق أسلوب عمل لا يقصد به إلا وجه الله، كما ورد ذلك فى كلام المعصوم ﷺ فيما رواه النسائى بسنده: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه**»[(١)].

ولا إيمان ما لم يكن مقرونًا بالعمل الصالح؛ لأن الإيمان بغير عمل مجرد أمانى وأكاذيب عارية من أن تجد مصداقية لها من العمل، وإن العمل الصالح وفق معايير الصلاح فى الإسلام ليكفل للناس كل خير، ويحول بينهم وبين كل شر.

السمة الثانية:

أنه مجتمع تتجاوب فيه دواعى الفطرة مع دواعى العقل وتتجه جميعًا إلى الحق إلى الخالق العظيم سبحانه، إذ لا مقصود على وجه الحقيقة لدواعى الفطرة أو دواعى العقل إلا ذاتُ الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) النسائى: سننه: باب الجهاد.

والآية الكريمة توحى أن الناس والأشياء جميعًا تتجه بالفطرة إلى مركزها ومرجعها، فالإنسان من حيث هو مخلوق ذو عقل وشعور يحتاج دائمًا إلى أن يكون مدركًا لغايته الفطرية بعقله وفكره، ومتوجهًا إليها بإرادته وأعماله كلها.

إن المجتمع الإسلامى يغذى فى الإنسان هذا التوجه، والله سبحانه قد سخر للإنسان كل ما فى الأرض ليتجه إلى هذا الحق، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.... ﴾ [لقمان: ٢٠].

فالله سبحانه سخر للإنسان ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطه وتجر إليه منافعه، وما فى الأرض من جبال وأشجار وثمار وما لا يحصى، وأسبغ على الإنسان نعمه الظاهرة وهى الإسلام وما حسن من الخلق، والباطنة وهى ستر الله على الإنسان سيئ عمله. وقيل: النعم الظاهرة: هى الصحة وكمال العقل، والباطنة: هى المعرفة والعقل.....، وقيل الظاهرة: ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله وحسن اليقين.

فإذا توجه الإنسان بدواعى فطرته ودواعى عقله إلى الله، فقد رشد وانسجمت فيه دواعى الفطرة مع دواعى العقل، فأخلص عبادته وقصده إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

والعروة الوثقى: هى التوحيد: لا إله إلا الله، أو هى الإسلام، أو هى الإيمان، والآية تعنى أنّ مَنْ توجه إلى الله بفطرته وعقله وأحسن عمله الذى كلف به فقد فاز فى دنياه وآخرته.

السمة الثالثة:

أنه مجتمع تتوازن فيه حاجات الإنسان والاستجابة إليها، بحيث يقر للإنسان بحاجاته الروحية والعقلية والبدنية، ولا يتحداها ولا يكبتها ولا يسمح لها أن تتجاوز حدودها إلى غير ما هو ملائم لها، كما يوازن فى الاستجابة لهذه الحاجات بإعطائها الفرصة فى التعبير عن نفسها فى انسجام لا يسمح لإحداها بأن تتغلب على سواها.

ومن حاجات الإنسان حاجات فردية وأخرى جماعية، والمجتمع الإسلامى يقر هذين النوعين من الحاجات ولا يسمح لإحداهما بأن تطغى على الأخرى، بل لا يسمح بصراع وإنما يرعى كلاً ويعطيها الحق فى التعبير عن نفسها فى اتزان ووعى.

إن المطالب الخاصة بالإنسان فردًا: هى فى جوهرها دعم للمجتمع كله، وتحقيق لمطالبه، كما أن المطالب الخاصة بالمجتمع: هى فى جوهرها دعم للفرد وتحقيق لمطالبه.

وبناء على ذلك فليس من المقبول فى المجتمع الإسلامى أن تضيع مصلحة الفرد من أجل المجتمع، ولا أن تضيع مصلحة المجتمع من أجل الفرد، بل الأصل أن تتحقق المصلحتان معًا فى تناسق وانسجام.

وإن كبريات الرموز الفلسفية التى عانت البشرية من الاستجابة لها مثل: المنفعة والقيمة، والضرورة، والجمالية، والواقعية، والمثالية، والفردية، والجماعية، لا تثير أدنى قلق فضلاً عن تناقض فى المجتمع الإسلامى؛ لأنه مجتمع الإنسان، والإنسان فرد فى مجتمع، والمجتمع يتكون من أفراد، والفرد والمجتمع كلاهما تحكمه قيم دقيقة منضبطة توائم وتلائم بين المصالح المتبادلة بينهما.

إن الفرد له مطالب ضرورية، وأخرى حاجية وثالثة تحسينية أو كمالية، ولا يستطيع أن يمارس حياته الإنسانية التى كرمها الله تبارك وتعالى إلا أن يحصل على هذه المطالب من غير إسراف ولا مخيلة.

كما أن المجتمع له نفس المطالب، ولا يستطيع أن يعبر عن نفسه ويحقق ذاته ويخدم أفراده إلا بحصوله على تلك المطالب أيضًا.

إن الفرد والمجتمع كليهما فى ظل منهج الإسلام وخضوعًا لقواعده تحكمهما نصوص الإسلام وتهديهما أهدافه، ففى جانب الحاجات الفردية نجد قول الله تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

فالإنسان مطالب بأن يحمل عبء نفسه، وليس له أن يلقى ذلك العبء على المجتمع، مؤثرًا التواكل والكسل، كما أن واجب هذه التَّبعة وتلك المسئولية إذا حدث فيه تقصير فإن أحدا لا يحمل ذنب تقصير أحد؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٨ - ٤٠].

وفى جانب الحاجات الجماعية التى يجب أن تتضافر حولها الجهود، نجد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وقوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ....﴾ [آل عمران: ١١٠].

السمة الرابعة:

أنه مجتمع متكامل، أى متـرابط الأجزاء بحيث لا يغنى بعض هذه الأجزاء عن بعض، بل تتوقف مصـالح أجزائه إذا توقفت مصالح بعـضها الآخر، ويتجاذب بعـضها إلى بعض لكى تحقق فى تكاملهـا الهدف المنشود منها، ومن الواضح أن هدف المجـتمع الإسلامى هو تحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

وبديهى ألا يتحـقق هذا الهدف إلا بتكامل فى اتجـاهات عديدة، تكامل فى التـشريع، وتكامل فى الفكر والثقافة، وتكامل فى الخلق والسلوك، وتكامل فى العمل والإنتاج.

أما تكامل التشريع فى المجتمع الإسلامى، فإن القوانين التى جاء بها الإسلام فى العمل والإنتاج والحركـة قوانين جامعة مـانعة، لا ينقصها شىء ولا تحـتاج من سواها إلى شىء، كما أنها لا تتضمن حشواً ولا زيادة.

وأما تكامل الفكـر والثقافة، فـراجع إلى أن الإسلام يحـترم العقل، ويعطيـه من حرية التفكيـر أكبر قدر يحـقق له مصالحه، ويوضح له مـصادر الثقافـة ومراجعهـا، ويجعل فى مقـدمتـها النظر والتأمـل فى ملكوت الله وعظيم مخلوقـاته، وصفحـات هذا الكون الذى أحسن الله صنعه، والتأمل فى الإنسان نفسه وما يدل عليه خلق الله له من دلائل.

وأما تكامل الخلق والسلوك، فأبرز ما فيه أن الإسـلام وهو يبنى المجتمع إنما يقيمه على قاعدة أخلاقية عظيمة هى: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكل خلق أو سلوك يمارسه الفرد أو يمارسه المجتمع فإنما يخضع لهذه القاعدة، وهى قاعدة متكاملة البناء، إذ ليس فى حياة الناس إلا خير أو شر، فالخير مأمور به والشر منهى عنه.

وأما تكامل العمل والإنتاج، فإن الإسلام لا يقبل من أحد فرداً أو جماعة أن يعيش دون أن يكون له عمل وإنتـاج، ولا يقبل بالعمل أى عمل، وإنما يطلبـه مجوّداً متـقنًا صالحًا لا يدخر العـامل فيه وسعًا، لقـوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إنه المجتـمع الإسلامى الذى صنعه الله على عـينه، وما أخلّ أحـد من الناس بنظمه إلا كان مخلا بمنهج الله وقانونه، وهو بهذا الإخلال عدو لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه.

السمة الخامسة:

أنه مجتـمع الانضباط وفق المنهج الإسلامى على كل مسـتوى، مستوى الفرد ومـستوى الأسرة ومستوى المجتمع، ومستوى الأمة الإسلامية كلها.

إنه مجتمع الالتزام الأخلاقى والانضباط مع شرع الله، إذ هو يلزم كل أفراده وجماعاته ومؤسساته وكل من فيه بقيم ومعايير وضوابط، تحول بين الناس وبين الانحراف إلى الشهوات والهوى.

وهذه القيم وتلك الضوابط لا تحرسها ولا تَتَبَّعُ تنفيذها الشرطة، ولا تحمل عليها السلطة - كما هو الشأن فى سائر المجتمعات البشرية قديمها وحديثها - وإنما يحرسها ويحمل عليها إحساس الفرد بمسئوليته، وتحمله لتبعته وإحساس المجتمع بواجبه، وهى أحاسيس تنبع من داخل الإنسان من إيمان بالله وبرسوله، ورغبته فى الالتزام بمنهج الله سبحانه، وحرصه وحرص المجتمع كله على التحرك فى الحياة بمنهج الإسلام فى إحسان وتجويد.

إن الإسلام منهج فى الحياة يعنى بالقيم الخلقية عناية شديدة، بل يجعلها من الأسس الركينة التى يقوم عليها بناء المجتمع الراشد المستقيم على صراط الله.

وإن القرآن الكريم ليهتم بهذا الجانب الأخلاقى اهتمامًا كبيرًا، حتى إن الآيات القرآنية التى تدعو إلى التحلى بالأخلاق الفاضلة، والآيات التى تدعو إلى التخلى عن الأخلاق الرَّذْلة كثيرة، تكاد تبلغ نصف آيات القرآن الكريم فى عددها، بل ربما تزيد عن ذلك، وبخاصة إذا أضفنا إليها حديث القرآن الكريم عن القيم الأخلاقية فى الأمم السابقة ومدى ارتباطها بالواقع الذى عاشته تلك الأمم.

إن الانضباط الأخلاقى والسلوكى فى المجتمع الإسلامى سمة من أبرز سماته وخصائصه.

السمة السادسة:

أنه مجتمع متكافل على كل مستوى من مستويات الموجودين فيه، وعلى كل مستوى من مستويات التكافل نفسها.

إن التكافل فيه بين الفرد والفرد، والفرد والأسرة، والفرد والمجتمع، وبين الأسرة والأسر والمجتمع كله، وبين المجتمع والأمة الإسلامية كلها.

ثم هو تكافل على مستوى القول والفعل والصبر على الحق والصبر من أجل الحق، والتكافل على كل بر وتقوى، والتكافل من أجل رفع أى أذى يقع على المسلمين أفرادًا أو جماعات.

إن التكافل في المجتمع الإسلامي مظلة ضخمة يستظل بظلها الفرد والجماعة والمجتمع كله، الضعيف قبل القوى، والصغير قبل الكبير، والفقير قبل الغني. وذلك أن الإسلام يقرر أن المجتمع بغير هذا التكافل على مستوياته التي ذكرنا لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة ليحقق هدفه الأصيل وهو تحقيق سعادة الدارين.

والنصوص الإسلامية التي تقرر هذا التكافل وتدعو إليه كثيرة نذكر منها: قول الله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله سبحانه: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٨، ٣٩].

وروى الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه....»[2].

وروى النسائي بسنده عن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أُحرِّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة». وأُحَرِّج أي: ألحق الحرج والإثم على من ضيع حقهما.

وروى البخاري بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبك بين أصابعه[3].

---

(١) البخاري: صحيحه: باب المظالم.

(٢) النووي: رياض الصالحين: ١٢٥.

(٣) البخاري: صحيحه: أبواب الأدب.

وروى البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»**.

هذا هو التكافل فى المجتمع الإسلامى كما ترسم له خطوطه وأبعاده النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

السمة السابعة:

أنه مجتمع الدعوة إلى الله على بصيرة، فكل فرد فى المجتمع المسلم - رجلاً أو امرأة - مطالب بأن يدعو إلى الله، بشرط أن يكون قادرًا على ذلك، ولديه بصيرة بما يدعو إليه، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدعوة إلى الله وممارستها على هذه المستويات، هى التى تؤمن للمجتمع حياة نظيفة خالية من كل ما يغضب الله، ومليئة بكل ما يعود على الإنسان بالنفع فى الدنيا والآخرة، ويدفع عنه الضر فيهما.

إن الدعوة إلى الله لها أسباب وأركان وأهداف وأساليب ووسائل ونتائج، وإن فقهها يتطلب معرفة مراحلها من تعريف وتكوين وتنفيذ وتمكين وما بعد التمكين، ويتطلب فقهها بما يجب أن يكون عليه الداعى من صفات وما له من وظائف، ويتطلب معرفة بالمدعوين إلى الله: مَنْ هم؟ وما أبرز سماتهم؟ وما واجبات الدعاة نحوهم؟[1].

إن مجتمع الدعوة إلى الله هو المجتمع الذى يسوده الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أمر كل أحد بكل معروف، ونهى كل أحد عن كل منكر.

إن أحدا من أفراد هذا المجتمع الإسلامى لا يسعه أن يجد مجالاً يأمر فيه بالمعروف إلا أمر، ولا يسعه أن يجد مجالاً ينهى فيه عن المنكر إلا نهى؛ لأن النصوص الإسلامية وردت بذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) انظر للمؤلف: «فقه الدعوة إلى الله» دراسة موسعة فى فقة الدعوة، نشر دار الوفاء ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

وروى الترمذى بسنده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه فتدعونه فلا يستجاب لكم».

وروى الترمذى بسنده عن طارق بن شهاب قال: أول من قَدَّم الخطبة قبل الصلاة مروان، فقام رجل فقال لمروان: خالفت السنة، فقال: يا فلان. تُرك ما هناك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا فلينكره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

السمة الثامنة:

أنه مجتمع الحركة المستمرة الهادفة التى لا تتوقف دون زمان أو مكان وإنما توظف الطاقات والإمكانات البشرية وغير البشرية للجهاد فى سبيل الله، والجهاد بالنفس والمال، والجهاد باللسان، لتكون كلمة الله هى العليا.

إنه مجتمع الحركة والجهاد وفق خطة، ومن أجل هدف، وخضوعًا لسياسة، واتباعًا لوسائل بعينها، والتزامًا بأولويات بعينها كذلك؛ من أجل تحقيق منهج الله وتطبيقه على عباده، والمضى فى هذا الطريق حتى تتحقق الأهداف أو يمضى المسلمون فى سبيلها شهداء، ربحوا إحدى الحسنيين، تحقيق الهدف أو الموت فى سبيله.

إنه المجتمع الإسلامى الذى تقرر شريعته أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة، لا يقعد المسلمون عن ممارستها إلا ذلوا، يجاهدون أعداءَهم أعداءَ دينهم، أعداء الحق وأعداء الله، سواء أكان هؤلاء الأعداء فى داخل الأمة الإسلامية أم فى خارجها، يجاهدونهم وفق آداب الإسلام فى الجهاد حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل، وحتى لا يعبد إلا الله فى الأرض.

والجهاد يتطلب إعدادًا واستعدادًا، من كافة أنواع الإعداد والاستعداد حتى يخوض المسلمون معاركهم وقد تأهلوا لها، وأخذوا بالأسباب بعد الإيمان واليقين بنصر الله. وإن هذا الإعداد مطلب قرآنى، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، سمة من سمات المجتمع الإسلامى، لا تفارقه أبدًا بحال، لأن من الخطأ تصور أن الجهاد فى سبيل الله له حد يقف عنده، إذ هو

ماض إلى يوم القيامة، يجد المبرّر له فى كل زمان ومكان، وحسب المجتمع الإسلامى أنه مطالب بأن يكون مجتمعًا له شوكة وقوة ليرهب عدو الله.

السمة التاسعة:

أنه مجتمع إنسانى بكل ما تحمله الكلمة من معانى الإنسانية فى أرقى صورها وأنبل أشكالها، إنه مجتمع يحترم الإنسان، ويقيم أكبر وزن لإنسانيته، ويرى له حرمة أعظم من كل حرمة، فقد روى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرا**»[1].

إنه المجتمع الذى يقر للإنسان بأن الله كرمه وفضله على كثير من خلقه، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض رحمة به وله، ولذلك يحافظ لهذا الإنسان على كافة حقوقه، ولا ينتقص شيئًا منها، حتى ولو كان عدوًا؛ إذ يحرم الإسلام التمثيل بجثث القتلى، كما يحرم تعذيب الأسرى، ويحرم أى ظلم يقع على أى إنسان مهما كان عدوًا، كما يحرم نهب مال الإنسان، أو خدش عرضه أو حيائه، أو إهانة إنسانيته.

إن المجتمع الإسلامى سبق المجتمعات البشرية كلها - سابقها على الإسلام ولاحقها - فى تكريم الإنسان، والاعتراف له بحرياته كلها، شريطة ألا يسئ بهذه الحرية إلى نفسه أو إلى آخرين، إنه كفل له حرية الرأى والمعتقد، وحرية الفكر، وحرية التعبير، وحرية العمل، وحرية الاعتراض على ما يراه منافيا لأى مصلحة من مصالح الدنيا أو الأخرة.

إن هذه الحريات التى كفلها الإسلام للإنسان لا يتصور أنها مطلقة، وإلا كانت فوضى واضطرابًا، وإنما وضع القيود المنطقية بحيث لا تتسبب ممارستها فى ضرر لأحد - كما قلنا آنفًا - وعلى الرغم من هذا القيد فإنها تبقى أوسع الحريات التى منحها نظام مجتمع بشرى لأفراده فى أى زمان أو أى مكان.

إن المجتمع الإسلامى يعتبر الإنسان سيد هذه الأرض، لا تعلو على قيمته قيمة، ولا يساويه من مخلوقات الله شئ، فضلاً عن أن يفضله، فهو ليس عبدا للطبيعة، ولا للوهم والخرافة ولا للهوى، ولا لطبقة تسمى نفسها رجال الدين، ولا لنظام اجتماعى بعينه، ولا

---

(١) ابن ماجة: سننه: كتاب الفتن.

لنظام سياسى أو اقتصادى كـائنًا ما يكون، وإنما هو سيد كل هذا، وعلى هذا كله أن يكون مسخرًا لصون كرامته الإنسانية.

السمة العاشرة:

أنه مجتمع عالمى، منفتح على الدنيا كلـها، فى مختلف بقاعها وعلى كل أجناس الناس فيها، لا يعرف تفـرقة بين أبيض البشرة وأسودها، ولا أحمرها وأصفرها، فـالناس جميعًا وفى كل مكان وزمان لآدم عليـه السلام، ولا يتفـاضلون بعرق أو جنس أو لون أو سكنى إقليم، وإنما يتفاضلون بتقوى الله، ويتمايزون فى الإخلاص فى عبادته.

إن المجتمع الإسلامى تَواكَبَ فيه إيمان أشـراف قريش وأعمالهم الصالحة مع إيمان بلال وصهيب وسلمان وأعمالهم الصالحة، مجتـمع لا يتعالى فيه شريف بشرفه، ولا يتطاول فيه غنى بثروته، ولا يتخـايل فيه قوى بسطوته، وإنما هؤلاء جمـيعًا أضعف فئـات المجتمع إن ظلموا سـواهم، تقف منهم الدولة موقف العـداء حتى تأخذ الحق منهم وتضـعه فى أيدى أصحابه.

وهو مجتمع لا ينسـحق فيه الضعيف ولا يتوارى الفقيـر، وإنما يشمخ كل منهم بإيمانه وإسلامه، ويعتز بتقـواه لله، ويؤمن بأن أخاه القوى أو الغنى أو صاحب السلطة إنما هو أخ له فى الدين، وأنَّ له عليه حقوقًـا وعليه نحوه واجبات، وأنه مع أخيه عـون لهذا المجتمع فى كل ما يصبو إليه من أهداف نبيلة.

إن المجتمع الإسلامى تـتمثل عالميته فى أنه ينظر للعـالم كله نظرة الوالد الحانى الحريص على جميع أبنائه، ينشر فيهم دعوة الخير، ويدعوهم إلى الدخول فى دين الله دون إكراه أو ضغط، من دخل فى دين الله فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أبى - وكان من أهل الكتاب - ترك ومـا يدين فى ظل الدولة الإسلامـية التى تحميـه وتؤمنه على دينه وعـرضه وماله فى مقابل جزاء أو جزية مالية، يعفى منها العـاجز والفقير والغارم، فإن كان من غير أهل الكتاب وعرضت عليـه الدعوة وتبين له الحق ولم يقم فى عقله شـبهة فى هذا الحق، وأبى إلا أن يعاند ويعـارض الحق ويتحداه فإن هذا الإنـسان بهذه الصفـات يعد خطرًا على الحياة الاجتماعية بعامة، وعليه إذن أن يستعد لأن المسلمين سوف يأخذون منه موقف العدو الذى يجب أن يحال بينه وبين الشر والفساد.

ألا ما أحــوج دول الغرب - التى تنادى بحقـوق الإنسان وتنتهكهـا فى كل مكان تحتله جيوشها، ولا تستحى من ادعاء العدالة والمساواة فى حين تمارس من الظلم والتمييز الطبقى والعنصـرى، ما لا يخـفى على أحد من سكان هذه الأرض - مـا أحوجـها أن تـعرف أن المجتمع الإسلامى العالمى بمبادئه وأهدافه ووسائله هو مجـتمع المستقبل المشرق للبشرية كلها إن هى أخذت بمنهجه ونظامه.

ألا ما أحوج دعاة الغرب وأدعـياء العدالة والحرية والمساواة أن يفيقوا على حقيـقة خافية عليهم على الرغم من ظهورها، وهى أنهم يمارسون العدالة والحرية والمساواة مع ناس دون ناس، ويكرسون هذه الفروق وتلك المعاملة الظالمة بما يؤمنون به من ضـرورة التفرقة اللونية بين بنى البشر، وما يرفعونه من تسمـيات - أهل الشمال وأهل الجنوب - وشعارات العالم المتقدم والعالم النامى أو الثالث.

ألا ما أحـوج البشرية كلها الـيوم وغدا وفى كل يوم أن تتأمل فـى كلمة النبى ﷺ التى يرسى بها قواعد العدل والمساواة بين المسلمين وإن غَلبوا وغيرهم وإن غُلبوا، فيما يرويه أبو داود بسنده عن عـدة من أبناء أصحاب رسـول الله عن آبائهم دِنْيـةً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا من ظلم معـاهداً أو انتقصه أو كلفـه فوق طاقته أو أخذ منه شـيئًا بغيـر طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1].

●●●●

(١) أبو داود: سننه : باب الجهاد.

٣- أهداف المجتمع المسلم

المجتمع الإسلامى المكـون -فى حقيقته- من عدد من الأسـر المسلمة، له أهداف يسعى إلى تحقيقها من خلال ممارسات أفراده أو الأسر التى يتكون منها، أو المجتمع كله، أو الأمة الإسلامية فى مجموعها، وبسلطة الدولة الإسلامية التى تطبق شرع الله.

وهذه الوحدات المكونة للأمة الإسلامية، لا يتصور انفكاكها فى الإسلام إلا وهى متنكبة طريق الحق ومتخلية عن تطبيـق المنهج، وهذا الترابط إنما هو نتيجة طبيـعية لتطبيق المنهج، وضرورة ملحة لكى يستطيع المجتـمع الإسلامى أن يحقق أهدافه، وذلك أن الفرد وحده لا يمثل قوة ولا فعالية ولا قدرة على التغييـر، وكذلك أمر الأسرة وحدها فإنها لو نجحت فى دائرة حياتها وحدها، لم تستطع أن تبلغ بذلك من الفعالية ما يبلغ المجتمع، وهكذا المجتمع وحده بالنسبـة للأمة الإسلامية، لأن الأمة مطالبـة بأن تختار حاكمًا يحكم فـيها بمنهج الله سبحانه، وإلا كانت متخلية عن واجب شرعى.

لهـذا لا يمكن انفكاك وحـدات المجتـمع الإسلامـى، ولهذا تصبح أهداف المجتـمع الإسلامى هى أهداف الأمة الإسلامية أو أهداف الحكم بما أنزل الله من تشريع، ولا يتحقق ذلك إلا بالفرد والأسرة والمجتمع والأمة الإسلامية فى مستوى الترابط والالتئام.

ومن المعلوم أن أهداف المجتمع الإسلامى -أو الأمة الإسلامية أو الحكم الإسلامى- هى على وجه الإجمال: تحقيق مصالح العباد فى الدين والدنيا.

وهذه الأهداف فى مقدمـتها أقسام ثلاثة -كمـا جرى على هذا التقسيم جمـهور علماء المسلمين فى عصور عديدة- وهى:

أ- أهداف ضرورية.

ب- وأهداف حاجية.

جـ- وأهداف تحسينية.

ويسمـونها مـقاصد، ولا مـشاحـَّة فى الاصطلاح -كمـا يقولون- فالهـدف مقـصد، والأهداف مقاصد.

ولنلق ضوءًا على كل قسم من هذه الأقسام والله سبحانه ولى كل توفيق.

أ- الأهداف الضرورية:

والضرورة: الحاجة وما لابد منه وهى خلاف الكمالىّ من الأشياء، ومعنى ذلك أن هذه الأهداف الضرورية لابد منها لمسيس الحاجة إليها، واستحالة الحياة الإنسانية الكاملة إلا بها.

إنها أهداف واجبة لتحقيق مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا لم تتحقق فسدت المصلحتان، ووقع الناس فى الحرج لفوات المصلحتين، مصلحة الدنيا حيث لا يعيشون، أو يعيشون حياة لا تليق بالإنسان، ومصلحة الآخرة حيث ينتظرهم عذاب الله على المعصية.

وهذه الأهداف الضرورية كثيرة، نذكر من أهمها ما يلى:

أولاً:

العقيدة الصحيحة فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره -أى الإيمان- وهذا الإيمان حاجة ضرورية لا يحيا الناس حياتهم الإنسانية الكريمة إلا بها.

ثانيًا:

العبادة الصحيحة لله سبحانه وفق ما شرع كالطهارة والنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً -أى الإسلام- وهذا الإسلام لله الخالق الرازق ضرورة لا يمارس الناس حياتهم الإنسانية الكريمة إلا بها.

ثالثًا:

حفظ الدين والنفس والمال والعقل والنَّسْل، فتلك حاجات أساسية وضرورية للناس لا يستطيعون ممارسة حياتهم إلا بالمحافظة عليها، والمحافظة عليها تتطلب المنهج الذى يقرر العدل والإحسان والعقاب والثواب وصيانة الحقوق، وبغير ذلك لا حياة كريمة للإنسان.

رابعًا:

حفظ حقوق الناس فى التعامل بعضهم مع بعض، فى كل ما يتصل بحياتهم من أحوال شخصية وأحوال مدنية، وأحوال جنائية وغيرها، وما تتطلبه المحافظة على تلك الحقوق الجوهرية من تشريعات ونظم وقوانين، تنبع من شريعة الله، كتابه سبحانه، وسنة رسوله ﷺ، وقياس، واجتهاد، ومصالح مرسلة، وسد للذرائع، واستحسان، وغيرها.

ب- الأهداف الحاجيّة:

والحاجة: هى ما يفتقر إليه الإنسان ويطلبه، ومن الناحية الشرعية هى ما يحتاج إليه الناس من حيث التوسعة ورفع الضيق والحرج عنهم، وذلك أن الضيق والحرج إذا حدثا فاتت المصلحة فى الغالب دينية كانت هذه المصلحة أو دنيوية، غير أنه فوت لا يبلغ حد الفساد الذى يؤدى إليه فوت الضرورات.

وهذه الأهداف الحاجية أنواع كذلك، نذكر من أهمها ما يلى:

أولاً:

حاجيات فى العبادات مثل: الرُّخَص المخففة المانعة من أن يقع الناس فى حرج أو مشقة، كالفطر فى الصوم بسبب السفر أو المرض، وكقصر الصلاة ونحو ذلك.

ثانيًا:

حاجيات فى العادات مثل: إباحة الصيد، وإباحة التمتع بالطيبات، مما أحل الله فى المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب بشرط البعد عن الإسراف والمخيلة.

ثالثًا:

حاجيات فى المعاملات مثل: إباحة القرض وإباحة السَّلَم -أى بيع عاجل بآجل- وإباحة المساقاة -أى دفع الأرض من مالكها إلى من يسقيها ويصلحها ويعمرها على أن يكون له سهم معلوم من محصولها- ومثل عدم النص فى العقد علي التوابع اللازمة للمتبوع كثمرة الشجرة ومال العبد؛ إذ من اشترى شجراً فله ثمره، ومن اشترى عبداً فالمال الذى يكسبه له، دون نص على ذلك فى العقد.

وكل تلك الأمور الحاجية مما يحتاج إليه الناس للتوسعة على أنفسهم، ورفع الحرج والضيق عنهم.

والمجتمع الإسلامى حريص بنظمه وآدابه وما يسود فيه من قوانين أن يحقق للناس هذه الحاجات، وأن يرفع عنهم أى ضيق وأى حرج؛ لأن الله تبارك وتعالى ما جعل على أحد فى الدين من حرج قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

جـ- الأهداف التحسينية:

والتحسين: الاتجاه إلى الأحسن والأليق بالناس الأنفع لهم، ومعناه فى الشريعة: الأخذ بما هو أليق بالإنسان من محاسن العادات مع تجنب الأمور التى تأنفها العقول الراجحة، وهذا وذاك يندرجان تحت عنوان: «مكارم الأخلاق».

وإذا فات تحقيق هذه الأهداف التحسينية فإن المجتمع المسلم يفقد ما هو أليق به من مكارم الأخلاق، ولكنه لا يقع فى حرام، بل ربما وقع فى مكروه تحريمى أو تنزيهى، والإسلام بنظمه حريص على ألا يقع المسلمون فى شىء من ذلك.

وهذه الأهداف التحسينية كثيرة، نذكر من أهمها ما يلى:

أولاً:

تحسينات في العبادات مثل: الطهارات عمومًا، وستر العورة عموما كذلك، وأخذ الزينة عموما، والتقرب بالنوافل من الصلوات والصدقات، والقربات كلها، وذلك كله فى غير مواطن الوجوب؛ لأن مواطن الوجوب ضرورات وربما كانت حاجيات.

ثانيًا:

تحسينات فى العادات مثل: الأخذ بآداب الطعام والشراب التى دعا إليها الإسلام وندب إليها، والابتعاد عن المطاعم والمشارب المستخبثة، والتوسط بين الإسراف والتقتير، وغير ذلك مما لم يرد فى تحريمه نص فى ظرف بعينه، وهو فى الوقت نفسه يجعل عادات الإنسان التى يتحلى بها أقرب إلى ما ندب إليه شرع الله سبحانه.

ثالثًا:

تحسينات في المعاملات مثل: المنع من بيع فضل الماء وفضل العشب، ومنع المرأة من إنكاح نفسها، ومنع قتل النساء والصبيان والرهبان فى الجهاد فى سبيل الله، ماداموا لم يحاربوا المسلمين، ولم يكيدوا لهم فى الحرب.

وهذه الأمور التحسينية كلها في العبادات أو العادات أو المعاملات ليس فقدها مخلا بأمر ضرورى أو حاجى، وإنما يستهدفها المجتمع الإسلامى ليحصل بها على ما هو أليق بالإنسان وأدنى إلى احترامه وتكريمه.

أما بقية أهداف المجتمع المسلم غير تلك الثلاثة فهى ما نشير إليه فيما يلى:

د- هداية الناس إلى الحق والخير:

إن المجتمع الإسلامى أفرادًا وأسرًا ومجتمعًا وأمة، يستهدف أن يأخذ على عاتقه واجب هداية الناس إلى الحق وإلى الخير عن طريق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، فالمجتمع المسلم بكل ما فيه من رجال ونساء دعاة إلى الله، لا يملكون أن يتوقفوا عن الدعوة إلى الله ماداموا مسلمين.

وإن الدعوة إلى الله المتمثلة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، القادرة دائمًا على أن تجعل الناس يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، ويتواصون بالخير، ويصبرون على مغارم كل ذلك وما يتطلبه من متاعب ومشقات.

إن المجتمع المسلم وهو يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يحقق للناس الأمن والاستقرار، والاطمئنان على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وكل ما يرغبون فى الاطمئنان إليه.

ولن يصل المجتمع المسلم إلى ذلك الأمن والاطمئنان إلا إذا كان الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ملتزمين هم أنفسهم بفعل المعروف وترك المنكر.

وإن هداية الناس إلى الحق والخير، وإشاعة الأمن والاستقرار فيهم عن طريق الالتزام بمنهج الله، سوف يؤدى إلى أن تتوافر للناس كل حاجاتهم المادية والمعنوية؛ إذ لو التزم الناس بمنهج الله سبحانه فسوف يقبلون على الحق وعلى الخير فى أقوالهم وأعمالهم وإنتاجهم وكل ما يحيط بهم، مما يحتاجون إليه.

وهذا باب واسع تحدث فيه الفقهاء باستطراد، وتوسعوا حتى اعتبروا فعل كل شىء فيه مصلحة للناس من فروض الكفاية، وجعلوا للحاكم المسلم أن يلزم بهذا العمل من يقومون به إلزامًا فى مقابل أجر المثل إذا امتنعوا عن التبرع به.

بل اعتبر كثير من الفقهاء حفر الأنهار، وتسوية الطرقات، وردم المستنقعات، وحفر الآبار، واستصلاح الأرض للزراعة، وتهيئة ما تحتاج إليه الصناعات من آلات وأدوات ووسائل، وكل ما يحقق مصلحة المسلمين، اعتبروا كل ذلك من واجبات الحاكم المسلم ينفق عليه من بيت المال ولا يكلف بنفقته أحدا من المسلمين إلا أن يكون قادرًا وراغبًا، أو تكون هناك ضرورة.

هـ- مقاومة الشر والفساد:

وهذا هدف رئيس من أهداف المجتمع الإسلامى؛ لأن حسم أمور الشر والفساد فى الناس واجب على حاكم المسلمين وجوب عين وواجب على القادرين من سائر المسلمين وجوب كفاية.

وما لم يقاوم المجتمع الشر والعناصر المروجة له، ويجتث أسبابه فإن نشر الحق والخير والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، كل ذلك سوف تقوم فى طريقه العقبات والعراقيل، فيقع الناس من جراء هذا وذاك فى بلاء عظيم.

هذا الهدف الكبير وهو مقاومة الشر والفساد أكده القرآن الكريم حين طالب الأمة الإسلامية بالقوامة والوصاية الراشدة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن حسم الشر والفساد واجب كل فرد فى المجتمع المسلم مادام قادرًا على ذلك، وواجب الحاكم المسلم بحكم عمله وما خوله من سلطة، ولكن الوصول إلى ذلك له مدخل أساسى هو أن يشعر كل فرد فى المجتمع بمسئوليته عن نفسه أولاً، وعمن يعول وعن المجتمع الذي يعيش فيه ثانيًا، وأنه محاسب على التقصير فى أى من هذه المسئوليات بعد ذلك.

إن مسئولية الفرد عن نفسه وعن المجتمع الذى يعيش فيه وعن مقاومة كل شر وفساد فيه مطلوب بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٢] وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

ولقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:

«إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع

ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه فى الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨] ثم قال: «كلا والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[1].

إن هذه النصوص الإسلامية تؤكد أن كل فرد فى المجتمع مسئول أمام الله وأمام نفسه وأمام المجتمع عن مقاومة الفساد والشر ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

و- كفالة حرية العقيدة والعبادة:

المجتمع الإسلامى يقيم أكبر وزن لإنسانية الإنسان، وأبرز صفات إنسانية الإنسان أن تكون له حرية فى عقيدته وفى عبادته، لذلك لم يكره الإسلام أحداً من الناس على الدخول فيه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أى لا إكراه فى المعتقد والملة وبخاصة أهل الكتاب.

إن أهل الكتاب إذا كانوا يعيشون فى بلد يحكمه شرع الله فإنهم يتركون وما يدينون، ولا يكرهون على الدخول فى الإسلام، وإنما يدفعون للحكومة المسلمة جزاء ما تحميهم وتؤمنهم «الجزية»، وهى مبلغ من المال يدفع كل عام يلزم به القادرون ويعفى منه الشيوخ والنساء والصبيان والعاجزون عن الدفع عموماً، وعلى المجتمع المسلم أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل على المجتمع المسلم أن يعول فقيرهم، وعلى المسلم أن يستضيف من كان من أهل الكتاب إذا نزل ضيفاً عليه، وليس على أحد من أهل الكتاب أن يستضيف مسلماً إلا إن كان ذلك نتيجة لشرط شرط عليهم فى عهدهم، وذلك أن ضيافة المسلم لمن كان من أهل الكتاب واجبة بأمر الدين، وأما استضافتهم هم للمسلمين فليست بواجبة عليهم؛ لأن الإسلام لا يلزمهم الأخذ بما فيه.

وإن المجتمع الذى يكفل المعتقد والملة، لابد أن يكفل حرية العبادة لأهل الكتاب من يهود ونصارى، بل إن الإسلام يوجب على المسلمين أن يقاتلوا كل من اعترض حرية المعتقد والملة، أو حال بين متعبد وعبادته، ومع هذا الإذن بالقتال وصولاً إلى كفالة حرية العقيدة

---

(١) أبو داود: سننه: باب الملاحم.

والعبادة، فإن الإسلام لا يبيح للمسلمين أن يعتدوا على أحد فى هذا القتال المشروع اعتداء تمليه عليهم نشوة الانتصار، أو عزة الغَلَب، لأن الإسلام وضع للقتال -الجهاد فى سبيل الله- آدابًا ألزم بها المسلمين فى حالتى النصر والهزيمة، ومن تجاوز هذه الآداب عُدَّ معتديًا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤].

فهذه حرب من أجل حرية العقيدة والعبادة، وهى حرب دفع عدوان ولكنها مشروطة بشروطها محكومة بآدابها.

وهناك حرب أخرى أباحها الإسلام هى حرب وقائية من أجل كفالة حرية العقيدة كذلك، وهى الحرب التى يخوضها المسلمون ضد من ينقضون عهودهم السلمية مع المسلمين، وربما يتكرر منهم هذا النقض، فإن مثل هؤلاء يجب أن يعلنهم المسلمون بنبذ ما بينهم وبين المسلمين من عهود، غير أن هؤلاء على الرغم من نقضهم للعهود فإن المسلمين مطالبون بأن يعطوهم فرصة للسلام إن أبدوا رغبة فى ذلك ومالوا هم إلى السلام، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٥- ٦٢].

ز- تحقيق العدالة:

لا شك فى أن المجتمع الإسلامى يستهدف دائمًا فى أبعاد الزمان والمكان أن يحقق العدل بين الناس جميعًا، ذلك أن الله تبارك وتعالى أمر بالعدل فى كل ما يتعلق بحياة الإنسان.

إن الله تعالى أمر بالعدل فى القول، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فالعدل فى القول مطلوب حتى ولو كان ضد واحد من ذوى القربى.

وأمر سبحانه بالعدل فى الكتابة والتوثيق، فقال: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ .. ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وأمر الله سبحانه بالعدل فى الحكم بين الناس، فقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وأمر بالعدل فى الشهادة واختيار العدول من الشهداء، قال سبحانه: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. ﴾ [الطلاق: ٢].

وأمر بالعدل فى الصلح بين المتخاصمين والمتنازعين، فقال سبحانه: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وأمر بالعدل فى الكيل والوزن وكل ما يتعلق بحقوق الناس، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأمر سبحانه وتعالى بالعدل فى صورته التى تتناول كل موقف يحتاج إلى العدل، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

إن التأمل فى هذه الآيات القرآنية الكريمة ليؤكد لنا أن العدل فى المجتمع الإسلامى هو الركن الركين الذى تقوم عليه حياة الناس الآمنة المستقرة، وما فُقد الأمن ولا الاستقرار فى مجتمع ما إلا كان وراء ذلك فقد العدل، وإن إقرار العدل فى كل شعبة من شعب الحياة هو نفى للظلم من هذه الشعبة.

وإن الأحاديث النبوية الواردة فى وجوب العدل أكثر من أن نحصيها فى هذا الكتاب، لكن نذكر منها ما يلى:

روى البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«... إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**.

وروى الإمام البخارى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: **«ويلك من يعدل إذا لم أعدل..»**.

وروى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ قال: **«اعدلوا بين أولادكم فى العطية»**[1].

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«العلم ثلاثة، فما وراء ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»** والفريضة العادلة هى كل حكم من الأحكام يحصل به العدل فى قسمة التركات بين الورثة، أو الفريضة هى كل ما يجب العمل به. والعادلة هى المساوية لما يؤخذ من القرآن والسنة.

وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اتقو الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»**.

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: **«ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، ألا هل بلغت؟»** قالوا: نعم، قال: **«اللهم اشهد»**.

إن المجتمع الإسلامى حين يستهدف العدالة إنما يستهدف رفع الظلم كذلك، فإذا كان ظلم لم يكن عدل، إنه يستهدف عدلاً بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين كل إنسان.

---

(١) البخارى: صحيحه: باب الهبة.

ح- تحقيق الأخلاق الفاضلة:

إن المجتمع الإسلامى يضع من بين أهم أهدافه أن يسود الناس فى تعاملهم خلق الإسلام، وخلق الإسلام هو كل الفضائل الإنسانية التى تليق بإنسانية الإنسان، وترفع من شأنه وتهيئ له مكانًا ملائمًا لتكريم الله له فى المجتمع الذى يعيش فيه، ومكانة عند الله سبحانه الذى أمر بالتحلى بهذه الأخلاق الفاضلة.

ولا تتكامل عند الإنسان أخلاقه الفاضلة إلا إذا تخلى أولاً عن الرذائل والسفاسف والصغائر، وكل ما يغضب الله سبحانه.

ولو شئنا هنا أن نسرد الرذائل التى يجب أن يتخلى عنها الإنسان والفضائل التى يجب أن يتحلى بها، لما وسعنا هذا الجزء من الكتاب، ولكنا نجمل هذا وذاك فى كلمات، نرجو أن يكون بها النفع بإذن الله تبارك وتعالى.

فنقول: إن الفضائل الإسلامية: هى كل ما أمر به الإسلام من قول أو عمل، وكل ما ندب إليه.

والرذائل: هى كل ما نهى عنه الإسلام من قول أو عمل كذلك أو كل ما كرّه فيه. وسواء أكان ذلك فى الفعل أم الترك.

وفى اللغة العربية كلمات جامعة للفضائل وأعمال الخير، مثل كلمة البر، إذ هى التوسع فى فعل الخير، وقد روى الإمام مسلم بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**.

فالبر رمز لكل خير ولكل فضيلة، والإثم رمز لكل شر ولكل رذيلة.

وروى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذىء»**.

وروى الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»** قالوا: يا رسول الله، قد علمنا: الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: **«المتكبرون»**.

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم».

إن المجتمع الإسلامى يستهدف أن تسود القيم الأخلاقية الفاضلة، وأن تتنحى القيم الأخلاقية الهابطة؛ لأن ذلك هو الذى يمكن للعدل ورفع الظلم، ويمكن لكل هدف من أهداف المجتمع الإسلامي كلها.

ط- تحقيق إنسانية المجتمع وعالميته:

إن هدفًا هامًا للمجتمع الإسلامى أن يحقق الإنسانية فى صورتها الرفيعة التى كرمها الخالق سبحانه، ويؤكد هذه الإنسانية بين الناس جميعًا.

وإن المجتمع الإسلامى حريص على تحقيق عالميته، تلك العالمية التى تنظر إلى حياة الناس على أنها خاضعة لقيم وآداب لا تعترف بالحدود الجغرافية، التى تقوم فى أذهان بعض الناس فاصلاً بين الإنسان وأخيه الإنسان فى تلك القيم والآداب.

إن الإسلام يقر فى معظم مبادئه الاجتماعية أن الإنسان قد فطره الله سبحانه على أن يكون قوام حياته الاجتماعية بالأنس بأخيه الإنسان، والتعاون معه على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

إن إنسانية المجتمع المسلم تعنى تكريم الإنسان لكونه إنسانًا، بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو الإقليم الذى يعيش فيه، مادام يعمل العمل الصالح الذى لا يضر أحدًا من الناس.

إن الإسلام ينادى على الناس جميعًا ليتعارفوا ويتعاونوا ويتناصروا فى سبيل كل ما هم فى حاجة إليه، دون أن يتعالى أحد منهم على أحد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن العرب الذين نزل آخر كتب الله وخاتمها وأكملها وأتمها بلغتهم، وكان منهم خاتم أنبيائه ومرسليه محمد ﷺ، إن هؤلاء العرب ليسوا عند الله ولا فى تركيب المجتمع الإسلامى بأفضل من غيرهم لكونهم عربًا، وإنما الأفضلية فى الإسلام للإيمان والتقوى والعمل الصالح. إن أخوة الإيمان فى المجتمع الإسلامى تضم الإنسانية كلها أسودها وأبيضها. إن الإسلام ما عرف فى تاريخه تحيزًا -فضلاً عن تعصب- لجنس على جنس؛ لأنه دين إنسانى عالمى، وسبحان الله العظيم أن كان من أوائل من دخلوا فى الإسلام من

الناس مَنْ يمثلون مختلف الأجناس والألوان واللغات والقوميات، إن بلالاً وصهيبًا وسلمان عليهم رضوان الله كانوا رموزاً وإشارات لإنسانية الإسلام وعالميته. وإن من عظمة منهج الإسلام أن صنع من جميع هذه الجنسيات واللغات والألوان والقوميات جنسية واحدة، وأخوة واحدة، وتكافؤاً فى الحقوق والواجبات.

وإن ما عاناه العالم -وما لا يزال يعانيه- من تعصب وتمييز عنصرى ليمثل سُبَّة فى جبين المتعصبين، سواء أكانوا نازيين أم يهوداً أم من أولئك الذين يتعصبون اليوم للرجل الأبيض فى إفريقيا أو -إلى وقت قريب- فى أمريكا وغيرهما من بلدان العالم.

إن هذا التعصب حاربه الإسلام منذ خطواته الأولى، وجرم من يتعاملون وفقه، وإذا كان بعض المسلمين فى بعض أحقاب التاريخ قد مارسوا شيئًا من التعصب للعرب أو لغيرهم، فإنما كان ذلك لغيبة الإسلام ومنهجه عن أولئك المتعصبين، وتنكبهم للنظام الاجتماعى الإسلامى وكانوا فى نظر الإسلام والمسلمين من المخطئين.

إن النصوص الإسلامية التى تؤكد إنسانية الإسلام وعالميته كثيرة، نذكر منها ما يلى:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال جل شأنه فى خطاب خاتم أنبيائه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وإن نصوصًا كثيرة من سنة النبى ﷺ تؤكد هذه الإنسانية وهذه العالمية للمجتمع الإسلامى، نذكر منها ما يلى:

روى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قاتل تحت راية عِمِّية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية».

وروى مسلم بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد».

وروى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».

وروى البخارى بسنده عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناسَ».

إن كل هذه النصوص ومثلها كثير مما يؤكد إنسانية المجتمع الإسلامى وعالميته[1].

وبناء على ذلك فإن المجتمع الإسلامى وهو يستهدف تحقيق الإنسانية والعالمية، فإنما يحقق ذاته ويؤكد للبشرية كلها أن الإسلام دين الإنسان ودين العالم كله.

ى- عناية المجتمع الإسلامى بالأسرة:

إن تأكيد كل الأهداف التسعة التى استهدفها المجتمع الإسلامى إنما يأخذ طريقه الصحيح بأن تكون رعاية الأسرة من أهم أهداف المجتمع؛ فلولا الأسرة ما كانت حياة اجتماعية إطلاقًا.

إن الإسلام يحيط الأسرة بمزيد من الرعاية والاهتمام، حتى تستطيع أن تؤدى فى المجتمع وظائفها على أحسن وجه ممكن.

ولكى يرعى المجتمع الإسلامى الأسرة حق رعايتها فإنه أحاطها بضمانات عديدة، تكفل لكل فرد فيها حقوقه وتلزمه بواجباته.

لقد أوجب الإسلام للصغار حقوقًا كثيرة على الأبوين أولاً، وعلى الكبار ثانيًا، وعلى المجتمع كله بعد ذلك، وعلى الحكومة المسلمة، وعند التأمل فى هذه الحقوق -على نحو ما سنفصل فى الفصل الثانى من هذا الباب من الكتاب- نجدها تكفل لهؤلاء الصغار أن يشبوا فى جو أدب الإسلام وأخلاقه، وليس ينفع هؤلاء الصغار ولا المجتمع الذى يعيشون فيه شىء مثل أن يحاطوا بالقيم الأخلاقية الإسلامية، وإن حقوق الصغار مهما تعاظمت -وهى بالفعل عظيمة- فإنه يقابلها واجبات على هؤلاء الصغار أن يؤدوها بمجرد أن يعوا ويعقلوا حتى وهم دون سن التكليف، وكلما شبوا شبَّت معهم هذه الواجبات، وهذا هو الضمان الحقيقى لسعادة المجتمع، وكل ذلك سوف نفصله كذلك فى الفصل الثانى من هذا الباب.

ومن رعاية الإسلام للأسرة أن أقام الحياة الزوجية على أعدل نظام وأقدره على ضمان الحياة الأسرية الكريمة الهادئة الهانئة، القادرة على أن تنجب للمجتمع أفرادًا يعملون وينتجون، ويعرفون واجباتهم فى ضوء ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

---

(١) انظر للمؤلف: «عالمية الدعوة الإسلامية» دراسة موسعة تؤكد هذه العالمية بأدلة عقلية ونقلية، ط دار الوفاء ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

إن الحياة الزوجية فى الإسلام لها حقوق وواجبات كذلك كفلها الإسلام لكل من الزوجين، إلا أن يتنازل أحدهما عن بعض حقوقه سماحة وإيثاراً لمجاملة الطرف الآخر أو معاونته، كما أوجب الحد المعقول من الواجبات على كل منهما، إلا أن يتبرع أحدهما بأداء أكثر مما هو عليه، ليدخل بذلك فى منزلة الإحسان فيحظى برضا الله سبحانه.

ولأن المرأة كانت ولا تزال فى ظل كثير من النظم والحضارات مهضومة الحقوق، فإن المجتمع الإسلامى دقَّق كثيراً فى تعريف المرأة كل حقوقها وتوضيح كل واجباتها، ولكى يعيش المجتمع والأسرة حياة اجتماعية فاعلة فإن الإسلام اهتم بحماية المرأة وصيانة حقوقها، وحماها من كل من يحاول انتقاص شيء من هذه الحقوق حتى ولو كانت المرأة نفسها، إذ كثيراً ما تمارس المرأة أعمالاً تنتقص بها بعض حقوقها، فيقف الإسلام لها بالمرصاد يحرم عليها مثل هذه الأعمال، وذلك حين تشذ المرأة فتسترجل، أو تستبد بفطرتها فتنحرف.

إن المجتمع الإسلامى يقف للمرأة فى هذه الحالة، يصوب أعمالها، ويرشِّد سلوكها، فإن استجابت. . . وإلا أوقع عليها العقوبة حتى تستقيم فتستقيم الأسرة والمجتمع.

إن الإسلام أعطى المرأة حقوقًا كثيرة فى صغرها على والديها، ثم على إخوتها وأعمامها وأخوالها، ثم على زوجها، ثم على أبنائها وأحفادها، إنها فى الإسلام هى الإنسان المحوط بالعناية والرعاية والاحترام والحب من كل من يحيط بها من آباء وأبناء، وما ذلك إلا لأنها قاعدة الأسرة وركيزتها الأولى، والأسرة قاعدة المجتمع وركيزته.

ولعل الفصل التالى من هذا الباب يوضح هذا ويؤكده.

●●●●



الفصل الثانى

رعاية الإسلام للأسرة

١- تكوين الأسرة المسلمة

كما رعى الإسلام المجتمع حق الرعاية - على نحو ما سيتضح لنا فى هذا الكتاب كله- فإنه يولى الأسرة- بوصفها نواة المجتمع أو مادته الأولى - من الرعاية ما يناسب مكانتها من بناء المجتمع، ومكانتها من تربية الناشئ.

وليس من الممكن أن يقوم بناء مجتمع مسلم - على النحو الذى أوضحناه فيما سلف ونحن نتحدث عن بنيته الأساسية وسماته وخصائصه ووضوح أهدافه- إلا إذا نالت الأسرة فى هذا المجتمع أوفى حظ من الرعاية وأوفر نصيب من الاهتمام.

وهذه الرعاية وذلك الاهتمام وتلك العناية، هى ما نحاول توضيحه فى هذا الفصل الثانى من الباب الأول من الكتاب ؛ لكى نتعرف من قريب وبصورة واضحة على الجهود التى يقدمها المنهج الإسلامى لتكوين الأسرة وتحديد مكانها ومكانتها من مفردات المنهج، مع إلقاء الضوء الكافى الكاشف عن أهدافها، وذلك كله ييسر لنا أن نتعرف على موقف الإسلام من الناشئين، ورعايته لهم، ومكانتهم كذلك بين مفردات منهجه فى الحياة.

وإن التصور المبدئى الدقيق لموقف الإسلام من تكوين الأسرة يستدعينا أن ننظر إلى الأسرة أفرادًا، يكونون الأبوين والآباء والأمهات «الجدود والجدات» والأرحام والأقارب- مرجئين الحديث عن الأبناء الناشئين إلى الباب الثانى من هذا الكتاب فقد خصص كله لهم، بل خصصت بقية أبواب الكتاب الأربعة لهم- ثم ننظر إلى تدقيق الإسلام الشديد فى حقوق كل نوع من هذه الأنواع وواجباته.

وقد سبق لنا القول بأن قضية الحقوق والواجبات فى الإسلام قضية حسم بها الإسلام كل مظاهر السلبية والتواكل، وقضى بها على التبطل والإهمال، وأنصف بها كل إنسان من كل إنسان، بل أقامها صرحًا شامخًا تعيش البشرية كلها فى جنباته سعيدة راضية منطلقة إلى تحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

ولقد دقق الإسلام واهتم كثيراً بأن يلزم كل فرد من أفراد الأسرة بواجباته، فيقيمه بذلك على جادة الحق، ويتيح له أن يمارس كل حقوقه.

وسوف نتناول بالحديث فى هذه النقطة من هذا الفصل- نقطة تكوين الأسرة- الركنين الأساسيين فى تكوين الأسرة وهما الأب والأم ، ثم نتحدث عن الآباء والأمهات الأعلين (الجدود والجدات) ثم عن الآباء والأمهات فى المنزلة وهم الأعمام والأخوال والعمات والخالات، ثم عن الإخوة والأخوات الكبار - أما الصغار من أفراد الأسرة فلهم حديث خاص فى الباب الثانى من هذا الكتاب.

وسوف يكون تركيزنا فى هذه الأحاديث على هذه الهيكلية التى احترمها الإسلام للأسرة، وحرص على أن يعطى كل فرد فيها من الحقوق ويلزمه بالواجبات التى يقوم عليها البناء الصحيح للأسرة.

ولنبدأ بالأهم فالذى يليه فى الأهمية فى تكوين الأسرة:

أولاً: الأب:

إذا كانت البداية الحقيقية للأسرة بالأبوين: الأب والأم، فإن الإسلام طالب الرجل إذا بلغ حد تحمل أعباء الزواج أن يتزوج وكره له العزوبة، واعتبرها من محقرات الإنسان القادر على الزواج.

بل إن الإسلام أوجب على الأب إن كان ذا قدرة ويسار أن يزوج ابنه، وأن يعينه على أن ينشئ بيتًا جديدًا وأسرة جديدة.

إن الإسلام أكد أن الزواج سنة النبى ﷺ، لا يستطيع مسلم أن يحيد عنها وإلا كان حائدًا عن الإسلام نفسه.

روى أئمة الحديث وعلى رأسهم البخارى ومسلم بالسند الصحيح أن النبى ﷺ قال: **«النكاح سنتى فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى، ومن رغب عن سنتى فليس منى»** متفق عليه، مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ التى لا تغير شيئًا من المعنى.

ومعنى الحديث أن الزواج هو سنة النبى ﷺ وأنه الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وأنه ليس لمسلم أن يحيد عن السنة أو يتنكب طريق الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

إن الإسلام يدعو الشباب إلى أن يتزوجوا ليكونوا آباء ذوى ذرية، لأن الزواج والذرية من دواعى سرور الإنسان وسعادته فى الدنيا، ففى ذلك قرة العين فى الدنيا، وبهم تكون الدعوات المدخرة فى الآخرة.

فقد جاء فى السنة النبوية فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وما روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن شباب لا نقدر على شى فقال: «يا معشر الشباب، عليكم بالباءة، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، فمن لم يستطع منكم الباءة فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء».

وهذان الحديثان فيهما أمر صريح من النبى ﷺ لكل قادر على أعباء الزواج أن يتزوج، وأن يكوّن أسرة. . وأعباء الزواج هى القدرة على الحياة الزوجية وعلى النفقة وعلى تحمل المسئولية.

وتكملة التوجيه النبوى فيمن تزوج من الرجال أن يكون ذا دين وخلق وأمانة، وإلا فقد تحاشته العائلات التى يصهر إليها، فقد ورد فى السنة النبوية ما رواه الترمذى بسنده عن أبى حاتم المزنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد» فأوصاف الرجل المسلم المقبول زوجًا لإحدى المسلمات- كما فى هذا الحديث- صفتان جامعتان هما: الدين والخلق.

وصفة الدين تعنى أن يكون هذا الرجل ملتزمًا بآداب الدين فى أقواله وأعماله ومظهره ومخبره، وانتمائه واعتزازه بدينه وولائه لله والرسول والذين آمنوا.

وصفة الخلق الحسن تعنى أن يكون الرجل قد تحلى بالفضائل التى دعا إليها الإسلام وتخلى عن الرذائل التى نهى عنها، وأجمع ما تكون الأخلاق الفاضلة فى أحد إذا كان صاحبها متمثلاً بأخلاق النبى ﷺ، وقد كان خلقه القرآن كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حينما سئلت عن خلقه فقالت: كان خلقه القرآن.

إن مؤهلات الرجل المسلم الذى يتقدم للزواج من امرأة مسلمة إلى جوار قدرته على الزواج هى هذا الخلق، وإن العائلات إذا امتنعت عن تزويج من ليس على دين وخلق فإنها بهذا الامتناع تسهم إسهامًا كبيرًا فى تقويم أخلاق الشباب وتشجيعهم على الدين والتدين، وفى ذلك ما يؤكد أن مفردات المنهج الإسلامى يخدم بعضها بعضًا ويشد أزره.

وبعد، فهذا ما جاء فى الإسلام عن الرجل المدعو إلى الزواج.

ثانيًا: الأم:

وهى الطرف الثانى فى الأسـرة المسلمة، وقد دقق الإسـلام فى اختيـارها، ووضع أمام الرجل معيارًا دقيقًا يختار على أساسه زوجته.

روى التـرمذى بسنده عن جـابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قـال: **«إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك»**[1].

وما ينبـغى للعاقل أن يبهـره جمال المرأة ومـالها إذا لم يكن مع ذلك دين يزين الجـمال والمال، ويوجهها نحو الأحسن والأرضى لله سبحانه، فإن الجمال بغير دين فتنة وارتكاس، والمال بغيـر دين فتنة وضيـاع، وعند المقارنة بين دين بغـير جمال أو جـمال بغيـر دين فإن العاقل يختار الدين على الجمال، وكذلك الأمر فى المال.

إن على الشباب الراغـبين فى الزواج أن يتأكدوا من هذه الحقائق الثـابتة؛ لأن العبرة فى الحيـاة الزوجية وما تتطلـبه فى المرأة من أمانة وحسن عـشرة وحسن رعـاية للزوج والبيت والولد والمال ، تحتـاج فيه هذه الحـياة من الزوجة الدين أولاً قـبل كل شىء، ثم قد يكون الجمـال والمال فى مرتبـة تالية لذلك وقـد لا يكون، فإن كـان مع الدين جمـال أو مال أو كلاهما فهو فضل من الله ونعمة يؤتيها من يشاء من عباده.

إن المؤكد المقطوع به فى الإسلام أن أهم ما تقـوم عليه الأسرة من أساس سليم هو زوج ذو خلق ودين وزوجة ذات خلق ودين، وبعد ذلك تأتى أى صفات فاضلة.

وإن الإسلام وهو يكوّن الأسرة من هذين الطرفين يريد لهذه العلاقة أن تستمر وأن تكون أحسن ما تكون وأقدر ما تكون على تكوين الأجيـال المسلمة الصالحة، ولذلك حدد الإسلام واجبات كل من الزوجين نحو الآخر، وأوضح حقوقه، وألزم بها هذا وذاك إلزامًا، ليضمن لهذه الأسرة أن تعيش الحياة الإنسانية الكريمة فى ظل منهج اللإسلام ونظامه[2].

وإن من نافلة القول، توضيح أن الأسـرة المسلمة لا تستطيع أن تمارس حياتهـا الإنسانية الكريمـة التى ترضى الله تبارك وتـعالى، إلا إذا خـضعت لمنهج الإسـلام فى أن يؤدى كل طرف من طرفى الأسرة واجباته حتى يستمتع بحقوقه.

---

(١) انظر للتوسع فى معرفة ذلك للمؤلف: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» ط دار الوفاء ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
(٢) انظر السابق أيضًا إذا أردت معرفة التفاصيل.

وكذلك فإن مما لايحتاج إلى بيان التأكيد على أن القوامة للرجل على المرأة فى الأسرة، هى التى تمكن الأسرة من أن تشق طريقها فى الحياة، دون تعرض لمشكلات تعوقها عن المضى فى هذا الطريق.

إن الإسلام جعل العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة علاقة سكن واطمئنان، وستر وإحصان، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا..﴾ [الأعراف: ١٨٩] وأحاط هذه العلاقة بالحب المتبادل بين الزوجين، الحب الذى لا تحركه النزوات والرغبة الجنسية وحدها وإنما الذى يقوم على احترام كل طرف للآخر واعترافه له بكل حقوقه وأداء كل واجباته نحوه.

إن التعبير عن الرغبة الجنسية وهى فطرة فى الجنسين فطرهما الله عليها ليكون تكاثر وإعمار للأرض، وإن هذه الرغبة الجنسية لا يسمح لها الإسلام فى أن تعبر عن نفسها إلا بالزواج المشروع.

وإن حب الزوجين أحدهما للآخر ينمو ويزدهر بعد قليل فى حب الأولاد، ثم حب الأقارب والأصهار، ثم الإقبال على حياة اجتماعية حافلة، ثم يتسع هذا الحب حتى يشمل الناس جميعًا، ويعبر عن هذه العمومية بحب الخير للناس كلهم، والعمل على دفع الشر عنهم جميعًا.

إن الزواج فى الإسلام موثق خطير يتضمن حقوقًا وواجبات ويتضمن أخلاقيات بعينها والتزامات بذاتها، ولهذا كان لابد من إشهاره، والإشهاد عليه وإعلانه للناس.

وإن إشهار الزواج- وهو واجب شرعى- ينفى عن الرجل والمرأة كليهما سُبَّة عُرفت بين الناس فى أزمان بعيدة وهى الزواج فى السر بما يسمى اليوم «عقدًا عرفيًا» لا إشهار له ولا إشهاد عليه، وهو شيْن للرجل والمرأة على السواء لما ورد فى السنة النبوية مما رواه الترمذى بسنده عن محمد بن حاطب الجمحى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت».

وروى الترمذى أيضًا بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه فى المساجد، واضربوا عليه بالدفوف».

إن الإسلام يضع العفة في أرفع مكان وأسمى مكانة، ويرى المحافظة عليها بالزواج المشروع، ويحرص عليها حتى بعد الزواج، فيطالب الرجال بغض البصر وحفظ الفرج عن كل ما حرم الله، ويطالب المرأة كذلك بعدم إبداء الزينة إلا فى ظل ظروف بعينها كما يطالبها بغض البصر وحفظ الفرج[١].

ومهما تحدثنا عن مكانة المرأة فى الإسلام، بالنسبة للأسرة المسلمة والحقوق التى أعطاها لها على نحو لم تحظ به المرأة فى ظل أى حضارة أو دين سابق، فلن نقول كل شيء، ولن نوفى هذا الموضوع حقه فى هذا الكتاب الخاص بالناشئ المسلم[٢].

إن مكانة المرأة فى الأسرة المسلمة وقوامة الرجل عليها هى التى تكفل تنشئة أجيال متأدبة بآداب الإسلام ملتزمة بسلوكه ومنهجه، وذلك هو الذى يحقق الصحة النفسية والروحية والعقلية والبدنية لهؤلاء الناشئين ويطبعهم بطابع الرغبة بل السعادة بأداء الواجب والرضا بمعاونة غيرهم على البر والتقوى، ويمكن لهم من أن يكونوا أعضاء نافعين فى المجتمع، قادرين على أن يتحملوا مسئولياتهم، ويسهموا فى بناء مجتمع إسلامى سعيد.

ثالثًا: الآباء الأعلون والأمهات (الجدود والجدات):

إذا كان الأبوان المباشران -أعنى الزوجين- هما عماد الأسرة وأساسها، فإن الإسلام -وهو بصدد تكوين الأسرة- لم يقصر غايته على الأب والأم المباشرين، وإنما تضمن منهجه العناية بكل أب وإن علا (جد) وبكل أم وإن علت (جدة)، فهؤلاء جميعًا بمنزلة الأبوين بالنسبة للأبناء، لهم من الاحترام والحب والبر والطاعة مثل ما للأبوين المباشرين، دعمًا للأواصر، واعترافًا بحقوق الأبوة والأمومة على كل الأجيال وإن نزلت (الأبناء والحفدة...)، إذ طالب الإسلام ببر كل أب وكل أم والإحسان إليهما، بل قرن ذلك بعبادة الله وحده فى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التى طالبت الأبناء بالإحسان إلى الوالدين، تنطبق تمامًا على الجدود والجدات فهم آباء وأمهات على وجه الحقيقة ما يجادل فى ذلك إلا سفيه.

غير أننا نكتفى هنا بذكر بعض الأحاديث النبوية التى توجب البر بالآباء والأمهات.

روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يجزى ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»**.

---

(١) انظر للمؤلف: كتاب: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» مرجع سابق.

(٢) انظر السابق.

وروى الديلمى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق الوالد على ولده ألا يسميه إلا بما سمى إبراهيم به أباه: يا أبت، ولا يسميه باسمه».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تمش أمام أبيك، ولا تستسب له، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى أسيد مالك بن ربيعة قال: بينما نحن عند النبى ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة، فقال: يا رسول الله، أبَقِيَ من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما».

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن بكر بن الحارث الأنمارى رضى الله عنه أنه قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى، ذلك حق واجب ورحم موصلة».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بروا آباءكم يبركم أبناؤكم، وعفوا تعف نساؤكم».

وروى ابن عساكر بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح مطيعًا لله فى والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن كان واحدًا فواحدًا».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد».

وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ولد الرجل من كسبه من أطيب كسبه، فكلوا من أموالهم».

واعتبار الجدود والجدات بمنزلة الآباء والأمهات مؤيد بالسنة النبوية كذلك.

روى البخارى بسنده قال: قال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم: الجد أب..

وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما: يا بنى آدم، واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ولم يذكر أن أحدًا خالف أبا بكر فى زمانه، وأصحاب النبى ﷺ متوافرون.

وكل برٍّ طالب الإسلام بـه الابن نحو أبيه وأمـه فهو مطالب به نحـو آبائه الأعلين وهم الجدود وأمهاته العُلى وهن الجدات.

ونؤكد هنا أن الجدود والجـدات لهم حق الآباء والأمهات سواء أكـانوا من جهة الأب أم من جـهة الأم، إذ الفرق بينهمـا فى الميـراث فقط، أمـا فى البـر وحسن الصلة والطاعـة والإحسان والدعاء والاستـغفار وإنفاذ العهد وبر الصديق فى حياتهم وبعـد موتهم فهم فيه سواء.

رابعًا: الأعمام والأخوال والعمات والخالات:

الأسرة فى الإسلام بناء كـبير ومظلة واسعـة وشجرة وارفة الظلال يسـتظل بها الأرحام والأقارب جميعًا.

وأقرب الأقـارب الأعمام والأخـوال والعمـات والخالات فهم فى الإسـلام بمنزلة الآباء والأمهات، فالأعمام والأخوال بمنزلة الأب والعمات والخالات بمنزلة الأم، وقد تنزل العمة بمنزلة الأب، وبهذا وردت أحاديث نبوية كريمة.

روى الترمـذى بسنده عن ابن مـسعـود رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: **«عم الرجل صنو أبيه»**.

وروى الترمـذى بسنده عن البراء بن عـازب رضى الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: **«الخالة بمنزلة الأم»**.

وروى الدارمى بسنده عن مـسروق عن عـبد الله قال: الخـالة بمنزلة الأم والعمـة بمنزلة الأب.

وروى التـرمذى بسنده عن أبى بكر بـن حفص رضى الله عنه أن رجـلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى أصبتُ ذنبًا عظيمًا، فهل لى من توبة؟ قال: **«هل لك من أم؟»** قال: لا، قال: **«هل لك من خالة؟»** قال: نعم، قال: **«فبِرَّها»**.

خامسًا: الإخوة والأخوات الكبار:

كمـا يحرص الإسـلام على أن يبر الابن أو البنت أبويه أو آباءه وأمـهاته، فـإنه كذلك يحرص أن يمتـد احترام الصغير للـكبير ورحمة الكبيـر للصغير حتى يوجب على الصـغير والصغيرة نحو الأخ الكبير أو الأخت الكبرى حقًا كحق الوالد والوالدة أو قريبًا منه، وذلك

أن هذا الأخ الكبير تجب عليه رعاية إخوته الصغار كما لو كان أباهم، وكذلك يجب على الأخت الكبرى، وهذا فى حال حياة الوالد والوالدة، فما بالنا فى حال موتهما؟.

إن السنة النبوية المطهرة وردت بما يقرر هذه الحقوق ويؤكدها، دعمًا لأواصر المودة والتراحم والبر والتكافل بين أفراد الأسرة جميعًا.

روى البيهقى فى الشعب بسنده عن سعد بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده».

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن كليب الجهنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأكبر من الإخوة بمنزلة الأب».

هكذا يكوّن الإسلام الأسرة فى المجتمع المسلم وحدة قوية متماسكة يظلها الحب والمرحمة، ويحركها أداء الواجب للتمتع بالحق، ويدفعها الدين والخلق إلى التعاون والتناصر والتكافل، ويحملها المنهج الصحيح على بر كل من كان له صلة بهذه الأسرة.

إن المجتمع المسلم يتكون من هذه الأسر المسلمة الملتزمة بمنهج الله ونظامه فى حياتها الدنيا لتسعد به فى الدنيا والآخرة.

إن لهذه الأسرة التى كونها الإسلام على هذه الأسس وتلك الآداب مكانة عالية، نحاول أن نوضحها فى الصفحات التالية بإذن الله.

●●●●

٢- مكانة الأسرة فى الإسلام

مع تكوين الإسلام للأسرة على هذا النحو الذى ذكرنا، فإنه شرع لها من النظم، وأقر لها من الآداب ما يجعل منها وحدة اجتماعية متماسكة قوية البنيان، تستطيع أن تمارس حياتها على أحسن مستوى اجتماعى لائق بمكانة الإنسان فى هذه الحياة.

وليس من المبالغة فى شىء القول بأن التشريعات والنظم التى وضعها الإسلام للإسرة هى أحسن التشريعات وأكملها من حيث مصدرها ومن حيث نتائجها فى الأسرة، أما المصدر فهو ما جاء من عند الله العالم بما يصلح الإنسان فى دنياه وآخرته، وأما النتائج فإن البشرية ما عرفت فى تاريخها نظامًا أو تشريعًا وضع للأسرة وطبق عليها فأتى بمثل النتائج التى حدثت فى بعض أحقاب التاريخ الإسلامى يوم التزمت الأسرة بهذه التشريعات والنظم.

إن الإسلام وهو يشرع للأسرة هذه التشريعات نَظَرَ النظرة الشاملة العميقة التى أخذت الواقع الإنسانى الذى يمكن أن تعيشه الأسرة فوضعه فى اعتباره وهو يشرع للأسرة.

كما أنه نظر إلى الواقع المعاشى الذى يمكن أن تتفاعل معه الأسرة فوضعه فى اعتباره كذلك وهو يشرع للأسرة.

وفضلاً عن هذا وذاك فإنه أى التشريع الإسلامى يعرف تمامًا ما يصلح للأسرة ويصلحها من طموحات وآمال، فوضع لذلك تصورًا دقيقًا له، بحيث لم يسمح بالجنوح ولا الجموح، وإنما ربط هذا الطموح بالإمكانات والظروف والوسائل التى تقرها شريعة الإسلام.

ومن أجل هذا جاءت تشريعات الإسلام للأسرة هى الأكثر ملاءمة إذا قورنت بما نادى به أنصار الحتميات الاجتماعية، أو بما نادى به أنصار الحرية الإنسانية غير المحدودة، الأكثر ملاءمة لأنها جمعت إلى الواقعية المعاشية والواقعية الإنسانية نزعة إنسانية راشدة ونزعة عالمية لا تعترف بالحواجز الجغرافية التى تفصل بين الإنسان والإنسان ولا بالحواجز الظالمة التى تفصل بين الأسر فتحمل هذه على أن تظل حياتها كلها فقيرة معدمة على حين تبقى تلك حياتها كلها غنية واجدة، لأن تداول المال والثروة أصل فى تشريعات الإسلام، قال الله تعالى فى حظر المال فى الأغنياء فحسب، ومنع ذلك وتحريمه، ووجوب اتباع ما جاء به الرسول ﷺ فى ذلك من هدى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٧، ٨].

إن تشريع الإسلام للأسرة أعدل تشريع وأحسنه لحاضر الأسرة ومستقبلها، لأنه تشريع إنسانى عالمى لا يخضع لاختلاف الزمان ومتغيرات المكان وإنما ينظر للبشرية كلها نظرة واعية مستوعبة.

لم يكن تشريع الإسلام للأسرة قائمًا على أساس اقتلاع جذور النظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى الناس قبل الإسلام، فتلك نظرة عدائية لا مبرر لها ولا يمارسها إلا حاقد كاره لكل ما هو أجنبى عنه، وحاشا للتشريع الإسلامى أن يكون كذلك، وهو تشريع رب العالمين.

كان التشريع الإسلامى يقوم على تقرير التشريعات التى تصلح حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وعلى إبطال أى تشريع أو نظام سابق يرى إفساد الإنسان أو تفويت مصلحته، وعلى أساس إقرار بعض النظم التى يراها الناس محققة لمصالحهم، وهى فى ذات الوقت لا تتعارض مع تشريع الإسلام للأسرة.

وهو حين يبطل بعض النظم الفاسدة يبطلها بحسم وصراحة ودون مواربة، وكذلك يفعل حين يبقى على بعض النظم التى لا تتعارض معه فى شىء وكذلك كان شأنه مع بعض النظم التى أدخل عليها بعض التعديل.

ولقد اتضح موقف الإسلام فى تشريعه للأسرة فى هذا التقرير أو الرفض أو الإقرار أو التعديل، فى قضايا كثيرة لها علاقة وثيقة بالأسرة ونظامها مثل:

قضية الزواج.

وقضية تعدد الزوجات.

وقضيتى الطلاق والخلع.

وقضيتى الظهار والإيلاء.

وقضية وأد الأولاد خشية الفقر.

وقضية وأد البنات خشية الفقر أو العار.

وقضية حقوق المرأة وواجباتها، بنتًا وأختًا وزوجة وأمًا وجدة دنيا أو عليا وخالة وعمة.

وقضية الزنا وما يتفرع عنه من مخالفة ومخادنة، ورغبة فى أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا.

وقضية السلوك الاجتماعى فى عمومه وانعكاساته على الأسرة.

وقضية علاقة الأسرة بعض أفرادها ببعض.

وقضية علاقة الأسرة بغيرها من الأسر فى المجتمع المسلم.

ولا نستطيع أن نتحدث هنا عن هذه القضايا وموقف الإسلام منها وإنما عالجنا معظمها فى كتابنا: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» وسوف نعالج سائرها إذا أذن الله فى كتاب آخر.

ولكننا نهتم فى هذا الكتاب بالتشريعات ذات الصلة بالأسرة، تلك التشريعات التى دلت أكبر دلالة على ما للأسرة من مكانة فى الإسلام، إذ نحن بصدد توضيح مكانة الأسرة فى الإسلام.

إن الإسلام -وهو يعرف حق المعرفة مكان الأسرة فى المجتمع ومكانتها فى بنائه- وضع للأسرة تشريعات تؤمن حاضرها، وتشريعات تؤمن مستقبلها، تشريعات تضمنها القرآن الكريم وفسرتها سنة النبى ﷺ تشريعات إيجابية فاعلة، واقعية عملية ميسورة التطبيق، أى لا تسرف فى الخيال والمثالية وما طمحت إليه أخيلة الذين تصوروا للمجتمع مُدُنًا فاضلة أو سعيدة، ولا هى تعطى لرغبات الإنسان وشهواته ولذاته مجالاً يفسد عليه روحه وعقله بل بدنه كذلك، كما شطحت فى ذلك عقول دعاة مذاهب اللذة والمنفعة وإنما هى التشريعات والنظم القادرة على أن تحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة.

وإن الإسلام وضع هذه التشريعات والنظم لتنفذ وتمارس فى حياة الناس، وليست من قبيل الترف الفكرى أو التشريعى الذى لا يقبل التطبيق، كما حدث ذلك من كثير ممن أعطوا أنفسهم حق التشريع للناس وهم لم يعرفوا - على وجه الحقيقة- أنفسهم فضلاً عن قدرتهم على معرفة ما يصلح الناس وما يفسدهم.

إن الإسلام وضع هذه التشريعات للأسرة، وألزم بها الأسرة أفرادًا، وألزم بها المجتمع أسرًا ومؤسسات، وألزم بها الأمة الإسلامية كلها مجتمعات مختلفة الأعراق والأجناس، وألزم بها كل حاكم مسلم فى أى قطر من أقطار العالم الإسلامى، وما جعل فى هذا الإلزام حرجًا أو مشقة على أحد لأن التشريع للأسرة جزء من منهج الإسلام فى الحياة أى جزء من الدين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

إن التشـريعات الإسلاميـة للأسرة جعلت الإلزام والالتـزام بها بالنسبة للأفـراد والأسر والمجتمع والأمـة والحكومة، منوطًا بأداء الواجبـات والتمتع بالحقـوق، وعندما ألزمت هذا الالتزام وضـعت فى اعتبـارها -لأن المشرع أعلم بالناس من أنفـسهم بأنفـسهم- أن بعض الملزمين قد لا يلتزمون نكولاً أو نكوصًا أو تقصيراً فى أداء الواجب، وذاك أمر يترتب عليه اضطراب فى شئون الأسرة فالمجتمع فالأمة، وما دام التقصير والخطأ صفة الإنسان فلابد من علاج.. ولهذا قد تخرج قضية أداء الواجبات التى شرعها الله من دائرة التقرب بأدائها إلى دائرة تعطيلها ومحاربة الله، وعندئذ تكون للقضاء كلمـته وللحدود والتعزيرات قدرتها على ردع المخطئ والمقصر، وإلزامه بالقوة بأداء هذه الواجبات.

إنها تكاملية فى بناء الأسرة، وتكاملية فى ضرورة وضعها فى المكانة اللائقة بها، ورفض وعقاب لكل من يعبث بواجباتها فى الحاضر أو فى المستقبل القريب أو البعيد .

إن هذا ما نحـاول أن نوضحه فى الصـفحات التـالية بعـون من الله وتوفيق ، وهى فى تصورنا نوعان:

تشريعات تؤمن حاضر الأسرة المسلمة.

وتشريعات تؤمن مستقبل الأسرة المسلمة.

ولنفصل القول فيها بعض التفصيل:

أولاً: مجمل التشريعات التى أمنت حاضر الأسرة المسلمة وهى:

١- قوامة الرجل على المرأة فى الحياة الزوجية.

٢- والولاية على النفس وعلى المال.

٣- والنفقات.

ثانيًا: مجمل التشريعات التى أمنت مستقبل الأسرة المسلمة وهى:

١- الوصايا.

٢- والميراث.

والتوسع فى هذه التشريعات والتماس تفاصيلها إنما يكون فى كتب الفقه الإسلامى وهى كثيرة وغنية، ولكننا نكتفى هنا بإشارة إلى كل تشريع من هذه التشريعات نعرف به، ونؤكد أن للأسرة فى الإسلام مكانة سامية.

١ - التشريعات التى أمَّنت حاضر الأسرة المسلمة:

أولاً: قوامة الرجل على المرأة فى الحياة الزوجية:

القوامة تعنى أن يكون الرجل هو عـائل الأسرة، الساعى على رزقها، المحـافظ عليها، المدير لشئونها، المسئول عنها وعن جميع أفرادها بمن فيهم الزوجة، وذلك لما هيأه الله له من قدرة على القيام بهذه الأعباء جمـيعًا، وبما فضله به من قدرات وإمكانيات لم تتح للمرأة، وبما أنفق من ماله.

هذا هو الأصل الذى يكفل للأسرة أن تشق طريقها فى الحـياة آمنة مطمئنة، فإذا تحولت هذه القوامة من الرجل إلى المرأة، كُلِّفت المرأة ما لا تطيق من ناحية، وانحرفت الأسرة عن أن تشق طريقها الصحيح المستقيم فى حياتها الاجتماعية من ناحية أخرى.

وليس فى صالح الرجل ولا هو فى صالح المرأة ولا فى صالح أفراد الأسرة، أن تتحول القوامة من الرجل إلى المرأة لأسباب عديدة ومهمة، أهمها عند المسلمين آيات القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ....﴾ [النساء: ٣٤]، فهذه الآية الكريمة تصرح أن للرجـال القوامة على النساء أى حق الصـيانة والرعاية والتوجيـه والقيام بشئونهم، بما منح الله الرجال من صفات تمكنهم من القيام بذلك.

ومن الأسباب التى تجعل القوامة للرجال على الأسرة ومَنْ فيها من زوجة وأبناء وغيرهم أن الله سبحانه قد هيأ الرجل فى الحياة لوظائف بعينها، وأهَّله لأدائها على وجهها وبخاصة فى مجال الأسرة، كما أنه سبحانه قد هـيأ المرأة لوظائف بعينها وأهَّلها لأدائها على وجهها كذلك، وجـعل فى قيام كل منهـما بوظائفه وأدائه لواجـباته حمـاية للأسرة وصيـانة لها، وإبعادًا بذلك عن المشكلات والمتاعب، نفسية كانت أو اجتـماعية أو اقتصادية، وأدبية كانت أو مادية.

وإن سلب الرجل قوامته على زوجته وأسـرته، ليعرض الأسرة لكل هذه المتاعب، وإلى متاعب أخرى غـير منظورة، وإن المشاهدات فى بعض الأسر التى آل فيهـا أمر القوامة إلى غير الرجل، لتؤكد تعرض هذه الأسر إلى مشكلات ومتاعب عديدة.

ومهما كـانت المرأة فى الإسلام مساوية للرجل من حيث التكاليف والحـقوق والواجبات والثواب والعقاب، فإن هناك فروقًا حادة بينهما من الناحية الجسدية، تجعل كلا منهما صالحًا

لأداء وظيفته التى هيئ لها دون سواها، ودون مصلحة فى أن يتبادل أى منهما مع الآخر أداء هذه الوظيفة لو كان أداؤها فى إمكانه.

ولقد شهد بهذه الفروق كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وأكده علماء الأحياء وغيرهم من علماء العلوم المتصلة بجسم الإنسان ووظائفه وقدراته وطاقاته.

من المقرر بين علماء الأحياء أن المرأة تختلف عن الرجل بحكم تكوينها الجنسى من لدن كانت جنينًا فى بطن أمها، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى قد هيأ لهذا الجسد الأنثوى من حيث هيكله وتركيبه وبناؤه كله من الإمكانات والاستعدادات، ما يمكن المرأة من الحمل والولادة والإرضاع والحضانة والتربية والعطف والحنان.

وكلما تقدم العمر بالأنثى تمايزت فى تكوينها الجسدى عن الرجل، فهى فى سن البلوغ يعتريها الحيض.

وبعد الزواج تحمل وتضع وترضع.

وكلما تقدمت بها السن ازدادت قدرة على الحضانة والتربية والعطف.

ولقد وقف علماء الأحياء طويلاً عند فترة الحيض وما لها من تأثير فى المرأة وفى جميع ما تقوم به من أعمال، فرصدوا من ذلك هذه التغيرات التى تعتريها مصاحبة لفترة الحيض:

١- انخفاض ضغط الدم وما يصاحبه من أعراض.

٢- وقلة عدد الخلايا فى الدم.

٣- وبطء النبض.

٤- وانخفاض درجة حرارة الجسم؛ لأن قوة إمساك الجسم للحرارة تضعف فى فترة الحيض.

٥- وإصابة اللوزتين ببعض التغير.

٦- واختلال عملية الهضم.

٧- وضعف قوة التنفس.

٨- وإصابة آلات النطق بتغيرات.

٩- وتبلد الحس.

١٠- وتكاسل الأعضاء.

١١- وضعف قوة التركيز فى أى عمل فكرى.

١٢- وتخلف الفطنة والذكاء.

١٣- والإصابة بالصداع.

١٤- والشكوى من التعب العام.

١٥- والشكوى من أوجاع فى العظام.

١٦- واضطراب فى المثانة.

١٧- وحدوث غثيان ورغبة فى التهوع «والتقيؤ».

١٨- والشعور بوجع خفيف فى الصدر.

١٩- وقلة الرغبة فى الطعام.

٢٠- وقلة القدرة الحركية المعتادة.

٢١- والميل إلى البكاء.

٢٢- وإصابة الغدد الصماء والغدد «الليمفاوية» بالتغير.

٢٣- وقد تصبح شرسة الطباع.

وكذلك شأن المرأة فى أثناء مدة الحمل والرضاعة، فهى فى كل هذه الحالات تعانى أمراضًا بدنية شهرية وأمراضًا فى الحمل والرضاعة موسمية، وأمراضًا عند الفطام كذلك.

وهكذا فطرها الخالق سبحانه وتعالى وهيأها لتقوم بأعباء الحمل والولادة والإرضاع والفطام، ثم هى لا تلد مرة واحدة وإنما تتعدد الولادة بالنسبة لها على مدى فترة خصوبتها، حتى تبلغ سن اليأس - فترة انقطاع الحيض- أى أن يبلغ سنها خمسين سنة أو قريبًا من ذلك.

أتستطيع المرأة مع كل هذا أن تحمل عن الرجل أعباء القوامة أو أن تشاركه فيها؟ إنها إن تفعل فقد ظلمت نفسها وأسرتها، وحملت ما لا طاقة لها به من الأعباء.

إن الذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل فى هذا المجال أغرار، وغير رحماء بالمرأة، إنى أتصور -وقد أسفر الصبح لذى عينين- أن الذين ينادون بمساواة المرأة للرجل أنانيون يحبون أن يريحوا الرجل لتشقى المرأة، كما هو حالها اليوم، إنها بهذه المساواة جمعت على نفسها أعباء الزوجية والأمومة من حمل وولادة وإرضاع وفطام إلى جانب أعباء العمل والسعى والكد وقيادة السيارة وتوصيل أبنائها إلى المدارس وركون زوجها للراحة والدعة!!!.

إن المنادين بمساواة المرأة للرجل يغفلون عن فائدة الأسرة بقوامة الرجل، وما فى ذلك من تهديد للحياة الاجتماعية بعامة، فضلاً عما فى ذلك من مناقضة الفطرة التى فطر الله عليها النساء.

ومادام الأمر كذلك فإن المرأة لها وظائفها فى الأسرة، ونستطيع أن نحددها فيما يلى:

١- وظيفة الحمل والولادة والإرضاع والفطام.

٢- ووظيفة تربية الأبناء وإحسان حضانتهم ورعايتهم.

٣- ووظيفة رعاية المنزل وتنظيم الحياة فيه، وجعله قادراً على أن يكون واحة راحة وأمن لكل من يعيشون فيه.

وهذا حسبها وهو ليس يسيراً، وإضافة أى أعباء أخرى إليها فوق ذلك سوف يكون على حساب أدائها لهذه الوظائف الأساسية، وعلى حساب الأسرة والمجتمع.

وإن هذا كله ليؤكد أن القوامة فى الأسرة يجب أن تكون للرجل؛ لما فطره الله عليه من قدرة على القيام بأعباء هذه القوامة - وما تتطلبه من القيادة والريادة، واتخاذ القرار فى الأسرة.

وإن أى انتقاص من مفردات هذه القوامة سوف يكون على حساب الأسرة، ثم على حساب المجتمع كله.

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام وهو يشرع للأسرة ويجعل القوامة للرجل فى الأسرة، إنما يؤكد مكانة هذه الأسرة فى المجتمع المسلم، و،بإحاطتها بكل أسباب النجاح والفلاح.

وإن المنادين بالإخلال بهذا التشريع الذى يجعل القوامة للرجل، إنما هم أصحاب هوى، وهوس، إن أبسط ما يصفون به - وهم يتحدون تشريع الله ونظامه - أنهم سفهاء.

ثانياً: الولاية على النفس وعلى المال:

وتلك الولاية هى تشريع من التشريعات التى تؤمن الأسرة فى حاضرها، وتحيطها بأسباب الصيانة والرعاية:

والولاية فى الشريعة نوعان:

ولاية على النفس.

وولاية على المال.

ولكل نوع من هذين النوعين قانونه الذى ينظمه ويرده إلى أصوله من الكتاب والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع الإسلامى.

فالولاية على النفس- من أجل تأمين حاضر الأسرة المسلمة- تتمثل فى الولاية على الصغير، وذلك أن الكبير ليس بحاجة إلى ولاية، إلا إذا كان مجنونًا أو سفيهًا أو فيه صفة من الصفات التى تحرمه من تولى أمر نفسه.

وهذا الصغير تسمى الولاية عليه فى سن الرضاعة والطفولة حضانة، وقد نظمت الشريعة الإسلامية هذه الحضانة فجعلتها للأم؛ لأن الله سبحانه هيأ الأم لذلك أكثر من الأب.

روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه، أن امرأة قالت: يارسول الله، إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء، وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وأن أباه طلقنى وأراد أن ينتزعه منى، فقال رسول الله ﷺ: «أنت أحق به ما لم تنكحى».

وروى سعيد بن منصور فى سننه أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حكم على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بعاصم لأمه أم عاصم، وقال له: ريحها وشمها، ولطفها خير له منك.

وقد جعل الإسلام الولاية على الطفل لأمه، فإن فقدت أمه أهلية ولايته وحضانته بفقد شروطها، فإن أولى الناس بحضانة الطفل والولاية عليه؛ أمُّ أمه ثم أمهاتها الأقرب فالأقرب، ثم تكون الولاية للأب بعد ذلك.

وقد رتبت الشريعة الولاية على هذا الصغير بعد الأم وأمهاتها والأب، فجعلتها على الترتيب التالى:

الأخت الشقيقة.

ثم الأخت لأب.

ثم الأخت لأم.

ثم الخالة.

ثم العمة.

واعتبرت خالة الأب أحق من خالة الأم.

كل ذلك من أجل ألا يضيع طفل حين يفقد رعاية الحاضنة.

وللعلماء فى تعليل الولاية على النفس بالنسبة للطفل أقوال عديدة لعل من أوضحها: أن يقدَّم فى الحضانة بعد الأم وأمهاتها والأب، من كان يدلى بنسب أوثق.

وتظل هذه الولاية أو الحضانة على الطفل حتى يبلغ الاحتلام إن كان ولدًا وتبلغ المحيض إن كانت بنتًا، أو الإنبات مع التمييز وصحة الجسم، وبرهان تلك الولاية على النفس، وتأصيلها الشرعي هو قول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقد احتاط فقهاء الشريعة لحضانة الأم، فشرطوا فى الأم أن تكون مأمونة فى دينها ودنياها، فإن فقدت هذين الشرطين نظر إلى الصغير أو الصغيرة بما يحفظ لهما دينهما، ثم دنياهما، فحيثما كانت الحياطة لهما فى كلا الوجهين وجبت هنالك، عند الأب أو الأخ أو الأخت أو العمة أو الخالة أو العم أو الخال.

وعلى وجه العموم، فإن ذوى الرحم أولى من غيرهم على كل حال، والحفاظ على الدين مُغَلَّب على الحفاظ على الدنيا بكل حال كذلك.

وكل ولى على الصغير يشترط فيه ما يلى:

العقل.

والأمانة.

والقدرة على ما تتطلبه الولاية من رعاية واهتمام وتربية.

واشترطوا أن يكون الولى مسلمًا إذا كان الصغير مسلمًا.

وكالولاية على الصغير الولاية على المجنون والسفيه وكل من لا يعرف مصلحته ويحافظ على نفسه، وتظل هذه الولاية حتى يزول العارض الذى يحول بين الإنسان والمحافظة على نفسه، من صغر أو جنون أو سفه أو غيره.

هذا بالنسبة للولاية على النفس، التى جعلتها الشريعة حماية لمن يحتاج إلى حماية من أفراد الأسرة.

أما الولاية على المال فلا تقل أهمية، ولذلك أولاها التشريع الإسلامى من العناية ما أوجب حفظ مال الصغير والمجنون والسفيه.

والتأصيل الشرعى لهذه الولاية على المال قول الله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] فلما أمر الله بدفع أموال اليتامى إليهم بيَّن أن السفيه وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه، فقال

تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥] فدلّت هذه الآية الكريمة على ثبوت الولى الذى يحفظ مال الصغير لسفهه أو عجزه عن المحافظة على ماله.

والسفه: خفة فى النفس لنقصان فى العقل، وهو سفه دنيوى جاءت فيه هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ...﴾، وسفه أخروى جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

وقد فسر أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه السفهاء هنا بكل من يستحق الحجر عليه لصغره أو عدم عقله.

وبعض العلماء توسع فى معنى السفه، فادخل فيه من يجهل أحكام الدين فى التعامل بالمال.

والولاية على المال للمحافظة عليه تثبت للأب والجد وغيرهما على نحو ما هو مفصل فى كتب الفقه الإسلامى.

إن الشريعة الإسلامية وهى تحمى الأسرة من أن يتبدد مال أحد أفرادها لصغره أو سفهه، إنما تُشرّع للأسرة نظامًا يكفل هذه الحماية حتى من صاحب المال نفسه.

وتكون هذه الولاية على المال بالولى أو الكفيل أو الوصى، وهؤلاء جميعًا لا تصح ولاية أحد منهم إلا إذا استوفى الشروط التالية:

العقل.

الأمانة.

والقدرة على المحافظة على المال وتنميته، حتى يصل إلى يد صاحبه بعد زوال العارض الذى أوجب الولاية على ماله.

ولا يدفع هذا المال لصاحبه إلا إذا بلغ النكاح، وأُنس منه الرشد فى تصرفه فى ماله، فإن بلغ النكاح ولم يكن راشدًا فى أمور ماله حجب عنه حتى يرشد؛ إذ العبرة هى قدرته على المحافظة على المال حتى لا يتبدد فيضيع على صاحبه وعلى المجتمع كله.

وللعلماء تفاصيل فيمن أُنِس منه الرشد، تلتمس هذه التفاصيل فى كتب الفقه الإسلامى كذلك.

وهكذا يحمى الإسلام حاضر الأسرة المسلمة بالولاية على النفس وعلى المال، بالنسبة لكل من لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه أو تدبير ماله.

ثالثًا: النفقات:

وفى سبيل تأمين حاضر الأسرة، شرع الإسلام النفقات وحدد من تجب عليهم النفقة، وألزمهم بها تقربًا إلى الله تعالى إذا رضوا واستجابوا، أو قضاءً إذا تَخَلَّوا، والقضاء لافكاك من أحكامه.

إن تشريع النفقات ملزم أخلاقيًا وقضائيًا، وما كان هذا الإلزام إلا حماية للأسرة فى حاضرها، ودفعًا لأى ضرر يقع عليها نتيجة لامتناع من تجب عليه النفقة عن الإنفاق.

وإن التأمل فى فقه النفقات فى الإسلام، ليضع أيدينا على حقائق عظيمة ربما لم تتوافر فى أى دين أو نظام، ومن هذه الحقائق ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١- تأكيد أن الأسرة فى الإسلام نظام اجتماعى راسخ، تجب حياطته بكل الأسباب التى تجعل من هذه الأسرة مجموعة من الأفراد يعيشون حياة إنسانية كريمة، يرفرف عليها الحب والمودة، ويسودها مبدأ القيام بالواجبات والتمتع بالحقوق.

٢- وتأكيد أن العلاقات بين أفراد الأسرة علاقات تقوم على التراحم والتكافل ورفع الحاجة عن المحتاجين، وتضافر الجهود فى دفع هذه الحاجة؛ لتعيش الأسرة آمنًا اجتماعيًا واقتصاديًا ونفسيًا.

٣- وتأكيد أن التقصير فى القيام بواجب النفقات على من تجب عليه النفقة، يعرض المقصر لغضب الله؛ إذ يخالف بذلك التقصير عن أمر الله تبارك وتعالى، كما يعرضه لأحكام القضاء التى لا يستطيع منها فكاكًا.

وكل ذلك تأمين لحاضر الأسرة واحترام وتقدير لها.

إن النفقات فى التشريع الإسلامى واجبة على أنواع من الناس هم:

أ- الزوج.

ب- والأب.

جـ- والابن.

د- وذوو الأرحام، ماداموا وارثين وأهل قدرة على الإنفاق.

وقد وضع الفقهاء لذلك شروطًا، أخذوها من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، ويمكن أن نجمل هذه الشروط فيما يلى:

١- أن يكون المنفق قادرًا على النفقة - وحد القدرة أن يكون له فضل مال أو كسب بعد إنفاقه على نفســه - فقد جاء ذلك فى السنة النبوية، فقـد روى مسلم بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»**.

وروى الإمام مـسلم بسنده عن جابر بن سـمرة رضى الله عنه قال: سـمعت النبى ﷺ يقول: **إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وآل بيته.**

وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول **«إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وآل بيته»**.

وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قـال: أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دُبُر - أى دبَّره بجعل عتقه بعد أن يموت سيده - فبلغ ذلك رسول الله فقال: **«ألك مال غيره؟»** فقال: لا، فقال: **«من يشتريه منى؟»** فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم، فجاء بها رسول الله ﷺ فدفعها إليه ثم قال: **«ابدأ بنفسك، فإن فَضل شىء فلأهلك، فإن فَضل من أهـلك شىء فلذى قرابتك، فإن فضل من ذى قـرابتك شىء فهكذا وهكذا»** يقول: فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك.

٢- وأن يكون المنفق وارثًا؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولأن بين المتوارثين قرابة تقتضى كـون الوارث أحق بمال المورث من سائر الناس، فينبغى أن يختص بوجوب صلته بالنفقة دونهم.

فإذا لم يكن وارثًا ولكنه قريب، فإن كان المنفق والمنفق عليــه مختلفى الدين أو مختلفين فى الرق والحرية أو حجب أحدهما عن الميراث لوجود من هو أقرب فلا تجب النفقة.

٣- وأن يكون المنفق عليه فقيراً - لا مال له ولا كـسب - لأن النفقة مواساة، ومن كان ذا مال أو كسب استغنى عن المواساة لأنه من أهل اليسار.

هذه هى أهم شروط النفقات كما جاءت فى كتب الفقه الإسلامى.

أمـا وجوب النفـقـات على الزوج والأب والابن وذوى الأرحام، فـتـؤيدها الأدلة من نصوص الكتاب والسنة والإجماع.

فوجوبهـا على الزوج نحو زوجته ثابت بالقـرآن الكريم؛ قال تعالى﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

وثابت بالسنة النبـوية؛ روى الإمام مسلم بسنده عن جـابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فـقال: «اتقـوا الله فى النسـاء، فـإنهن عـوان عـندكم، أخـذتموهن بأمـانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، لهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وثابت بالإجماع كذلك؛ فقد أجمع أهل العـلم على وجوب نفقة الزوجة على زوجها؛ لأنه حبسها على الزوجية.

وأما وجوب النفقة على الرجل نحو والديه وولده الذكور والإناث إذا كانوا فقراء، وكان له ما ينفق منه عليهم، فهى واجبة بالكتاب والسنة والإجماع كذلك.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٦].

وأما السنة فقد سألت هند زوجة أبى سفيان رضى الله عنهما رسول الله ﷺ عما تأخذه من مال زوجها أبى سفيان بغير إذنه، فقال لها فيما يرويه البخارى: «خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف»[١].

وروى أبو داود بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

وأما الإجماع فقد أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبة فى مال الولد، وأن نفقة أولاده الأطفال واجبة عليه.

حتى إن من النفقات الواجبة على الأب نفقة تزويج ابنه إذا احتاج إلى النكاح إعفافًا له.

وكذلك تجب على الرجل الابن نفقة تزويج أبيه إذا احتاج إلى النكاح إعفافًا له كذلك.

أما النفـقة الواجبة على ذوى الأرحام مـا داموا وارثين وذوى قدرة على الإنفـاق، فإنها مشروحة بتوسع فى كتب الفقه الإسلامى، فهناك ترتيب لهؤلاء الأقارب الذين تجب عليهم النفقة، وكذلك تحديد قدر النفقة، وتحديد وقتها.

وفى النفقة على الخدم والعبيد كلام موسع يلتمس فى كتب الفقه وكتب السنة النبوية.

وبعد: فهذه هى التشريعات التى تحمى الأسـرة وتؤمنها فى حاضرها، وعند التأمل فيها

(١) الإمام البخارى: صحيحه ٣/١٠٣ ط الشعب القاهرة، دون تاريخ.

جميعًا، من قوامة للرجل على الأسرة ومن ولاية على النفس وعلى المال ومن نفقات واجبة، يتأكد لنا أن للأسرة فى الإسلام مكانة أعلى مكانة، بدليل هذه التشريعات والنظم.

ب- التشريعات التى أمَّنت مستقبل الأسرة:

وهى كما أشرت إليها آنفًا تشريعان:

الأول: الوصية:

وهى التبرع ببعض المال بعد الموت للأقارب مِمَّنْ لا يرثون الموصى؛ لأن الورثة لهم أنصبة حددتها الشريعة فى تركة مورثهم.

والأصل فى الوصية الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠ - ١٨٢].

وقد أجمع العلماء على وجوب الوصية على من أَحَسَّ بدنو أجله، وعنده ودائع أو عليه ديون، حفظًا للحقوق، وأما من لم يكن عنده ودائع أو عليه ديون فقال مالك والشافعى: لا تجب عليه الوصية، وقال الزهرى: هى واجبة بظاهر القرآن، والرأى الأول أرجح إلا أن يشاء الوصى أن يوصى.

والخير فى الآية: المال.

والوالدان فى الآية: اللذان لا يرثان، كأن يكونا كافرين أو عبدين فيوصى لهما.

والأقربون فى الآية: غير الوارثين كذلك؛ لأنه لا يجوز الوصية لوارث.

وعلى الموصى أن يراعى فى وصيته الفقراء وذوى الحاجة، ولا يسوى إلا بين متساويين فى الفاقة، وعند صدور الوصية من الموصى فلا يجوز لأحد أن يغير فيها أو يبدل، إلا إذا كانت الوصية مجافية للعدل، فإن كانت كذلك فلا حرج على من بدل فيها لتوافق العدل ولا يؤاخذه الله سبحانه.

وأما السنة فقد روى الشيخان بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى به يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده»، وواضح أنها تجب على من كانت عنده ودائع أو عليه ديون - كما قدمنا - أما فى غير ذلك فهى خاضعة

لإرادة الموصى.

وروى أبو داود بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قد أعطى لكل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث»، ومعلوم كذلك استثناء الوالدين والأقربين إذا لم يكونوا وارثين على نحو ما أوضحنا سابقًا.

وروى البخارى بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: جاءنى رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى فقلت: يا رسول الله، قد بلغ بى من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة، أما أتصدق بثلثى مالى؟ قال: «لا»، قلت: فبالشطر يا رسول الله؟ قال: «لا»، قلت: فبالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

وأما الإجماع فقد أجمع علماء المسلمين على جواز الوصية.

والأقارب غير الورثة أولى بالوصية من الأجانب، فإن أوصى للأجانب دون الأقارب فأصح الأقوال أن وصيته تنفذ فى ثلث ما أوصى به ويرد ثلثها على أقاربه، قال بذلك سعيد بن المسيب والحسن وجابر بن زيد رضى الله عنهم.

وقال طاووس والضحاك وغيرهما: ينزع كله عن الأجانب ويرد إلى الأقارب.

وقالت طائفة من العلماء تصح وصيته ولا ينزع من الأجانب الذين أوصى إليهم شىء.

وفى تشريع الوصية - كما رأينا - حماية للأقارب غير الوارثين وللآباء والأمهات الذين حالت ظروف اختلاف الدين أو الرق بينهم وبين الميراث، فهؤلاء جميعًا ترغب الشريعة أن تطيب خواطرهم وأن تقيهم شر الحاجة، وهذا هو التأمين الصحيح للأسرة بل للمجتمع كله من أن يكون فيه أهل حاجة وخصاصة.

الثانى: الميراث:

الشريعة الإسلامية بوضعها لنظام الميراث إنما تحمى الأسرة وتحيطها بسياج متين من الأمن فى مستقبلها، كما تدفع كل جيل من الأجيال إلى الإحسان والتجويد والعمل والإنتاج، واستثمار كل طاقاته الفكرية والجسمية ليحصل على الكسب الذى يؤمن به حياته، ويدع به ورثته أغنياء، لا عالة يتكففون الناس ويسألونهم أعطوهم أو منعوهم.

ثم يأتى نظام الميراث بعد هذا ليفتت الثروة فى الورثة، فيعم النفع بالمال أكبر عدد من

الناس.

إن نظام الميراث فى الإسلام أشمل أنظمة المواريث وأدقها وأكثرها عدالة، أما شموليته ودقته فلأنه لم يدع واحدًا من ذوى القربى له حق فى الميراث إلا جعل إرثه حقًا مشروعًا، لا يجوز حرمانه منه بأى طريقة من الطرق الظالمة أو الاحتيالية - إلا أن يكون هذا الوارث قد حال بينه وبين الميراث حائل من كفر أو رق أو نحو ذلك - ومما يدخل فى دقته اللافتة لنظر المتأملين المتدبرين أن جعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأنه أوجب على الذكور من الأعباء والنفقات ما لم يوجب على الإناث.

وأما عدالته فلأنه نظام يحقق المصلحة الخاصة والعامة معًا ويحق الحق بين أفراد الأسرة جميعًا، ثم بين أفراد المجتمع كله، أما محافظته على الأسرة فلما يتولد عنه من مسئوليات نحو الوارثات أولاً، ونحو غير الوارثين والوارثات بعد ذلك.

ولأن الأسرة دعامة المجتمع وقاعدته، فإنه لا يدعم الوشائج بين أفرادها ويقوى الروابط بينهم بعد موت مورثهم مثل نظام التوريث الذى جاء به الإسلام، وذلك أن دعم الأسرة وتقوية الروابط بين أفرادها دعم للمجتمع.

وعلى سبيل المثال: فإن نظام ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] هو تحقيق للعدالة الاجتماعية، وتوثيق لروابط المودة والمسئولية التى قد تنتهى بوفاة رب الأسرة ووالد الأبناء، وذلك أن الأنثى فى ظل التشريع الإسلامى يعولها غيرها من أب أو جد أو أخ إن كانت صغيرة لم تتزوج بعد، ويعولها زوجها بعد الزواج، ويعولها ابنها إذا فقدت زوجها، ثم إنها غير مطالبة بأى مغارم مالية، فهى عندما تتزوج لا تدفع مهراً وإنما تأخذ- على عكس ما هو موجود فى بعض الأنظمة الأخرى - وبعد الزواج لا تلزم بنفقة لا على نفسها ولا على أولادها.

وفى الجانب الآخر فإن الذكر الذى يأخذ من الميراث ضعف ما تأخذه الأنثى، مطالب عندما يتزوج أن يدفع مهراً، ومطالب بالإنفاق على زوجته وأبنائه وآبائه وأمهاته وإخوته إذا كان فيهم فقير لا مال له ولا كسب ويحتاج إلى الإنفاق عليه.

إن نظام الميراث فى الإسلام يحقق راحة نفسية للإنسان فى حياته، إذ يشجعه على أن يبذل من الجهد فى العمل والرغبة فى الكسب ما يمكنه من أن يؤمن مستقبل أسرته.

كما أن من عدالة نظام الميراث أنه يجعل الثروة فى عدد من الأيدى، فيمكن تداولها بين ناس كثيرين، وكل مال يتداول بين كثيرين أنفع للناس وللمجتمع وأدفع للحاجة، وعلى

العكس من ذلك إذا تكدس المال ولم يتداول.

ونظام المواريث فى الإسلام ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب الكريم ففيه عدد من الآيات التى حددت الأنصبة وشرعت هذا النظام، وأجمع هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ٧ - ١٤].

ثم الآية الأخيرة من سورة النساء: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦].

فهذه الآيات الكريمة من سورة النساء هى علم الفرائض أو علم المواريث، وما وراء تلك الآيات إنما هو تفسير وتفصيل لها.

وعلم المواريث أحد أثلاث العلم أو نصفه كله، كما ورد ذلك فى الحديث النبوى.

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة».

وأخرج ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعلموا الفرائض، فإنها نصف العلم».

وأما وجوب المواريث بالسنة فقد روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك فى أحد شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما، ولا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتى سعد الثلثين، وأمهما الثمن وما بقى فهو لك».

وأما وجوب الميراث بالإجماع فقد أجمع أهل العلم على تطبيق نظام الميراث، وفصلوا فى هذه الآيات وألحقوا بذوى القربى من يجب أن يلحقوا بهم، وقد شمر العلماء فى علم المواريث، فحددوا فيه ما يلى:

الحقوق المتعلقة بالتركة.

ومراتب الورثة.

والظروف التى تمنع من الإرث.

وحددوا الفروض.

وحددوا أصحابها.

وعرفوا العصبيات بالنفس أو بالغير أو مع الغير أو بالسببية.

وأوضحوا متى يحجب الورثة بعضهم بعضًا.

وبينوا علم قسمة الميراث.

وبينوا التخارج والرد والمناسخة.

وأوضحوا العول والتماثل والتداخل والتوافق والتباين والتصحيح.

ونبهوا على كيفية توريث الحمل، وكيفية توريث الخنثى والمفقود والأسير والمرتد.

وحددوا كيفية توريث الغرقى والحرقى والهدمى.

ولم يخالفهم فـى هذا الإجماع إلا فئة من علمـاء «الظاهرية» قالوا بمنع توريث الأرض بصفة خاصة، وإباحة ميراث غـيرها واحتجوا فى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

ولكن موقفـهم هذا مرجوح؛ لأن الأرض التى منعوا ميـراثها قد قال الله تعالى فـيها: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقد عارض فكرة الميراث كلها بعض الاجتماعيين وبعض الذين كانوا مفتونين بالاشتراكية؛ لأنهم ينكرون الأسرة نفسها، كما ينكرون الميـراث بين أفراد الأسرة بحجة أن الميراث والأسرة كليهما يشجعان على تضخم الثروات وتحكم رءوس الأموال فى جهود العاملين الكادحين!!.

والرد عليهم قـد تكفلوا هم به اليوم، بتراجعـهم عن الاشتراكيـة بل الشيوعيـة كلها بما سموه إعادة البناء.

ونستطـيع أن نرد على بعض المتمـسكين منهم إلى الآن بالاشتـراكية بأن إلـغاء المواريث وإلغاء الأسرة يقوض حياة الإنسان النفسـية والخلقية، ويقتل فى الناس الطموح والرغبة فى الإنتاج والحصول على رزق أفضل لتأمين حياته وحـياة الأسرة، فضلاً عما فى زعمهم بأن الميراث يؤدى إلى تضـخم الثروات من مخـالفة للحق والحقـيقة؛ لأن الميراث يفـتت الثروة ويمكن منها عددًا أكبر من الناس بعد أن كانت لمورث واحد.

على أن تضخم الثروات إن وجد لأسباب أخرى إذا لم يعالجه نظام التوريث فى الشريعة الإسلامية، فإن علاجه عن طريق فَرْض ضـرائب على التركات - كما تفعل بعض الأنظمة والحكومات مـسلمة وغير مـسلمة - ليس علاجًـا حقيقـيًا، ولا يمكن أن يكون بديلاً عن الميراث فى تفـتيت الثروة، وكـذلك الشأن فى أى نظام يلغى نظام التـوريث بزعم أنه بهذا الإلغاء يحقق فـائدة للمجتمع؛ لأن أكبـر فائدة للمجتمع هى فـى بقاء نظام التوريث الذى جاءت به الشريعة الإسلامية.

وما لهؤلاء الاجتماعيين أو الاشتراكيين ينكرون على الناس ميراث الأموال، ولا ينكرون ميراث الصفات الجسدية والعقلية والنفسية عن الآباء والأمهات؟

وما لهم لا ينـكرون على الناس ميراث الـعادات والتقـاليد عن ذويهم، مع أن مـيراث العادات والتقاليد من جيل إلى جـيل ومن زمن إلى آخر أضر على الناس وأفتك بمصالحهم

وادعى إلى أن يتحجروا على أنماط بعينها من السلوك كانت صالحة للآباء والأجداد، ثم فقدت هذه الصلاحية بتقدم الزمن واستمرارية التغيير فى الحياة، إن هذا هو ما كان جديراً بأن يلغوه لو استطاعوا، ولو أرادوا مصلحة المجتمع بإخلاص!!!.

إن نظام التوريث - كما جاءت به الشريعة الإسلامية - تلافى كل العيوب التى جاءت بها نظم أخرى غير إسلامية، من توريث البكر أو الكبير أو الذكر وحرمان باقى الورثة، مما لا نحب أن نفيض فيه هنا - وفى الوقت نفسه فإن نظام التوريث الإسلامى راعى كل المعانى الإنسانية التى تحقق للمجتمع كله أفرادًا وأسرًا وصغارًا وكبارًا، وذكورًا وإناثًا ويتامى وأرامل، وأقرباء وأرحامًا، كل ما فيه صالحهم فى حاضرهم وفى مستقبل أيامهم، وما ذلك إلا أنه تشريع جاء من عند الله، لم توجهه أهواء الوارثين أو المورِّثين، أو الاشتراكيين أو الاجتماعيين.

ونستطيع أن نتبين هذه المعانى الإنسانية الرائعة التى تعطف أفراد المجتمع بعضهم على بعض، وتحقق بينهم التعاون والتكافل فيما يلى:

١- أعطت الشريعة الإسلامية ذوى القرابة ممن لا يرثون لحجبهم بمن هو أقرب للمورث أو لبعد قرابتهم أو لغير ذلك من الأسباب، أعطت هؤلاء بعض الحقوق، حين أمرت الورثة أن يعطوهم ما تجود به أنفسهم وما يطيبون به أنفس هؤلاء الأقرباء الذين لا يرثون، وأن يعطفوا على ذلك الإعطاء القول اللين والاعتذار الحسن، قال تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

٢- وأوصت الشريعة باليتامى وحذرت من ظلمهم وأكل أموالهم بعد موت مورثيهم، حتى يطمئن كل فرد فى المجتمع - وهو يرعى اليتامى ويتعفف عن ظلمهم وأكل أموالهم - على أبنائه هو لو مات عنهم وتركهم يتامى ضعافًا لا راحم له ولا محافظ على حقوقهم؛ لأن المجتمع ما دام يسود فيه رعاية اليتامى والإحسان إليهم فإن كل فرد فيه سوف يطمئن على أبنائه لو تركهم صغارًا، ولم تكتفِ الشريعة بهذه الوصية الأدبية الإنسانية وإنما صورت آكلى أموال اليتامى أو ظالميهم فى صورة تُساوى فى بشاعتها أكل أموالهم؛ إذ صورتهم يأكلون النار فى الدُّنيا ويعاقبون بالنار فى الآخرة، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا

﴿٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

[النساء: ٩ - ١٠].

٣- وجعلت الشريعة الإسلامية التصرف فى الموروثات وقسمتها بين مستحقيها لاحقة؛ لإبراء ذمة المورث من كل دَيْن عليه أو وصية يجب أن يوصى بها ضمانًا لأمرين على جانب كبير من الأهمية:

أولهما: ألا تضيع حقوق أصحاب الودائع والأمانات والديون وغيرهم، بل تظل عالقة بذمة الميت.

والثانى: ألا يتسبب المورث فى أن يدخل فى ذمم وارثيه ماليس لهم بحق.

وهذان الأمران يضمنان براءة الذمة والمحافظة على حقوق الآخرين، ولذلك طالبت الآيات الكريمة التى وردت فى الميراث التى ذكرناها كاملة آنفًا، أن يكون هذا التوريث بعد الوصية والدَّين، وخاطبت بذلك كل مورث.

وبعد: فهذا التشريع لنظام الميراث فى الإسلام يحمى الأسرة فى مستقبلها، ويؤمنها ويطمئنها ويعطى لكل ذى حق حقه فى عدالة اجتماعية ومرحمة إنسانية لم تسبق ولم تلحق فى دقتها وإحقاقها الحق، وفى هذا الحماية الحقيقية للمجتمع بما تقرره من تراحم وتعاون وتكافل.

وأخيراً: فإن هذه التشريعات لحماية الأسرة فى حاضرها، بقوامة الرجل على الأسرة، والولاية على النفس والمال، وإيجاب النفقات على من تجب عليهم، وتلك التشريعات لحماية الأسرة فى مستقبلها من نظام الوصية ونظام الميراث، كل هذه الأنظمة وغيرها مما لا يتسع بنا المقام لذكره واستقصائه ليؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك أو التردد - أن للأسرة فى الإسلام مكانة عظيمة، ولعل هذه المكانة إنما نبعت من عظمة الأهداف التى ناط الإسلام الأسرة بتحقيقها، وهو ما سوف نبينه فى الصفحات التالية من الكتاب والله المستعان.

●●●●

٣- أهداف الأسرة المسلمة

سبق أن أوضحنا فى نهاية الفصل الأول من هذا الباب أهداف المجتمع المسلم، وها نحن ننهى الفصل الثانى من هذا الباب، بتوضيح أهداف الأسرة المسلمة.

وقد قسمنا أهداف المجتمع المسلم هناك إلى عشرة أهداف، كان آخرها عناية المجتمع الإسلامى بالأسرة، فالأسرة والاهتمام بها ورعايتها هدف من أهداف المجتمع الإسلامى، كما أوضحنا وكما هو الحق.

ونحاول هنا -بعون من الله- أن نوضح أهداف الأسرة المسلمة التى أحاطها دين الإسلام والمجتمع الإسلامى بكل أنواع الضمانات والاحتياطات التى تؤمن لها حاضرها ومستقبلها، وتمكنها من ممارسة حياتها فى ظل المودة والقيم الخلقية الإسلامية؛ إذ من البديهى أن يكون للأسرة المسلمة أهداف تسعى إلى تحقيقها، وتعتبر إذا قصرت فى تحقيقها قد خالفت منهج الإسلام ونظامه الاجتماعى، فاضرت بذلك التقصير بالمجتمع الإسلامى كله.

ومادام المجتمع المسلم -كما قلنا غير مرة- فى تحليله الصحيح هو مجموعة من الأسر المسلمة، فمن الضرورى الواجب أن تسهم هذه الأسرة فى بناء المجتمع إسهامًا حقيقيًا، وإنما يكون ذلك إذا اتضحت لها أهدافها التى يجب أن تعمل على تحقيقها.

وهذه الأهداف فى تصورنا -بعد مزيد من التأمل فى عديد من مقاصد الشريعة ومفردات المقاصد ونرجو أن نكون فيها من الموفقين- هى إجمالا ما يلى:

١- تربية الجيل المسلم المتخلق بخلق الإسلام.

٢- والمحافظة على آداب الإسلام فى كل مظاهر الحياة الأسرية.

٣- وربط أبناء الأسرة بالمسجد.

٤- ودفع الأبناء إلى المجتمع وقد تسلحوا بخلق الإسلام؛ ليمارسوا واجباتهم فيه، ويستمتعوا بحقوقهم.

٥- وتوجيه الأبناء إلى التفوق والإجادة فى كل ما يقومون به من عمل فى حياتهم.

٦- وتوجيه الأبناء نحو ممارسة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٧- والعمل على إيجاد روابط بين الأسر المسلمة.

ولنحاول أن نلقى ضوءًا على كل هدف من هذه الأهداف بشىء من التفصيل بعون من الله.

الهدف الأول: تربية الجيل المتخلق بخلق الإسلام

إن الأسرة المسلمة لا تستأهل أن توصف بأنها مسلمة، إلا إذا وضعت فى اعتبارها أن تعمل على تربية أبنائها تربية إسلامية، تتضح فيها القيم الإسلامية فى كل ما يمارسونه من قول وصمت وعمل وترك، إن هذه القيم لن تتوافر فى الأبناء فى مختلف أحوالهم إلا إذا كانت هدفًا من أهداف الأسرة المسلمة التى نشأوا فيها.

إن تربية الأبناء تربية إسلامية لا تتم بمجرد أن يوصى الآباء أبناءهم، أو أن يعظوهم بأن يكونوا متمسكين بأخلاق الإسلام، إن ذلك وحده لن يكفى وإذا كفى فلن يفيد الانتماء والاعتزاز بالإسلام، إن التربية تحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير، إن لها متطلبات عديدة، نذكر منها ما نعده من أهمها وأولاها بالاهتمام وهو ما يلى:

١ - القدوة:

ونعنى بها هنا أن يعطى الأبوان والإخوة والأخوات الكبار القدوة من أنفسهم لأبنائهم، فى التمسك بأخلاق الإسلام وآدابه فى كل أقوالهم وأعمالهم، وذلك أن القيمة الخلقية مهما كانت عالية رفيعة، ومهما بذلت الجهود العلمية والفنية فى الإقناع بها والدعوة إليها بل والتشجيع على التمسك بها، يظل ذلك كله مؤكدًا أنها قيمة خلقية نظرية، فإذا ما خرجت إلى حيز الوجود متمثلة فى إنسان يتحلى بها ويكون قدوة للآخرين فيها، فإنها عندئذ تدخل مجال التطبيق والتنفيذ.

ومن أجل هذا كان النبى ﷺ قدوة للمسلمين وأسوة حسنة يتأسى بهديه وسلوكه المسلمون جميعًا، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن القدوة تعنى فيما تعنيه إقناع المقتدى بإمكان التحلى بأخلاق المقتدى به، وتلك فى حد ذاتها قيمة تربوية.

إن تمسك الآباء والكبار فى الأسرة بأخلاق الإسلام وآدابه فى صغير الأمور وكبيرها، بحيث لا يرى الطفل على واحد من هؤلاء الكبار أى صفة أخلاقية نهى عنها الإسلام أو

كرّه فيها، فإن وجد شيئًا من هذا التحلى فـهيهات أن تجدى طريقة أخرى فى التربية ليشب هذا الطفل مـتمـسكًا بأخلاق الإسـلام؛ إذ القـدوة هى أهم طرق التربيـة فى غرس القـيم والفضائل فى النفوس.

وإن جمـاع الأخلاق الإسلاميـة الفاضلة هى أخلاق الرسـول ﷺ، تلك الأخلاق التى فسَّرتها عـائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عندما سُئلت عن أخـلاق النبى ﷺ فقالت: كان خلقه القـرآن، وجملة أخـلاق القرآن الكريم أوضح ما تكـون فى الآيات الأولى من سورة المؤمنون[1]، والآيات الأخيرة من سـورة الفرقان[2]، وتفصيلها مـبثوث فى القرآن الكريم كله، ما بين أمر ونهى، وقصة وخبر.

إن الآباء فى مجال إعطاء القدوة للأبناء بحاجة إلى أخلاق عملية تتمثل فى أمرين:

- التحلى بالفضائل التى أمر بها الإسلام.

- والتخلى عن الرذائل والدنايا والسفاسف التى نهى عنها الإسلام.

إن التربية الإسلامية تجعل الأبوين مسئـولين عما يورثانه لأبنائهما من أخلاق، بينما هما غير مسئولين عما ورثاهم من صفات جسمية وعقلية، فليتق الله الآباء فى الأبناء، ولينظروا ماذا يورثون أبناءهم من أخلاق.

إن الجيل المسلم إذا ربى هذه التربية يستطيع أن يمارس الإسلام عمليًا، وأن ينتقل به من مكان إلى مكان، وأن يؤثر به فى الناس تأثيرًا يحقق لهم صالح الدنيا والآخرة.

٢- الدعوة إلى أخلاق الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة «العظة»:

لقد فطر الله الإنسـان صغيرًا أو كـبيرًا على أن يتـأثر بما يستمع إليـه من كلمات، تأثرًا إيجابيًا أحـيانًا وسلبيًا أحيـانًا أخرى، وهو يخضع فى هذه الإيجابيات والسلبـيات لشخص المتكلم، ولنوع الكلام وقيمته، ولإمكان تحقيقه، ولظروفه هو المتعددة.

وكلما كان المتكلم مخلصًا فيما يتكلم به، ومطبقًا لما يقول، ومختارًا لما يقول، وللوقت الذى يقـول فيـه، وللناس الذين يتكلم فـيهم، كـان ذلك أدعى إلى التأثيـر فيـمن يتكلم معهم.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات من ١-١١ (٢) سورة الفرقان: الآيات من ٦٣- ٧٧.

والوالدان أقدر على حسن اختيار كل ذلك، وأكثر الناس إخلاصًا فيما يقولون إذا كان الكلام موجهًا إلى أبنائهم، والأطفال أكثر السامعين رغبة فى الاستجابة لما يقوله الأبوان بحكم الحب والثقة والاطمئنان.

وإذا كان بعض الناس يهونون من أمر الوعظ والكلمات فلهم شأنهم فى ذلك، لكنهم يخطئون فى تجاهل عمل تربوى بعيد الأثر وعميقه، وذلك أن الوعظ أسلوب ربانى فى التوجيه والتربية، فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فالله سبحانه هو الواعظ بما أنزل من كتاب وحكمة -أى سنة النبى ﷺ- وهو سبحانه إذ يقرر وجوب أداء الأمانات إلى أهلها ووجوب العدل فى الحكم بين الناس إنما يعظ الناس بذلك أحسن موعظة، وعندما يأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، إنما يجعل كل ذلك -وهو كثير- عظة لمن يتذكر من الناس.

وكل دعوة إلى التمسك بحق عظة، وكل دعوة إلى التخلى عن باطل عظة، والإنسان ما عاش بحاجة إلى من يذكره ويعظه، فما بالنا بطفل صغير؟ بل إن الله سبحانه وتعالى يوسع دائرة العظة ومدلولها إذ يخبرنا سبحانه أن القرآن الكريم كله بيان وهدى وموعظة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

٣- القصة والخبر:

إن القصة والخبر من وسائل التربية الناجحة المؤثرة؛ وذلك أنها تعرض أحداثًا ووقائع للآخرين، يفيد منها من يستمع إليها دون أن يدفع لتلك الفائدة ثمنًا قد يكون باهظًا إذا هو دخل موقفًا ولم يستفد منه إلا بعد أن يضحى ويدفع.

لذلك لم يكن عبثًا أن اشتمل القرآن الكريم على القصة والخبر، إن القصة أسلوب أخاذ نافذ فى التربية، ربى بها الله سبحانه رسوله ﷺ، فقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

أنباء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ... ﴾ [هود: ١٢٠]، وحكى الله سبحانه لنبيه ﷺ قصص الأنبياء والمرسلين ثم عقب على ذلك بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وللآباء فى القرآن الكريم والسنة النبوية مجال خصيب لينهلوا من قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، ومن كانوا فى الأزمان الماضية من الطائعين والعصاة، ليوقفوا أبناءهم على سنة الله فى خلقه، وكيف كان الأنبياء والمرسلون يواجهون أهل الشرك والكفر والضلال، وكل نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له قصة يمكن أن تكون أحداثها وأشخاصها أكبر عون للصغار على فهم الحياة، وعلى أن يشقوا طريقهم فيها بنجاح وفلاح.

٤ - الثواب والعقاب:

وهذا أسلوب فى تربية الأخلاق فاعل ذو كفاءة، وبحسبنا للتدليل على ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى مبدأ الثواب والعقاب فى آيات قرآنية كريمة، قال الله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

إن النفس البشرية ترجو وتخاف بحكم ما فطرها الله عليه، وبالتالى فإن الإنسان يتربى بالمثوبة كما يتربى بالعقوبة، ولا عيب فى ذلك، وإنما هو تجاوب مع متطلبات الفطرة.

إن النفس البشرية تستجيب وتهش للثواب، كما أنها تنزعج وتخشى العقاب.

وإن الأبوين أمامهما فرص جيدة وعديدة للتعامل مع الأبناء بمبدأى الثواب والعقاب، ولا حرج فى ذلك ولا تضييق على الصغار، إن تشجيع الأبناء على التحلى بفضائل الأخلاق ببعض ألوان الثواب الملائمة التى لا تحول الأبناء إلى ماديين، وتخويفهم من التخلى عن هذه الصفات الفاضلة بأنواع من العقاب الملائمة التى لا تحول الأبناء إلى جبناء أو أذلاء، كل ذلك جائز للآباء ولا عليهم فيه من حرج دينى أو تربوى -فيما نعلم- ولا نطيل فى هذا بأكثر مما قلنا.

الهدف الثانى: المحافظة على الآداب الإسلامية فى الأسرة

إن مما تستهدفه الأسرة المسلمة العمل على أن يكون البيت الذى يشب فيه الأبناء بيتًا له طابع إسلامى، تتضح فيه آداب الإسلام فى كل مظهر من مظاهر حياة الأسرة.

إن هذا الطابع الإسلامى للأسرة يعين الأبناء على أن يشبوا متحلين بالإسلام، ممارسين لأخلاقه فى كل أمورهم.

وإن البيت لا يأخذ الطابع الإسلامى إلا إذا كانت كل مظاهر الحياة فيه متفقة مع متطلبات الإسلام، وعلى سبيل المثال:

١- فإن الأثاث المستخدم فى البيت يجب أن يكون غير مخالف لشىء مما جاءت به الشريعة.

٢- وكذلك الأوانى المستخدمة فيه.

٣- وكذلك الكماليات ووسائل التحسين والتجميل.

٤- والكلام والحوار والاستئذان على الأبوين.

٥- والطعام والشراب، والنوم واليقظة.

٦- والتعامل مع الإخوة كباراً وصغاراً.

٧- والتعامل مع الأقارب والجيران.

٨- والتعامل مع العاملين أو العاملات فى البيت.

٩- والتعاون فى البيت فى كل موقف يستدعى التعاون.

١٠- والالتزام بأداء الواجب.

١١- والهدوء والسكينة عمومًا وفى أوقات بعينها.

١٢- وتجنب تحميل البيت أعباء أكثر مما يجب.

إن كل هذه الآداب يجب أن تخضع للإسلام وقيمه، وإن كل مفردة من هذه المفردات بحاجة إلى شرح وتفصيل -ليس هنا مجاله وإنما مجاله كتب الأخلاق الإسلامية- لأن كل مفردة منها لها فى الإسلام أدب يلائمها، حددته سنة النبى ﷺ وسيرته.

ولنضرب على ذلك مثالاً فى مفردة واحدة من هذه المفردات وهى الكلام أو الحوار، فإن له فى الإسلام أدبًا فُصِّل أدق تفصيل وأوفاه على النحو التالى:

- هناك أدب للسؤال وأدب للاستفهام.
- وأدب لطلب الكلام.
- وأدب لتَخير الوقت الملائم للكلام.
- وأدب لاختيار الكلمات.
- وأدب للتعبير عن الرأى.
- وأدب للنقد.
- وأدب للاختلاف فى الرأى.
- وأدب فى احترام الرأى الآخر.
- وأدب فى الحوار والمناقشة.
- وأدب فى رفع الصوت أو خفضه.
- وأدب فى الإعراض عن بعض الكلام.
- وأدب فى التمسك بالرأى.
- وأدب فى عرض الحق بالحكمة والموعظة الحسنة.
- وأدب فى الجدال بالتى هى أحسن.
- وأدب فى الانسحاب من حلبة الحوار.
- وأدب فى رد الشبهات والمقترحات
- وأدب فى كسب الطرف الآخر إلى جانب رأيك.
- وأدب لكل كلمة تخرج من فم المسلم ولكل كلمة يصمت عنها صاحبها.

وإن الالتزام بهذه الآداب هو الذى يطبع البيت بطابع إسلامى فى مجال الكلام والحوار والمناقشة والاعتراض والقبول والرفض.

وكذلك الشأن فى كل مفردة من المفردات التى سردناها إجمالا، وكل منها يحتاج إلى نفس التفصيل، والتزام أدب الإسلام فيها كلها هو ما يطبع البيت بطابع إسلامى هو هدف الأسرة.

الهدف الثالث: ربط أبناء الأسرة بالمسجد

إن هدفًا مهمًا للأسرة المسلمة أن توجد علاقة ورابطة قوية بين أبنائها والمسجد منذ زمن باكر من حياتهم، من يوم يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في صحبة الأب أولا ثم وحدهم بعد ذلك، وذلك أن المسجد في حياة المسلم جوهرى وأساسى، فهو بيت الله الذى تؤدى فيه أهم فرائض الإسلام وهى الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة.

وإن تعويد الأسرة لأبنائها على التردد على المسجد عمل تربوى، جليل القدر عميق الأثر، قادر بإذن الله على أن يطبع الطفل على كل ما يبشر به المسجد فى نفوس رواده من فضائل وقيم وآداب، وهو المدرسة الأولى فى حياة المسلمين صغاراً وكباراً، بل رجالا ونساء على السواء.

إن المسجد يطبع المسلم على حب النظافة والطاعة والنظام، وكل تلك أمور لا تستقيم الحياة بدونها، بل لا يستطيع الإنسان أن يتعامل مع أسرته أو مع المجتمع إلا بها، إذ كيف بمن فقد حب النظام أو الاستجابة للطاعة -فى غير معصية- أو فقد النظافة مادية أو معنوية، أن يتعامل مع غيره من الناس فيحظى منهم بالاحترام أو يحقق معهم مصلحة خاصة أو عامة؟

إن المسجد يغرس هذه الدعائم الثلاثة فى نفوس الصغار والكبار. إن النظافة والطهارة شرط لدخول المسجد ولأداء العبادات فيه، وعبادات المسجد الأساسية هى أداء فرائض الصلاة وهى مكررة خمس مرات فى اليوم والليلة، أى أن النظافة تكرر من أجل المسجد خمس مرات كذلك.

وليست النظافة مقصورة على الوضوء وحده، وإنما كثيراً ما تكون استحمامًا حتى لا يؤذى أحد أحدًا بعرقه، وتكون سواكًا وتطييبًا للفم، وتكون بحيث لا تصدر عن الذاهب إلى المسجد أى رائحة غير طيبة، حتى ولو كانت رائحة طعام نفاذة تفوح من الفم كرائحة البصل أو الثوم، إن النظافة تستوجب ترك هذين الطعامين لمن يذهب إلى المسجد، فقد روى الإمام البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا -أو قال- فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته» وعقد البخارى بابًا بعنوان: باب ما جاء فى الثوم والبصل والكرات وقول النبى ﷺ: «من أكل الثوم أو البصل من الجوع أو غيره فلا يقربن مسجدنا»[1].

---

(١) البخارى: صحيحه: ١/٢١٦ ط الشعب القاهرة، دون تاريخ.

وإن النظام سمة واضحة فى المسجد، يلمسه كل متردد عليه، فى الأذان والإقامة، واصطفاف المصلين خلف الإمام، وتسوية الصفوف، والنظر فى موضع السجود، والاستماع إلى ما يقرأ الإمام، وعدم سبق الإمام بتكبير أو ركوع أو سجود أو تسليم، وفى ترتيب صفوف المصلين -الرجال ثم الصبيان ثم الخناثى- إن وجدوا- ثم النساء- إن لم تكن لهن شرفة- وفى ختام الصلاة، وفى دخول المسجد وفى الخروج منه، وفى البقاء فيه، وفى عدم رفع الصوت بداخله، وفى عدم التشويش على المصلين برفع صوت المصلى، وفى كثير من السنن والآداب التى يجب أن يلتزم بها من المسجد.. إن ذلك يطبع رواد المسجد على النظام والانتظام.

وإن الطاعة سمة بارزة من سمات رواد المساجد، وتبدأ هذه الطاعة بأن يسمع المسلم الأذان فيردده بعد انتهاء المؤذن من كل جملة من جمل الأذان، وليس له أن يردد معه فضلاً عن أن يسبقه، وإن الطاعة ظاهرة كذلك فى القيام للصلاة عند الإقامة دون إبطاء أو تثاقل، وفى الاستجابة لما يطلبه الإمام من تعديل الصفوف وتسويتها، وفى الدخول فى الصلاة بعد أن يدخل فيها الإمام، وفى الإنصات لما يقرأ الإمام فى الصلوات الجهرية، وفى التأمين بعد انتهاء الإمام من قراءة سورة الفاتحة، وفى متابعة الإمام دون مواكبته أو سبقه وفى كثير من الآداب والسنن.

إن هذه الركائز الثلاث فى شخصية المسلم، إنما تتأكد وتغرس فى المسجد بل تزكى وتنمى فيه، وقد أسلفنا أن هذه الصفات الثلاثة: النظافة والنظام والطاعة، لا تستقيم حياة الناس إلا بها.

والمسجد يطبع الناس على وحدة الاتجاه وعلى البساطة؛ فالصلاة تعلم المسلمين أن يتجهوا فيها إلى الكعبة المشرفة مهما كان موقعهم الجغرافى فى الأرض؛ وفى وحدة الاتجاه المادية والمعنوية هذه يُرَبّى المسلمون على أن تكون وجهتهم وتوجهاتهم فى الحياة واحدة، وما لهم لا يفعلون؟ أليسوا أصحاب عقيدة واحدة وعبادة واحدة ونبى واحد هو خاتم المرسلين محمد ﷺ، صاحب أكمل المناهج الإلهية، وأشمل التشريعات التى جاء بها أنبياء الله إلى عباد الله؟

أليسوا هم الأمة الواحدة، أمة الإيمان وتوحيد الله سبحانه، وهو دعوة كل نبى سبق محمداً ﷺ؟

إن المسجد يغرس فى نفوس المصلين وحدة الاتجاه، وما أحوج المسلمين إلى الوحدة والتوحيد فى مواجهة الحياة، وما تأتى به الأيام!!

وأما البساطة فتعنى عدم التكلف فى قول أو عمل أو عادة أو عبادة، وإنما يجب على المسلم أن يتخذ البساطة مبدأ فى كل ما يأتى من قول أو عمل وفى كل ما يدع كذلك.

إن البساطة تعنى التوسط والاعتدال فى كل شىء، وأهم الأشياء التى تتداول فى المسجد القراءة فى الصلاة، والدعاء، وفى كليهما لابد من البساطة بمعنى التوسط والاعتدال، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: نَزَلَتْ ورسول الله ﷺ متوار بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة.

وروى الإمام مسلم بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: فى قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ :أنزل هذا فى الدعاء.

وروى الطبرى عن ابن سيرين أن أبا بكر رضى الله عنه كان يسر قراءته وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما فى ذلك، فقال أبو بكر: إنما أناجى ربى وهو يعلم حاجتى إليه، وقال عمر: أنا أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبى بكر: ارفع قليلاً، وقيل لعمر: اخفض قليلاً.

ولا يتنافى مع البساطة فى المسجد أن يأخذ الإنسان زينته وهو ذاهب إلى المسجد؛ لأن البساطة ترك التكلف، واتخاذ الزينة من ملبس حسن وريح طيبة ليس من التكلف فى شىء.

والمسجد مدرسة يتعلم فيها المسلم كثيراً من الآداب الإسلامية اللازمة لكل إنسان فى حياته، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

- تفقد من يغيب عن الصلاة، والسؤال عنه، وزيارته فى الله.
- التعلم فى المسجد، والمواظبة على دروسه، فذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسمه العلماء على المتعلمين، كماورد ذلك على ألسنة بعض الصحابة رضوان الله عليهم.

- تعلم أدب السؤال وأدب الاستماع إلى الإجابة.

- وتعلم أدب الحوار والمناقشة.

- وتعلم خفض الصوت فى المسجد فى صلاة أو فى غير صلاة.

- وتعلم الهدوء والسكينة والوقار.

- والاهتمام بأمر المسلمين بتفقد أحوالهم.

- والاهتمام بتنظيف المسجد وتطهيره وتطييبه.

- والاهتمام بما فى المسجد من مصاحف وكتب.

- والخشوع لله فى الصلاة.

- والتأمل والتدبر والأناة.

- والذكر والتلاوة والاستغفار.

كل تلك آداب يعلمها المسجد لمن يرتاده من المسلمين، وهى قمة الآداب الاجتماعية التى يحيا الإنسان بها أسعد حياة وأرضاها لله سبحانه.

إن المسجد بيت الله وإن رواد المسجد ضيوف الله، فلينظر ضيف الله ماذا يفعل فى بيت مضيفه، وبخاصة إذا كان مضيفه هو الله سبحانه وتعالى!!

إن الضيف فى بيت مضيف من الناس يلتزم بأدب فى دخول البيت، وأدب فى البقاء فيه، وأدب فى الحديث مع من فيه، وأدب فى الحوار، وأدب فى الجلوس، وأدب فى اختيار المكان الذى يجلس فيه، وأدب فى الهدوء، وأدب فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل، فإذا كان هذا الأدب فى بيت من بيوت الناس وكان الخروج عليه مذمة وملامًا، فما بالنا بالأدب الذى يكون عليه من استضيف فى بيت الله سبحانه؟

وإن للمسجد آدابًا عديدة مشروحة فى كتب الحديث النبوى وكتب الفقه الإسلامى وبعض الكتب التى ألفت فى المسجد نفسه[1].

إن للمسجد فى المجتمع الإسلامى روحًا تخصه، ولا تكسب إلا منه، وإن هذه الروح هى التى تطبع رواد المسجد على التقوى والخشوع والنظام والطاعة والإيجابية والتعاون والتراحم والتكافل، والأخوة فى الله والحب فيه، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر،

---

(١) انظر للمؤلف: «المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى» ط٣ دار المنار الحديثة ١٩٨٩م.

والدعـوة إلى الله والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، والاهتمـام بأمور المسـلمين خـاصة وعامة.

إن روح المسجد عندما يتشربها الناشـئة وهم يترددون عليه، فإنهم بعون من الله وتوفيق سوف يكونون على المستوى المطلوب من المسلم فى خلقـه وسلوكه، وما يمارسه من أقوال وأعمال[1].

الهدف الرابع: دفع الأبناء إلى المجتمع مسلحين بخلق الإسلام

الأسرة المسلمة مسـئولة أمام الله عن أبنائها الذين يشبون فى رعـايتها، حيث يكون من واجبـها وهدفـها أن تُعـد هؤلاء الأبناء أحسن الإعـداد متعـاونة فى ذلك مع المسـجد، ثم تدفعهم إلى المجـتمع ليمارسوا حيـاتهم وما يناط بهم من عمل فيه، وقد سلحـتهم الأسرة بالأخلاق الإسلامية القادرة وحدها على أن تضمن للمجـتمع كله حياة سعيدة ناجحة تحقق مصالح الدنيا والآخرة.

وأخلاق الإسـلام قد تحدثنا فيـها غير مـرة فى هذا الكتاب وفى غيـره مما وفقنا الله إلى تأليفه من كتب، وهذه الأخلاق أود أن أجملها هنا فى كلمتين:

- أداء الواجبات.
- وممارسة الحقوق.

وهما معًا يـكونان أرقى مبدأ اجتماعى يمكن أن تدين به الإنسـانية فى أى زمان وفى أى مكان، لتحيا بتطبيقه أكرم حياة وأليقها بالإنسان.

والواجبات نوعان:

- شرعية: وهى مـا أوجبتها الشريعـة الغراء على الناس، بحيث يكون تاركها مسـتحقًا للعقاب والذم.
- وعقلية: وهى مـا أوجبها العقل الصحيح عـلى صاحبه، بحيث يكون تركهـا مجافاة للعقل ومجلبة للمذمة، ولا تناقض بين النوعين.

وهذه الواجبـات أداؤها تفريغ للذمة واسـتحقـاق للثناء والثواب من الله تعـالى، وبهذا الأداء يكون المؤدى أقرب ما يكون إلى إرضاء الله تعالى إذا خلصت نيته.

---
(1) انظر لتفصيل ذلك المرجع السابق: فصل: «آداب المسجد كما تحدث عنها الرسول ﷺ» ص(٥٩) وما بعدها.

والحق هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، ويطلق على العقائد والأديان والمذاهب والأقوال. وحَقَّ الأمر أى ثبت وصح وصدق، ويحق لك أن تفعل كذا أى يسوغ لك.

والحق النصيب للفرد أو الجماعة وهو ما نتحدث عنه فى هذا المجال من الكتاب.

إن كل فرد فى الأسرة المسلمة قد ربى على أن عليه واجبات لابد من أدائها، وأن له حقوقًا يستمتع بها إذا أدى واجباته، وإن الناشىء المسلم قد رأى ذلك بنفسه فى البيت المسلم الذى نشأ فيه بالنسبة لأبويه وإخوته وكل من يضمه البيت المسلم من أفراد.

إن الناشىء المسلم عَلِمَ وتَعَلَّم فى بيته المسلم ألا تهاون فى أداء واجب، وإلا ضاع الاستمتاع بحق فى مقابله.

وتلك هى المعادلة الصحيحة الإيجابية فى حياة الإنسان على أى مستوى من مستوياته العمرية أو العقلية أو النفسية أو الاجتماعية.

إن الناشىء المسلم بهذا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة ليخطو فى هذه الطريق من حسن إلى أحسن، ويحقق بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

إن الأسرة المسلمة وهى تدفع بأبنائها إلى المجتمع ليمارسوا حياتهم العملية فيه وهم مسلحون بتطبيق معادلة الواجبات والحقوق، إن الأسرة وهى تفعل ذلك تجنب نفسها وتجنب المجتمع نفسه كثيرًا بل كثيرًا جدًا من السلبيات التى تنتج عن تهاون الناس فى أداء واجباتهم، والتى يترتب عليها ضياع كثير من الحقوق.

إن الأسرة المسلمة عليها أن تدفع إلى المجتمع أولئك الأفراد الذين تربوا فى كنفها على إدراك أن إماطة الأذى عن طريق الناس واجب، توجبه أخلاق الإسلام على المسلمين؛ لأنه إحدى شعب الإيمان، إنهم يندفعون إلى المجتمع وهم يوقنون أنهم لابد أن يفعلوا الخير، وأن الله سبحانه سوف يجزيهم على ذلك أحسن الجزاء.

إنهم سوف يؤدون - عندئذ - بسعادة غامرة يحركها فيهم رغبتهم فى إرضاء الله سبحانه بأمانتهم فى أداء ما وجب عليهم نحو أنفسهم ونحو خالقهم ونحو الناس جميعًا.

إن المجتمعات التى يقل فيها الإنتاج أو يسوء، أو تقل جودته أو يعجز عن الوفاء بحاجة المجتمع أو عن منافسة منتج مماثل، إن هذه المجتمعات التى تعانى من ذلك لن تجد لذلك سببًا أقوى من التخلى عن أداء الواجب أو التهاون فى أدائه، وهذه صورة غير جيدة ولا تليق بمسلم.

ومهما تكن قوانين مجتمع من المجتمعات صارمة وعقوبات الإهمال فيها رادعة، فلن تستطيع أن تحمل الناس على أداء واجبهم مثل ما تحملهم على ذلك أخلاق الإسلام التى ربوا عليها، وذلك أن التحايل على القانون والتحايل على الإفلات من عقوبة الإهمال أمر يعرفه الناس حق المعرفة فى مختلف أطوار التاريخ البشرى، أما الأخلاق فهى صفات لازمة لأصحابها تلزمهم بما يجب أن يقوموا به، تحول بينهم وبين ما لا يجوز لهم ممارسته دون قانون مكتوب ولا شرطى يراقب ويحاسب.

وإن الإسلام ما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه من ذيوع وانتشار وإحقاق للحق والعدل بقوة الشرطة فيها، ولكن بقوة إيمان الأفراد والتزامهم بأخلاق الإسلام وآدابه، ولقد صدقت ولا تزال تصدق كلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يوصى جيوش المسلمين المنطلقة بكلمة الحق ودين الحق فى العالم كله موجهًا خطابه لأحد قادته: «واعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه، وأنكم إنما تنصرون بمعصية عدوكم لله». إنها الأخلاق التى يتحقق بها النصر على الأعداء، أداء الواجب دون رقيب إلا من الله سبحانه والابتعاد عن المعاصى وما تجلبه من ذنوب.

إن الإنسان المسلم الذى ربى فى بيت مسلم يدرك بحكم هذه التربية، أن عليه واجبات عديدة، لابد من أدائها؛ ليعيش سعيدًا فى دنياه وآخرته:

واجبات نحو ربه سبحانه.

وواجبات نحو دينه.

وواجبات نحو والديه وأسرته.

وواجبات نحو المجتمع كله مسلمين وغير مسلمين.

وواجبات نحو أمته الإسلامية فى كل أقطار الأرض.

وواجبات نحو الإنسانية كلها والعالم بأسره.

وأن قيامه بأداء هذه الواجبات واجب شرعًا وعقلاً.

وإن الأسرة المسلمة وهى تدفع أبناءها للعمل فى المجتمع وفق تطبيق مبدأ الواجبات فى مقابل الحقوق، إنما تخدم بذلك نفسها وأبناءها والمجتمع الذى تعيش فيه وأمتها الإسلامية كلها، بل العالم الإنسانى فى مختلف بقاع الأرض، وذلك واجب كل أسرة مسلمة.

الهدف الخامس: توجيه الأبناء نحو التفوق والإجادة

إن هذا التوجيه نحو التفوق والإجادة فى أى عمل يقوم به المسلم، أصل كبير من الأصول الإسلامية التى تربى عليها الأسرة المسلمة أبناءها، وهذا الأصل ثابت بالكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، والإحسان المطلوب على نوعين:

- إحسان بمعنى التجويد والإتقان والتكميل والتحسين.

- وإحسان إلى الآخرين.

والمعنى الأول - وهو الإتقان والتجويد - يدخل فيه إتقان العبادة ومراعاة أدائها على وجهها، ومراقبة الله تعالى فى كل عمل يؤدى على وجهه كذلك، وهذا المعنى هو الوارد فى الحديث النبوى الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)]، وكما ورد فى السنة كذلك فيما رواه أئمة السنة بأسانيدهم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى فى أبواب الصيد والأضاحى والديات.

إن الأسرة المسلمة مطالبة بأن تربى أبناءها على مراقبة الله سبحانه، فى كل قول يقولونه، وفى كل عمل يعملونه، وفى كل عمل يتركونه، فى البيت أو فى المسجد أو فى المدرسة أو فى المجتمع، وأن تعودهم على الإجادة والإتقان فى هذه المجالات كلها، لأن ذلك هو لب الإسلام وصميم ما فيه من فضائل.

إن الإسلام أراد للمسلمين عمومًا أن يكونوا من المحسنين فى كل عمل يقومون به، فأعلن لهم ذلك فى محكم القرآن الكريم فى آيات كثيرة.

بعضها يطالب بالإحسان ويأمر به أمراً، الإحسان إلى عباد الله فى كل ما يمارسه معهم الإنسان من أعمال، لأن ذلك الإحسان إنما هو فى الحقيقة فى مقابل الإحسان الذى أنعم الله به على الناس وهو النعم الكثيرة التى أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] وتوالت الآيات تطالب بذلك كل مؤمن مثل قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ

---

(١) جزء من حديث شريف رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجة وأحمد بن حنبل فى بابى الإيمان والسنة.

أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقوله جل شأنه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

إن الإحسان فى كل عمل بالنسبة للمسلم فَرْضٌ فرضه الله عليه، لا يملك أن يخالفه وإلا وقع فى الإثم والمعصية.

وإن الأمة الإسلامية جميعها بهذين المعنيين اللذين ذكرناهما للإحسان وهى تمارس من خلالهما الإحسان فتحقق به صالح الدين والدنيا - إنها بهذا الإحسان تستحق القوامة على غيرها من الأمم، وهذا أحد معانى الوسطية التى وصف الله سبحانه بها أمة المسلمين فى قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أى جعل الله الأمة الإسلامية عدولاً بما وفقهم إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح، لتكون مقررة للحق بالنسبة لكل الشرائع التى سبقتها، وشاهدة على أهل هذه الشرائع وعلى كل الناس بما التزموا به من الحق أو بما حادوا عنه.

وإن القوامة والشهادة والوسطية من الأمة الإسلامية إنما هى لله ولصالح البشرية كلها، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ...﴾ [النساء: ١٣٥]، أى إن الذين آمنوا وأذعنوا لدعوة الحق ولما جاءهم خاتم المرسلين محمد ﷺ، واجبهم أن يكونوا مراقبين لأنفسهم أولاً فى ضرورة إذعانهم للحق واستجابتهم له، ثم مراقبين للناس فى هذا، ومنصفين لهم إذا تعرضوا لأى نوع من الظلم.

إن هذا شأن الأمة الإسلامية فى كتاب الله، والأسرة المسلمة جزء من هذه الأمة الإسلامية، فعليها أن تربى أبناءها على أخلاق الإسلام، وتعلمهم حب العدل والإحسان.

إن إعمار الأرض الذى هو أحد أهداف الإسلام أو التربية الإسلامية لن يتأتى إلا بالإحسان والإجادة لكل عمل يمارسه المسلم فى حياته، ولن يصل المسلمون إلى ذلك إلا إذا ربّت الأسرة المسلمة أبناءها على هذه الأخلاق.

إن التفوق العلمى فى مجال التعليم والتفوق فى مجال الكشف والاختراع بل التفوق فى مجال العمل والسلوك، كل ذلك ليس له من طريق إلا الإحسان والتجويد فى كل ما يمارسه المسلم من قول أو عمل.

وإن التفوق الحضارى الذى حققه المسلمون فى الماضى على مدى ثمانية قرون أو تزيد، ما استطاعوا أن يحققوه إلا بالإحسان والتجويد فى كل مجال من مجالات الحياة.

وإن التراجع الحضارى الذى يعيشه المسلمون اليوم فى القرن الخامس عشر الهجرى، ما أدى إليه إلا التخلى عن الإحسان والإجادة لما يمارسه المسلمون اليوم من أقوال وأعمال.

إن العالم من حولنا اليوم، وما حققه من تقدم فى مجال التقنية ليفرض على المسلمين - إذا أرادوا أن يكونوا أصحاب مكانة تلائم قيم دينهم، وإذا أرادوا أن يخرجوا من دائرة التبعية للغرب الذى سبقهم فى مجالات التقنية - أن يأخذوا أنفسهم بالإحسان والإجادة لكل عمل يقومون به، وأن يبدأوا من حيث انتهى الغرب.

إن الأسرة المسلمة وهى تعلم أبناءها الإحسان، فتهيّئ لهم بذلك التفوق فى مجال العلم والعمل، إنما تؤدى واجبًا عليها نحو دينها ودنياها ونحو أبنائها، وتحقق بذلك هدفًا من أهداف الأسرة المسلمة.

وإن الناشىء المسلم إذا ربى على ضرورة أن يجيد ويحسن وأن يتفوق، فإنه بذلك سوف يشق طريقه فى الحياه سيدًا قادرًا على أن يعيش من حصيلة جهده لا على فتات موائد الذين سبقوه فى مجال العلم والتقنية.

إننا معشر المسلمين عندما نحسن فنرضى الله سبحانه، ونحقق فى هذه الدنيا سعادة، إنما نخرج أنفسنا من دائرة الإثم والمعصية، ودائرة الضياع والتخبط فى هذه الحياة الدنيا، عندما نترك الإحسان بمعنييه اللذين ذكرنا آنفًا.

إن الأسرة المسلمة مسئولة بين يدى الله سبحانه عن أبنائها الذين لا يحسنون ما يقومون به من عمل أو قول، وإنها لمسئولة أمام المجتمع وأمام أبنائها الذين إذا لم يحسنوا ضاعوا وأضاعوا، ولسنا نبالغ إن قلنا: إن توجيه الأسرة المسلمة لأبنائها نحو التفوق والإجادة فى كل شىء هو من أهم أهداف الأسرة المسلمة.

الهدف السادس: توجيه الأبناء نحو ممارسة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

أكدنا فى أكثر من كتاب لنا أن الدعوة إلى الله واجب كل مسلم ومسلمة، وعلى كل قادر عليها من صغير أو كبير، وأن كل مسلم يستطيع أن يقول كلمة الحق ويدعو إليها فعليه أن يمارس ذلك بمجرد أن تتاح له فرص القدرة على ذلك[1].

---

(١) انظر فى ذلك للمؤلف:

أ- عالمية الدعوة الإسلامية، ط ٣ دارعكاظ بالسعودية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

ب- مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس، ط جامعة الإمام محمد بن سعود. =

أكدنا ذلك فى هذه الكتب، ولا نزال نزيده تأكيدًا فى هذا الكتاب، لإيماننا بأن الأمة الإسلامية ما أتيت من شيء مثل ما أتيت من توقفها عن ممارسة الدعوة إلى الله عن جهل أو تقصير أو غزو فكرى لبَّس عليهم فقه دينهم ودعوتهم.

إن الدعوة إلى الله عمل كل مسلم ومسلمة بشرطين اثنين هما:

١- بلوغ الداعى إلى الله حد التمييز بمعناه الفقهى(١).

٢- وقدرة الداعى إلى الله على ممارسة الدعوة مع كونه مؤمنًا.

إن الدعوة إلى الله هى عمل النبى ﷺ وعمل صحابته رضوان الله عليهم وعمل كل من اتبعه من رجال ونساء إلى يوم الدين، بل إنها السبيل التى سلكها رسول الله ﷺ وأضافها إلى نفسه وإلى كل من آمن به، فيما حكاه القرآن الكريم على لسانه ﷺ فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] والبصيرة فى الآية الكريمة تعنى العلم بما يدعو إليه الداعى إلى الله مع اليقين بأنه الحق.

والدعوة إلى الله تعنى الدعوة إلى الحق وإلى العدل والإحسان.

ومن مفرداتها:

- عبادة الله سبحانه وفق ما شرع.
- وخلافته سبحانه فى هذه الأرض.
- وإعمار هذه الأرض بالعلم والعمل والتعارف بين الناس.
- والعمل على بث روح التعاون والتكافل بين الناس.
- والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.
- وإقرار العدل على مستوياته كلها مع الله ومع النفس ومع الناس.
- والأخذ بمبدأ الإحسان بمعنييه، وهما مراقبة الله فى كل عمل وتجويد هذا العمل وإحسانه.

- جـ- فقه الدعوة إلى الله، ط دار الوفاء بالمنصورة بمصر ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
- د- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، ط دار الوفاء ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

(١) أى: أن يكون مكلفًا، أى: مسلمًا بالغًا عاقلاً.

- والأمر بالمعروف.

- والنهى عن المنكر.

- والجهاد فى سبيل الله على مستوياته كلها، جهاد الشيطان وجهاد النفس وجهاد العدو، من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا.

- والعمل على نشر دين الله فى عباد الله فى كل زمان وفى كل مكان.

ولا يعفى من ممارسة الدعوة إلى الله أى قادر عليها إذا استوفى الشرطين السابقين.

وهذه أمور أجمع عليها علماء المسلمين فى مختلف العصور والأزمان، وليست محل جدل فضلاً عن أن تكون محل خصام بين المسلمين أو العقلاء الذين يعرفون الإسلام ولو كانوا من غير المسلمين.

ومن المؤكد كذلك أن المسلمين فى أى عصر ما قعدوا عن الدعوة إلى الله إلا ذلوا وهانوا وعاشوا على هامش الحياة.

والأسرة المسلمة فى مجال الدعوة إلى الله، يجب عليها أن توجه أبناءها منذ صغرهم إلى أنهم دعاة إلى الله - وهذا تشريف لهم منه سبحانه لكونهم مسلمين - وأن يمارسوا هذه الدعوة بمجرد التمييز والقدرة عليها فى كل مجال من المجالات التى يتحركون فيها.

وعلى الأسرة المسلمة أن تبصر أبناءها بأن الدعوة إلى الله هى على وجه الإجمال:

- الدعوة إلى أى خير أو معروف.

- والدعوة إلى كل حق وإنصاف وعدل وإحسان.

- والدعوة إلى كل ما يعود على الناس بالنفع فى دينهم ودنياهم.

- والدعوة إلى الامتناع عن كل شر أو منكر.

- والدعوة إلى الامتناع عن كل باطل أو ظلم أو إهمال..

- والدعوة إلى الامتناع عن كل ما يعود على الناس بالضرر فى دينهم ودنياهم.

وعلى الأسرة المسلمة أن تعلم أبناءها ممارسة الدعوة إلى الله، فى البيت والمسجد والمدرسة والشارع وكل مكان يذهبون إليه.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

* الدعوة إلى الله فى البيت:

وهى تعنى أداء الواجبات بإخلاص، والامتناع عن أى عمل يسىء إلى البيت من فيه وما فيه، وتشجيع الآخرين فى البيت على الالتزام بهذين الأمرين.

* والدعوة إلى الله فى المسجد:

تعنى الالتزام بأدب الإسلام فى المسجد - وقد تحدثنا عن ذلك آنفًا - ودعوة الآخرين إلى هذا الالتزام بأدب المسجد، فلا عبث فى المسجد ولا أصوات مرتفعة، ولا قراءة بصوت يشغل أو يزعج الآخرين من المتعبدين، ولا بد من الاهتمام بكل ما فى المسجد من مصاحف وكتب وأثاث ومفروشات، وتعهد لكل ذلك بالتنظيف والترتيب، ولابد من مَدّ المسجد بكل ما يحتاج إليه مادام الإنسان قادرًا على ذلك، لأنه بيت الله تعالى.

* والدعوة إلى الله فى المدرسة:

تعنى بالدرجة الأولى التفوق فى التحصيل الدراسى للداعى إلى الله حتى يكون مثلاً طيبًا لما يدعو إليه، وتعنى تشجيع الزملاء على هذا التفوق، وتعنى المحافظة على كل ما فى المدرسة من أثاث وأشياء ومرافق، والعمل على الإسهام فى تجميل المدرسة وتنظيفها وتنظيمها بكل وسيلة مستطاعة، وتعنى طاعة المعلمين والاستجابة لكل ما يطلبون منهم والانقياد لكل ما فى المدرسة من نظم وقوانين، كما تعنى حسن التعامل مع الزملاء ومع العاملين فى المدرسة والمشاركة الإيجابية فى أى نشاط من الأنشطة المدرسية فنية أو اجتماعية أو علمية أو ثقافية أو أدبية. إن ممارسة الدعوة إلى الله فى المدرسة على هذا النحو تحقق للتلاميذ ولأسرهم وللمجتمع كله حظًا وافرًا من تنمية المجتمع نحو الأحسن والأرضى لله تعالى.

* والدعوة إلى الله فى الشارع:

تعنى الالتزام بأدب الإسلام فى التعامل مع الناس جميعًا، وأدب الإسلام فى الشارع يبدأ بغض البصر عن كل ما أوجب الله غض البصر عنه، وإمساك اللسان عن أى لفظ غير لائق، وإمساك الجوارح عن أى عمل غير لائق، كما تعنى إماطة الأذى عن الطريق، والامتناع عن أى عمل فيه أذى للناس، وتشجيع الناس على الالتزام بهذا الأدب الإسلامى فى الشارع، فلا يجوز إفساد أى شىء من المرافق أو وسائل التجميل أو التشجير أو غيرها

وإنما يجب أن تحظى هذه الأشياء بالرعاية والعناية ما أمكن، وكذلك لا يجوز شرعًا الإسراف فى مياه عامة ولا إفساد خضرة ولا قطف زهرة، كل ذلك لا يجوز فى الإسلام؛ لأن الشارع مرفق عام وملكية عامة لكل الناس، والإسلام يوجب المحافظة عليه بل المعاونة فى تحسينه وتجميله.

والحديقة العامة لها نفس الحكم، والنادى الرياضى أو الاجتماعى أو الثقافى له نفس الحكم، ووسائل المواصلات لها نفس الحكم ووسائل الاتصال لها نفس الحكم، وكذلك كل مرفق عام فى المجتمع، إن الإسلام وهو يضع هذه الآداب يعلم الناس صغارًا وكبارًا أن عليهم مسئولية نحو المجتمع الذى يعيشون فيه، وأن الله سائلهم على عدم المعاونة فى التحسين والتجميل إن كانوا من أهل الاستطاعة، فضلاً عن سؤالهم وعقابهم على الإهمال والإفساد.

إن الأسرة المسلمة حينما توجه أبناءها إلى ذلك إنما تحقق هدفًا للإسلام نفسه، وتتقرب بذلك إلى الله سبحانه، وكل ذلك دعوة إلى الله بالمفهوم الواسع للدعوة، كما أوضحناه هنا وفى كثير مما كتبنا من قبل.

أما موقف الأسرة من دعوة أبنائها إلى ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا يقل أهمية عن توجيههم إلى الدعوة إلى الله، لأن الدعوة إلى الله فى لبها وجوهرها أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو كلاهما معًا حسب أحوال الناس.

الأسرة المسلمة مطالبة أن تفقه أبناءها بأبعاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وآدابهما، قبل أن تطلب منهم الانطلاق إلى ممارسة ذلك حتى يكونوا على بصيرة بما يأمرون به وبما ينهون عنه.

إن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أبرز ما يميز المجتمع المسلم لما فى ذلك من إيجابية حقّة وإحساس بتحمل التبعة والمسئولية، والعمل الدائب على تنقية المجتمع من كل ما يعود عليه بأدنى ضرر، وغرس كل ما يعود عليه بتحقيق مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة.

إن على الأسرة المسلمة أن تزود أبناءها بفقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى يسر وبساطة، أى أن تعلمهم أن لب هذه القضية هو الأمر بكل خير لكل واحد من الناس، والنهى عن أى شر لكل واحد من الناس كذلك.

وإن أدب ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو:

- الحكمة، وهى حسن اختيار الكلمة والموقف والزمان والمكان.. إلخ.

- والموعظة الحسنة، أى الكلمة اللينة الهادئة التى لا تجرح شعوراً.. إلخ.

- والجدال بالتى هى أحسن أى المناقشة والحوار بقصد الوصول إلى الحق، وليس الجدل أو المراء.

وإن كل ذلك يحتاج إلى صبر وإنصاف للناس وعدم ضيق وعدم يأس منهم، وإلى تقوى الله فى الناس، وإلى إحسان فى التعامل معهم.

وإن هناك أحكامًا عامة تضبط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل:

تأجيل الأمر بالمعروف، إذا أدت ممارسته إلى منكر.

تأجيل النهى عن المنكر، إذا أدت ممارسته إلى منكر أشد.

وأن للنهى عن المنكر مراتب يلجأ إليها الناهون عن المنكر وفق ترتيبها، وهى: الإنكار باليد، فإن لم يستطع الناهى فالإنكار باللسان، فإن لم يستطع فالإنكار بالقلب.

وإن من واجب كل من يعرف المعروف أن يأمر به إذا قدر على ذلك.

وإن من واجب كل من يعرف المنكر أن ينهى عنه إذا قدر على ذلك أيضًا.

وإن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، هى التى تجعل المجتمع الإنسانى أكثر أمنًا، وأكثر إنتاجًا، وأكثر احترامًا لإنسانية الإنسان.

وإن الناس بحكم ما فطروا عليه يميلون إلى الشر وإلى التمرد على أحكام الشريعة وقوانين الأخلاق، ويستجيبون فى مقابل ذلك لهمزات الشياطين، ولذلك كان نهيهم عن المنكر أمراً أساسيًا وضروريًا، ليعينهم على ما فى فطرهم من انحراف، وما يوسوس به الشيطان من شر.

كما أن الناس بحكم ما فطروا عليه، فيهم من يستطيع فعل الخير لنفسه ولغيره من الناس، ولكن يحول بينهم وبين ذلك كسل أو أنانية، ولذلك كان من اللازم أن يشجعوا على فعل الخير ومن هنا كان لابد من الأمر بكل معروف كل أحد.

ومن الجدير بالتأمل أن الشريعة التي تجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب المسلمين أفرادًا وجماعات ومجتمعات وأمة ودولة، هى نفسها التى تحذر من أن يؤدى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى وقوع فتنة بين الناس، أو إلى تعادٍ وتناحر وخصام.

غير أن سكوت الناس عن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سكوتًا مطلقًا غير متحرِّف أو متحيز، يوقع فى الأخطاء التالية:

١- يؤثم الساكتين، ويصنفهم مع العصاة لأمر الله.

٢- ويحرم الناس أفرادًا وجماعات ومجتمعًا وأمة ودولة من فرصة الاستجابة لفعل الخير والانتهاء عن فعل الشر، وفى ذلك ما فيه من تعويق التقدم والتحضر والعمران والعدل والإحسان.

٣- ويحرم المجتمع من القدرة على جلب المصالح للناس ودرء المفاسد عنهم، وذلك يترتب عليه فقد الناس لمصالحهم وتفشى المفاسد فيهم، وبالتالى يفقدون الاستقرار والأمن، مع أن الإحساس بهما هو غاية الغايات بالنسبة لأى مجتمع إنسانى؛ لذلك جعله الله سبحانه أجرًا دنيويًا وأخرويًا للذين آمنوا به ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أى عبادة أحد سواه، ولا بظلم لله كفرًا أو نفاقًا، ولا بظلم للناس، ولا بظلم لنفسه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أى هؤلاء المؤمنون أحق بالطمأنينة، وهم وحدهم المهتدون إلى طريق الحق والخير.

إن الأسرة المسلمة إذا زودت أبناءها بهذا الفقه لقضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفقهتهم بأدبه وأخلاقياته، فإنما تسدى إلى نفسها وإلى أبنائها أجل خدمة وتحقق أكبر مصلحة، وفى الوقت نفسه تقدم للمجتمع أعضاء إيجابيين ذوى كفاءة ونفع، لا يكتفون بأن يكونوا من أهل الاستقامة والصلاح فى ذوات أنفسهم وإنما يعاونون فى مقاومة أهل الباطل والانحراف عن الحق والفساد والإفساد.

إن المجتمع لا يرقى بعمل مثل ما يرقى بأن يشيع فى أفراده المعروف والخير، وينحسم فيهم المنكر والشر.

وإن أهل المنكرات والشرور عندما يحاصرهم المجتمع بأفراده الناضجين الواعين الذين يدركون أبعاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيقاطعون مَنْ نُهى عن المنكر فلم ينته، مقاطعة تجعلهم لا يجالسونهم ولا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم، إن أهل المنكرات عندما

يجدون أنفسهم محاصرين هذا الحصار، لن يسعهم إلا أن يكفوا عن المنكرات أو يعزلوا نفسيًا وشعوريًا واجتماعيًا عن المجتمع، ومن ذا الذى يرضى لنفسه بهذه العزلة مهما كانت ممارسة المنكر تجلب عليه الملذات الخادعة؟ إنهم لن يسعهم إلا الاستقامة على طريق الحق والخير.

إن الأسرة المسلمة وهى تربى أبناءها على فقه الدعوة إلى الله وفقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تحقق بذلك أهم أهداف الأسرة المسلمة، وتقدم للمجتمع أسباب الأمن والطمأنينة.

وأعود فأقول:

إن الأسرة المسلمة إذا لم تفعل ذلك فإنها تدخل فى مجال الإثم والمعصية لله، كما تكون مقصرة أسوأ التقصير فى حق نفسها وفى حق أبنائها، وفى حق المجتمع الذى تعيش فيه، وفى حق الأمة التى تنتمى إليها وهى الأمة التى وصفها الله سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس.

الهدف السابع: العمل على إيجاد روابط بين الأسر المسلمة

إذا كان المجتمع المسلم عددًا من الأسر المسلمة -كما أوضحنا ذلك آنفًا- فإن هذه الأسر التى تُكوِّن هذا المجتمع يجب أن تصنع أحسن العلاقات وأوثق الروابط، وأقدرها على بث روح التعاون والتواد والتكافل بين جميع الأسر المسلمة، حتى يستطيع المجتمع أن يصل بذلك الترابط إلى أحسن مستوى معيشى، يحقق للناس سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا كان المجتمع المسلم -كما قدمنا- يجعل من أهدافه العناية بالأسرة المسلمة[1]، فإن على الأسرة المسلمة أن تبادل المجتمع الإسلامى هذه العناية وذاك الاهتمام.

وإن الأسرة المسلمة وهى تعنى بالمجتمع إذا اتجهت إلى عقد الروابط القوية بين الأسر، فإنها بذلك تقدم للمجتمع خير هدية يمكن أن تقدمها إليه.

وإن الإسلام يحرص فى أحكامه وآدابه وأخلاقياته على أن تكون هذه الروابط أقوى وأحسن ما تكون، فى وصاته للمسلمين بإحسان التعامل مع الجار ذى القربى والجار الجنب.

---

(١) كان ذلك الحديث فى النقطة الثالثة من الفصل الأول من هذا الكتاب وهى: «أهداف المجتمع المسلم».

وإن تأكيد الإسلام على ضرورة الإحسان إلى الجار، تقوم عليه الشواهد والبراهين من الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

فالوصاة فى هذه الآية الكريمة بفضائل كثيرة وجليلة نسوق منها:

١- الوصاة بالجار القريب النسيب.

٢- والوصاة بالجار الأجنبى - أى البعيد نسبيًا.

٣- والوصاة بالرفيق فى عمل أو سفر، وبمن كان مجرد جليس.

٤- والوصاة بالمسافر المحتاج الذى لا قرار له فى بلد معين فضلاً عن الوصاة بالأقارب واليتامى والمساكين وما ملكت اليمين.

ولقد ورد فى السنة النبوية الكريمة ما يلى:

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك».

وروى الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة».

وروى الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره».

وروى البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لى جارين، فإلى أيهما أهدى؟ قال: «إلى أقربهما منك بابًا».

وروى الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» والبوائق: الغوائل والشرور. وفى رواية لمسلم. «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

إن الأسرة المسلمة لا تستطيع أن تقيم الروابط الجيدة بين الأسر إلا من خلال هذا الفقه الإسلامى لطبيعة العلاقة بين الأسر والجيران، وهذه العلاقة -كما اتضح ذلك من الأحاديث النبوية التى ذكرنا- تنادى بالتعامل مع الجار بما يلى:

١- الاهتمام به كالاهتمام بالأقارب أرحامًا وأصهارًا.

٢- وتعاهده بالهدية من طعام أو غيره.

٣- والإحسان إليه بترك التعرض لأى أذى له.

٤- واعتبار أن من معايير الخَيْرِيّة فى المسلم أن يكون حسن التعامل مع جاره ومع صاحبه.

٥- وترتيب الأولويات بين الجيران على أساس تقديم الأقرب فالأقرب، إذا لم يستطع أن يجاملهم جميعًا

٦- واعتبار أن الجار إذا لم يأمن جاره، فإن هذا الجار غير المأمون ناقص الإيمان، مادام جاره يتوقع منه الشر.

٧- واعتبار أن من لا يأمن جاره بوائقه، حائل بين هذا الجار غير المأمون ودخول الجنة.

وإن المجتمع المسلم لا يستطيع أن يشق طريقه نحو الحق والخير إلا إذا ترابطت أسره، وسادتها روح التعاون والتواد والتكافل، وإن الإسلام قد حدد لنا التعاون وأوضح لنا أبعاده فى قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

قال القرطبى: «قال الأخفش: هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أى ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثُّوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافق لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله»[1]... والعرف فى دلالة هذين اللفظين -البر والتقوى- أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى: رعاية الواجب... وقال الماوردى ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٦ - ٤٧، ط وزارة الثقافة بمصر ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

بالتقوى له، لأن فى التقوى رضا الله تعالى، وفى البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته... ويجب الإعراض عن المتعدى وترك النّصرة له ورده عما هو عليه».

وهذه الاية الكريمة التى تأمر بالتعاون على فعل الخير وكل ما فيه مصلحة للناس، وتنهى عن الشر والتعاون عليه وعلى كل ما فيه ضرر بالناس - هذه الآية - تؤكد أن الإسلام سبق بمئات السنين دعوات التعاون التى عرفها الناس حديثًا، ووضعوا لها النظم والقوانين، بل أقاموا لها المؤسسات كأنهم اكتشفوا جديدًا!!!

إن أول من دعا إلى التعاون أو أقام حركة تعاونية من الغرب هو المفكر الإنجليزى الاشتراكى: «روبرت أدين» المتوفى سنة ١٨٥٨م أى فى القرن التاسع عشر الميلادى، أى بعد ثلاثة عشر قرنًا من نداء الإسلام بالتعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان، أليس ذلك مدعاة إلى الفخر والاعتزاز بالانتماء إلى هذا الدين العظيم؟!!

إن الأسرة المسلمة مطالبة بأن تعمل وتتعاون وتتكافل -من أجل المجتمع وسعادته- على تكوين روابط وثيقة بينها وبين غيرها من الأسر المسلمة، فى ظل أحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

وبعد: فهذه أهداف الأسرة المسلمة، نرجو أن نكون قد أوضحنا أبعادها، ورسمنا خطوطها العريضة.

أما تفصيلات هذه الأهداف فكثيرة، ولسنا هنا بصدد رصدها؛ لأن ذلك الرصد من شأن كتاب مستقل شامل عن الأسرة المسلمة، ونحن هنا نتحدث عنها من حيث أهميتها فى بناء المجتمع المسلم، كما أوضح ذلك الفصل الأول من هذا الباب، أو من حيث رعاية الإسلام لها واهتمامه بتكوينها وإعطاؤها مكانة لائقة بها وبوظيفتها وتحديد أهدافها كما أوضح ذلك الفصل الثانى من هذا الباب الذى نختمه الآن.

ولله الحمد على ما وفق وأعان.

••••

الباب الثانى

الإسلام والناشئون

ويتناول:

التمهيد.

الفصل الأول: مكانة الناشئين فى الأسرة، ويشمل:

١ - دواعى الفطرة الإنسانية.

٢- ودواعى البيئة الإنسانية.

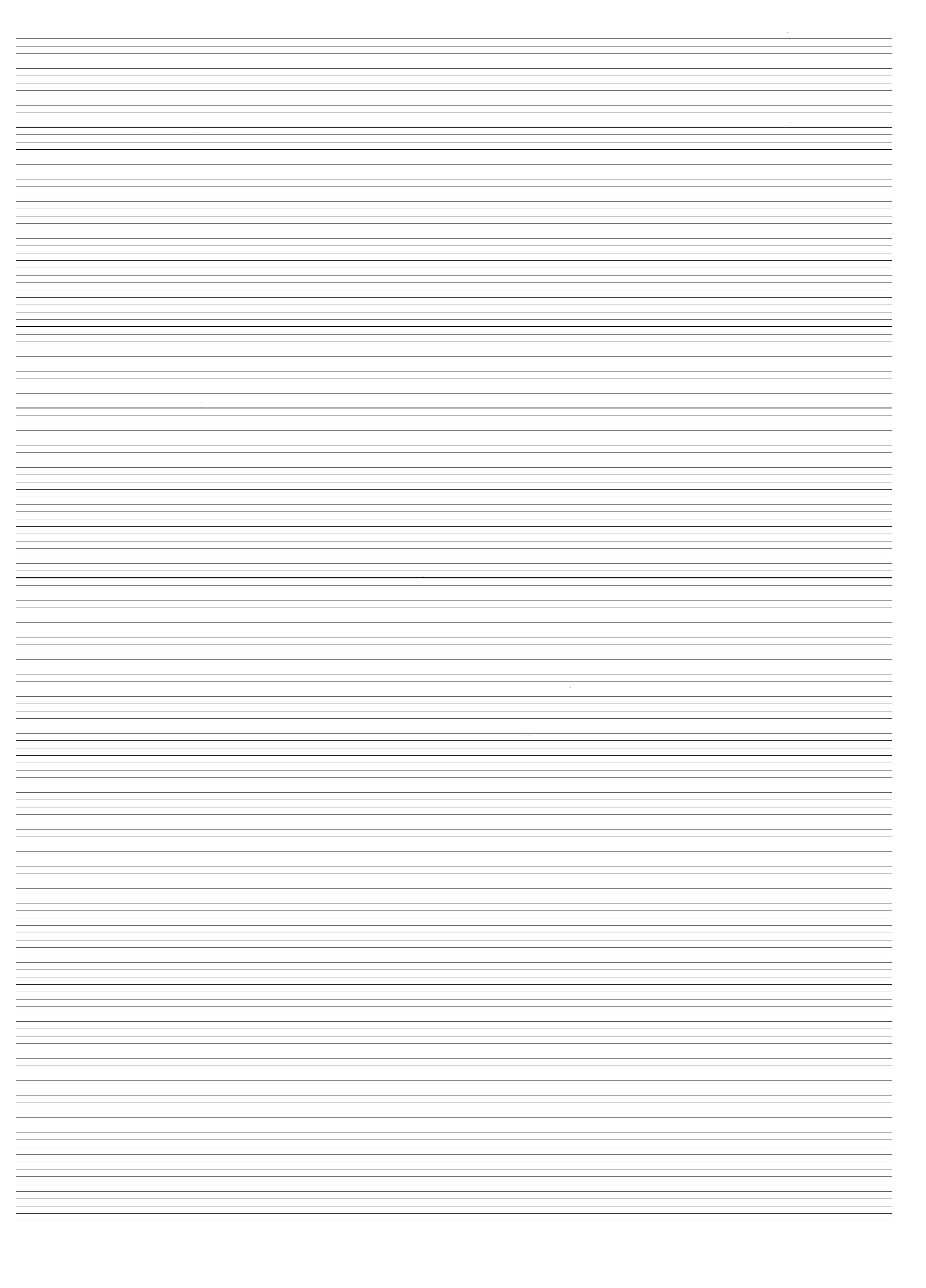
٣- ودواعى الدين الإسلامى.

الفصل الثانى: رعاية الإسلام للناشئين، ويشمل:

١ - واجبات الآباء والأمهات.

٢- وواجبات الأقارب.

٣- وواجبات المجتمع المسلم.



التمهيد

نحاول فى هذا الباب الثانى من الكتاب -مستعينين بالله تعالى- أن نتحدث عن الناشئين فى ظل أحكام الإسلام وآدابه، وكيف رعاهم وكيف كانت لهم فى الأسرة المسلمة مكانة، بل مكانة عالية، وذلك أن أغلى من فى الأسرة وأولاهم بالرعاية ناشئوها، صغاراً كان هؤلاء الناشئون أم شبابًا.

إن الأسرة المسلمة -كغيرها من الأسر- وهى تستقبل وليدًا، إنما تستقبله بمزيد من الحب والعناية، واستنفار كل من فى هذه الأسرة ليكون فى خدمة هذا الوليد الجديد، وربما زادت الأسرة المسلمة على غيرها من الأسر أنها توظف حبها لهذا الوليد توظيفًا موضوعيا يستهدى الإسلام فى توجيه عاطفة الحب وتوظيفها.

وإن رعاية الإسلام للطفل فى الأسرة تمتد إلى الوراء قبل مولده أى من زمن حمل أمه فيه، بل يمتد إلى يوم اختيار أبيه لأمه، خاضعاً فى هذا الاختيار لمعايير الإسلام فى اختيار الزوجة أم الأبناء وراعية البيت وحاضنة الأبناء ومربيتهم، إنها تختار ذات دين وخلق من أجل هذه الاعتبارات، إننى أتصور أن هذا التدقيق فى اختيارها هو لصالح الأبناء أولا وأخيرا.

إننا نحاول فى هذا الباب أن نوضح مكانة الناشئين فى الأسرة المسلمة، لنؤكد أن رعايتهم من دواعى الفطرة البشرية السوية المستقيمة على ما فطرها الله عليه، وإن على الأسرة بدواعى الفطرة التى فطر الله الناس عليها أن ترعى ناشئيها، وأن تمارس العدل مع أبنائها ما وسعها العدل، وإن الميزان الدقيق لهذه الرعاية الأسرية للأبناء هى قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وإن على الأب والأم كليهما فى هذا المجال واجبات لا يستطيعان الفكاك منها بحال، وأهمها: إحسان التربية والعدل فى المعاملة.

والعائلة فى مستواها الأوسع عليها من واجبات رعاية الناشئين والاهتمام بهم ما توجبه دواع كثيرة، كدواعى الفطرة الإنسانية، ودواعى البيئة، ودواعى المجتمع الإنسانى.

وكما أن ذلك واجب الأسرة فى الاهتمام بالناشئين، فإنه كذلك واجب المجتمع كله بمن فيه وما فيه، بحيث يضمن لهم المجتمع أفراده وجماعاته ومؤسساته تربية جيدة سليمة،

قادرة على تفتيح مواهبهم وتنميتها فى الاتجاه الصحيح، وعلى الصورة الأنفع لهم وللمجتمع نفسه.

وكذلك الشأن بالنسبة للدولة كهيئة حاكمة، ولكافة مؤسساتها وبخاصة المؤسسات التربوية والمؤسسات الإعلامية، بل إن اهتمام الدولة بالناشئين وحسن رعايتها لهم وإن كان واجبا يوجبه العمل على تنمية المجتمع وتطويره نحو الأحسن، إلا أن جميع أنظمة الحكم فى العالم حتى السيئ السمعة منها مثل النظام الشمولى، يدعى أنه يرعى الناشئين ويوليهم اهتمامًا، ولكن الملاحظ على هذا النوع من أنظمة الحكم أنه يرعى الناشئين ليشبوا على التعصب له رغبة أو رهبة، رغبة فى مطامع لا يستحقونها ورهبة من الإرهاب الذى يسلطه على المجتمع كله، بوصفه نظام حكم فاسدًا مستغلاً، يمتهن حرية الإنسان ويدوس كرامته، ويستوى فى هذا النظام الفاسد أمام المنطق والعقل والموضوعية أن يسمى هذا النظام شيوعيا أو اشتراكيًا أو نظام حزب واحد يحمل المساوئ ككل نظام حكم فاسد.

وكذلك الشأن بالنسبة للأمة الإسلامية قاطبة، إن عليها أن تولى الناشئين رعاية وعناية فائقتين؛ لأن الإسلام أوجب ذلك وجعل التقصير فيه إثما، من منطلق أن الإسلام يوجب رعاية الإنسان عموما فى مختلف مراحل عمره، ولا يتهاون أبدا مع مقصر فى حق إنسانية الإنسان، أو مع منتقص لشيء من كرامة الإنسان التى كرمه الله بها، إن أبسط ما يقع فيه هذا المقصر أو المنتقص هو الظلم للإنسان، والظلم فى الإسلام من الكبائر التى يستحق مرتكبها عقابا شديدا.

كما نحاول فى هذا الباب أن نؤكد أن الإسلام يرعى الناشئين أحسن رعاية؛ إذ توجب نصوصه من الكتاب والسنة هذه الرعاية على الآباء والأمهات، وترسم لها حدودًا وأبعادًا دقيقة، كما توجب هذه الرعاية على الأقارب جميعًا وتحدد لهم ماذا يفعلون مع الناشئين، ولا يعفى الإسلام المجتمع كله المجتمع المسلم من أن يقوم برعاية الناشئين على النحو الذى يؤمن حاضر الناشئين ومستقبلهم.

إن هذه النصوص الإسلامية التى أوجبت رعاية الناشئين على هؤلاء جميعًا سوف تظل تتلى وتتداول أمام الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

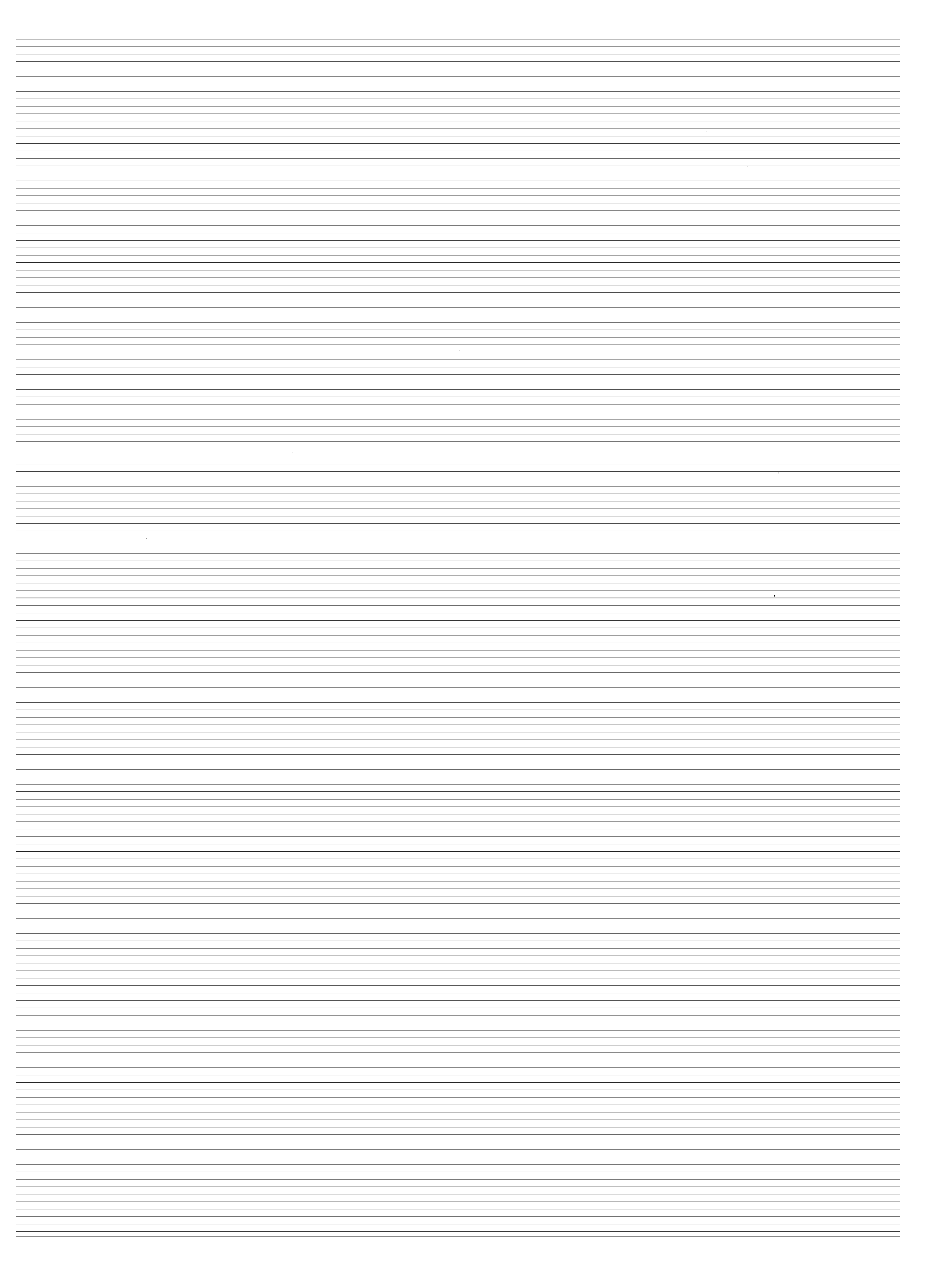
وسوف أسرد من هذه النصوص ما فيه مقنع وكفاية، أما استيعابها فذلك فوق طاقتى فى هذا الكتاب، لكننى سوف أستعين ببعض مواقف من سيرة النبى ﷺ -والسيرة هى السنة النبوية العملية- ما وسعنى ذلك وما تحمله حجم الكتاب.

أما الفـصل الثانى من هذا الباب فسـوف نهتم فيـه بجمع هذه النصوص الإسلامـية من الكتاب والسنة والسـيرة النبويـة، مع إلقاء ضوء على مـضامين هذه النصـوص، وتوضيح لأهدافها، فى محاولة منا لتأصيل رعاية الناشئين فى الإسلام، وردها إلى أدلتها الشرعية.

وما أظننى أبالغ إن قلت: إن جـمع هذه النصوص على النحـو الذى سأصنع يمكن أن ينظر فيه عـلماء الاجتماع من المسلمـين، وأن يتخذوا من تبويب هذه الـنصوص ودلالاتها دستوراً يتولون هم شرحه وتفصيله وتبويبه على النحو الذى يرون.

وإن من أهداف هذا الكتاب وقد تصدى لجمع هذه النصوص الخاصة برعاية الناشئين أن يتصدى لها علماء الاجتماع وعلماء التربية من المسلمين؛ ليصوغوا منها دستوراً فى التربية، وأسأل الله وأدعـوه ملحّاً أن يكون تحقـيق هذا الهدف من بين اهتمـامات علماء الاجتـماع وعلماء التربية المسلمين إنه على ما يشاء قدير.

●●●●



الفصل الأول

مكانة الناشئ فى الأسرة

١- دواعى الفطرة الإنسانية

مكانة الناشئ فى الأسرة ترفدها روافد عديدة فى الإنسان، بحكم ما فطره الله عليه من مشاعر وأحاسيس وميول واتجاهات، ورغبة فى التكاثر وحب لامتداد حياته فى حياة أبنائه.

إن الله تبارك وتعالى فطر الآباء والأمهات على حب أبنائهم حبًا عظيمًا، مقرونًا دائمًا بالتضحيات، ولا يستطيع أب أو أم أن يتخلص من هذه المشاعر والأحاسيس إلا أن يكون غير سوى الفطرة؛ لأن الأبناء بغير هذه المشاعر والأحاسيس المترعة بالحب لا يستطيعون أن يجتازوا مرحلة الطفولة المبكرة، ولا أن يشقوا فى الحياة طريقهم فى أمن وسلام.

بل إن مشاعر الحب هذه قد توجد قبل أن يولد الطفل، بمجرد أن تحمل به أمه، وهى الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها.

ولسنا بصدد تعليل هذه الفطرة بالتفصيل وإن كان تعليلها ممكنًا ومفيدًا، ولكننا سوف نكتفى بالتأكيد على أن الله سبحانه أودع فى قلوب الآباء والأمهات كل هذا الحب للأبناء؛ لأن الطفل بعد مولده يحتاج لكى يعيش لمزيد من الرعاية الفائقة، والحضانة الواعية الرحيمة، ربما لأن طفولة الإنسان أطول من طفولة سائر المخلوقات التى تلد وتحضن صغارها.

وإن أى إخلال بهذه الرعاية له سيعرضه لكثير من المتاعب أو لكثير من الأخطار، التى تعجزه فى بعض الأحيان عن الاستمرار فى الحياة.

إنها إذن الفطرة الإنسانية السوية التى تجعل للطفل أو الناشئ هذه المكانة فى الأسرة بدءًا بالأبوين، ما يشك فى ذلك متأمل لداخل نفسه إن كان أحد الأبوين.

ولابد أن أؤكد أن هذه الفطرة فى حب الأبناء التى تعطيهم هذه المكانة بعد أن يولدوا وقبل مولدهم، قدر مشترك فى قلوب المؤمنين والكافرين بل والملحدين من الناس؛ لكى تستقيم بهذا الحب حياة هذا الكائن الوافد وليستطيع أن ينمو فى ظل هذا الحب؛ إذ بغيره لن يتهيأ له نماء بل لا تتهيأ له حياة إنسانية كريمة.

غير أن الأبوين المؤمنين بدين الإسلام يستهديان فى عواطفهما ومشاعرهما نحو أبنائهما بأحكام الإسلام وآدابه وقيمه، فتكون الأمور بالنسبة لهما أكثر دقة وأكثر نجاحًا، وأكثر إرضاء للنفس؛ لأنها تعمل على إرضاء الله باتباع منهجه ونظامه.

إن الأبوين المسلمين يجمعان إلى جانب ما توجبه الفطرة الإنسانية نحو حب الأبناء رغبة شديدة فى إحاطة الناشئ بما يمكنه من أن يشب مسلمًا يعمل الصالحات، ولن يصل إلى ذلك إلا إذا عود من صغره على الالتزام بأحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه.

وإن هذه الرغبة يجب أن تكون قاسما مشتركا بين جميع الآباء والأمهات الذين يدينون بدين الإسلام، وإلا عدوا عاصين لله آثمين لم يستطيعوا أن يقوا أبناءهم عقاب الله وعذابه إذ يسروا لهم الانحراف عن منهج الله سبحانه، أوجب الله على الآباء تلك الوقاية فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال بعض العلماء: «لما قال ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه، كما دخل فى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، فلم يفردوا بالذكر إفراد سائر القرابات، فيعلمه -أى يعلم الأب ابنه- الحلال والحرام، ويجنبه المعاصى والآثام إلى غير ذلك من الأحكام... وذكر القشيرى أن عمر رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية: يا رسول الله، نقى أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمركم الله».

وقال مقاتل: ذلك حق عليه فى نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه.

وقال «الكيا»: «فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب...»[1].

إن الفطرة السوية فى الأم المسلمة تحملها حملا وتلزمها إلزاما -وهى أقرب من أبيه إليه فى طفولته -أن تعمل ما وسعها على تعليم أبنائها الدين والخير ومكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام، إن الأم المسلمة مسئولة عن ذلك بين يدى الله تعالى، ومهما قصرت فى شىء من ذلك فإنها محاسبة عليه أمام الله سبحانه.

وإن الفطرة السوية فى الأم المسلمة تحملها حملاً وتلزمها إلزامًا على أن تعطى هذا الطفل من الحب والحنان والرعاية والاهتمام ما لا يمكن أن يجده الطفل عند غيرها من الأمهات

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ١٩٥، ١٩٦) فى تفسير سورة التحريم، مرجع سابق.

المستأجرة أو الصناعية، بل قد لا يجد الطفل هذا الحب وذاك الحنان عند أمه العليا (جدته) أو من هى فى حكم أمه فى شريعة الإسلام وهى العمة والخالة والأخت الكبرى.

إن الأم وحدها -بما فطرها الله عليه من فطرة- هى وحدها القادرة على منح كل هذا الحب وكل هذا الحنان، وإن أى أم سواها مهما منحت فلن تساوى الأم الحقيقية، لا فى النوع ولا فى الكم، فلتتق الله كل من تقصر فى شيء من حبها وحنانها لوليدها، إنها لن تخسر خسارة دنيوية فحسب بحرمان ابنها من حقه فى الحب والحنان مما قد يترتب عليه أمراض نفسية له، وإنما هى تخسر إلى جانب ذلك خسارة أخروية، يوم تجد نفسها تحاسب على ذلك وتعاقب.

إن كل عمل تقوم به الأم المسلمة، أو أى نشاط تمارسه، يكون من شأنه أن يقلل من حبها واهتمامها بأبنائها، فهو عمل أو نشاط غير مقبول، لما يترتب عليه من حرمان صاحب الحق حقه، ومن مخالفة لنظام الإسلام فى تربية الأبناء.

إن هذا الحب أو هذا النبع من الحب الذى تتجه به الأم إلى أبنائها وإن كان من دواعى الفطرة الإنسانية السوية، إلا أنه بالنظر إلى النتائج تكون نتيجته فى الأبناء حسنة؛ لأنهم ينشأون محبين لغيرهم من الناس من يوم يدركون أن حولهم ناسًا؛ لأن هذا الحب الذى أحيط به من أمه وأبيه ينعكس عليه حبًا لمن حوله، وليس أروع ولا أجدى على المجتمع من أن ينشأ الإنسان محبوبًا محبًا لغيره.

إن الأم قد فطرها الله على حب أبنائها، هذا الحب الذى يجعلها تتحمل فى تربيتهم كل ما تتحمل من المتاعب والمشقات من غير تململ ولا تبرم، وهى الأم الصالحة الجديرة بمنزلة الأمومة التى أعلى الإسلام من شأنها إلى أبعد الحدود؛ إذ جعل بر أبنائها بها أولى من برهم بأبيهم، على نحو ما سنذكر من أحاديث نبوية فى هذا المجال.

وإن الأم التى لا تتحمل ذلك أو تتبرم به، فإن فطرتها غير سوية، والتزامها بمنهج الإسلام فى التربية ضعيف، وإن عليها والحالة هكذا أن تعالج إيمانها وأن تزكيه بالعبادات والنوافل.

غير أن تنبيهًا هامًا يجب أن نذكر به كل أم فى هذا المجال، وهو أن الأم المسلمة الملتزمة مهما أحبت وليدها استجابة لدواعى الفطرة الإنسانية السوية، فإنها مطالبة بألا تسرف فى هذا الحب حتى يخرج عن دائرة التوسط والاعتدال؛ لأن التوسط سمة واضحة فى الأخلاق

الإسلامية كلها، سواء أكانت فى مجال التحلى أم التخلى، ومعنى ذلك ألا يخرج الحب إلى دائرة التدليل وما يترتب عليه من إفساد.

إن الأم المسلمة تحب ابنها أو ابنتها بقدر معلوم موزون لا تشوبه شائبة الإسراف ولا شائبة التقتير؛ لأنه بين هذين الحدين هو الذى يحدث أثره المطلوب فى توازن نمو هذا الطفل، وذاك هدف مطلوب.

وذلك أن الإسراف والتقتير كل منهما له آثاره السيئة على الطفل فى حاضره وفى مستقبله، فالذى أسرفت أمه فى حبه تساعده بذلك على أن ينشأ مدللا مغرورا، يتصور أن كل مطلب له واجب الأداء، وأن كل من فى البيت يجب أن يكونوا فى خدمته وهذا خطأ فادح، فإن خرج من البيت ليمارس الحياة فى المجتمع وكان على هذه الصفات ارتكب بذلك خطأ أفدح، ولن يجد من الناس إلا انزواء عنه وكراهية له واحتقارًا يدفع هو ثمنها غاليًا من حياته الاجتماعية كلها.

والأم التى قترت فى منح أبنائها حقهم من الحب، تساعدهم بذلك على أن ينشأ الواحد منهم جامدًا متبلد الأحاسيس والمشاعر يشعر بهوان نفسه وقماءتها مما قد يصيبه بقبول أى ذل عليه من الآخرين، فإذا خرج للمجتمع بهذه الأحاسيس لم يجد من الناس إلا نفورا منه أو طمعا فيه، وما لذلك من نتيجة إلا أن يكره الناس والمجتمع وربما كره نفسه فى النهاية لفشله فى إيجاد علاقة طيبة بالناس.

إن على المرأة المسلمة أن تمسك فى يدها بميزان دقيق توزع على أساسه حبها لأبنائها وتوجيهها وتربيتها لهم دون إسراف ولا تقتير.

إن الإسلام قد اعتبر الأم مسئولة عن هذا التوازن فى منح الحب والحنان كما جعلها مسئولة عن الرعاية لأبنائها، فقد روى الشيخان بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وأصل الرعاية من الرعى، وهو حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته وإما بذب العدو عنه، والرعى: الحفظ والسياسة، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾

[الحديد: ٢٧] ويسمى كل سائس لنفسه أو لغيره راعيًا، ومن هذا المعنى ما ورد فى الحديث «كلكم راع...»، ومراعاة الإنسان للأمر مراقبته إلى ماذا يصير وماذا منه يكون[1].

إن الأم مسئولة عن رعاية أبنائها بكل معنى من المعانى التى ذكرنا للرعاية آنفا، مسئولة أمام الله وأمام نفسها وأمام زوجها وأبنائها.

والأب مثل الأم مفطور مثلها على أن يحب أبناءه، وإن كانت عاطفة حبه لهم قد لا تصل إلى قدر عاطفة الأم -وكل ميسر لما خلق له- لكنه مفطور كذلك على حبهم ومطالب برعايتهم، غير أن حب الأب لأبنائه يدفعه إلى أن يكد ويسعى فى الحياة حتى يحقق لهم الأمن ويكفل لهم العيش، ويحاول جاهدًا أن يوفر لهم من الأسباب ما من شأنه أن يؤمن لهم حياتهم ويدفع عنهم أى أذى، ويجلب لهم كل خير، وسنورد فى الفصل الثانى من هذا الباب النصوص الإسلامية الدالة على ذلك بإذن الله تعالى.

إن عاطفة الحب والحنان عند الأب لأبنائه تشوبها دائمًا رغبته الملحة فى أن يربى هؤلاء الأبناء على نهج يسمح لهم بالتعامل مع الحياة، والتجاوب مع ما فيها ومن فيها تجاوبًا يكفل لهم القدرة على الأخذ منها والعطاء لها، إنه يغرس فيهم هذه القيم لكى يعيشوا آمنين مطمئنين، يحسنون التعامل فى الحياة والأحياء.

وإن هذه الرعاية من الأب النابعة من حبه لهم الذى فطر عليه، هذه الرعاية يوجبها الإسلام -كما سنبين عند حديثنا عن أن مكانة الناشئين فى قلوب الآباء نابعة من صميم الدين- ويرسم لها أبعادًا ويوضح لها حدودًا، ولا يتسامح فى شىء منها، بل يحاسب على التقصير والإهمال.

وإن الأب المسلم الملتزم بمنهج الإسلام أسلوبًا فى حياته، قد لا يكفيه كل تلك الرعاية وإن كانت غير قليلة وغير يسيرة، وإنما يوجب عليه التزامه بمنهج الإسلام فى التعامل مع الحياة أن ينشئ أبناءه تنشئة إسلامية، يلتزمون فيها بمنهج الإسلام، ويتخلقون بأخلاقه فى كل ما يمارسون من قول أو عمل.

إن هذا الشعور من الأب نحو أبنائه يكاد يكون فطريا كذلك، مادام الأب ملتزما بمنهج الله، إذ لا يجد معدى عن ذلك، إيمانا منه بأن الإسلام هو دين الفطرة السوية القويمة.

إن الأب المسلم عليه أن يخصص جزءًا مناسبًا من وقته مهما كان مشغولاً بالسعى على

---

(١) الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن باختصار.

الرزق لأبنائه منذ طفولتهم بالباكرة، يلاعبهم ويوجه لعبهم ويغرس فيهم قيم الإسلام وهو يلاعبهم، فذلك واجبه نحوهم وهو حق لهم، وكل ذلك تدفع إليه الفطرة السوية، حتى ليصح لنا أن نقول: إن الأب الذى لا يلاعب أبناءه ولا يوجه لعبهم غير سوى وغير مستقيم الفطرة، فإن كان لا يفعل ذلك لضيق وقت أو مشغلة فهو مقصر فى حق أبنائه، فضلاً عن أن الإسلام قد أوجب عليه ذلك واعتبره مسئولاً عن كل خلل أو اضطراب فى حق أبنائه، وإن كان ترك ذلك لقصور فى فهمه لدينه وسوء فهم لمقاصده فى التربية ومراميه، فإن عليه أن يعلم ويسأل حتى يعرف، فإذا عرف أوجب على نفسه ذلك.

فمن رعاية الأب لأبنائه -كما أوجب ذلك الحديث النبوى الذى سقناه آنفًا - أن يرعى أبناءه فى جدهم ولعبهم؛ لأن ذلك من كمال التربية وتمامها.

ولابد أن ننبه هنا إلى أن الأب إذا قصَّر فى تربية أبنائه فانحرف أحدهم عن منهج الإسلام ونظامه، فإن الإسلام يجعل الأب مسئولاً عن ذلك الانحراف، وسوف يحاسبه الله سبحانه على تفريطه فى مسئوليته.

إن الأب المسلم قد أوجب عليه الإسلام أن يرعى أبناءه ويمونهم ويربيهم، ومن كبر منهم زوجه، ثم دعا الله ألا يجعله فتنة له فى الدنيا والآخرة.

فقد روى ابن السنى فى عمل اليوم والليلة بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«اضربوا على الصلاة لسبع، واعزلوا فراشه لتسع، وزوجه لسبع عشرة إن كان، فإذا فعل ذلك فليجلسه بين يديه ثم ليقل: لا جعلك الله فتنة علىّ فى الدنيا ولا فى الآخرة»**.

هكذا فطر الله الآباء والأمهات على حب الأبناء، وجعل ذلك من دواعى الفطرة، فما يستطيع أحد منهما أن يكره طفله إلا إذا كان سقيم الفطرة، معتل المزاج، فاقدًا لكثير من صفات الأبوة والأمومة.

غير أن هذا الحب الذى أوجبته دواعى الفطرة يحتاج دائمًا إلى تسديد وترشيد، حتى يتجه فى الاتجاه الصحيح، وينتج النتيجة الصحيحة كذلك، وهذا التسديد والترشيد قد تدل عليه وتلزم به الفطرة السوية، فإن عجزت هذه الفطرة لسبب من الأسباب فإن الشريعة بأحكامها ونظمها وآدابها وأخلاقها، تحدد الهدف، وترسم حدود الطريق، وتوضح نوع الوسائل فى كثير من الأحيان.

إن هذا الحب الأبوى للأبناء إذا سُدِّد ورُشِّد حقق الهدف المنشود منه، وهو هدف

تستطيع أن تصل إليه الفطرة السوية والعقل الراجح، ومن المسلَّم به أن الشريعة الإسلامية حددته بغاية الوضوح، إن هذا الهدف من هذا الحب هو أن يربى الأبناء تربية إنسانية معتدلة متوازنة، أى تربية إسلامية تربط الناشئ بربه ودينه وأسرته ووطنه وأمته الإسلامية كلها، تربطه بذلك كله رباطًا وثيقًا يقوم على أساس المبدأ الإسلامى العريق: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

ومعنى الآية الأولى أن الإنسان مسئول عما يعمل، وبصير بما تأتى به جوارحه من أعمال ومحاسب عليها، فواجبه أن تعمل جوارحه العمل الصالح فى الحياة الدنيا حتى تتقى عذاب الله فى الآخرة.

والآية الثانية تشير إلى أن كل إنسان يسأل عما اكتسب سمعه أو بصره أو فؤاده، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقد، والسمع يسأل عما سمع، والبصر يسأل عما رأى.

والآية الثالثة تؤكد أن كل إنسان مسئول عما عمل فى الدنيا ومحاسب عليه، خيراً كان أو شراً، ومجازى به.

ومعنى ذلك أن التربية وإن صاحبها الحب والحنان لكن لابد وأن تكون مبصرة للناشئ، ومعلمة له أنه مسئول عن كل عمل يأتيه صغيراً كان هذا العمل أو كبيراً، بل مسئول عن كل قول يتلفظ به، بل عن فكر وعقيدة تملأ عليه فؤاده، وأنه يجازى على الخير خيراً وبالشر شراً.

ذلك مبدأ عظيم فى التربية يعلم الناشىء كيف يؤدى واجبه كاملا، نحو ربه ونحو نفسه ونحو والديه ونحو أسرته ومجتمعه وأمته الإسلامية، وهذا هو الرباط الوثيق الذى يجب أن يربط الناشئ بهذا كله.

والأبوان مع هذا الحب الفطرى للأبناء يجب عليهما أن يحولا بين أبنائهما وبين الانحراف أدنى انحراف عن الدين والحق والخير، وعن كل ما يعود عليهم بالضرر فى الدين والدنيا، فكيف يفعل الأبوان؟

قد تكون الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة وسيلة إلى ذلك.

وقد تكون التوجيهات المستمرة والاهتمام الشديد بالأبناء وسيلة أخرى.

وقد تكون صحبة الأخيار وانتقاؤهم للأبناء وسيلة ثالثة.

وقد تكون المكتبة والتشجيع على القراءة وسيلة رابعة.

وقد يكون المسجد وروحه وأدبه والتردد عليه وسيلة خامسة.

وقد تكون المدرسة وسيلة سادسة.

ولكن أنجح من هذا كله وسيلة «القدوة»، حيث يجب على الوالدين أن يعطيا أبناءهما القدوة من أنفسهما من كل خير يحبان أن يظهر فى أبنائهما، إنها أفعل الوسائل وأعمقها أثرًا بكل تأكيد.

والقدوة تعطى الناشئ من الصفات والأخلاق ما يراه فى والديه، إن حسنًا فحسن وإن سيئًا فسيئ، وقلما تتخلف هذه القاعدة، فلينظر كل من الوالدين ماذا يريد أن ينقل إلى ابنه منه من صفات وأخلاق!!!

ومن أجل هذا ندرك لماذا دقق الإسلام على الرجل وهو يختار زوجته؟ ولماذا يرفض الإسلام الهذر والباطل من القول والسيئ من العمل؟ ولماذا يضع حدا للضحك يجب أن ينتهى عنده؟

ولماذا يحتم الإسلام أدبًا للطعام والشراب والكلام والمشى، وكل ما له علاقة بسلوك الإنسان فى بيته أو فى مسجده أو فى الشارع؟

ولماذا يضع الإسلام أدبًا للنوم واليقظة والسكون والحركة؟

ولماذا يدقق الإسلام أشد التدقيق فى الأخلاق والتعامل مع الناس؟

ولماذا نادى الإسلام على الأبوين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]؟

إن دواعى الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها توضح بكل تأكيد أن لهذا الناشىء فى نفوس أبويه مكانة أى مكانة، بل مكانة لا تعدلها مكانة.

وإذا كانت تلك المكانة من دواعى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فإنها حينئذ تكون من صميم الإسلام.

وإن تأكيدنا أن مكانة الناشئ عند الأبوين من دواعى الفطرة ليحملنا حملا على أن نقول: إن هذه الدواعى الفطرية يدخل فيها ولو مع اختلاف فى درجة الحب، الأجداد

والجدات؛ فـهم آباء وأمهات للناشـئين، ولابد أن يكون فى فطرتهم حب هؤلاء الناشـئين ولهم عندهم مكانة عالية، كما يدخل فى حكم الآباء والأمهات كل من جعل لهم الإسلام حق الوالدين كـالعم والعمة والخـال والخالة؛ إذ من المنطقى وقـد أعطاهم الله هذا الحق أن يجعل فى فطرتهم حب هؤلاء الناشئين.

ومن المنطقى كذلك أن يدخل فى حكم الوالدين كل من له حضانة الطفل، على نحو ما أشرنا إليه آنفا، وعلى نحو ما سنفصل فيه القول فى الفصل الثانى من هذا الباب بإذن الله، وكذلك كل من له ولاية على الطفل أو وجبت عليه نفقته؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يعطى حق الولاية ولا يوجب النفقة إلا مع وجود الدواعى الفطرية لحب هذا الناشئ الذى استحق الولاية أو استوجب النفقة.

وإن بعض النصوص الإسلامية أعطت للأخ الأكبـر والأخت الكبرى حقوقًا على الطفل وواجبات نحوه قريبة من حق الوالدين وواجباتهمـا نحوه -كما سنبين هذا فيما بعد- فلابد والحـالة هذه أن يكون حب هذا النـاشئ من دواعى الفطرة عند هؤلاء الإخـوة والأخـوات الكبار.

وهكذا نجد الناشئ محاطًا بـالحب من كل جانب، وهو حب تفيض به الفطرة التى فطر الله الناس عليها -سـواء أكان هؤلاء الناس ممن آمنوا بدين الإسلام أم من غـيرهم- ومعنى ذلك أن هذا الحب فطرى فى البشر جميعًا إلا من شذ عن الفطرة السوية.

وما دام الأمر كذلك فـإن لهؤلاء الناشئين مكانة أى مكانة فى الأسرة مطلقـا مسلمة أو غير مسلمة، فما بالنا إذن بمكـانتهم فى الأسرة المسلمة التى أوجب عليها الدين حب هؤلاء الناشئين وحسن رعايتهم؟

●●●●

٢- دواعى البيئة الإنسانية

البيئة كما عرفها علماء الاجتماع هى: المجال الذى تحدث فيه الإثارة والتفاعل لكل وحدة حية.

أو هى: كل ما يحيط بالإنسان من طبيعة ومجتمعات بشرية ونظم اجتماعية وعلاقات شخصية.

والبيئة من أقوى المؤثرات التى تدفع الإنسان إلى الحركة والنشاط والسعى، فالتعامل متواصل بين الفرد والبيئة أخذا وعطاء على نحو من الاستمرار المتلاحق والبيئة كما هو معروف نوعان:

* طبيعية تعنى: الأرض ونوعها، خصبة كانت أو صحراوية أو جبلية، كما تعنى: الأنهار والبحار، والمناخ...

* واجتماعية وهى تعنى: النظم والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية والصحية، كما تعنى ما يحكم هذه النظم والعلاقات من قيم ومبادئ، وعلى رأس هذه القيم والمبادئ الدين.

هذه البيئة وبخاصة الاجتماعية منها تعتبر داعية من دواعى حب الأطفال والناشئين، لأنهم جزء أساسى من هذه البيئة، لكونهم امتداداً طبيعيا للآباء والأمهات، ولكونهم من العناصر المؤثرة أو شديدة التأثير فى هذه البيئة الاجتماعية، ولأن هذه البيئة الاجتماعية شديدة التأثر بهم.

وبيئة الناشئ الأول هى الأسرة التى ينتمى إليها وهى أبوان وإخوة غالبا، ثم تتسع دائرة البيئة فتشمل ما يوازى -قديما- مفهوم القبيلة، ثم تتسع لتشمل القرية فى المجتمع الريفى، أو الحى فى مجتمع المدينة، ثم تتسع أكثر لتشتمل على المجتمع بكل ما فيه من علاقات متشابكة، ثم تتناول الإقليم أو القطر على سعة ما يدل عليه هذا المصطلح، ثم تتسع عندنا معشر المسلمين ليدخل فيها العالم العربى، ثم العالم الإسلامى بجميع أقطاره وأجناسه ولغاته.

ثم تتسع أكثر لتضم العالم كله مسلميه وغير مسلميه، لأن هذا العالم بكامله بيئة للناشئ يؤثر فيها ويتأثر بها، وإن يوم الطفل العالمى ما هو إلا رمز لهذا الاهتمام العالمى بالناشئين.

إن كل تلك البيئات تؤثر فى الناشئ وتتأثر به، وتتقبله بدرجة من الحب والرعاية والاهتمام تتناسب مع أثره وتأثيره فى هذه البيئة.

ولنتحدث عن كل دائرة من هذه الدوائر البيئية التى تؤثر فى الناشئ وتتأثر به.

أ- الأسرة:

وهى البيئة الأولى للناشئ، وقد تحدثنا عنها فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب، وعن رعاية الإسلام لها وعن مكوناتها من أبوين وجدود وجدات وأعمام وعمات وأخوال وخالات وإخوة وأخوات، كما أوضحنا مكانة هذه الأسرة فى الإسلام وكيف أمّن حاضرها ومستقبلها بتشريعاته، كما تحدثنا عن أهداف هذه الأسرة المسلمة.

هذه الأسرة بيئة للناشئ تتأثر به أولا، وتؤثر فيه بعد ذلك، أما تأثرها به فإنها منذ الحمل فيه أو ولادته تهيئ نفسها لاستقباله بالنسبة للمكان والظروف بحيث تتقبل هذا الوليد بقبول حسن فى اختيار المكان الملائم له، وربما تأثرت وبخاصة الأم فى نومها ويقظتها بنومه ويقظته.

كما تتأثر الأسرة باحتياجاته المتعددة فتهيئ من الأسباب ما يوفر له هذه الاحتياجات، حتى ولو كان ذلك على حساب توفير احتياجات أخرى للأسرة بعيدا عن الطفل - عندما تكون الأسرة فى ضيق من الرزق - تفعل الأسرة ذلك راضية به بل سعيدة فى معظم الأحيان، لأن شأن الطفل فى الأسرة كبير والعناية به مقدمة على العناية بغيره.

وإن الأسرة كما تتأثر بالناشئ فى كل ما يتصل بحياته، فإنها تؤثر فيه تأثيرا كبيرا متنوعا:

فهى تؤثر فيه بما تنشئه عليه من دين وخلق وسلوك.

وما تنشئه عليه من تجاوب مع الأقارب والجيران.

وما تنشئه عليه من حب للتعاون فى البيت مع الآخرين.

وما تحببه فيه من عادات وما تبغضه فيه من تقاليد.

وما تطبعه عليه من حب لأداء الواجبات.

وما توطن عليه نفسه من صبر فى كثير من المواقف.

وما تفطنه إليه من أقوال طيبة وأعمال صالحة.

وما تغرسه فى نفسه من إيمان.

وما تعوده عليه من إجادة وإتقان.

وما تلزمه به من تردد على المسجد ومشاركة لأى نشاط علمى فيه.

وما تدربه عليه من دعوة إلى الله وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر.

وما تبصره به من ممارسة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وما تطالبه بأن يعد روحه وعقله وبدنه له من جهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

وما تفقهه فيه من أخوة تجمع بينه وبين المؤمنين جميعا.

وما توقظه فى نفسه من مشاعر الانتماء إلى الإسلام والاعتزاز بهذا الانتماء.

وما تلزمه به من الالتزام بخلق الإسلام وأدبه.

وما تعلمه إياه من التيارات الموالية أو المعادية للإسلام، ليأخذ من كل الموقف الملائم لها.

وما تعمقه فى نفسه من شعور بأن المسلمين أمة واحدة، لا تُفرق بينهم حدود جغرافية ولا سياسية ولا جنسية ولا لغوية، لأنهم جميعا أمة التوحيد.

وما توجبه عليه من تضحيات من أجل أسرته ووطنه وعالمه العربى وعالمه الإسلامى.

وغير ذلك مما تحب الأسرة المسلمة أن تنشئ أبناءها عليه من صفات، هى التى تصنع منه شخصية إيجابية فاعلة مؤثرة.

ب- العائلة الكبيرة - الموازية للقبيلة:

وأفراد العائلة هم من يضمهم بيت واحد من آباء وأبناء وأقارب. والقبيلة: الجماعة من الناس تنتسب إلى أب أو جد واحد، ومادام الانتساب إلى الجد فقد دخل الأعمام وأبناؤهم، فهى قريبة إذن من العائلة.

ويتسع معنى القبيلة عند علماء الاجتماع ليشمل المجموعة من الناس التى تتكون من عدة بطون، وتسكن إقليما مشتركا تعتبره ملكا لها، وتكون لها لهجة مميزة، وثقافة متجانسة، وتنظيم سياسى موحد...

وهم متأثرون فى هذا التعريف بالنظام القبلى القديم الذى دخل عليه كثير من التطور فى أيامنا هذه بالنسبة لكثير من القبائل التى تعيش الآن فى القرن الخامس عشر الهجرى، مما يجعلها أقرب ما تكون إلى مفهوم العائلة.

وسواء أكان معنى القبيلة مرادفًا لمعنى العائلة أم أوسع منه، فإنها بغير شك هى الإطار الأوسع من الأسرة بالنسبة للناشئ، كما أنها بغير شك تتأثر بالناشئين وتؤثر فيهم.

إن العائلة تتأثر بالناشئين من حيث الظروف الاجتماعية التى نشأوا فيها، وما يجب أن توفره لهم من ظروف أحسن، وفرص لممارسة الحياة أكثر ملاءمة لتركيب العائلة الاجتماعى وما يسودها من قيم وعادات، وما توفره لهم من فرص تعلم ونوع تعلم، وما ينبغى أن توفره لهم من إمكانيات ومقتنيات، وما ترغبهم فيه من إصهار إلى عائلات بعينها.

كما تؤثر العائلة فى الناشئين تأثيرًا مباشرًا فى الإلزام بالانتماء إلى العائلة والاعتزاز بهذا الانتماء الذي قد يبلغ أحيانا حد التعصب، وإن هذا الانتماء يولد فى الناشئ عواطف الحب والولاء لعائلته ويعلمه نوعا من التضحية من أجل هذه العائلة.

وهذا الانتماء يحدث تفاعلا جيدا بين الناشئ وعائلته، لابد أن يكون فى صالح الناشئ، وكثيرا ما يكون فى صالح العائلة نفسها وفى كل خير.

وكثير من العائلات تولى ناشئيها رعاية خاصة فى تعلمهم ولون ثقافتهم منذ صغرهم، فتتجه بعض العائلات إلى نوع من التعليم دون نوع لأسباب واضحة أو غير واضحة.

فمن العائلات من يكثر فيها عدد علماء الدين، وأخرى يكثر فيها الأطباء أو المهندسون أو المعلمون أو الفلاحون... إلخ.

وإن بعض العائلات توجه أبناءها إلى التجارة وتصر على أن يتوارث الأبناء عن الآباء هذا العمل.

وما هذا وذاك إلا دليل على أن العائلة أو القبيلة تؤثر فى الناشئين تأثيرًا مباشرًا.

وقد يكون هذا التأثير غير مباشر، بحيث تترك لهم حرية اختيار نوع الثقافة ونوع العمل، ولكن فى ظل تعريفهم باحتياجات بعينها لابد أن تتوافر فى العائلة دون إلزام أحد الناشئين بأحد أنواع الثقافة أو أحد أنواع الحرف.

المهم أن العائلة تتأثر بالناشئين وتؤثر فيهم، ومعنى ذلك أن هذه البيئة التى تلى الأسرة فى الاتساع تضع للناشئين مكانة مرموقة فى تكوينها الاجتماعى، وأنها من أجل هذه المكانة تكيف نفسها وتكيف الناشئين فيها، التكيف الذى يحقق لها أهدافها.

جـ- القرية فى الريف أو الحى فى المدينة:

القرية اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس، وكل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً للناس ، وتطلق أحيانًا على المدن والأمصار.

وعلماء الاجتماع يقولون: إنها الوحدة السكنية التى تكون زراعية أكثر منها حضرية، ويحدد بعضهم عدد سكانها بما لا يزيد على ألف نسمة، بينما يحدد بعضهم هذا العدد بما لا يزيد على ألفين وخمسمائة نسمة،وعمومًا فإن المعايير التى تحدد القرى وتعرف بها بدقة تختلف من بلد إلى آخر، ويوجد اليوم من الجماعات المحلية ما يعتبر قرية بينما هو فى الحقيقة ضاحية لإحدى المدن.

وفى غالب الأحيان ومع استمرار التطور نجد لكل قرية مجلسًا يسمى مجلس القرية،يضم قادة القرية كالعمدة وإمام المسجد الجامع ومأذون الشرع، وممثلى الهيئات والمؤسسات الحكومية الموجودة فى القرية وأغلب هؤلاء يمثلون الحاكم أو الحزب الحاكم فى البلاد التى يحكمها حزب واحد أو حزب متسلط لا يسمح بتواجد الأحزاب الأخرى إلا فى ظل شروط يفرضها نفس الحزب!!!

ويعمل مجلس القرية على التعرف على مشكلات المجتمع المحلى والتفكير فى حل لها، واقتراح المشروعات التى تخدم القرية وتطور وسائل العيش فيها نحو الأحسن، كما يفترض فى مجلس القرية أن ينسق العمل بين المجهودات التى يقوم بها أهل القرية - الجهود الذاتية- والجهود التى تقوم بها الحكومة لتطوير هذا المجتمع القروى.

ونفس الكلام يقال على «الحى» فى المدينة ومجلسه، إذ له نفس الأهداف وكثيراً ما يتشكل على نفس النحو الذى يتشكل على أساسه مجلس القرية.

وسواء أكانت قرية أم حيا من مدينة فإنها البيئة الأم التى تلى العائلة، وهى وإن كانت بيئة أقل تأثيراً وتأثراً بالناشئين فيها إلا أن هذا التأثير وذاك التأثر ليسا منقطعين بحال من الأحوال، إنهما موجودان وإن كانا ضعيفين أو محدودين.

إن القرية تهتم بناشئيها أكثر من اهتمام الحى فى المدينة بناشئيه، لما فى القرية من تماسك اجتماعى، وما يربط الناس فيها من نسب وصهر.

وإن المسجد والكتّاب والمدرسة فى القرية لتمثل نوعا من الاهتمام بالناشئين، فالإمام الذى يؤم الناس فى المسجد، والشيخ الذى يقرئ الناشئين القرآن الكريم فى المسجد،

والمعلم الذى يعلمـهم فى المدرسة، كل هؤلاء فى غـالب الأحيان تربطهم بالـناشئين روابط القرابة من جهة النسب أو الصهر، ومن أجل هذه الروابط فإن تقبل هؤلاء الكبار للناشئين، واجتهادهم فى إحسـان توجيههم أمرٌ يكاد يكون حقيقـة واقعة، وعلى العكس من ذلك ما يجرى فى المدينة أو فى أحياء المدينة.

وإن هؤلاء الكبار يستطيعون أن يعرفوا ماذا يمكن أن يقدمه الناشئون لقراهم من خدمات تلائم حـاضرهـم، بل يستطـيعـون أن يتـوقعـوا مـا يمكن أن يكون منهم من مـواقف فى مستقبلهم، بحكم معرفتهم بأسـر هؤلاء الناشئين وما تتميز به بعض الأسر من الإسراع فى تقديم الخدمات، وكل هذا يدعو هؤلاء الكبار إلى مزيد من الاهتمام بالناشئين، وذلك أيضا أمر مفقود فى المدينة.

ومعنى ذلك أن المسجـد والكتاب والمدرسة والقائمين على هذه المؤسسـات عناصر هامة من البيئة التى يعيش فيها الناشئون تؤثر فيهم تأثيراً واضحًا.

وإن رجوع أهل القرية مـعظمهم فى كثير من شئـونهم إلى كبار القرية كالعـمدة والعالم والشيخ والمدرس، أمر مشاهد قلما يستغنى عنه فى ظل هذه العلاقات أحد من الناس، وهو بالتالى عامل هام من عوامل التأثير فى الناشئين، إذ يشب الناشئ وقد رأى ذويه يستشيرون الكبار ويسـتهدونهم فى كل مـا يحزبهم من أمر، فيـتخذ ذلك أسلوبًا فى حـياته يستشـير ويستخير، ويوقر الكبار ويلجأ إليـهم فى المهمات والملمات، وكل ذلك من تأثير القرية وما يسودها من روابط ومفاهيم.

إن كثيراً من الناشئين من أهل القرى لا يَخْطون فى حياتهم خطوة إلا بعد استشارة لأكثر من واحد من كبـار القرية، إن نوع التعليم الذى يتعلمـه الناشئ ونوع العمل الذى يمكن أن يقوم به فى المستقبل، والمكـان الذى يرحل إليه لطلب العلم، والحذر الذى يجب أن يتسلح به فى غربته عندما يغترب، كل ذلك يستشار فيه الكبار وتعقد له الجلسات تلو الجلسات.

هكذا يبلغ تأثيـر القرية فى الناشئين، إذ هى بيـئة شديدة التـأثير إذا قورنت بغـيرها من البيئات.

وإن أى ناشئ من أبناء القرية يحقق فى مستقبل أيامـه نجاحًا فى أى مجال من مجالات الحيـاة، مطالب بأن يعكس هذا النجـاح علي أهل قريته، بـل يجعلهم يشاركـونه فى هذا النجاح أو تلك المكانة، ولو لم يفعل هو فإن أهل قريته يـشعرون بأنهم أصحاب حق فيه،

فربما ألزموه بذلك وهو راض أو كاره، وما هم فى هذا بثقلاء أو متطفلين لأنهم فى الحق أقرباء له فى نسب أو صهر وهذا واجبه نحوهم، وهنا ندرك أن البيئة -القرية وأهلها- قد تأثروا بالناشئ فيهم بعد ما كبر، كما أثروا هم فيه تلك التأثيرات التى أشرنا إليها آنفا.

ما نحب أن نؤكده -بما قدمنا عليه من أدلة- هو أن حب الناشئين والاهتمام بهم ورعايتهم من دواعى البيئة التى ينشأون فيها، ولا تستطيع بيئة من البيئات أن تتجاهل ناشئيها بحيث لا تهتم بهم، إنما كل ما تقع فيه هذه البيئة من خطأ هو أن يقل اهتمامها بالناشئين فيها عما يجب أن يكون عليه هذا الاهتمام.

فإذا أضفنا إلى ذلك فى هذا الكتاب عن ناشئ مسلم فى بيئة مسلمة قويت دواعى الاهتمام بالناشئين، لأن الإسلام يدعو إلى ذلك ويأمر به - على نحو ما سنبينه إن شاء الله فى النقطة التالية من هذا الفصل وهى: دواعى الدين.

د- المجتمع عمومًا:

عندما تتسع دائرة البيئة لتشمل المجتمع كله، فإن الاهتمام بالناشئين يصبح أمرًا ضروريًا تطالب به ظروف المجتمع، وتحتمه تطلعاته نحو المستقبل؛ لأن هؤلاء الناشئين هم مستقبل هذا المجتمع.

إن المجتمع فى الغالب يستنفر الناس والظروف والإمكانات للاهتمام بالناشئين -طالما هو مجتمع فيه رشد ورغبة فى التطور والتقدم - بحيث يعمل المجتمع بكل ما فيه من مؤسسات وبكل من فيه من ناس، على أن يحقق للناشئين كل فرص النمو السليم فى النواحى العقلية والروحية والثقافية والتعليمية والاجتماعية؛ لأن المجتمع نفسه هو الذى سوف يجنى ثمار عمل هؤلاء الناشئين عندما يكبرون.

إن المجتمع بكل عناصره البشرية هو امتداد لحياة الناشئين، بل هم مستقبله الحقيقى، وإن كل فرد فى المجتمع من الكبار يستطيع أن يرى نفسه وماضيه يوم كان ناشئًا، وماذا قدم له، وماذا لم يقدم له مما كان يحتاج إليه - يرى كل ذلك وهو ينظر إلى الناشئين فى المجتمع.

وما أتصور أن يبخل مجتمع على ناشئيه بالرعاية والاهتمام وتوفير أسباب النمو السليم التى تحدثنا عنها آنفًا، إلا إذا كان مجتمعًا غير راشد وغير راغب فى التقدم والنمو، أو كان مجتمعًا تحكمه نظم حكم فاسدة تتجاهل لفسادها ربط الحاضر بالمستقبل، وما أظن ذلك موجودًا فى المجتمعات الإنسانية إلا فى القليل النادر.

إن المجتمع بكل عناصره المادية والمعنوية يجب أن يسخر لخدمة هؤلاء الناشئين فى حاضرهم ليؤمن المجتمع مستقبله الذى هو مستقبلهم، وإن هذا الواجب لا يمليه قانون ولا تفرضه سلطة أو نظام بقدر ما تمليه الفطرة الإنسانية السوية فى المجتمع.

المجتمع- كما قلنا- بيئة واسعة للناشئين يجب أن تستجيب تلقائيًا- ما لم تكن هناك ظروف غير طبيعية- للاهتمام بالناشئين وإحاطتهم بكل الوسائل التى تمكنهم من شق طريقهم فى الحياة آمنين مطمئنين، قادرين بعون هذا المجتمع على أن يحققوا لأنفسهم ولمجتمعهم بالتالى أكبر قدر من العمران والتقدم.

وإن معنى ذلك أن جميع المؤسسات فى المجتمع وبخاصة التربوى منها والإعلامى، يجب أن تركز جهودها فيما تقدمه وما تقوم به من عمل لرعاية الناشئين، ذلك هو الأصل فى هاتين المؤسستين وفى كل مؤسسة فى المجتمع، ما يجادل فى ذلك إلا كل ختال كفور.

وكل مؤسسة فى المجتمع لا تجعل رعاية الناشئين هدفًا لها، ولا تجعل تنميتهم فى كل مناشط الحياة من بين أهم أهدافها، مؤسسة تتنكر لأهم وظائفها، وتسىء إلى المجتمع الذى أنشأها وحملها مسئوليتها، بل تعمل واعية أو غافلة ضد مستقبل الأمة كلها.

وربما كان ذلك التقصير أوضح وأشد عندما تكون المؤسسة تربوية أو إعلامية، لخطر هاتين المؤسستين فى تكوين الناشئين ومدهم بالقيم التى تصلحهم وتصلح بهم، إن هاتين المؤسستين لهما من الخطر والأهمية فى حياة المجتمع ما يجعل تخريبهما هدفًا هامًا لأعداء المجتمع قبل أن يخربوا الجسور والطرقات والمرافق العامة.

إن إفساد التربية والإعلام يرتبط أشد أنواع الارتباط بهبوط الإنتاج فى المجتمع من حيث كمه ونوعه، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بفقر المجتمع أو اكتفائه وبنمو المجتمع أو تقهقره، وبأخلاق المجتمع وعاداته وتقاليده، ومن أجل هذا عانى العالم الإسلامى فى القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى وما قبل ذلك بقليل، من عدو استطاع أن يستولى على بلاد المسلمين محتلاً غازيًا، وأن يترك فيهم من وسائل التدمير والتخريف ما لا يستطيعون معه النهوض من كبوة الاحتلال، والسيطرة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فكان كل هم الأعداء أن يخربوا مؤسسات التعليم والإعلام، فنجحوا فى ذلك نجاحًا أى نجاح.

وإذا فتشت عن المدرسة اليوم وماذا تقدم للناشئين، وعن أجهزة الإعلام وماذا تقدم للناشئين، استطعت أن تعرف على وجه اليقين ماذا يمكن أن يكون مستقبل هؤلاء الناشئين.

إن المجتمع إذا كان مجتمعًا مسلمًا فإن درجة الاستنفار فيه لخدمة هؤلاء الناشئين تكون أعمق وأقوى، لأنه بحكم إسلاميته مجتمع مسئول بين يدى الله تعالى عن الناشئين مسئولية مباشرة، بل هو مسئول عن الناس جميعًا، إنه مجتمع- كما سبق أن أوضحنا فى سماته وخصائصه فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب -مطالب بأن يحقق للناس كل الناس مصالحهم الدينية والدنيوية فى تجاوب بين الفطرة والعقل، وتوازن بين حاجات الإنسان وتكامل وانضباط وتكافل، وإلا ما وصف بأنه مجتمع مسلم، إن المجتمع المسلم مجتمع يحسن جلب المصلحة للناس كما يحسن دفع المضرة عنهم فى دينهم ودنياهم.

وإن الناشئين فى المجتمع من أهم طبقات الناس، إذ هم مستقبل هذا المجتمع وعناصر الإنتاج فيه، فحظهم من العناية والرعاية يجب أن يتناسب فى المجتمع مع خطر مكانهم ومكانتهم[1].

وإن ضبط السلوك الاجتماعى للناس مع أخلاق الإسلام، وضبط حركتهم الاجتماعية مع التوجه الإسلامى فيما أحل الله وما حرم هو عمل من صميم واجبات المجتمع المسلم، وليس هناك أسلوب أكثر فائدة وفعالية فى ضبط سلوك الناشئين من الالتزام بأخلاق الإسلام وتوجهاته.

والمجتمع المسلم المنضبط هو الذى يطبع الناشئين على الانضباط مع الإسلام فى أقوالهم وأعمالهم، ولن ينضبط المجتمع إلا إذا انضبطت كل مؤسساته وجميع مرافقه مع الإسلام، بل انضبط كل أفراده مع توجهات الإسلام، إن ذلك هو الذى يكفل للناشئين جوًا نقيًا يشبون فيه، وقد عصمت حواسهم من أن تتعامل مع أى شىء يسىء إلى تطبعهم بطابع الإسلام.

وإن المجتمع أى مجتمع إنسانى -كما قلنا آنفا- لابد أن يكون من بين أهم ما يجب أن يعنى به إحاطة الناشئين -وهم مستقبله- بكل ما يتيح لهم النشأة الطيبة الكريمة اللائقة بكرامة الإنسان.

وإن المجتمع المسلم بالتحديد أكثر المجتمعات- بحكم مخاطبة الإسلام له- عناية بهؤلاء الناشئين ذات أصالة؛ لأنها من صميم الدين لا يملك المجتمع أن يتخلص منها أو يستبدلها بسواها.

---

(١) سنوضح فى نقطة: «دواعى الدين الإسلامى»- الآتية بعد- أن رعاية الناشئين من دواعى دين الإسلام.

هـ- الإقليم أو القطر- الوطن-:

الوطن بيئة أوسع وهو مكان الإنسان ومقره وإليه انتماؤه، وُلِدَ به أو لم يولد، وحب هذا الوطن فطرى فى الإنسان، وهو حُب محمود دعا إليه الدين.

والذى نقصده بالوطن هنا المكان وأهل المكان، وإذا كانت الأسرة تهتم بناشئيها وكذلك العائلة والقرية والمجتمع، فإن الوطن كذلك لابد أن يهتم بشئون الناشئين فيه ليقوى بذلك انتماءهم إليه، فإذا قوى هذا الانتماء عمل هؤلاء المنتمون لصالح وطنهم الذى ينتمون إليه، فكان التأثير والتأثر الذى نتحدث عنه والذى نقول إنه من دواعى البيئة.

إن الوطن بهذا المفهوم الواسع له مطالب عديدة إذا حرم منها فقد كثيراً من الميزات، ودخل بفقدها فى كثير من المشكلات والمتاعب بل ربما وقع فريسة فى يد عدو غاصب يستغل خيراته لغير أهله ويستولى على ما فيه وربما نقله لوطنه هو -كما حدث ذلك فى التاريخ غير مرة[1].

وإن مطالب الوطن العديدة يمكن أن نشير منها إلى ما يلى:

١- أن يكون حراً من أن تدنسه يد عدوٍ غاصب، وتستولى عليه أو على أفراد منه، ولو كان شبراً من أرضه.

٢- وأن يكون متقدمًا فى مجالات العلوم والفنون، وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة الإنسانية أكثر يسراً وملاءمة لتكريم الله سبحانه للإنسان.

٣- وأن يكون الوطن قادراً على تحقيق اكتفائه الذاتى من أسباب العيش الإنسانى الكريم، ولا يكون ذلك إلا بمضاعفة الجهد وتقدم العلم والإخلاص فى العمل.

٤- وأن يكون آمنًا من عدو يتربص ويتحين فرصة الانقضاض، وإنما يأمن الوطن على نفسه إذا كان قويًا ومستعدًا لرد أى عدوان وكف أى أذى، وطريق ذلك التقدم العلمى كذلك.

٥- وأن يكون شاعراً بالاستقرار والأمن فى داخله، لما يسوده من نظام حكم عادل يقدر مكانة الإنسان ويحترم المواطنين ولا ينتقص شيئًا من حقوقهم، ولا يفتئت عليهم فى أمر

---

(١) تأمل ما صنع الصليبيون فى الأوطان الإسلامية التى احتلوها، حيث نقلوا الكتب والتحف والآثار، حتى الضخم منها، وانظر إلى المكتبات والمتاحف والميادين فى الغرب وتأمل كيف وصل إليها ما هو غريب عنها وعن ماضيها وحاضرها وحضارتها.

من أمور وطنهم، وإنما يستشير ويستأذن حتى يؤذن له،وذلك هو نظام الحكم الراشد، ولقد مضى إلى غير رجعة نظام الحكم الذى يقوم على رأسه حاكم مستبد يفعل ما يريد دون أن يراجع المواطنين، ولفظته الإنسانية كلها في معظم بلدان العالم، ووشيكًا ما تلفظه فى كل أوطان العالم.

وكل هذه المطالب لن تسقط على الوطن من السماء، وإنما هى فى الحقيقة جهود المواطنين وعملهم وإخلاصهم فيه، وإيثارهم أوطانهم على غيرها من الأوطان.

ولن يستطيع المواطنون أن يؤدوا هذه المطالب للوطن إلا إذا كان الوطن قد شملهم بالرعاية وأحاطهم بالاهتمام، ويسر لهم من الوسائل والأسباب ما يمكنهم من هذا الأداء.

فرعاية الناشئين إذن داعية من دواعى البيئة، تتبارى فيها الأسر والعائلات والقرى والمجتمعات والأوطان، ليس منطقيا أن يهمل وطن ناشئيه وليس مقبولا أن يهمل الناشئون مطالب أوطانهم.

و- العالم العربى:

وهو بيئة ترتبط باللغة واللسان، كما ورد فى سنة النبى ﷺ: **«ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان»**، والعربية تميزت بأن اختارها الله سبحانه لغة أنزل بها آخر كتبه السماوية، وبأنها لغة خاتم أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، غير أن ذلك لا يعطى للعرب فضلاً على إخوانهم المسلمين من غير العرب، لأن التفاضل فى الإسلام بالتقوى وليس بشىء آخر.

غير أن العالم العربى -الذى يعيش فيه العرب- لابد أن يكون عالمًا واحدًا، لا بقرار من قادة العالم العربى، وإنما انبعاثًا من أن هذا العالم العربى لن تقوم له قائمة سياسية أو اقتصادية إلا إن تَوَحَّد، مما يساعده على هذا التوحد لغته الواحدة وآماله الواحدة وتراثه، وأنه مهبط الأديان السماوية كلها، وأنه مشرق الإسلام بالذات.

ولندع جانبا هذه التكتلات التى لا أشك فى أن الذى أوحى بها إلينا هم أعداؤنا ليزيدوا فى فرقتنا، فمجلس التعاون الخليجى ومن ورائه مجلس التعاون المغاربى ومن بعده مجلس التعاون العربى، كل تلك الخدع لم تمنع العرب من التشرذم والفرقة، ولم تمنع بلداً عربيًا عضواً فى مجلس التعاون العربى من أن يعتدى بل يلتهم دولة عربية عضواً فى مجلس التعاون الخليجى!!! كما فعلت العراق بالكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠م، ولم تُجْدِ هذه المجالس فى أن تكف المعتدى عن عدوانه ولا أن تنصر المعتدى عليه فترد عنه العدوان!!!

إن توحد العالم العربى لن يكون بقرار سياسى يتخذه قائد عربى، يحركه الطمع وتوسيع النفوذ، لأن ذلك مصيره الفشل، كما حدث فى الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا، أو بينهما وبين العراق حينًا وبين ليبيا حينًا، كل ذلك كان باطلاً ولا يزال، ولا يمكن أن يكون طريق التوحد بين بلدان العالم العربى.

وإنما الطريق إلى توحد العالم العربى يبدأ من الناشئين إذا ربّوا تربية إسلامية.

إن العالم العربى بيئة كبيرة للناشئين، وإن عليه أن يوليهم من الاهتمام ما يُوَلِّد فيهم الإحساس بالانتماء إلى هذا العالم العربى.

إن المثقفين فى العالم العربى عليهم واجب كبير وجليل نحو هؤلاء الناشئين، فإن الملاحظ على هؤلاء المثقفين أنهم حتى الآن لم يستطيعوا أن يعبروا عن احتياجات العالم العربى من ناشئيه ولا عن احتياج الناشئين من العالم العربى بمقدار ما نجحوا معظمهم فى التعبير عن الأنظمة الحاكمة وأهواء الحكام، وبخاصة المستبدون من الحكام.

وإن المثقفين عمومًا والإسلاميين منهم على وجه الخصوص، لم يولوا الناشئين ما يستحقون من رعاية عبر ما يملكون من وسائل تعبير ووسائل إعلام، بقدر ما أولوا سياسات الحكام -مهما كانت متجنية على حقوق الإنسان- أهمية بلغت حد التبرير لهذه التجاوزات.

وإن المؤسسات العلمية والثقافية -كالجامعات والأزهر ومراكز البحوث والدراسات- لم تهتم بما يجب أن يكون عليه الناشئون من قيم وأخلاق وما ينبغى أن يحصلوه من علم ومعرفة، وما يجب أن يرتادوه من مجالات البحث، بقدر ما عبرت هذه المؤسسات عن رغبات أنظمة الحكم فى توجيه التعليم والاهتمام بالكم على حساب الكيف من أجل ترديد شعارات جوفاء.

وإن المؤسسات الإعلامية والتربوية فى العالم العربى لم تستوعب أهمية الناشئين ومكانتهم ومكانهم فى العالم العربى، وبالتالى لم تعطهم من الاهتمام ما يستحقون، وتجاهلت احتياجاتهم التربوية والإعلامية التى يتطلبها عالمهم العربى وما يسوده من قيم وآداب، وأخذت تردد دون وعى ما تردده المؤسسات التربوية والإعلامية الغربية بغض النظر عن الفروق الحادة بين العرب والغرب، وبخاصة فيما يتصل بالقيم الأخلاقية والأدبية.

وإن نظرة إلى مناهج التعليم دون الجامعى فى العالم العربى، لتؤكد لنا روح تقليد الغرب السارية فى المقررات الدراسية معظمها، مما يصيب ناشئة العالم العربى بالتمزق وفقد الانتماء لعالمهم الذى يعيشون فيه.

كما أن نظرة إلى المادة الإعلامية التى تبثها أو تنشرها وسائل الإعلام وأجهزته فى العالم العربى، تصيب القارئ أو المشاهد أو المتابع بالشك فى المكان الذى يعيش فيه أهو العالم العربى أم العالم الغربى؟

إن أجهزة الإعلام عندنا أعجز من أن تبتكر ما يلائم دعم قيمنا وأخلاقنا فى مادتها الإعلامية، ولعل ذلك راجع إلى أسباب، منها: أن المثقف العربى أو صفوة المثقفين العرب قد اكتفوا بأن يكونوا أبواقًا للحكام يرددون ما يقولون ويبررون ما يفعلون، ومن هنا لم نجد فيهم من يتفرغ لإجادة المادة الإعلامية مع التوجه العربى والقيم السائدة فى العالم العربى.

وعندما يفارق العجز أحد الكتاب فيكتب مادةٍ إعلامية نجده مُعَرِّبًا لعمل غربى أو مقتبسًا منه أو محاكيًا له مع تغيير الأسماء فقط، أو مقلدًا من حيث الهدف لأى عمل غربى، بمعنى أن مادة إعلامية غربية تستهدف الزراية بقيمة أخلاقية بعينها تجد لها نظيرًا فى مادة إعلامية عربية تستهدف الزراية بنفس القيمة، وحسبى هذه الإشارات فإن الحديث فى الإعلام وأجهزته ذو شجون.

وحسبى أن أقول مع بالغ الأسى والحسرة: إن الأقسام العربية فى إذاعات «لندن وصوت أمريكا» تنطق العربية أفصح وأصح من كل إذاعات الإعلام فى العالم العربى!!!

وما أدرى ما دلالة أن تكون اللغة العربية غريبة مجهولة لا تعرف طريقها الصحيح فى أوطانها؟

أيدل ذلك على فساد المؤسسات التربوية والتعليمية، وعلى تخبط المؤسسات الإعلامية؟

أم يدل على فساد أنظمة الحكم بتحويل العلماء والمثقفين إلى أبواق تردد، وتبرِّر جهل كثير من الحكام؟

أم يدل على هوان الشخصية العربية لدى أنظمة الحكم التى لم تستطع حتى الآن أن ترتفع إلى مستوى المحافظة على حقوق الإنسان؟، وذاك أمر يؤكد غُربة الشخصية العربية فى بلادها وهوانها على حكامها، ومن هنا تضيع اللغة وتضيع القومية وتضيع العروبة مهما طنطن المطنطنون وبحت حناجر أصحاب الأصوات العالية من العاملين فى أجهزة الإعلام ووسائله، يبشرون بالعروبة والقومية العربية ويرتكسون وينتكسون فى كل حين.

ز- العالم الإسلامى:

هو بيئة كبرى للناشئ المسلم فى أى وطن، وهو مسئول عن الاهتمام بالناشئين، فهم نسيجه الحقيقى مهما تباعدت أقطارهم، بل هم حراس قيمه والذادة عن آدابه وأخلاقه،

وهم الذين يناط بهم دائما تحقيق آماله، بل إن العالم الإسلامى بغير الناشئين حاضر لا مستقبل له.

إن فى العالم الإسلامى على وجه الحقيقة قيمًا فاضلة ومعانى نبيلة، تعبر عن نفسها فى أوطان عديدة، وفى الوقت نفسه فيه مقدرات اقتصادية فى أرضه قادرة على أن تحقق الاكتفاء الذاتى للمسلمين جميعًا، وما لم يشب الناشئون فى العالم الإسلامى على التنبه لهذه الحقائق والعمل على جعلها فى مجال التنفيذ والتطبيق، فليست هناك مفاهيم صحيحة لكون العالم الإسلامى بيئة كبرى للمسلمين عموما وللناشئين على وجه الخصوص.

وإن الإسلام الذى يدين به هذا العالم الموصوف بأنه إسلامى، ليس كمثله نظام يمد كل قطر من أقطاره بما يحتاج إليه فى حياته الدنيا والآخرة من معنويات وماديات، إن أحكام الإسلام جامعة - وهى ما كلف الله به الناس- بحيث لم تدع خيرا لهم فى دينهم ودنياهم إلا أمرتهم به، ولم تدع شرا يضر بدينهم ودنياهم إلا نهتهم عنه، وإن قوانين الشريعة الإسلامية - الأحكام الفقهية- لقادرة دائما على أن توالى مَدّ الناس بما يحتاجون إليه ليدفعوا عن أنفسهم كل ضرر فى دينهم أو دنياهم، أى أن الإسلام نصوص ثابتة واجتهادات متجددة،النصوص الثابتة التى لا يجوز الاجتهاد معها هى التى تنظم أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والأسس التى يجب أن تقوم عليها المعاملات، والاجتهادات فى غير ما جاءت به النصوص هى التى يواجه بها المسلمون المتغيرات، وهذه وتلك مما لا يوجد فى نظام عرفته البشرية من قبل ولا من بعد.

إن كل المعانى النبيلة والأخلاق الفاضلة التى جاء بها الإسلام، يجب أن تتضافر جهود المسلمين فى العالم الإسلامى كله لتكون هى الأساس الذى تعتمد عليه تربية الناشئين المسلمين،وأن تزيل كل دولة من دوله ما يعترض ذلك من مناهجه الدراسية ومن جامعاتها ومن موادها الإعلامية، إنهم بذلك يحمون الناشئين المسلمين من خطر كبير سيفسد عليهم حياتهم الحاضرة والمستقبلة.

وإن كل الأحكام والقوانين التى جاء بها الإسلام، يجب أن يعتز بها الناشئون، وأن يحرصوا على الالتزام بها فى حياتهم، وإلا ضاعوا واختل انتماؤهم، وأصبحوا حربًا على دينهم لا عونًا له، كما هو مشاهد اليوم من كثير من المسلمين الذين انتموا إلى غير الإسلام، فما كان منهم إلا أن تحولوا عن أدب الإسلام وخلقه وأحكامه إلى ما انتموا إليه

من ضلال غـربى أو شرقى، إن الغلطة الأولى التى ترتبت علـيها سـائر أغلاط هؤلاء هى أنهم منذ نشأتـهم لم يتربوا على الانتمـاء إلى الإسلام والاعتـزاز بهذا الانتمـاء، والالتزام بمتطلباته.

وإن العالم الإسلامى قادر على الاهتمام بالناشئين فى هذا المجال عن طريق التواصى بين دوله، وعن طريق الملحقين التعليميين والثقافيين الموجودين فعلا فى دوله.

ثم هو قـادر على ذلك بالروابط المـوجودة فـعـلا كـرابطة العـالم الإسـلامى، والمؤتمر الإسلامى وغيـرهما، فإن هذه الروابط تمثل دول العالم الإسـلامى كله، ولها أن تصدر من المقررات والتوصيات والبيانات ما تنير به طريق الدول الإسلامية وهى تخطط للناشئين فيها، إن ذلك أول ما ينبغى أن تقوم به هذه الروابط.

إن اهتمام العـالم الإسلامى بالناشئين أمر لا ينكره إلا مكابـر، وإن هذا الاهتمام فطرى تمليه على العالم الإسلامى كله مـعرفته التى لاشك فيها بأن مستـقبل هذا العالم الإسلامى هو التـوحد والتكامل، ولا وصـول إلى هذه الأهداف بقـرارات سيـاسـية يصـدرها حكام مسلمون ذوو غيرة -لأن تجربتنا العربية التى أصدرها بعض الحكام فشلت فشلا ذريعا مخزيا - وإنما الأصل فى تحقيق هذه الأهداف أن تناط بمن سيكونون مستقبل العالم الإسلامى وهم الناشئون، فلو ربى الناشئون على هذه المفـاهيم وفطنوا بهذه الأهداف، فإنهم سوف يسعون فى طريق واضحة المعالم معروفة البداية والنهاية، بينة المراحل، محدودة الأهداف، فيكونون أجدر أن يحققوا النجاح والفلاح.

إن الملاحظ فى مناهج الدراسة قبل الجامعية، أن الاهتـمام بجغرافية العالم الإسلامى أو تاريخه أو مـقدراته الاقتصـادية ضئيلة جدا فى بعـض بلاد المسلمين، ومنعدمة فى بعضـها الآخر!!!

إن الناشئين المسلمين لن يهتموا بالعـالم الإسلامى وقضاياه إلا إذا اهتم العالم الإسلامى بالناشئين، ودقق فـيما يجب أن يتـعلموه وما يجب أن يقـرءوه ويسمعـوه ويشاهدوه، وأن يكون له فى هذا المجال جهد وجهاد.

ح- المجتمع العالمى مسلمه وغير مسلمه:

وهو أكبر بيئـة للناشئ مسلمًا وغير مسلم، وربما نجح هذا المجتـمع العالمى فى الاهتمام بالناشئين من خلال ما يقـدمه لهم فى مناسبات بعينها كيـوم الطفولة أو غيره، ولكننا نأمل فيما هو أكثر من ذلك؛ لأن القضية عندنا أكبر وأهم من أن يفرح الأطفال فى يوم بعينه من

أيام سنة كاملة، وإنما المهم أن تتضافر جهود القادرين من المجتمع العالمى فى التغلب على مشكلات طاحنة تودى بالناشئين فى كثير من أقطار الأرض التى تعارفوا على أنها أقطار العالم النامى أو العالم الثالث أو العالم الجنوبى أو عالم الفقراء فى الحقيقة.

إن جهود القادرين من المجتمع العالمى لو استطاعت أن تتغلب على بعض المشكلات التالية لكان فى ذلك خير كبير للناشئين فى العالم كله، وهذه المشكلات هى:

١- مشكلة الجفاف فى كثير من أقطار العالم النامى التعس.

٢- ومشكلة الجوع فى كثير من أقطاره أيضا.

٣- ومشكلة الفقر وهو الحرمان من ضروريات الحياة كالمأكل والمسكن والملبس.

٤- ومشكلة الجهل بالحرمان من التعليم «أى الأمية».

إن تضافر الجهود لحل هذه المشكلات أو التغلب عليها هو العمل الإيجابى الناجح، الذى يعود على الناشئين بالفائدة الحقيقية بغض النظر عن أنظارهم وأديانهم ولغاتهم، وكونهم تعسوا بمولدهم فى إحدى بلدان العالم الثالث.

إن عجز المجتمع العالمى عن حل هذه المشكلات- وهو بالقطع قادر على حلها- وصمة عار فى جبينه، وتأكيد لتوحشه على الرغم من دعواه التحضر.

وإننا لنعلم علم اليقين أن بعض بلدان العالم الأول أو عالم الأغنياء، ترمى القمح والزبد فى المحيطات محافظة على أسعارها من أن يكثر عرضها فترخص!!

ونؤكد أن ما خفى علينا فى هذا الشأن أكثر مما نعلم، فأى وحش يسكن فى إهاب ذلك الإنسان؟

إن الناشئين مهما كانوا فهم مستقبل هذا المجتمع العالمى كله، وعلى قدر ما يهتم بهم فإنه يجنى منهم -على الأقل- ثمرة عدم الثورة عليه.

وبعد: فإن البيئة فى إطارها الأصغر وهو الأسرة أو إطارها الأكبر وهو العالم الإسلامى أو المجتمع الإنسانى، تدعو فطرتها إلى الاهتمام بالناشئين، وتؤكد لها مكانة هؤلاء الناشئين من نسيج هذه البيئة الإنسانية.

وإن الإسلام من بين الأديان والنظم جميعا قد أولى هؤلاء الناشئين رعاية خاصة، وجعل الاهتمام بهم داعية من دواعى الدين نفسه، كما سنوضح هذا فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

٣- دواعى الدين الإسلامى

الدين أى دين -مادام من عند الله سبحانه- لابد أن يقوم على احترام الإنسان وتكريمه وإحاطته بكل الأسباب التى تحقق له سعادة الدنيا والآخرة، بل إن هذا التكريم للإنسان ليدل على أن هذا النظام الذى يكفله من عند الله سبحانه؛ لأن الله تبارك وتعالى كرم بنى آدم جميعا وحملهم فى البر والبحر بما سخر لهم، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا واضحا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

بل إن بعض الأديان التى دخل كتبها تحريفٌ، لا تستطيع أن تنكر ضرورة تكريم الإنسان وضرورة احترامه والمحافظة على حقوقه.

بل إن بعض النظم والحضارات تنص فى دساتيرها وقوانينها الوضعية على ضرورة احترام حقوق الإنسان، وتباهى بذلك وتضعه فى مقدمة أهدافها.

هكذا كان ذلك شأن الدين أى دين، وشأن النظم والقوانين الوضعية أيا كان أصحابها ومهما كان واضعوها فى احترام الإنسان.

وإن احترام الإنسان وتكريمه فى ترجمته العملية وتحليله الدقيق يعنى إحاطته بكل الظروف التى تحقق له صفاء الروح وصحة النفس والعقل والبدن، وتمده بالثقافة فى مجالاتها المتعددة.

وكل إنسان فى مختلف مراحل عمره هو بحاجة ملحة إلى مثل هذه الظروف، غير أن الحاجة إلى تلك الظروف تكون أمس وأشد فى طور النشأة والشباب؛ لأنه طور النمو والتشكل، والتطبيع على ما يصلحه فى دينه ودنياه، وتوضيح ما لا يصلح له فى دينه ودنياه.

وإذا كان هذا شأن الدين أى دين، فإن الدين الإسلامى بوصفة خاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون به مزيد من الرعاية والاهتمام بالناشئين.

وليس من المبالغة فى شىء القول بأن دين الإسلام يعطى الناس كل الناس ناشئين وكبارًا، من الاهتمام والرعاية قدرًا كبيرًا يمكن المجتمع كله من إقامة حضارة إنسانية راشدة.

ومن البديهي -بالنسبة لمن يعرفون الإسلام- أن تكون عناية الإسلام بالناشئين أكبر وأعمق وأدعى إلى أن يشب هؤلاء الناشئون في بيئة نقية صالحة، تتيح لهم منذ زمن باكر أن يكونوا رجالاً ونساءً قادرين على تكوين بيوت مسلمة، وعلى أن يقيموا هذه البيوت على الأسس والمبادئ التي ربُّوا عليها وهم ناشئون وناشئات، وهي تلك الأسس والمبادئ التي يقيم عليها الإسلام المجتمع الإسلامي، فالدولة الإسلامية، فالأمة الإسلامية الموحدة القادرة على تحقيق سعادة الدارين.

وإن الإسلام وهو يرسم منهجه للناس في الحياة في مختلف مجالاتها الروحية الإيمانية، والعقلية والثقافية، والاجتماعية والبدنية، والسياسية والاقتصادية، لا يمكن تصور منهجه ذاك إلا وفي رأس قائمة اهتماماته، اهتمامه بالناشئين.

وإن كتابنا هذا «التربية الإسلامية في البيت» في جميع فصوله وأبوابه ليس له من هدف أهم من أن يبرز هذه الحقيقة، ويقيم عليها الأدلة والبراهين من العقل والمنطق والتاريخ، ومن النقل -أي النصوص الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية وحياة الرسول ﷺ.

إن الإسلام -كما سنوضح في الأبواب الآتية من الكتاب- يؤكد على الاهتمام بالناشئين حتى قبل أن يولدوا -أي في اختيار الزوج لزوجته وأم أبنائه كما أوضحنا- ثم يبدو الاهتمام بهم بمجرد أن يولدوا في حسن اختيار الاسم لهم وحسن العناية والرعاية والحضانة، وكفالة العيش والتعليم والتزويج عندما يبلغ سن الزواج.

إن هذا هو ما سوف نحشد له النصوص الإسلامية حشدا في الفصل الثاني من هذا الباب.

ولابد لنا أن نؤكد أن مكانة الناشئين في الإسلام نابعة من صميم الدين نفسه في مجالين:

الأول: خطاب الإسلام للآباء والأمهات والأقارب، الذي يلزمهم بهذه الرعاية وذاك الاهتمام.

والآخر: فيما أحاط به الناشئين من نظم وأحكام وآداب تكفل لهم حسن الرعاية وحسن التربية، تلك النظم التي أشرنا إليها في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا الكتاب، وهي: الحضانة، والنفقات، والولاية على النفس، والولاية على المال، والوصايا والميراث.

إن هذه النظم أحكام إسلامية لا يستطيع أحد من المسلمين أن يخالفها أو يتخلى عن

شيء منها، فإن خالف أو تخلى ألزمه القضاء وألزمه المجتمع وربما عوقب عقابًا دنيويًا على التقصير فى أحدها، فضلا عن العقاب الأخروى، وما هذا وذاك إلا تأكيد لاهتمام النظم الإسلامية بالناشئين.

وإن خطاب الإسلام للناس بهذه الرعاية للناشئين موجه إلى المجتمع كله كما هو موجه إلى الآباء والأقربين، وموجه إلى القائمين على الحكم فى المجتمع، بحيث يلتزمون جميعًا بهذا الخطاب، فلا يملك مجتمع مسلم ولا نظام حكم مسلم أن يتخلى عن هذا الواجب نحو الناشئين، وإلا دخل حد الإثم والمعصية أمام الله، ثم أصبح إطلاق لفظ مجتمع مسلم أو نظام حكم مسلم عليه من قبيل التجاوزات التى تخالف الواقع.

وإن الخطاب الإسلامى بهذه الرعاية يتوجه كذلك إلى كل مؤسسة فى المجتمع أيا كان نوع العمل الذى تؤديه، ليطالبها بضرورة رعاية الناشئين، وذلك أن كل مؤسسات المجتمع تربوية كانت أو ثقافية أو إعلامية أو غيرها، لها نوع ارتباط بالناشئين، ولأهدافها ارتباط بشكل ما بظروف الناشئين، ثم إن الناشئين أنفسهم هم أسباب الإنتاج فى المستقبل، فكلما لقوا عناية أشد كان ذلك أجدى للمجتمع كله، بمختلف مؤسساته.

بل إن الخطاب الإسلامى يتسع مداه ليتجه إلى بلدان العالم الإسلامى كلها، إذ على هذه البلدان أن تتكافل فيما بينها فى توجيه أكبر أنواع الاهتمام بناشئيها، بمعنى أن بلدًا إسلاميًا ما له قدرة جيدة على رعاية ناشئيه وله ظروف جيدة وإمكانات طيبة، يجب عليه أن يمد مظلة الرعاية للناشئين من المسلمين فى أى بلد إسلامى قريب منه، أو بعيد عنه مادام يستطيع ذلك، وذلك أن المسلمين أمة واحدة تتكافأ دماؤهم -لا مجرد التكافل المادى أو المعنوى -ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وإن الأخوة التى أوجبها الإسلام بين المسلمين، وطبقها النبى ﷺ عمليًا غداة وصوله إلى المدينة المنورة واستقراره فيها، وأشارت إليها الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، إن هذه الأخوة لها من الحقوق وعليها من الواجبات ما يدعم فكرة التكافل بين بلدان المسلمين جميعًا فى كل زمان.

إن هذا المفهوم لأخوة الإيمان هذه، هو الذى فجر طاقات الأمة الإسلامية لتتكافل وتتعاضد إزاء كل متطلباتها، وإن أول هذه المتطلبات وأولاها هو العناية بالناشئين.

وهكذا -وبعد هذا التصفح- ندرك أن الخطاب الإسلامى المتضمن ضرورة رعاية الناشئين والاهتمام بهم، وإعطائهم فى الحياة المكانة اللائقة بهم، بدأ بالأفراد، وطفق ينمو ويتعاظم

حتى اتجه إلى الأمـة الإسلامية كلها، إن هذا فى حـد ذاته دليل قوى على أن دواعى الدين الإسلامى نفسـه، تلزم الأفراد والجماعات والمجتـمع والمؤسسات والدولة -الحكم والحكام- والأمة الإسلامية كلها برعاية الناشئين، وتربيتهم، وإحسان إعدادهم للحياة.

ولابد لى هنا من أن أؤكد حـقيقـة -قد لا يختلف عليه اثـنان- هى أن مستقـبل الأمة الإسلامية كلها مرهون تماما بمدى نجاح هذه الأمة فى رعاية ناشئيها والاهتمام بهم، إذ على قدر ما تكون هذه العناية بالناشئين على قدر ما تكون العناية بمستقبل الأمة نفسها. . فلتنظر الأمة الإسلامية إلى ما تحب أن يكون عليه مستقبلها.

وإذا كان الواقع الذى تعـيشه الأمـة الإسلاميـة اليوم هو تراجع حـضارى، لا ينكره إلا مكابر أو مغـالط، وذلك أن الأمة الإسلامـية فى وضعـها الحضـارى يجب أن تشغل مكان الصدارة والذروة من كل حضـارات البشر، لأنها حضـارة يرسم خطوطها وحى الله ويحدد أبعادها، بينما هى اليـوم تعيش فى الذيل تابعة، تستورد العلم وهى أمـة العلم، وتستهلك ولا تنتج ما يكفيـها، إن الأمة الإسلامية فـى الماضى كانت أمة الحضارة، وأمة المكتـشفات العلمية، وهى اليوم على النحو الذى تستورد فيه الغذاء والسلاح من أمم بنت أمجادها على حضارة الأمة الإسلامية، إن ذلك ليس تباهيًا ولا تباكيًا وإنما تذكر والذكرى تنفع المؤمنين.

إن هذا الواقع السيئ الذى تعيشه الأمة الإسلامـية فى القرن الخامس عشر الهجرى، إنما هو نتيجة لأسباب كثيرة من أبرزها سوء الاهتمام بالناشئين، والتقصير فى رعايتهم، وبغض النظر عن الأسباب التى أدت إلى هذا الإهمال فى تربية الناشئين إن كانت داخلية ترجع إلى قصور نظـام الحكم أو قصور المؤسســات التربوية والإعلاميـة أو قصور المجتمـع نفسه، أو كانت أسبـاب الإهمال راجعة إلى ظروف خارجيـة كسيطرة عدو، أو تبعيـة منظورة أو غير منظورة لنظام سياسى معين، أو كـانت الأسباب راجعة إلى بعد الأمة الإسـلامية عن دينها ومنهجـها واتباعـها سبـيل غير المـؤمنين، بغض النظر عن كل هذه الأسبـاب، فإن العناية بالناشئين تظل واجبة لا ينبغى أن تحول بينهـا أسباب، مادام أن هذا التقصير فى العناية بهم يؤدى إلى أضـرار بالغة بمسـتقـبل الأمة الإسـلاميـة، وتراجع حضـارى من أقصى العـالم الإسلامى إلى أقصاه.

وإن تحليل هذا التراجع الحـضارى الراهن وتعليله، يفضى بنا إلى أن نجد أحـد الأسباب هو إهمال حاضر الناشـئين، الذى أدى -ومن شأنه دائما أن يؤدى- إلى ضياع مـستقبلهم، أى مستقبل الأمة الإسلامية.

وإن محاولة النهوض من هذه الكبوة أو الخروج من هذه الورطة لن يكون إلا بالبداية المنطقية، وهى إعطاء الناشئين حظهم من الرعاية والاهتمام، حظهم الذى حدده لهم الدين الإسلامى الحنيف.

إن الناشئ المسلم اليوم أحيط به من جميع أقطاره الروحية والخلقية والفكرية والثقافية والاجتماعية، أحيط به من كل تلك الجوانب بتيارات معادية تستهدف صرفه عن دينه وتقديم بديل له عن الدين يوهمه أن الدين قيود وهذا البديل حرية، وأن الدين زهادة وهذا البديل استمتاع، وأن هذا الدين رجعية ونكوص وأن هذا البديل تقدم ورقى، وأن هذا الدين معنويات وغيبيات لا تقوم عليها أدلة محسوسة وأن هذا البديل مادة محسوسة.. إلى غير ذلك من الأوهام!!

ولئن جاز وصف دين بهذه الأوصاف لأنه حُرِّف وبُدِّل عما أنزله الله، فإن الدين الإسلامى لا يمكن أن يوصف بذلك، لأنه لم يحرف ولم يبدل، وإنما تكفل الله سبحانه بحفظه إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إن هذا البديل الذى تقدمه التيارات المعادية للإسلام، بديل خادع براق، مناقض لما جاء فى الإسلام من أحكام وأخلاق، ولكنه يأخذ على الناشىء أقطار حياته كلها، فما يسعه إلا أن ينخدع ويَتَبَنَّى هذا البديل الشائه الذى لا يتناسب مع قيمه وأخلاقه الإسلامية.

وفى غفلة أو وعى من أنظمة الحكم ومؤسسات التربية والإعلام والمجتمع نفسه، يقتنص هذا الناشئ ويقع فريسة فى أيدى هؤلاء الأعداء، بل ربما لم تكن غفلة فى بعض البلدان وإنما كان انحرافًا عن الحق، وإيثارًا لما عند الناس على ما عند الله.

إن هذا الناشئ فى ظل هذه الظروف يتحول عن دينه ومنهجه فى الحياة إلى نظام آخر ومنهج آخر، فيعيش عالة على أعدائه الحقيقيين فى فكره وثقافته وأخلاقه وآدابه ونظمه الاجتماعية، وعاداته وتقاليده، فإذا هو مسخ شائه من الناس، ترك أصله وأصالته ولم يستطع أن يبارى هؤلاء فى انعتاقهم من كل أخلاق فاضلة، إن ناشئنا فى ظل هذه الظروف الضاغطة المحيطة به يتدرب على الإعراض عن الحق وعن المنهج الصحيح، والإقبال على الباطل والمناهج الزائفة الخادعة.

وهكذا تستمر انتكاسة الناشئين المسلمين، وتتوالى حلقات هذا الانتكاس فى سلسلة متصلة من إهمال الناشئين المؤدى إلى ضياعهم فى حاضرهم ومستقبلهم فيضيع تبعا لذلك مستقبل الأمة الإسلامية؛ لأن حاضرها قد ضيع وهكذا تتوالى حلقات الضياع.

ذاك أمر يدركه من كان له أدنى حظ من التأمل ولا يمارى فيه عاقل.. فإذا قامت حركة إسلامية هنا أو هناك تنادى بضرورة التمسك بمنهج الإسلام فى الحياة، والخضوع لأحكام الشريعة الإسلامية وأخلاقها، والتحاكم إليها فيما يتصل بحياة الناس، والاستجابة لدواعى الدين فى ضرورة الاهتمام بالناشئين، أخذ أنصار التيارات المعادية للإسلام وأتباعها الغارقون فى شهواتها يكيلون التهم جزافا لهذه الحركة الإسلامية، وهى تهم من كثرة ماردوها حفظت، وهى فى مجملها لا تعدو ما يلى:

أ- اتهامها بالرجعية والعودة بالناس إلى عصور سحيقة البعد عنهم، مظلمة كالحة لا يليق بالناس أن يعودوا إليها، وإنما عليهم أن يعيشوا عصرهم، وأن يعبوا من مفاسده ومباذله ما شاءوا، حتى يكونوا على مستوى الزمن الذى يعيشون فيه!!

ب- واتهامها بتحدى التقدم والتطور والتجارب مع متطلبات الحياة المعاصرة، وبرفضها الفنون والآداب، وتحديها لمن يمارسون الفن والأدب ووقوفها لهم بكل مرصد، وحرمان الناس من هذه الفنون الرفيعة كالرقص والغناء وغيرهما!!

جـ- واتهامها بأنها تستعمل العنف والاغتيال، ولا أدرى كيف توصف بذلك وهى حركة إسلامية؟ من ذاك الذى يقول إن الإسلام يبيح العنف والاغتيال؟

د- واتهامها بأنها تحمل إلى الناس منهجًا كان سائدًا فى عصور غابرة، وأن أحكام هذا المنهج لم تعد ملائمة اليوم، ذاهلين فى اتهامهم هذا عن أن أحكام الإسلام وأخلاقه وعقيدته وعبادته صالحة لكل زمان ومكان، وأن ما وراء ذلك خاضع للاجتهاد، ولما يرى المسلمون فيه ما يصلح لهم فيحل أو يفسدهم فيحرُم.

هـ- واتهامها بتحدى السلطة الزمنية ومناوأة الأنظمة الحاكمة، مع أن أى حركة إسلامية ترضى بل يسعدها أن تكون ردءًا لأى حاكم أو نظام حكم يطبق شرع الله على عباد الله، ولا قضية لها إلا هذه القضية حتى ولو كان هذا الحاكم ممن اضطهدوا الحركة الإسلامية؛ لأن تطبيق هذا الحاكم لشرع الله حسنة كبرى فى ميزانه والمبدأ الإسلامى الذى لا يرفضه مسلم هو أن الحسنات يذهبن السيئات وأن خواتيم الأعمال هى المعتبرة فى الأعمال.

هذه التهم -وغيرها كثير- لا تعدو أن تكون شبهًا فى أذهان من يرددونها إذا أحسنا بهم الظن، لكنها عند بعض الأنظمة مبررات لضرب الحركة الإسلامية وتصفيتها سياسيًا واقتصاديًا وفكريًا وثقافيًا، وأحيانًا تصفية أفرادها جسديًا كما حدث فى كثير من أقطار العالم الإسلامى.

وهذا الضرب وهذا التضييق على الحركة الإسلام لا تخسر فيه الحركة نفسها بمقدار ما يخسر المجتمع الذى توجد فيه؛ لأن معنى التضييق على الحركة الإسلامية هو التوسعة على تيارات الإلحاد والفساد والانحلال وشيوع الجريمة، وانتشار المخدرات، وشيوع الفواحش، وممارسة الكذب والغش والنفاق وغير ذلك، لأن كل قوانين الأرض لا تستطيع أن تقيم الإنسان على جادة الحق، ولا تستطيع أن تلزمه بالأخلاق الفاضلة بمقدار ما يستطيع ذلك إيمانه وإسلامه ومراقبته لله تبارك وتعالى.

إن العجب كل العجب فى عالمنا الإسلامى أن الشيوعيين أو اليساريين -على الرغم من إفلاس الشيوعية وتراجعها وتحطيم تماثيل قادتها باعترافها هى -يجدون فرصة للتعبير عن آرائهم وتكوين أحزاب سياسية وممارسة الحياة السياسية بغير قيود، ومن عجب أن كل من هب ودب ووضع برنامجا لحزب سياسى سمح له بتشكيل الحزب والتعبير عن نفسه من خلاله!!

ولكن الإسلاميين يجدون نصوصًا فى دساتير البلاد التى يعيشون فيها تنص على عدم جواز تكوين أحزاب على أساس دينى، كأن الدين عندهم مفسد لا مصلح، ولئن صدق ذلك فى أوربا أيام عدوان الكنيسة على الناس واستغلالهم باسم الدين، فإن ذلك لم يصدق على الإسلام فى أى عصر ولا فى أى مكان، فإن تجاوز حاكم مسلم حدود ما أنزل الله واعتسف وظلم فليس هذا باسم الدين لأن الدين يحرمه، وإنما هو باسم الحاكم الذى خالف عن أمر ربه، ولكنهم هكذا يقولون...!!

والقضية متداخلة متشابكة، ولا أبرئ الأصابع المحركة لتحدى الحركات الإسلامية من أن تكون ذات توجه صهيونى، أو غير ذلك من التيارات المعادية للإسلام وإن باشرها ونفذها حكام مسلمون!!.

إن طرح قضية الحركات الإسلامية فى بلدان العالم الإسلامى يحكمها فَقْدُ الثقة بين أنظمة الحكم والحركات الإسلامية:

– أنظمة الحكم تضيق على الحركة الإسلامية وتمنعها من التعبير عن نفسها، ثم تتحداها بناء على هذا التصنيف، وتلصق بها من التهم ما يبرر هذا التحدى.

– والحركات الإسلامية تجد نفسها فى الواقع الذى تعايشه عاجزة عن التعبير عن نفسها وعن طرح برنامجها، وتشعر أن السبب فى ذلك هو تحدى الحكومة لها بغير مبرر أو بمبرر مغلوط.

- والحكومات لا تقف بعد ذلك مكتوفة الأيدى وإنما تضطهد وتعتقل وتسن قوانين الطوارئ وتنتهك حقوق الإنسان مع كل متتم لحركة إسلامية.

- والحركة الإسلامية لا تجد ردا على هذا إلا بالتحدى لأنظمة الحكم فيما تستطيع أن تتحداها فيه، وهكذا، ثم تعود أنظمة الحكم لترد على هذا التحدى بتحد أكبر منه لأنها تملك السلطة، وهكذا وهكذا كما يقول المناطقة -يلزم الدور والتسلسل- والشعوب هى التى تعانى من بعد ذلك بإبعادها عن شريعة الله، والحكومات تخسر النصيحة والرأى الرشيد الذى كان يمكن أن تقدمه الحركات الإسلامية لو أنه سمح لها بالتعبير عن نفسها، والحركة الإسلامية تخسر كذلك خلو الساحة منها ومن منهجها المتكامل النافع حقًا للناس لأنه منهج الله ونظامه.

وهكذا تتوالى الصراعات وتتنامى التحديات، والأمة فى عمومها هى الخاسرة؛ لأن الملاحظ أن الأمة الإسلامية فى أى قطر من أقطارها لم تحرز تقدمًا سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا، بدليل أنها مُصنَّفة من دول العالم الثالث أو المتخلف أو الفقير، وهذا خسران للحاضر، ولأنها لم تأخذ بمنهج الله فى نظامها فلابد أن تخسر فى المستقبل.

غير أن هذه الصورة على سوئها ليست هى آخر المطاف، وأن هذه المعادلة ليست مستعصية على الحل، وإنما حلها على طرف الثمام - كما يقولون.

إن هذا الحل الذى ينهى الصراع -الذى أصبح تقليديا من كثرة ما تكرر - ويزيل أسباب التحدى من جذورها هو أن تعطى الحركات الإسلامية حق التعبير عن نفسها وعن برامجها الإصلاحية ولأن هذا فوق أنه حق أصيل للناس جميعا لا يجوز لأحد أو نظام أن يحرم منه أحدًا أو جماعة، فإنه أمر لا أتصور أن تسكت عليه الحركات الإسلامية بحال، فإن بدا أنها ساكتة أو راضية فلابد أنها تسكت وترضى إلى حين، وأنها تبحث دائمًا عن فرص تمكنها من التعبير عن نفسها، وممارسة هذا الحق الأصيل من حقوق الإنسان فى ظل أى نظام حكم يقوم على الحرية والعدل.

ومما يدخل فى حل هذه المعادلة أن تتأنى الحركات الإسلامية المُضيَّق عليها فى إصدار الأحكام على الحكام بالكفر والضلال، وأن تبتعد عن المبالغات والتشنجات؛ لأنها فى هذا وذاك تخالف خلق الإسلام وأدبه.

وعليها أن تبحث ولا تمل البحث عن قنوات تمكنها من التعبير عن نفسها وبرامجها، لأن ذلك خلق الإسلام، إذ لا يجـوز رمى الناس بالكفر، كـما لا يجوز ترك الحـكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

وإذا كان الإسـلام يعامل أهل الكتـاب -وهم ليسوا مـسلمين- أحسن مـعاملة وأقـربها للمحافظة على كرامة الإنسان وحقوقـه، فكيف لا تتعامل نظم الحكم والحركات الإسلامية على نفس المسـتـوى -مع أنهم فى الغالب مـسلمون-؟ إن المطلوب أن يكون التعـامل أكرم وأحسن!!

إن خدعة عدم السماح بقيام أحزاب على أسـاس دينى، كما تمنعها كثير من الأنظمة فى العالم الإسلامى، تنكرٌ لأبسـط حقوق الإنسان وهى فى الوقت نفسـه كيل بمكيالين، وظلم بالغ، إذ كـيف يحق للملحدين والشـيوعـيين والعلمـانيين وغيـرهم فى ظل هذه النظم أن يعبروا عن أنفسهم وبرامجهم، فى حين يمنع من ذلك الإسلاميون؟

إن هذا الظلم لا يمكن السكوت عليه طويلا.

ولقد فـات هؤلاء المتشدقين والمتفـيهقين القـائمين على أنظمة الحكم والقائلين بمنع قـيام أحزاب علي أساس دينى أن الأمم التى يقلدونها ويحـذون حذوها فى هذا الاتجاه يوجد فى كثيـر منها أحزاب دينيـة مثل: الحزب المسيـحى الديمقراطى فى أكثر من بلد غـربى، ومثل الحزب الدينى اليهودى فى إسرائيل.

ولكن الأمر فى كثير من بلدان العالم الإسلامى مختلف؛ إذ يتوهم القائمون على الأمر فى كثيـر من بلدان العالم الإسلامى أن قيـام حزب على أساس دينى أشبـه ما يكون بالعار الذى لا يمكن قبـوله، تخوفا من التـعصب والتطرف وباقى هذه المنظومـة التى يوصف بها الإسلاميون وحدهم.

إن حزبا إسلاميا يتخذ من الإسلام منهجا له، يـستحيل عليه أن يتعصب ضد اليهود أو المسيحـيين؛ لأن الإسلام نفسه نـهى عن ذلك، بل وضع منهجا عادلا للتـعامل مع أولئك وهؤلاء، بل مع كل قبيل من الناس.

إن أى حركة إسلامية لا تستحق أن توصف بأنهـا إسلامية، إلا أن تكون ملتزمة بكل ما أمر به الإسلام فـى التعامل مع الناس، حاكـمين أو محكومين، مسلمين أو غيـر مسلمين،

وما يقبل الإسلام بحال أن يكون تعامل المسلمين مع غيرهم منطويا على ظلم أو تحيف، أو إيقاع ظلم على أحد.

وإذا كان بعض الناس لا يرون هذه العدالة الإسلامية ماثلة مشاهدة اليوم فليس ذلك بسبب قبول الإسلام لغير العدالة مع غير المسلمين، وإنما سبب ذلك أن المسلمين اليوم فى تراجع حضارى، وأنه لا توجد حكومة إسلامية تطبق كل ما جاءت به الشريعة الإسلامية.

ولكن المؤكد أن تلك العدالة الإسلامية فى التعامل مع غير المسلمين منصوص عليها فى الكتاب والسنة النبوية المطهرة ومؤيدة بمشاهد التاريخ يوم كان المسلمون دولة تطبق شريعة الله وتلتزم بكل ما فيها.

وإن كل من يزعم أن المسلمين قد أساءوا معاملة غير المسلمين وهم فى ظل دولة إسلامية أو ظلموهم أو حملوهم ما لا يطيقون، من يزعم هذا عليه أن يفرق بين أمرين شديدى الاختلاف بعضهما عن بعض.

الأول: هو موقف بعض الحكام من هذه القضية.

والثانى: موقف الإسلام نفسه منها.

إذ المقرر السائغ أن أخطاء الحكام أو الرجال فى تجاوز ما جاء به الدين، لا تُحسب بحال على الدين نفسه، وإنما تحسب على المتجاوزين الذين خالفوا المنهج، وتنكروا لأنظمته وأخلاقه وآدابه[1].

وإذا لم يكن ذلك كذلك، فإن لمسلم أن يقول:

إن الحروب الصليبية وما صاحبها من وحشية وضراوة في قتل المسلمين أطفالا ونساء، وما مارسته هذه الحروب من نهب وسلب على أيدى معظم ملوك أوربا وأمرائها، تحسب على الديانة المسيحية نفسها لا على هؤلاء الملوك والأمراء المغامرين!!

وما أظن ذلك سائغًا فى عقول العقلاء، فكيف يسوغ ذاك؟

(١) ناقشنا ذلك بتوسع فى كتابنا: «مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس» ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

وإن أى إنسان يستطيع -كذلك- أن يقول: إن تحالف قوى الشرق والغرب مع اليهود أو الصهاينة ليحتلوا فلسطين ويطردوا منها أهلها هى أخطاء تحسب علي الديانتين اليهودية والمسيحية، لا على هؤلاء المؤيدين من ملوك ورؤساء!!

ولا قائل بذلك بين العقلاء من الناس، فما بال أخطاء بعض الحكام المسلمين وحدهم تحسب على الإسلام، وكأن الإسلام قد أمر بها؟!

أعود فأقول:

إن الأمة الإسلامية تعيش اليوم واقعًا سيئًا مصحوبًا بتراجع حضارى لا تستطيع أن تخلع نفسها منه، وليس أمامها من وسيلة أيسر -للخروج من هذه المآزق- سوى الاهتمام بالناشئين وإعطائهم من الرعاية والعناية وحسن التربية والتعهد، ما أمر به الإسلام وجعله من صميم الواجبات، وأعطى على القيام به أجزل المثوبات.

وفى الصفحات التالية نذكر النصوص القرآنية والنصوص التى وردت فى سنة النبى ﷺ، والتى توجب هذه العناية بالناشئين على الآباء والأمهات والأقارب، والمجتمع كله والله المستعان.

●●●●

الفصل الثانى

رعاية الإسلام للناشئين

١- واجبات الآباء والأمهات

يكاد يكون هذا الفصل موقوفًا على جمع النصوص الإسلامية التى وردت فى القرآن والسنة والسيرة النبوية التى تؤكد رعاية الإسلام للناشئين.

وسوف يكون سرد هذه النصوص الإسلامية هو الدلالة على حسن رعاية الإسلام للناشئين، وسأدع النص يؤكد ذلك بألفاظه، ولا أعلق عليه إلا إذا كان فى حاجة إلى تعليق.

وإن هذا الذى أحاوله هو تأصيل إسلامى لرعاية الإسلام للناشئين، ووجوب هذه الرعاية على الآباء والأمهات والأقارب والمجتمع كله، وليس كالإسلام فى هذا الاهتمام بالناشئين منهج أو نظام.

لقد أوجب الإسلام على الآباء والأمهات رعاية الأبناء وحسن تربيتهم وإعدادهم للحياة، بل جعل هذه الرعاية واجبة عليهم حتى قبل أن يولد الأبناء، بل أوجب على الرجل أن يحسن اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين التى تحسن الأمومة، وتستأمن على رعاية أبنائها وبيتها وزوجها.

إن الإسلام أوجب على الأب أن يرعى أبناءه، وأن يحسن تربيتهم، وأن يحسن الإنفاق عليهم، وحذره أن يكون مع الإنفاق مَنٌّ، أو اعتقاد أنه يرزق أبناءه، وجعل عدم المنّ صبرا يحمد للأب ويؤجر عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وقتل الأولاد فى الآيتين الكريمتين يلجأ الناس إليه لأحد سببين:

الأول: خشية الفقر الموجود فعلاً أثناء ولادة المولود -من إملاق- ولذلك طمأنهم بأن الله يرزق الآباء والأولاد.

والثانى: خشية الفقر المتوقع بمواجهة مطالب المولود -خشية إملاق- ولذلك طمأنهم بأن الله يرزق الأولاد والآباء.

وبعض الأمهــات كن يقتلن أولادهن كذلك، إما بالوأد أو بإســقاط الأجنة، فنهى الله تبارك وتعالى عن ذلك.

قال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

والبهتان بين الأيدى: هو ما تمارسه الألسنة من نميمة.

والبهتان بين الأرجل: هو أن تلحق المرأة بزوجها ولدًا ليس منه.

ولا يعصينك فى معروف: أى لا ينحن[(١)]، ولا تخلو امرأة منهن إلا بذى محرم.

وقال سبــحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ..﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أهمية اعتناء الوالدين بأولادهما، والحرص عليهم، وتنهى أولئك الذين يقــتلون أولادهم من أجل الفقر أو خــشية الــفقر. مــؤكدة لهم أن رزق الآباء والأبناء جميعًا على الله.

وتعطى الآيات الأولاد حقــهم فى الرضاعــة والرعاية وتجعل للــرضاعة حــدًا أقصى هو عامان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة.

وتنظم الآيات حق الأولاد فيمــا يرثون عن الآباء، حتى يستطيعوا استــئناف حياتهم فى ظل هذه العدالة فى قسمة المواريث، وقد جاء فى السنة النبوية نهى عن أن ينفق المسلم ماله كله ولو كان فى أوجه الخير تاركا ورثته عالة يتكففون الناس.

وأما السنة النبوية فقد ورد فيها أحاديث كــثيرة فى إيجاب الرعاية والعناية بالأبناء جميعا منذ مولدهم وإلى أن يزوجوا، بل بعد ذلك كالبر ونحوه، وسوف نذكر من هذه الأحاديث النبوية الكثيرة بعضها الذى نؤيد به وجوب هذه الرعاية على الآباء والأمهات.

---

(١) وهى النياحــة على الميت، وما يتــرتب عليها من أعــمال الجزع والجــاهلية، كلطم الخــدود وخمشــها، وشق الجيوب، ووضع الطين على الرأس ونحو ذلك.

روى الديلمى فى مسنده بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة درجة لا يبلغها إلا ثلاثة: إمام عادل، أو ذو رحم وصول، أو ذو عيال صبور»، فقال على بن أبي طالب رضى الله عنه: ما صبر ذى عيال؟ قال: «لا يَمُنُّ على أهله بما ينفق عليهم».

وروى الديلمى فى الفردوس بسنده عن جبير بن مطعم رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من وَسَّع الله عليه، ثم قتَّر على عياله». وروى ابن عساكر بسنده عن النبى ﷺ: «إن من كان فى مصر من الأمصار يسعى على عياله فى عسرة أو يسرة، جاء يوم القيامة مع النبيين، أما إنى لا أقول: يمشى معهم ولكن فى منزلتهم».

وروى عبدالله بن أحمد بن حنبل فى زوائده بسنده عن الحسن مرسلا قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله».

وروى ابن عساكر بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى الرجل من أمتى يوم القيامة وما له من حسنة ترجى له الجنة، فيقول الرب تبارك وتعالى: أدخلوه الجنة فإنه كان يرحم عياله».

وروى الحاكم بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «زوجوا أبناءكم وبناتكم، حلوهن الذهب والفضة وأجيدوا لهن الكسوة، وأحسنوا إليهن بالنحلة ليرغب فيهن».

وروى الخرائطى فى كتاب «مكارم الأخلاق» بسنده عن أبى هريرة رضى الله. عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وامرأة سفعاء ذات منصب وجمال، حبست نفسها على بناتها حتى بانوا أو ماتوا فى الجنة كهاتين»(١).

وروى ابن عساكر بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله. ﷺ: «من كان له صبى فليتصاب له».

وروى الديلمى فى الفردوس بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله. عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفيائه»(٢).

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) وذكره الهندى فى موسوعته الحديثية: «كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال» جـ ١٦، ص (٤٥٩)، ط دار الرسالة، بيروت، دون تاريخ.

(٢) ورواه الشيرازى فى: فوائده.

«ما من أمتى أحد يكون له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات يعولهن حتى يبن (أى ينفصلن عنه بالزواج) أو يمتن، إلا كان معى فى الجنة هكذا» وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى.

وروى الديلمى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البنات هن المشفقات المجهزات المباركات، من كانت له ابنة واحدة جعلها الله له ستراً من النار، ومن كانت عنده ابنتان أدخل الجنة بهما، ومن كانت عنده ثلاث بنات أو مثلهن من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة».

وروى الطبرانى فى معجمه الكبير بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات».

وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ولدت الجارية بعث الله عز وجل إليها ملكًا يزف البركة زفًا يقول: ضعيفة خرجت من ضعيفة، القيم عليها مُعان إلى يوم القيامة، وإذا ولد الغلام بعث الله إليه ملكًا من السماء فقبل بين عينيه وقال: الله يقرئك السلام».

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ساووا بين أولادكم فى العطية، فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء».

وروى الطبرانى فى الكبير أيضا بسنده عن النُّعْمان، بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم فى النُّحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البر واللطف».

وروى الطبرانى فى الصغير بسنده عن أبى رافع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بك يا أبا رافع إذا افتقرت؟» قال: أفلا أتقدم فى ذلك؟ قال: «بلى، ما مالك؟» قال: أربعون ألفا وهى لله، قال: «لا، أعط بعضا وأمسك بعضًا وأصلح إلى ولدك»، قال: أو لهم علينا حق كما لنا عليهم؟ قال: «نعم، حق الولد على الوالد أن يعلمه كتاب الله والرمى والسباحة وأن يورثه طيبًا».

وروى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أبناءكم السباحة والرمى، والمرأة المغزل».

وروى الديلمى فى الفردوس بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويزوجه إذا أدرك، ويعلمه الكتاب»[1].

وروى ابن السنى فى كتابه: «عمل اليوم والليلة» بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اضربوا على الصلاة لسبع، واعزلوا فراشه لتسع، وزوجوه لسبع عشرة إن كان، فإذا فعل ذلك فليجلسه بين يديه ثم ليقل: لا جعلك الله على فتنة فى الدنيا ولا فى الآخرة».

---

(١) ورواه عبدالرزاق فى: «المصنف» بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

٢- واجبات الأقارب

الأقارب جمع قريب، والقريب مشتق من القرب، والقرب يستعمل فى المكان والزمان والنسب والخطوة والرعاية والقدرة، بكل هذه المعانى وردت آيات فى القرآن الكريم.

والذى يعنينا هنا هو قرب النسب، لما يترتب عليه من وجوب رعاية الأقارب وبرهم والاهتمام بهم، وسوف نكتفى بذكر الآيات التى ورد فيها هذا المعنى وما أوجبته هذه الآيات من الرعاية والاهتمام بالأقارب.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ...﴾ [البقرة: ١١٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

وقال عز من قائل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

وهذه الآيات الكريمة التى ذكرناها توجب على الأقارب والأرحام واجبات كثيرة، سواء أكانوا صغارا أم كبارا، وهذه الواجبات فى حقيقتها رعاية وعناية واهتمام وقد تكون نفقة أو ولاية على النفس أو المال.

وإنما أوجب الإسلام ذلك لأنه دين يقوم على توثيق الروابط بين الناس عمومًا -وقد خلقهم ليتعارفوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] -فإن كان الناس أقرباء كانت الرعاية أولى، وإن كانوا صغارا كانت الرعاية أكثر وأشد؛ لأن الروابط فى هذه الحالة يجب أن تكون أوثق وآكد.

إن هذه الآيات التى ذكرنا تؤكد رعاية القريب للقريب وتوجبها؛ إذ تضعها فى الترتيب بعد عبادة الله وحده والإحسان إلى الوالدين: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

والآية الثانية تجعل البر أصنافًا وأنواعًا من الأعمال لا يكتمل إلا بها جميعًا، وتحصيها الآية إحصاء، ومن أبرزها: الإيمان بالله واليوم والآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإيتاء المال المحبوب لذوى القربى ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ..... وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والآية الثالثة توجب على ذوى القربى رعاية قرباهم بمنحهم رزقا إذا حضروا القسمة -وهؤلاء غير أصحاب الفروض- ولا تكتفى بمجرد المنح وهو بالقطع عمل طيب وإحسان، وإنما توجب أن يقال لهؤلاء الأقرباء قول معروف، (قال سعيد بن جبير يقال لهم: خذوا بورك لكم. .)[1] ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ....﴾ [النساء: ٨].

والآية الرابعة توجب إعطاء ذوى القربى حقوقهم، وبالتالى فهى تقرر لهم حقًا فى أموال القريب، وهذا الحق هو كما قال العلماء: (صلة الرحم، وسد الخلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه)[2] ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ...﴾ [الإسراء: ٢٦].

وهناك آيات قرآنية كريمة حَذَّرت من أن يكون برُّ ذوى القربى مؤديًا إلى مجاملتهم على حساب الحق والعدل، فهذا قد حرمه الإسلام لما فيه من فساد وإفساد للمجتمع، ولما فيه من ضياع حقوق الناس وظلمهم، وذلك كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وهناك آيات كريمة تحذر المسلم أن يرتكب معصية . من أجل أن يَبَرَّ رحمًا أو قريبًا أو ولدا؛ لأن المعصية عليها عقاب يوم القيامة، ويومها لا ينفع ولد والدا ولا قريب قريبا، قال

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: (٥/ ٥٠) ط وزارة الثقافة المصرية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٢) المرجع السابق: (١٠/ ٢٤٧)

الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]، وهو مبدأ عام، وإن كان المفسرون قالوا لما اعتذر حاطب بنى أبى بلتعة عن إخباره كفار قريش عن فتح مكة - بأن له أولادًا وأرحامًا فى أهل مكة، بين الله تبارك وتعالى أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عُصى الله من أجل ذلك.

وهناك آيات قرآنية تضمنت وجوب قطع موالاة الكفار حَيِّهم وميِّتهم، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

قال عطاء بن أبى رباح فى هذه الآية: (الآية فى النهى عن الصلاة على المشركين، والاستغفار هنا يراد به الصلاة).

وقال بعض العلماء: الاستغفار للأحياء جائز؛ لأنه مرجو إيمانهم، ويمكن تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم فى الدين.

وقال بعض العلماء: لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيين، فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له.

قال ابن عباس رضى الله عنه: كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت فأمسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا)[1].

وأما ما جاء فى السنة النبوية مما يوجب رعاية الأقارب لأقاربهم، وبخاصة إذا كانوا ناشئين، إذ يحتاجون إلى الرعاية أكثر من غيرهم، فمنه ما يأتى:

روى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقى علىّ من برّ أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهودهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (٨/ ٢٧٣)، وقال أهل المعانى: «ما كان» فى القرآن يأتى على وجهين: أحدهما: النفى نحو قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾، والثانى: النهى كهذه الآية الكريمة: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾.

وروى الإمام أحمد بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

وروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من بنى يربوع قال: أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك».

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك إن كان، فإنه طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار والمسكين»، فقال: يا رسول الله، أقلِلْ لى، قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فقال: حسبى يا رسول الله إذا أدَّيت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أدَّيتها إلى رسولى فقد برئتَ منها، ذلك أجرها، وإثمها على من بدلها».

والقرابة والأرحام سواء فى البر والرعاية، وبخاصة إذا كان من تتوجه إليهم الرعاية صغارا أو ناشئين ولقد عرفنا القرابة آنفًا أما الرحم فلها معنيان:

(رحم عامة: وهى رحم الدين وتجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة لهم وترك مضارتهم، والعدل بينهم والنصفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المريض وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم وغير ذلك من الحقوق المرتبة لهم فى ذمة المسلم.

ورحم خاصة: وهى رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم.

وتتأكد فى حقوقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب)[1].

وروى الطيالسى فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله. عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن للرحم لسانًا يوم القيامة تحت العرش، يقول: يارب قُطِعْتُ، يارب ظُلمت، يا رب أسيء إلىّ، فيجيبها ربها: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١٦/ ٢٤٨)، مرجع سابق.

وروى الإمام مسلم بسنده عن معاوية بن أبي مزرِّد مولى بنى هاشم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت له الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فذلك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٢-٢٤].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ، وأحلم عنهم ويجهلون علىّ، فقال ﷺ: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ فى أثره فليصل رحمه» [رواه الإمام أحمد بسنده] وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته فى الدنيا مع ما يدخره لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم».

وبعد: فتلك هى مكانة القرابة والرحم، وهذه واجباتهما فى الإسلام، كما تحدثت عنها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

وإن الإسلام ليمد مظلة رعاية الناشئين خصوصًا والناس عمومًا حتى تشمل المجتمع كله، وهذا ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية إن شاء الله.

●●●●

٣- واجبات المجتمع المسلم

إن المجتمع المسلم يتمثل أولا فى حكومته والقائمين عليها، ثم فى كل مسئول عن مرفق من مرافق المجتمع، ثم فى الشخصيات العامة من علماء ومفكرين وكتاب مربين وإعلاميين، ومؤلفين للمسرح والسينما وغيرهما، ثم فى كل فرد فى المجتمع من خلال انتمائه لهذا المجتمع، وما يمليه عليه هذا الانتماء من واجب نحو المجتمع عموما ونحو الناشئين على وجه الخصوص.

إن المجتمع وحدة متكاملة -أو هكذا يجب أن يكون- فى مجال ما ينبغى أن يوجهه من عناية ورعاية لأفراده وللمبادئ والقيم التى يجب أن تسود هؤلاء الأفراد.

وإن المجتمع من بين المجتمعات الأخرى، لهو أجدر بأن يبذل ما وسعه من جهد لكى يساعد فى غرس قيم الإسلام وأخلاقياته فى الناس، من منطلق أنها مبادئ وأخلاقيات تحقق للناس مصالحهم في الدنيا والآخرة، وتدفع عنهم المضرة فى الدنيا والآخرة كذلك.

وإن التأمل فى واجبات رأس المجتمع وهو الهيئة الحاكمة أو الخليفة أو الراعى -كما سمى بذلك فى السنة النبوية -ليؤكد لنا أن هذا المسئول، أو أولئك المسئولين إنما يتحملون هذه المسئولية أمام الناس فى الدنيا، وهم عنها مسئولون ومحاسبون فى الآخرة.

إن الراعى والمسئول عن عمل فى الإسلام أيا كان مستوى هذا العمل، إنما يمارس عمله بين حَدَّىْ الحقوق والواجبات، إذ لا يعرف الإسلام حاكما تطلق يده ليتخذ وحده القرار، أو يشعر أنه وحده المعبر عن المحكومين أو ذلك الحاكم الذى ينسب إليه المحكومون، وإنما هى فى الإسلام شورى فى البداية وفى الوسط وفى النهاية من أجل اتخاذ القرار بعد أن تكون الشورى قد أفرزت هذا القرار، بل حددت مساره وحكمت اتجاهه.

وإن تمتع المسئول بالسلطة أو المكانة، أو حقه فى أن يَسْمع له الناس ويطيعوا، لا يكتمل ولا يستمر إلا إذا أدى واجباته كاملة، وكلما أنقص من واجباته أنقص الناس حقوقه، حتى إذا أهمل فيها أو استبد بها دون شورى، أو غير من اتجاهها انكمشت حقوقه إلى حد أن تنزع منه المسئولية، معزولا بإرادة من اختاروه إذا أبى أن يؤدى واجباته.

إن المسئول أو الوالى أو الخليفة لا يملك أن يخرج عن دين الله وأحكامه وتشريعاته، ولا عن منهج الإسلام ونظامه فى الحياة؛ لأنه ملزم باتباع ذلك وموالاة الله ورسوله، بحكم

عمله ومسئوليته، بل هو ملزم بأن يستشير المؤمنين، ويتخذهم أولياء له فى عمله يناصرونه وينصحونه، وتلك هى الأسس الركينة فى ممارسة الولاية والمسئولية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

وفى هذه الآية دليل على أن المسلم حاكما أو محكوما، لا يحل له أن يوالى غير المسلمين، وإنما عليه أن يفوض أمره إلى الله، ويمتثل أمر رسول الله ﷺ، ويوالى المسلمين؛ ليكون بذلك من حزب الله، وحزب الله هم المؤمنون الذين يناصرون الله تبارك وتعالى.

إن المسئول فى ظل المنهج الإسلامى مطالب بأن يحقق العدل بين الناس، بل عليه أن يرتفع من مستوى العدل إلى مستوى الإحسان، كما أن عليه أن ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ومضمون هذه الآية الكريمة هو فعل كل خير واجتناب كل شر، (قال ابن مسعود رضى الله عنه: هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ولشر يجتنب، وحكى النقاش قال: يقال: زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه)[1].

ومضمون هذه الآية مطالب به كل مسلم من رجل وامرأة، وحاكم ومحكوم، وراع ورعية.

هذه مسئولية الراعى أو الحاكم أو المسئول أو أفراد الناس عن رعاية الناس، صغارا وكبارا.

وإن مسئولية المجتمع كله من رعاية الناشئين مسئولية أوضحها الإسلام وهو يوضح وظيفة كل مسئول عن أى مرفق من مرافق المجتمع أو مؤسسة من مؤسساته، فضلا عن وزارة من وزاراته، فضلا عن الخليفة أو الأمير، وقد فُصّل ذلك تفصيلاً شديداً يلتمس فى كتب الفقه الإسلامى، وكتب الأحكام السلطانية، وكتب السياسة الشرعية.

ونحن هنا نكتفى بالإشارات الدالة، تاركين التوسع فى ذلك لمظانه من البحوث والدراسات.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن- مرجع سابق (١٠/ ١٦٥).

وأجمع ما فى السنة النبوية مما يحدد لكل واحد فى المجتمع مسئوليته هو حديث «كلكم راع . . .».

فقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله . عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته.والرجل راع فى أهل بيته وهو مسئول عنهم.والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم.والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

إن الحديث النبوى الجامع لم يدع أحدًا فى المجتمع دون أن يحمله مسئولية من يليه أو ما يليه من خلال هذا التعميم وتلك الكلية: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

والمجتمع المسلم مطالب برعاية الأطفال والناشئين وحبهم والإشفاق عليهم والعمل على كل ما يصلحهم، والعمل على رفع أى أذى أو ضرر يلحق بهم، من باب أنهم أولى بالرعاية من غيرهم لظروف تنشئتهم.

وللمجتمع المسلم فى رسول الله أسوة حسنة، فقد كان ﷺ أرحم الناس بالعيال.

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ -قال: -كان إبراهيم- ابن النبى ﷺ -مسترضعًا فى عوالى المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وإنه ليدخن -وكان ظِئْره قينًا- أى زوج مرضعة ولده حدَّادًا -فيأخذه فيقبله ثم يرجع.

وروى مسلم بسنده عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى -أى الظهر- ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولْدان، فجعل يمسح خدى أحدهم واحدًا واحدًا. قال: وأما أنا فمسح خدى. قال: فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جُونَة عطار[1].

وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسن فعثر فسقط على وجهه، فنزل عن المنبر يريد أخذه، فأخذه الناس فأتوا به فقال: «قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أنى نزلت من المنبر حتى أُتِيتُ به».

---

(١) الجونة: سلة مستديرة مغطاة بالجلد يحفظ فيها العطار الطيب.

وروى البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القُبل».

والإسلام ينادى على المجتمع المسلم كله حكامًا ومحكومين أن يحسنوا رعاية الأبناء، وأن يعنوا بهم وبتربيتهم، وقد وردت فى ذلك أحاديث نبوية كثيرة، نذكر منها:

ما رواه الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ربَّى صغيراً حتى يقول لا إله إلا الله لم يحاسبه الله».

وما رواه ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وما روى الترمذى بسنده عن عمرو بن سعيد بن العاص رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن»[1].

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «أعينوا أولادكم على البر، من شاء استخرج العقوق من ولده».

وروى أبو يعلى فى مسنده بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مهنة إحداكن فى بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله».

وروى ابن السنى فى: «عمل اليوم والليلة» بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «إذا أفصح أولادكم فعلموهم لا إله إلا الله، ثم لا تبالوا متى ماتوا، وإذا أثغروا فمروهم بالصلاة».

وروى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة: لا إله إلا الله، ولقنوهم عند الموت: لا إله إلا الله، فإنه من كان أول كلامه: لا إله إلا الله، وآخر كلامه: لا إله إلا الله، ثم عاش ألف سنة ما سئل عن ذنب واحد».

وروى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن أبى رافع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب والسباحة والرماية، وألا يرزقه إلا طيبًا».

وروى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن مجاهد رضى الله عنه مرسلا: «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور».

---

(١) نَحَل أى أعطى، والنُّحلُ: العطاء.

وروى أبو داود بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله الجنة»[1].

وروى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد من أمتى يعول ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن، إلا كنّ له ستراً من النار».

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كُنّ له ثلاث بنات يمونهن ويرحمهن، ويكفلهن، وجبت له الجنة البتة» قيل: يا رسول الله، وإن كن اثنتين؟ قال: «وإن كن اثنتين».

وروى الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن أو ضرائهن وسرائهن، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن»، قيل: وثنتين؟ قال: «وثنتين»، قيل: وواحدة؟ قال: «وواحدة».

وبعد: فهذه هى بعض النصوص الإسلامية التى تؤكد ضرورة عناية المجتمع المسلم بالناشئين، وتجعل ذلك عليه - على كل مستوى من مستوياته - واجبا لا يستطيع الفكاك منه ما دام راغبًا فى إرضاء الله تبارك وتعالى.

●●●●

---

(١) يؤثر ولده عليها: أى الذكور منهم، وتفضيل الذكور على الإناث من الأب ظاهرة متفشية، نسأل الله منها العافية؛ إذ فيها ظلم نهى عنه الإسلام.

الباب الثالث

تربية الناشئ المسلم

ويتناول:



التمهيد

نحاول فى هذا الباب أن نستوعب أنواع التربية الإسلامية للناشئين حيث يعمد الإسلام إلى تربيتهم تربية متكاملة؛ ليكونوا كما أراد الله لهم خير أمة أخرجت للناس إن هم استجابوا لهذه التربية، فآمنوا بالله، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولقد أراد الله لهذه الأمة الإسلامية -كذلك- أن تكون الأمة الوسط بين الأمم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذه الوسطية للأمة إنما تعنى العدل والخيرية، لما رواه الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلاً».

وقال العلماء: معنى الوسطية للأمة أنها لم تَغْلُ غُلوّ النصارى فى أنبيائهم، ولا قصروا تقصير اليهود فى أنبيائهم.

ومعنى ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يفهم مما رواه الترمذى فى نوادر الأصول بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أُعْطيتْ أمتى ثلاثًا لم تُعط إلا للأنبياء: كان الله إذا بعث نبيًا قال له: ادعنى أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وكان الله إذا بعث النبى قال له: ما جعل عليك فى الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وكان الله إذا بعث النبى جعله شهيدًا على قومه، وجعل هذه الأمة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾».

وهذه الخيرية أو هذه الوسطية ليست شاقة على المسلمين؛ لأن الله تبارك وتعالى لم يشرع للمسلمين ما يشق عليهم بحال، وقال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وإن اختيار الله سبحانه للأمة الإسلامية لكى تكون أمة وسطًا، ليس تمييزًا لها لجنس أو وعرق، وإنما بسبب ما حمّلها من أعباء الرسالة الخاتمة التامة الكاملة، وبسبب ما أنعم الله

به عليها من الإيمـان والإسلام والعدل والإحسان والأمر بالمـعروف والنهى عن المنكر، إنها بذلك أصبحت وسطًا فى كل شىء:

* فهى وسط فى العقيدة: لا تغلو فى دين الله ولا تفرط فيه، ولا تقبل أن تكون بعيدة عن المعتقد السليم فى الله وفى ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

* وكذلك هى وسط فى الـعمل: الذى يترجم الإيمـان، فهى لا تغلو فى العـمل حتى تزهد فيما أحل الله لعباده، ولا تُقبِل على الملذات والشهوات حتى تنسى ما أوجب الله على عباده من الاتزان والاعتدال.

* وهى وسط فى التعامل مع الفـرد ومع المجتمع : فلا هى تُغَلِّب مـصلحة الفرد على المجتمع فتصيبه بالغرور والفـسوق عن أمر ربه بالانكباب على شهواته، ولا هى تغلب عليه مصلحة المجتمع فتسحقه بعـد أن تُضيع حقوقه وتصيره ترسًا فى آلة لا إرادة لها ولا حرية، أى لا حياة إنسانية كريمة.

* ثم هى وسط فى الانضباط وفق منهج الله سبحانه: فـهى أمة العلم والثقافة وهى أمة التشريع والنظام، وهى أمـة الخُلُق والمبدأ، وهى أمة الدعوة والحركة والجـهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

إننا نحاول فى هذا الباب أن نجمع أطراف التربية الإسلامية للناشئين فى الجوانب التربوية الهامة فى حياة الإنسان، وهى عند التفصيل:

التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العـقلية، والتربية الجسدية، والتربية الجمالية، والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية.

إن الناشئ المسلم إذا رُبى فى هذه الجوانب كلها، فقد تكاملت شـخصيته، وأصبح قادرًا على أن يوجه طاقاته وإمكاناته لخدمة نفسه، وأسرته، ومجتمعه، وأمته الإسلامية كلها.

هذا ما سنحاول أن نفصله فى هذا الباب من الكتاب الذى يعد لب الكتاب وأوسع أبوابه وأشملها، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

●●●●

الفصل الأول

التربية الروحية للناشئين

١- مكانة الروح من الإنسان

نود أن نؤكد فى البداية أن خلق الله سبحانه للإنسان قد تم على صورة لم تشبهها صورة خلقه سبحانه لمخلوقاته الأخرى، من ملائكة وجن وشياطين ومخلوقات أخرى كثيرة، وهذا تكريم للإنسان وتشريف له على نحو ما سنبين الآن.

الله سبحانه خلق الإنسان على طبيعة متفردة تخصه وحده، فهو وإن اشترك مع الأحياء الأخرى من مخلوقات الله فى التركيب العضوى والحيوى، فإنه انفرد وحده دون سواه بأن الله سبحانه أودع فيه من روحه سبحانه نفخة، وتلك النفخة من روح الله هى التى جعلت الإنسان خلقًا متفردًا ومكرمًا عند الله على كثير من خلقه سبحانه.

كما أحب أن أؤكد أن هذه الروح ليست طوراً من أطوار حياة الإنسان - كما يزعم القائلون بتطور حياة الإنسان عن غيره من المخلوقات - وإنما هذه الروح قد صاحبت خلق الإنسان ونشأته الأولى من الطين، وليست طوراً من أطوار حياته، أوضحت ذلك الآية الكريمة التالية:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٦ - ٢٩].

وإن التأمل فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ليؤكد لنا أن الإنسان من نشأته الأولى خلق من طين أو صلصال، ثم نفخ فيه من روح الله فكانت له حياة، أى أنه لم تكن له حياة بلا روح فى طور من أطوار حياته، ثم أدخلت عليه هذه الروح ليصبح خلقًا آخر غير ما كان، إن هذه النفخة من روح الله كانت منذ خلق الإنسان.

أما نظرية: التطور أو «الداروينية» فإنها تخضع لنظرية الانتخاب الطبيعى وأصل الأنواع التى تدعى أن الأشكال الحية جميعًا بما فيها الإنسان قد تطورت من أصل واحد مشترك، وأن الكفاح من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد هو الذى أعطى لبعض أفراد النوع ذوى

التغيير الأكثر ملاءمة حظًا أوفر من البقاء - وهو مبدأ الانتخاب الطبيعي - أى البقاء للأصلح، فإن هذه النظرية لَقِيَتْ من النقد والاعتراض شيئًا كثيرًا. . .

فعلماء الوراثة أكدوا أن هذه النظرية لم تفرق بين التغيير المكتسب الذى لا يورث، والصفات «الجينية» التى تورث ولا تكتسب، وعدم التفرقة بين هذه وتلك، وبالتالى فإن ما وصلت إليه النظرية من نتائج غير صحيح لأنه بنى على مقدمات خاطئة.

وعلماء الاجتماع نظروا إلى ادعاء نظرية التطور أن الحياة الاجتماعية تتحكم فيها قوانين المنافسة والصراع والانتخاب الطبيعى - أى البقاء للأصلح - وأن الحياة الاجتماعية على هذا النحو هى الأنموذج للتفاعل الاجتماعى؛ نظر علماء الاجتماع إلى ذلك على أنه لا يتمشى مع النظريات الحديثة لعلم الاجتماع.

إن الإنسان فى حقيقة خلقته وطبيعته طاقات ثلاثة: جسد وروح وعقل، وإن كل طاقة من هذه الطاقات الثلاث تعبر عن حاجاتها تعبيرًا فطريًا يحقق للإنسان التوازن المطلوب فى حياته، فإن عبرت واحدة من هذه الطاقات عن حاجتها تعبيرًا يخالف الفطرة التى فطر الله الناس عليها أصيب الإنسان بالاضطراب، ولو عبرت إحدى هذه الطاقات عن حاجاتها ومنعت غيرها من التعبير عن حاجاتها أصيب الإنسان بالاضطراب أيضًا، وذلك بسبب أنه فى الحالتين يفقد التوازن الذى تستقيم به حياة الإنسان.

وإن الإسلام وهو دين الله خالق الإنسان، يعترف لهذه الطاقات الثلاث بحقها فى التعبير عن نفسها، ويقر لها مطالبها الخاصة ولا يسمح بتجاهلها أو التقليل من شأنها.

فإذا احتاج الجسد إلى مطالبه من طعام وشراب وملبس ومسكن وزوجية وتكاثر، فإن الإسلام يسمح له بتحقيق هذه المطالب فى ظل الشريعة، ولا يعيبه على شئ منها، بل أحيانًا يطالبه بممارستها ويستنكر تمامًا على أولئك الذين يحرمونه من هذه المطالب الجسدية تحت مسميات خادعة وغير طبيعية كالرهبانية والزهد ولبس المرقعات وغيرها.

وعندما تحتاج روح الإنسان إلى مطالبها - وهى أصلاً نفخة من روح الله - فهى دائبة فى محاولة الاهتداء إليه والاستئناس بالإحساس بوجوده والاستمداد منه والاطمئنان إليه، فإن الإسلام يفتح لهذه الروح باب العبادة على مصراعيه فيما فرض الله وفيما ندب إليه، إذ العبادة هى باب تحقيق الروح لمطالبها.

وإذا احتاج العقل إلى تحقيق مطالبه من العلم والمعرفة والنظر والتأمل والتحليل والتركيب والاستنتاج، ومساعدة الروح والجسد على تحقيق مطالبهما، فإن الإسلام يعطيه الحق فى تحقيق هذه المطالب بل يطالبه بالنظر والتأمل والسعى فى الأرض وتدبر مخلوقات الله سبحانه وفى مقدمتها الإنسان نفسه، ولكنه يرسم لذلك حدودًا وأبعادًا، ويعينه الله على ذلك بإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويحملهم إلى هذا الإنسان مناهج صحيحة فى الحياة.

الروح فى الإنسان طاقة هامة من طاقاته الثلاث، لا يكون الإنسان إنسانًا إلا بها، بل هى أشرف ما فى الإنسان من تلك الطاقات؛ لأنها - كما قلنا - نفخة من روح الله سبحانه أضافها إلى نفسه وهو يشرف بها الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فى حين أن الله تبارك وتعالى عندما تحدث عن الجسم والعقل لم يضف واحدًا منهما إلى نفسه سبحانه، وهذا مناط لتشريف الإنسان.

إن هذه الروح بهذا الوصف هى التى تهدى الإنسان إلى خالقه كما يهتدى إليه كل شئ خلقه، وإنها لتساعد الإنسان على أن يحس بوجود الله ويحس بمراقبته له فى كل عمل يقوم به، وهى التى تجعله يحب الله ويرضى بقضائه وقدره، تفعل كل ذلك إذا كانت على الفطرة التى فطرها الله عليها.

فإذا غَشّى الروح ما يغشيها من ظلمات الضلال، وعتّمات الحيرة والتخبط، فخرجت بذلك عن فطرتها السوية، فإنها عندئذ لا تهتدى إلى الله ولا تأتنس بالإحساس بوجوده على الرغم من أنها نفخة منه؛ لأن الضلال والحيرة والتخبط يحول بينها وبين الله، لكنها على الرغم من كل ذلك تدرك وجود الله.

إن هذه الروح حتى مع إشراك صاحبها واتخاذه إلهًا أو آلهة غير الله فإنها فى داخلها مؤمنة بوجود الله، كان ذلك شأن الناس دائمًا، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] (قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده)[1] وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٣٣ - بمصر ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

إن الروح تدرك مهما ضل صاحبها أن الله سبحانه هو الموجود المعبود وحده الخالق الرازق الذى بيده كل أمر، بل إن تلك هى بهمة الروح الأساسية التى يكون بها الإنسان إنسانًا.

وإن مما يميز الروح من بين طاقات الإنسان أنها وحدها بمنأى عن القيود والحواجز، سواء أكانت قيود مادة أم زمان أم مكان، فى حين أن كلاً من الجسم والعقل مقيد بهذه القيود.

فالجسم خاضع لقيود المادة التى خُلق منها لا يستطيع أن يتخلص منها، وخاضع لقيود مدركاته الحسية مع ما فى حواسه من قصور فطرى، لا تستطيع معه أن تجتاز قيدًا من هذه القيود.

والعقل خاضع كذلك لقيود الزمان وقيود المكان وقيود قدرته فى الإدراك، فإن هناك من الأمور وبخاصة الغيبية وما يكون فى المستقبل لا يدركها العقل كذلك.

أما الروح فقد خلقها الله متحررة من هذه القيود كلها، فهى ليست مادة حتى تخضع لقيود المادة، وليست عقلاً حتى تخضع لما خضع له العقل من قيود، إنها لا تتقيد بالزمان ولا بالمكان ولا بما لا يمكن إدراكه بالحواس، وإنما هى حرة طليقة من كل هذه القيود قادرة على تخطى الزمان والمكان ومدركات الحواس؛ لأنها تملك الاتصال بما لا يدركه العقل، كما تملك القدرة على الاهتداء إلى الله سبحانه، كما تملك الاتصال بالوجود كله، دون اعتراض الزمان والمكان والعقل.

إن الروح بما منحها الله من قدرة، هى وحدها القادرة على أن تحس بالله، بوجوده، بقدرته، بحكمته، برحمته، بقوته، بعدله، تحس بذلك وبغيره من صفات الله وأفعاله كأنها ترى الله، وما يتأتى لها ذلك إلا عن طريق عبادة لله وفق ما شرع، والإقبال عليه، وإحسان هذه العبادة حتى كأن العابد لله يرى الله، كما أوضح ذلك محمد عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإحسان فأجاب بأن: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1].

وإن الروح بهذه الوظائف وتلك الخصائص كانت موضع عناية واهتمام من سائر الأديان التى جاءت من عند الله، بل إن العناية بها ووضع منهج لتربيتها دليل على أن الدين الذى يوجد فيه هذا الاهتمام هو دين من عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما فى أبواب الإيمان.

وإذا كان خاتم الأديان وهو دين الإسلام كالأديان التى سبقته فى إخفاء أمر الروح من حيث حقيقتها وكنهها كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، فإنه وجه الناس إلى الانشغال بما يجدى والسؤال عما يفيد، فجاءت هذه الآية الكريمة توجه العقل البشرى إلى التطلع إلى ما يقدر عليه وما يفيده، إذا لا جدوى من التخبط والمجادلة التى تبوء بالفشل بسبب أن العقل البشرى لم يهيئه الله لمعرفة كنه الروح.

وقد أكدت الآية الكريمة أن الروح وعلمها من الغيب الذى استأثر به الله وحده، وجعله محجوبًا عن الإنسان لصالح الإنسان، كما أن الآية توحى بأن محاولة الإنسان التعرف على الروح مقضى عليها بالضلال والعجز عن الوصول إلى الغاية إذ مهما أوتى الإنسان من علم فإن هذا العلم قليل جداً إذا قورن بالعلم الذى يمكنه من معرفة الروح، إذ العلم إنما يأتى عن طريق العقل البشرى وهو عقل محدود، لا يحتاج إلا إلى العلم الذى يمكنه من أداء وظيفته على الأرض وهى:

- الخلافة فى الأرض وعبادة الله وفق ما شرع، وإعمار هذه الأرض بكل وسيلة ممكنة ومشروعة لإعمارها.
- والتعارف بين الناس جميعًا.
- والتعاون والتآخى والتكافل بين المؤمنين.
- والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

إن الله تبارك وتعالى أرحم بالناس من الناس، وأدرى بما يصلحهم فى أمر دينهم ودنياهم، ولو رأى الله سبحانه فائدة لهم فى إقدارهم على معرفة حقيقة الروح وكنهها ما حرمهم من هذه القدرة، وكيف يحرمهم وهو أرحم بهم من رحمتهم بأنفسهم؟

وقد ذكر علماء التفسير والتأويل فى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ.....﴾ أقوالاً من أشهرها:

أن السائلين هم يهود؛ لإحراج النبى ﷺ، وإظهاره بمظهر العاجز عن الإجابة تنفيراً للناس عنه.

وقيل: السائلون هم قريش الذين سألوا يهود عن النبى ﷺ، فقالت لهم يهود: سلوه عن الروح، وعن فتية فقدوا فى أول الزمان، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها.

روى الواحدى - فى كتابه أسباب النزول - بسنده (عن علقمة بن عبد الله رضى الله عنه قال: إنى مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم، لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول فى الروح؟ فسكت ثم ماج، فأمسكت بيدى على جبهته فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ رواه البخارى ومسلم جميعًا عن عمر بن حفص بن غياث عن أبيه عن الأعمش)[1].

وقال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح فنزلت هذه الآية.

وقال المفسرون: (إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد ﷺ وحاله: سلوا محمداً عن الروح، وعن فتية فقدوا فى أول الزمان، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، فإن أجاب فى ذلك كله فليس بنبى، وإن لم يجب فى ذلك فليس بنبى، وإن أجاب عن بعض ذلك وأمسك عن بعضه فهو نبى.

فسألوه عنها، فأنزل الله فى شأن الفتية: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا﴾ [الكهف: ٩]، إلى آخر القصة، ونزل فى الروح قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ [الإسراء: ٨٥])[2].

وذكر المهدوى وغيره من المفسرين (عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح؛ فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبى، فأخبرهم خبر أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين على ما يأتى، وقال فى الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، أى من الأمر الذى لا يعلمه إلا الله)[3].

وقال بكر بن مضر فى رواية ابن وهب عنه: إن اليهود قالوا: سلوه عن الروح، فإن أخبركم فليس بنبى، وإن لم يخبركم فهو نبى، فسألوه فنزلت هذه الآية.

---

(١) الواحدى: أسباب النزول: (١٦٨) ط الحلبى مصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.

(٢) المرجع السابق: (١٦٨).

(٣) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١٠/٣٢٥) مرجع سابق.

وإنما ذكرنا هذه الروايات كلها ولم نكتف ببعضها دون بعض، لأن كل رواية منها تعلقت بغرض، وتميزت بشئ.

قال ابن العربي: (ومعنى هذا أن الأنبياء لا يتكلمون مع الخلق في المتشابهات، ولا يفيضون معهم في المشكلات، وإنما يأخذون في البين من الأمور المعقولات، والروح خلق من خلق الله تعالى جعله الله في الأجسام فأحياها به، وعلمها وأقدرها، وبنى عليها الصفات الشريفة والأخلاقة الكريمة وقابلها بأضدادها لنقصان الآدمية، وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبيه لم يستطع، لأنه قصر وقصر به دونها.

وقال أكثر العلماء: إنه سبحانه ركب فيه ذلك عبرة، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ليرى هذا الإنسان أن البارئ تعالى لا يقدر على جحده لظهور آياته في أفعاله.

فـــــفي كل شئ له آية تدل على أنه الواحـــــد

ولا يحيط به سبحانه أحد من الناس، لكبريائه وعظمته، فإذا وقف الإنسان متفكراً في هذا ناداه الاعتبار: لا تَرتَّب ففيك من ذلك آثار، انظر إلى موجود في إهابك، لا تقدر على إنكاره لظهور آثاره، ولا تحيط بمقداره لقصورك عنه، فيأخذه الدليل، وتقوم لله الحجة البالغة عليه)(١).

وبعد: فهذا هو ما يمكن أن يعرفه المسلم عن الروح، وتجاوز ذلك حيرة وضلال وضياع.

هذه الروح التي هي نفخة من روح الله طاقة من طاقات الإنسان لها مطالبها وحاجاتها، ولها أسلوب في تربيتها جاء به الإسلام، وهو ما نتحدث عنه في الصفحات التالية بإذن الله تعالى.

●●●●

---

(١) ابن العربي: أحكام القرآن: ٣/ ١٢٢٤ - ١٢٢٥، تحقيق على البجاوي، ط دار الفكر ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢- كيف يربى الإسلام الروح؟

إن دين الإسلام بوصفه الدين الخاتم، وبوصفه صاحب المنهج المتكامل، قد أعد لتربية الإنسان أحسن الإعداد، ووضع لهذه التربية أفضل نظام، وجعل لها من الشمول والتكامل ما من شأنه أن يربى الناشئ بل الكبير أفضل تربية وأكملها وأقدرها على الاستجابة لحاجات الإنسان المشروعة.

وقد سبق أن قلنا: إن الإنسان فيه طاقات ثلاث يحتاج كل منها إلى أن يعبر عن نفسه فى إطار الشرعية وتحقيق المصلحة أو دفع المفسدة، ليحقق بذلك التوازن فى حياته الدنيا بالتوازن بين تحقيق حاجاته، كما يحقق رضا الله باتباع منهجه فيحظى كذلك بسعادة الآخرة.

ولكل طاقة من هذه الطاقات الثلاث أسلوب فى التربية جاء به الإسلام، وجعل اتباعه هو وحده القادر على تحقيق النجاح فى الحياة الدنيا والفلاح فى الحياة الآخرة.

وأول هذه الطاقات الروح، وللإسلام أسلوبه فى تربيتها، ونستطيع أن نتلمس هذا الأسلوب فى نصوص الإسلام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتماس التربية الإسلامية من هذين المصدرين -الكتاب والسنة- هو التأصيل لهذه التربية، بل هو الدليل على أن منهج الإسلام جعل تربية الروح وتزكيتها من أهم أهداف التربية الإسلامية للإنسان عمومًا.

إن القرآن الكريم وتفسيره أو تفصيله والسنة النبوية بمعناها العام الذى يشمل سيرة المصطفى ﷺ، إن هذين المصدرين العظيمين قد اعتمدا أسلوبًا لتربية الروح يجعلها دائمًا قادرة على التعبير عن حاجاتها وسعيدة بهذا التعبير، وقادرة كذلك على الارتفاع بالإنسان إلى مراتب عالية من الصفاء والسمو، والاتصال بالله سبحانه، والشعور بوجوده وبنعمه وبمراقبته، وبرعايته للإنسان وتسديد خطاه فى كل أمره ليحظى بسعادة الدارين، كما تمكنها هذه التربية من الإقبال على الله وحبه والرضا بقضائه وقدره.

وعلى وجه الإجمال فإن التربية الإسلامية للروح توصل إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، كما تؤدى إلى الإسلام والتقيد بمنهجه وأداء الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، كما تلزم بممارسة العدل

والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، كل ذلك من نتائج التربية الإسلامية للروح.

وإن أسلوب الإسلام فى تربية الروح يمكن أن نشير إلى فى خطين عريضين واضحين هما:

١- عبادة الله سبحانه بالفرائض والنوافل وفق ما شرع.

٢- والنظر والتأمل فيما خلق؛ لأخذ الاعتبار والوقوف على الحق.

ونحاول فيما يلى من الصفحات أن نتحدث عن كل خط منهما والله الموفق.

١- عبادة الله سبحانه بالفرائض والنوافل وفق ما شرع:

يربى الإسلام الروح عن طريق عبادة الله وحده، والتقرب إليه بأداء الفرائض والنوافل وفق شريعته ومنهجه ونظامه.

والعبادة: هى غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال على الإنسان وهو الله سبحانه وتعالى.

وهذه العبادة نوعان:

عبادة بالاختيار، وليس هذا الاختيار لأحد من مخلوقات الله إلا للإنسان، وبه يستحق الإنسان الثواب، يأمر الله الإنسان بعبادته بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٦، ٣٧].

فالآية الكريمة فيها أمر بعبادة الله واجتناب عبادة غيره من الطواغيت ولكن الإنسان مخيَّر فى الاستجابة للأمر، فمنه من اهتدى فعبد، ومنه من أبى فحقت عليه الضلالة..

وعبادة الله مطلب لكل نبى بعثه الله، ووردت على ألسنتهم جميعًا، كما قال الله تعالى فى هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴾

وعبادة بالتسخير لا التخيير، وهى للإنسان والحيوان والنبات وكل شىء، وقد جاء فى هذا النوع من العبادة قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فهـذه هى عبادة التسخير، ولها دلالتها الصامتة الناطقة المنبهة على كون أصحابها مخلوقين لخالق عظيم فاعل حكيم.

والعبادة فى الإسلام فرائض كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها، ونوافل من جنس ما فرض الله على عباده من أقوال وأفعال.

والفرائض والنوافل جميعًا تسهم فى تربية الروح وصقلها وصفائها من خلال ممارستها لهذه الطاعات، وإقدارها على مواجهة الحياة وما فيها من مضطربات تفرض نفسها على حياة الناس.

إن هذه العبادات قادرة على تزويد الإنسان بشحنة روحية، تمكنه من التعامل مع الحياة تعاملاً يحقق مصالحه الدنيوية والأخروية.

وإن العبادات فى الإسلام تبدأ بالطهارة والتطهير، طهارة الروح وتطهيرها من الصدأ الذى يحول بينها وبين الصفاء والإشراق، وطهارة البدن وتطهيره من كل ما يحول بينه وبين الوقوف بين يدى الله فى الصلاة، والصلاة عماد الدين أو عموده، وقد ورد فى السنة النبوية ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد الله تملآن، أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

وحسبنا من هذا الحديث الشريف فى هذا المقام قوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان...» لنؤكد بها أن الطهارة نصف الإيمان، وأن هذه الطهارة حسية، تتم بغسل الأعضاء الواجب غسلها، ومعنوية يقصد بها طهارة الروح وتطهيرها مما يحول بينها وبين الصفاء والنقاء والإقبال على الله سبحانه وتعالى، أى تطهيرها من الشرك والنفاق والظلم والفسق عن كل ما أمر الله به، وعن كل ما جاء به محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

ومن الحكم الرفيعة فى الإسلام أن فريضة الصلاة -وهى أهم الفرائض وأكثرها تكرارًا فى اليوم والليلة- لا تقبل بغير تطهر؛ إذ لا يجوز لأحد أن يقف بين يدى الله فى صلاة إلا إذا كان على طهارة حسية، ومعنى ذلك أن الإسلام يطالبنا بهذه الطهارة الحسية خمس مرات فى اليوم والليلة، بالإضافة إلى ما يلحق ذلك من الطهارة المعنوية، روى الإمام مسلم

بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول».

إن المسلم وهو يتوضأ للصلاة فيغسل أعضاء الوضوء، فيسمى الله سبحانه ويستغفره عن كل ما جنت يداه وعيناه وأذناه ولسانه وقدماه، فإنه سوف يكرر ذلك خمس مرات فى اليوم والليلة، وهو جدير أن يقبل منه هذا الاستغفار، فتتاح له فرصة التوبة والإقلاع عن الذنوب بإذن الله، وهذه طهارة لحواسه وروحه معًا.

وإن الصلاة وحدها من بين الفرائض مدرسة تتعلم فيها الروح كما تتعلم فيها الجوارح، والله سبحانه يصف الصلاة بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فالصلاة إذا أديت بإخلاص تمنع صاحبها أن يمارس أى قول أو عمل قبيح فاحش، كما تحول بينه وبين كل ما يستقبحه العقل أو يستقبحه الشرع -عندما يعجز العقل عن تقبيحه- وهو المنكر لدى العقل والشرع، ومن نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر فقد كفَّر بها ذنوبه أو كفرت الصلوات الخمس ما بينها من الذنوب، روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شىء؟» قالوا: لا يبقى من درنه شىء، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

ولَذِكْرُ الله للمصلين بالثواب والمغفرة والثناء عليهم أكبر من ذكر المصلين له سبحانه فى عبادتهم وصلواتهم، والمعنى أن المصلى على ذكر من ربه، ومَنْ ذكر ربه ذكره ربه، بل ذكر الله له أكبر، وذكر الله بهذا المعنى أعظم أثراً وثوابًا، ولهذا وصف الرسول ﷺ الصلاة بأنها نور فى الحديث الذى ذكرناه آنفًا، فهى تنير لصاحبها الطريق إلى الله، إلى رضاه، والروح التى تنهى عن الفحشاء والمنكر وتذكر الله هى الروح النقية الصافية، فما بالنا إذن بأثر الصلاة فى هذه الروح إذا كان المصلى يصلى فى اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، غير الوتر والنوافل المؤكدة والنوافل التى يرتبها هو على نفسه؟

وإذا كان ذلك شأن الصلاة فإن سائر العبادات -مفروضة وغير مفروضة- تربى الروح تربية مماثلة، وعلى سبيل الشاهد والمثال، نقول:

إن الزكاة اختبار للمسلم ذى المال الذى تجب فيه الزكاة، بأن يتنزل عن بعض هذا المال الذى يحبه إلى الفقراء والمساكين وغيرهم استجابة لأمر الله تعالى، وهى تطهير للنفس من

صفة البخل؛ لأنها صفة مهلكة كما ورد فى الحديث الشريف: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»، كما أن الزكاة شكر لنعمة المال واليسار التى أنعم الله بها على من تجب عليه الزكاة.

وفى هذه المعانى وردت آيات وأحاديث شريفة، نذكر منها ما له صلة بأن الزكاة تطهير للنفس وللمال وتزكية للروح، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والتطهير هنا هو تطهير الروح من الشح والأثرة، وتجاهل حاجة المحتاجين من المسلمين، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: انتهيت إلى النبى ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال: فجئت حتى جلست فلم أتَقَارَّ أن قمت فقلت: يا رسول الله، فداك أبى وأمى من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا -من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله- وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يُقضى بين الناس».

وإن الصيام لكذلك، فقد فرضه الله على المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ومن المعروف فى الإسلام أن الصوم ربع الإيمان، لما ثبت فى السنة الصحيحة من قول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصوم نصف الصبر» ولما رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الصبر نصف الإيمان».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى، للصائم فرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

فأى تطهير للروح من شهوات البطن والفرج كالصوم؟ وأى جزاء للمسلم أعظم من جزاء الصوم؟

والحج كالصلاة والزكاة والصوم تطهير للروح كذلك، فهو عبادة العمر وتمام الإسلام وكمال الدين، ففيه[1] أنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وروى ابن عدى فى الكامل بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا».

إن الحج فى الإسلام إجابة لنداء الله لكل من ملك الزاد والراحلة، ولذلك كان شعاره: لبيك اللهم لبيك، وقال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.﴾ [الحج: ٢٧- ٢٩]. وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه».

أى أن من أدى فريضة الحج مراعيًا لشروطها وآدابها وأخلص لله فيها عاد من أداء حجه وقد غفر الله له صغائر ذنوبه وكبائرها، على هذا المعنى اتفقت كلمة العلماء.

فأى تطهير للروح أعظم وأكبر من هذا التطهير؟

إن العبادات التى فرضها الله تبارك وتعالى من صلاة وزكاة وصيام وحج، وشرع لها حدودًا وبين شروطها وآدابها، تسهم فى تربية الروح كما بينا آنفًا، لكن عبادات أخرى لم ترتفع إلى درجة الفرض وإنما ندب إليها الإسلام أو حَبَّب فيها، لا تقل شأنًا عن الفرائض فى تربية الروح هى:

أ- تلاوة القرآن الكريم.

ب- وذكر الله تبارك وتعالى.

---

(١) أى فى وقته، إذ الثابت أن هذه الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر والنبى ﷺ بعرفات على ناقته القصواء. الواحدى: أسباب النزول.

جـ- والأدعية المأثورة.

د- وسائر النوافل التى جاء بها الإسلام.

إن كل هذه العبادات تربى الروح فتقربها إلى الله تبارك وتعالى، وتعقد بينها وبين الله أوثق الصلات، وتشعر الإنسان بوجود الله ومراقبته وحبه، والرضا بقضائه وقدره، خيره وشره، على النحو الذى سنشير إليه فيما يلى:

أ- تلاوة القرآن الكريم:

تلاوة القرآن الكريم طريق لاحب آمن للاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، وما فيه من الأحكام وبيان الحلال والحرام، ووضوح منهج الصراط المستقيم، هذه التلاوة مع التدبر والتأمل فيما جاء فيه ومع الاتعاظ والاعتبار، هى مدرسة كاملة لتربية الروح.

روى الطبرانى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله تعالى».

وروى البخارى بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وروى الدارمى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قرأ (طه ويس) قبل أن يخلق الخلق بألف عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تنطق بهذا».

وروى البيهقى بسنده -فى الشعب- عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»، فقيل: يا رسول الله، وما جلاؤها؟ فقال: «تلاوة القرآن وذكر الموت».

ب- ذكر الله تبارك وتعالى:

قال أسلافنا من العلماء: ليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تبارك وتعالى، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿اذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ أمر وجوابه. . . وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمى الذكر باللسان ذكراً؛ لأنه دلالة على الذكر القلبى، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القولى اللسانى صار هو السابق للفهم.

وقال سعيد بن جبير: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن أقل صلاته وصومه وصنيعه للخير، ومن عصى الله فقد نسى الله وإن كثَّر صلاته وصومه وصنيعه للخير».

وقال أبو عثمان الهندى: إنى لأعلم الساعة التى يذكرنا الله فيها، قيل له: من أين تعلمها؟ قال: يقول الله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢][(١)].

وروى الحاكم فى مستدركه بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى».

وروى الطبرانى بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل»، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع، ثم تضرب حتى ينقطع».

وروى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلى، قال: «ذكر الله عز وجل».

جـ- الأدعية المأثورة:

رَغَّبَ الله سبحانه وتعالى عباده فى السؤال والدعاء فأمر بذلك فى قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

روى الترمذى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وروى الترمذى فى نوادر الأصول بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعطيت أمتى ثلاثًا لم تعط إلا للأنبياء، كان الله تعالى إذا بعث النبى قال: ادعنى أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وكان

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (٢/١٧١) مرجع سابق.

الله إذا بعث النبى قال: ما جعل عليك فى الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وكان الله إذا بعث النبى جعله شهيدا على قومه، وجعل هذه الأمة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]».

ولدعاء الله سبحانه وتعالى آداب كثيرة مثل:

- تخير أشرف الأوقات، كيوم عرفة وشهر رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر.
- وتخير الأحوال الشريفة كالدعاء بين الأذان والإقامة، وعند زحف الصفوف فى سبيل الله.
- واستقبال القبلة عند الدعاء.
- وخفض الصوت بين المخافتة والجهر.
- وألا يتكلف السجع فى دعائه.
- والتضرع والخشوع والرغبة والرهبة.
- وأن يجزم فى الدعاء، وأن يوقن بالإجابة.
- وأن يلح فى الدعاء ويكرره.
- وأن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال.
- وأن تسبق الدعاء توبة، ورد المظالم، والإقبال على الله.

بكل هذا الآداب وردت أحاديث نبوية كثيرة، وأفضل الدعاء ما كان مأثوراً عن النبى ﷺ.

والدعاء صلة قوية بالله، ويقين من العبد بأن الله سوف يجيب دعاءه، وهذه تربية للروح وصقل لها آناء الليل وأطراف النهار.

د- سائر النوافل التى حبب فيها الإسلام:

والنوافل هى: الزيادة على الواجب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، والتهجد: الصلاة بعد رقدة ثم الصلاة بعد رقدة، ونافلة أى زيادة على الفريضة، وكما تكون النافلة بالصلاة تكون بالزكاة وبالصوم وغيرها.

والتقرب إلى الله بأداء الفرائض أصل أصيل فى الشريعة الإسلامية، كما أن التقرب إليه بالنوافل مدعاة لحب الله لعبده المتنفل، ومن أحبه الله حبب فيه الملائكة والناس وأعانه فى كل أمره، وجعله من الموفقين.

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

إن تربية الروح بالنوافل والعبادة عمومًا، تجعل الإنسان فى هذه المنزلة الرفيعة من حب الله له وتوفيقه وإعانته، وهذا حسب أى إنسان يريد خير الدنيا والآخرة.

٢- النظر والتأمل فيما خلق الله لأخذ الاعتبار والوقوف على الحق:

والمراد بالنظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته.

وقد يراد بالنظر التأمل والفحص.

وقد يراد المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية.

والتأمل: التلبث فى النظر أو فى الأمر وتدبره وإعادة النظر فيه.

وقد ورد النظر فى القرآن الكريم بمعنى التأمل. قال الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] أى تأملوا ماذا فى السموات والأرض.

والنظر والتأمل كلاهما أسلوب قرآنى فى تربية الروح وصقلها وإزالة ما يمكن أن يعلق بها من أسباب التبلد والخمود؛ لتصبح شفافة صافية تستطيع أن تتلقى عن الله سبحانه ما أمر به وما نهى عنه لتستجيب لهذا وذاك فتحظى برضا الله سبحانه.

ولقد دعا القرآن الكريم الناس إلى السير فى الأرض أى المضى فيها والتأمل فى مخلوقات الله التى يمرون عليها مصبحين وممسين، والنظر فيها للوصول من خلال هذا النظر إلى الإيمان والاطمئنان إلى عظمة خلق الله وجليل صنعه؛ لتشفّ أرواحهم، ويزدادوا إيمانًا بالله.

وتلك تربية ذاتية ليس كمثلها تربية؛ إذ يسير الإنسان وينظر ويتأمل فيتعلم ويؤمن ويوقن، ويتخذ من هذا النظر والتأمل زادًا له فى موكب الإيمان الذى يسير فيه.

وسوف نذكر هنا بعض الآيات القرآنية الكريمة التى تطالب الناس بالسير فى الأرض

والنظر فى سنة الله، مع الذين لا يقبلون الحق أو يعاندون الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكيف كان عاقبة هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر، أو المعتدين بقوتهم على الحق، ومع ظلمهم وتجبرهم وقوتهم لم يستطيعوا أن يعجزوا الله فى أن يعاقبهم فى الدنيا فضلاً عن عقاب الآخرة، وكيف كان عاقبة المذنبين والمغرورين بما لديهم من علم أو مال أو جاه، والكافرين والجاحدين والمجرمين والمشركين - كما وصفهم القرآن الكريم؟

إن السير فى الأرض والنظر فى آثار هؤلاء لهو التربية الحقيقية المتأملة فى حكمة الله سبحانه وسنته، إنها تفيد هذه الروح حتى لا تقع فى الأخطاء التى وقع فيها الأولون ممن كذبوا رسل الله، وما نتيجة ذلك إلا القرب من الحق بل التشبث به، وتلك طريق الإيمان بالله والأنس بطاعته.

ومن هذه الآيات الكريمة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، والاستفهام فى هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ لتقرير توبيخهم على عدم السير فى الأرض والنظر والتأمل وأخذ العبرة؛ لأن ذلك هو الأصل لدى كل عاقل.

وقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١ ، ٢٢].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥].

وقال عز من قائل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٠ ، ١١]

وقال سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ، ١٣٨].

وقال جل وعز: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: ٦٩].

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

كل تلك الآيات وغيرها فى القرآن الكريم كثير، دعت إلى السير فى الأرض والنظر والتأمل لأخذ العبرة.

وهناك آيات قرآنية كريمة تدعو إلى التفكر فى خلق الله سبحانه من الناس وما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما. وما ذاك إلا للتفكر الذى يولد الاتعاظ والاعتبار وتقوية الإيمان وصقل الروح، بعد تصفيتها من الشوائب والعوائق التى تحول بينها وبين الاهتداء إلى الله والاتصال به، وحبه والإقبال عليه والرضا بقضائه وقدره.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال جل شأنه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١]

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال جل شأنه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كثير، قد جاءت لتدعو الناس إلى التفكير والتأمل، وهذه الدعوة تسهم إسهامًا كبيرًا فى تربية الروح وحفزها إلى إطالة النظر وعميق الفكر فى مخلوقات الله تبارك وتعالى؛ لتحيا هذه الروح بهذا التفكير، ولتستيقظ وتنطلق من إسارها وتحلق فى ملكوت الله لتزداد إيمانًا، ولتتجدد هذه الروح وتنجلى بهذا الفكر وذاك التأمل، إن كل ذلك هو من تربية الروح، بطى المسافات بينها وبين خالقها، لتعيش فى القرب منه والأنس به، وتلقى رحماته ونفحاته لكى تنمو وترتقى فى مجال العبودية لله تعالى وتتزكى وتتطهر من كل ما يحول بينها وبين الله.

وهناك آيات قرآنية عديدة دعت إلى النظر والتأمل كل الناس أفرادًا وجماعات، وما ذلك إلا دعم لما نقول من أن تربية الروح عن طريق النظر والتأمل مساوية لتربية الروح عن طريق العبادة، إذ النظر والتأمل بهذا المعنى الذى ذكرنا نوع من العبادة.

ومن ذلك:

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]. وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٥-١٠].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٢ - ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال جل شأنه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٩- ١٠١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣].

وهذه الآيات الكريمة تدعو كسابقتها إلى تأمل الفكر فى هذه الأمور التى دعا القرآن الكريم إلى التفكر فيها، ليكون من وراء ذلك تزكية للروح وتنمية لمعانى الخير والهدى فيها، وهذا بعينه هو تربية الروح وإعدادها لتلقى الحق والخير والهدى والجمال عن خالق الكون، المنعم على عباده بما يحيط بهم من نعم ظاهرة وباطنة.

وبعد: فإذا كانت تلك هى تربية الروح فى الإسلام، فلابد لنا من رصد بعض نتائج هذه التربية، لنكون على بينة من الأمر، ولنقيس على ذلك كل ما نمارسه من أساليب تربية الروح.

أولى نتائج التربية الإسلامية للروح هى:

تقوية صلة الإنسان بالله سبحانه، بحيث يكون الإحساس بوجود الله قد ملأ على هذه الروح جميع أقطارها، مع الشعور بمراقبة الله سبحانه، وحبه والإقبال عليه بالتعبد له وفق ما شرع، وذلك يولد اطمئنانًا فى الروح ورضا بقضاء الله وقدره والتسليم له سبحانه فى كل شىء.

وثانية هذه النتائج هى:

مترتبة على الأولى، فمادامت الروح قد أحسنت الاتصال بالله سبحانه، فلابد أن تتعامل مع مخلوقات الله من ناس وأشياء وفق ما شرع الله وما اقتضى منهجه فى الحياة الإنسانية.

ومظاهر هذه الصلة الحسنة بالله، أن تعرف هذه الروح أن تكون علاقات حسنة وحميمة ومبنية على الحب والتقدير لجميع الناس الذين يلتزمون بمنهج الله فى الحياة، علاقة رغبة فى هداية أولئك الذين يضلون عن هذا المنهج، ولا مانع من أن تصل هذه الرغبة إلى حد كراهية هؤلاء الضالين فى الله حتى يهديهم الله.

وكذلك الشأن مع سائر مخلوقات الله سبحانه من حيوان ونبات وجماد وماء وهواء، كل ذلك تنظر إليه الروح التى رباها الإسلام على أنها مخلوقات لله تسبح بحمده وإن كان الناس لا يفقهون تسبيحهم، وبالتالى فإن العلاقة بهذه المخلوقات يجب أن تكون علاقة وئام لا صراع، علاقة استفادة من هذه المخلوقات لا علاقة تحدٍّ لها وصراع معها.

ومن هنا فإن من ربيت روحه تربية إسلامية لابد أن يرفض مقولة: إن الإنسان مع الطبيعة فى صراع، وأن يؤمن بأن الإنسان مع الطبيعة فى حوار وتفاهم؛ لأن الله سبحانه قد سخر كل مخلوقاته للإنسان، إذ الإنسان أكرم عليه وأفضل عنده من كثير ممن خلق.

وثالثة هذه النتائج هى:

مترتبة كذلك على ما سبقها، وهى أن تكون تلك الروح التى ربيت تربية إسلامية محبة للخير بإذن الله تعالى، باذلة فى سبيل هذا الخير للناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم، المؤمن تعطيه وتعينه، والكافر والمشرك تحاول أن تنقلهما إلى رحاب الطاعة لله ونعيم الدخول فى دينه ومنهجه ونظامه، إذ ليس لأحد من الناس خير أحسن ولا أنفع من أن يعان على إرضاء الله سبحانه، فإن ذلك هو ربح الدنيا والآخرة.

ورابعة هذه النتائج هى:

الإحسان؛ لأن الروح التى تُرَبَّى تربية إسلامية تحرص دائمًا على أن تعبد الله كأنها تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراها.

وإن هذا الشعور يوقظ هذه الروح دائمًا ويسدد خطاها باستمرار، ويحبب إليها هذا الإحسان فى كل عمل تقوم به؛ لأن الله تبارك وتعالى كتب الإحسان على كل شىء، كما هو وارد فى السنة النبوية المطهرة.

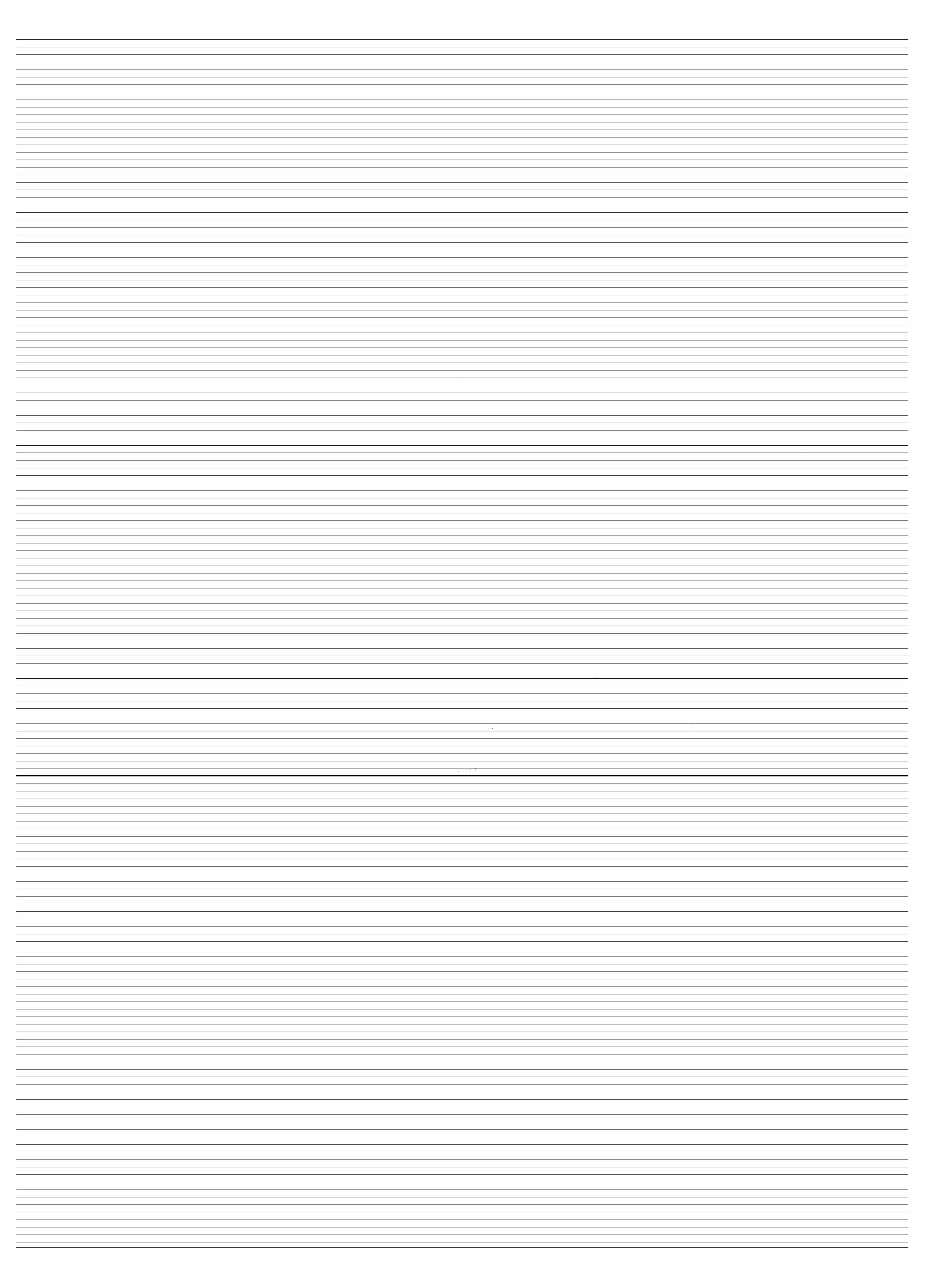
روى الإمام مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذ ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»**(١).

فالإحسان المطلوب هو النوعان معًا: مراقبة الله تعالى وإجادة أى عمل وإتقانه.

وخامسة هذه النتائج هى:

أن تلك الروح وقد اتخذت الإحسان خلقًا وأدبًا ومنهجًا، تستطيع دائمًا أن توازن بعدالة وإنصاف بين مطالبها ومطالب البدن الذى تعيش فيه، فلا تطغى مطالب على مطالب، وإنما يكون التوازن والعدل والانسجام والوئام والرضا.

(١) الإمام مسلم: صحيحه: كتاب الصيد والذبائح، باب الإحسان بالذبح والقتل... (٣/٢٥٤) ط الحلبى مصر ١٣٤٨هـ.



الفصل الثانى

التربية الخلقية للناشئين

١- مفهوم الأخلاق فى الإسلام

للأخلاق فى الإسلام مفهوم نابع من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولكنه ليس ببعيد عن المعنى اللغوى للكلمة.

فالخُلق فى اللغة هو: ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب؛ لأنه يصير كالخلقة فيه والسجية، والأخلاق هى السَّجَايا المدركة بالبصيرة.

قال الله تعالى فى وصف خلق النبى ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: كان خلقه القرآن، ثم قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من الصحابة ولا أهل بيته إلا قال: لبيك، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقيل: سمى عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله ﷺ: «إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق».

وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقد روى عنه أنه ﷺ قال: «أدبنى ربى تأديبًا حسنًا إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١٨/ ٢٢٧، ٢٢٨) مرجع سابق.

ولأهمية الجانب الخلقى فى المسلم وردت أحاديث نبوية كثيرة تثنى على الخلق الحسن.

فقد روى الترمذى بسنده عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وروى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء».

وروى الإمام مسلم بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «الفم والفرج».

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم».

وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

وروى أبو داود بسنده عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

وروى الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون؟» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون».

والثرثار: الذى يكثر الكلام ويتكلف فيه.

والمتشدق: الذى يتطاول على الناس بكلامه.

والمتفيهق: الذى يُغْرِبُ كلامه تكبرًا على الناس وإظهارًا للفضل عليهم.

وقد ذكر الترمذى عن عبد الله بن المبارك رحمه الله فى تفسير حسن الخلق أنه قال: هو

طلاقة الوجه، وبذل المعروف وكف الأذى.

والقرآن الكريم لم يترك شيئًا من فضائل الأخلاق إلا تحدث عنها فى آياته وحثّ على التحلى بها، كما أنه لم يترك شيئًا من رذائل الأخلاق إلا تحدث عنها ونَفَّر منها.

وباستقراء الآيات القرآنية الكريمة التالية - وهى بعض ما ورد فى الأخلاق رفيعها ووضيعها - نستطيع أن نتعرف على كثير من مفردات هذه الأخلاق.

وهذه الآيات الكريمة منها:

* قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ:

- أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.

- وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

- وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

- وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ.

- ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

- وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا.

- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ.

- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا.

- ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

* وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ.

- أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ.

– وبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا.

– وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ.

– وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا.

– وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا.

– وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ.

– وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

– وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً.

– وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا.

– وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

– وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً.

– وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً.

– وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً.

– وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً.

– كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.

– وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٣٩].

* وقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

– وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.

- وَبِذِي الْقُرْبَىٰ.

- وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ.

- وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ.

- وَالْجَارِ الْجُنُبِ.

- وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ.

- وَابْنِ السَّبِيلِ.

- وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً.

- الَّذِينَ يَبْخَلُونَ.

- وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ.

- وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا.

- وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ.

- وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ.

- وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٨].

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ.

- الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ.

- وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ.

- وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.

- وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ.

- وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ.

- وَأَقَامُوا الصَّلاةَ.

- وَأَنفقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً.

- وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ.

- وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ.

- وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ.

- وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٥].

* وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ.

- بِالْعَدْلِ.

- وَالإِحْسَانِ.

- وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى.

- وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ.

- وَالْمُنكَرِ.

- وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

- وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ.

- وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ.

- وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

- وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

- وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ

وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

- مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٠ - ٩٧].

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ.

- لِلَّذِينَ آمَنُوا.

- وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

- وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ.

- وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ.

- وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ.

- وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ.

- وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ.

- وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا.

- فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ.

- وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

- وَلَمَن صَبَرَ.

- وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

* وقال جل ذكره: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ.

- الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ.

- وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ.

- وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ .

- وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ .

- وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ .

- وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .

- وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

* وقال تعالى ذكره: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ .

- الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .

- وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا .

- وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا .

- وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

- وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا .

- وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا .

- وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .

- وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .

- وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا .

- وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .

- وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا .

- وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا.

- وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

إننا نستطيع عند النظر فى هذه الآيات الكريمة - وهى قليل من كثير - أن نتعرف على عدد من الصفات الفاضلة نذكر منها:

البر، والصبر، والصدق، والوفاء، والأمانة، والتواضع، والإخلاص، والرفق، واللين، والعفو، والصفح، والتسامح، والإحسان، والعفة، والاعتدال، والكرم، والتضحية، وقول الحق والتواصى به، وممارسة الحق والتواصى به، ونصرة الحق، ونصرة الضعيف، والصدقة، وإيثار الحسنى على غيرها، ودفع السيئة بالحسنة، والعدل، والتعاون على البر والتقوى، والدعوة إلى الله وإلى الخير والحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، والاستمتاع بما أحل الله من طيب الطعام والشراب واللباس فى غير إسراف ولا مخيلة، والمداومة على طهارة البدن والثوب والمكان والتمسك بسنن الفطرة، واحترام آراء الآخرين، واحترام حقوقهم وأموالهم وأعراضهم ودمائهم، والتأسى بمحمد ﷺ فى أقواله وأعماله، وتمثل صفات الله سبحانه فى حدود ما تطيقه بشرية الإنسان... إلخ.

كما نستطيع أن نجد فيها مما نفَّر الله منه من ذميم الأخلاق صفات كثيرة، نذكر منها:

الإثم، والمعصية، والجزع، والكذب، والغدر، والخيانة، والتكبر، والنفاق، والعنف، والغلظة، والتشدد، والقسوة، والإهمال، والخسة، والعهر، والبخل، والأنانية، وكتمان الحق، والظلم، والسلبية وغيرها من الصفات الرديئة.

ولو ذهبنا نستقصى هذه الصفات وتلك، ما وسعنا هذا الجانب من الكتاب، ولكن يمكن أن نضع للأخلاق فى الإسلام معياراً دقيقًا نلجأ إليه عند الرغبة فى التعرف على الصفات الفاضلة أو الرذائلة فنقول:

جماع الأخلاق الفاضلة فى الإسلام هى تلك الصفات التى وصف الله تعالى بها نفسه فى أسمائه الحسنى؛ إذ كلها مما يحمد للإنسان أن يتحلى بها، وأن يروض نفسه عليها، وأن يحاول أن يأخذ منها بالقدر الذى تطيقه بشريته، مع استثناء الصفات التى خص الله سبحانه

بها نفسه ولا يستطيعها أحد من خلقه.

هذه الصفات من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها المسلم ويأخذ منها بما تتيحه له بشريته، وأن يقضى عمره كله ينشد التحلى بأكبر قدر من كل منها، وأكبر عدد منها كذلك.

وهى فى جملتها صفات تتعلق بما فى الإنسان مما فطره الله عليه من صفات حب الجمال والشوق إلى الكمال، وليست كما ذهبت إليه بعض المذاهب الأخلاقية متعلقة بالمنفعة أو بالسلطان والقانون أو باستطاعة القوة، وإنما هى الصفات الأخلاقية الفطرية التى دعا إليها الإسلام، وجعل فى التحلى بها للفرد دليلاً على صحة نفسية وبدنية وعقلية؛ لأن النفس الصحيحة تصدر عنها أخلاق صحيحة، وكذلك الشأن فى البدن، ولا صحة للنفس أو البدن أو العقل بغير ضابط، وكل ضابط إنما يعنى القدرة على الامتناع عن الأمر حيثما يكون الامتناع هو الأحسن، والإقبال عليه حينما تكون ممارسته هى الأحسن كذلك.

وهذه القدرة على الامتناع أحيانًا والقدرة على العمل والممارسة أحيانًا هى مصدر الجمال فى الأخلاق؛ لأن جمال الخلق إنما يتجلى فى ممارسة العمل اللائق بكرامة الإنسان والامتناع عما سواه مما لا يليق بكرامة الإنسان وتكريم الله تعالى له، إن الإنسان وهو يتصف بصفات لا تليق بكرامة الإنسان، إنما يدنو من الحيوانية المنعتقة بحكم فطرتها من التقيد بما يليق وما لا يليق.

كما أن مصدر الجمال فى الأخلاق يعود إلى أن يكون للإنسان حرية إرادة العمل، يريد فيعمل أو لا يريد فيتوقف، وما أجمل أن تكون الإرادة متفقة مع ما يليق بكرامة الإنسان وتكريم الله له.

وإن الدوافع إلى التحلى بالأخلاق الحميدة مهما تكن قوية أو مؤثرة أو مخوفة كالقانون والسلطان وغيرهما، لن تبلغ فى قوتها وتأثيرها على الإنسان ما تبلغه إرادته الحرة فى أن يفعل أو لا يفعل؛ لأن هذه الحرية هى - كما قلنا آنفًا - مصدر جمال الخلق.

وإن الإسلام يقف فى هذه القضية وقفة تحرر الإنسان مما قد يشتمل عليه القانون من خطأ أو قصور أو ميل عن الحق؛ لأن القانون يضعه الناس والناس جميعًا معرضون للخطأ والقصور، وكثير منهم من أهل الميل والهوى. كما أن الإسلام بمعاييره الأخلاقية يحرر الإنسان مما يفرضه عليه المجتمع من أنماط سلوكية معينة؛ لاحتمال أن يكون المجتمع قد لجأ إلى هذه الأنماط لما يشعر به من أنانية أو استعلاء على مجتمعات أخرى، أو رغبة فى امتلاك

أسباب القوة التى تشعره بتميزه وتفوقه ونيله من الرفاهية قدراً كبيراً، وكل مجتمع معرض لأن يسلك هذه السبيل ما دام الناس هم الذين يضعون أنماط السلوك الاجتماعية، وهم بالضرورة ليسوا معصومين عن الأخطاء.

إن الإسلام يحرر الإنسان ويحرر أخلاقه من هذه الضغوط الخارجية، ويجعله حر الإرادة أولاً، فإن خضع لقانون فإنه يخضع لقانون لا يعتريه الخطأ ولا القصور ولا الهوى؛ لأنه ليس من صنع الناس ولا المجتمع، وإنما هو من صنع رب الناس سبحانه وتعالى، وإذا كان الإنسان فى الإسلام يخضع لما يفرضه المجتمع من قيم ونظم، فإنما يخضع لمجتمع يؤمن بأن الناس سواسية، وألا استعلاء لمجتمع على آخر، ولا استغلال لمجتمع من آخر؛ لأن الإسلام هو الذى يضع قيم المجتمع ونظمه، ويعلن فى المجتمعات البشرية كلها أن الناس لآدم وأن تفاضل الناس جميعًا إنما يكون بالتقوى والالتزام بمنهج الله ونظامه.

ونحب هنا أن نقارن بين الأخلاق التى يلزم بها الإنسان نفسه بإرادته الحرة، أو الأخلاق التى فرضها القانون، أو فرضها المجتمع، أو جاء بها الدين؛ لأن هذه المقارنة جديرة بأن تزيد الأمر وضوحًا.

إن الغالب على الأخلاق التى يفرضها القانون أن تحقق للإنسان سلامة آنيّة، ولكنها لا تستطيع أن تتعرف على الأمور الأكثر سلامة والتى هى قادرة على تحقيق السلامة فى الحال والمستقبل؛ لأن البشر الذين يضعون هذه القوانين لا يستطيعون علم الغيب ولا كشف ما فى المستقبل، وإنما علم ذلك عند الله وحده.

كما أن القانون الذى يضعه الناس لا يحترمه الناس إلا إذا حقق لهم جميعًا - صالحهم وطالحهم- مصالح مادية فى حياتهم، ولن يكون هذا إلا إذا احترم الناس المجتمع واحترموا العلاقات التى تربط بين الناس، بل احترموا انتماءهم لهذا المجتمع، واحترامهم لقانونه.

وإن الغالب على الأخلاق التى يفرضها المجتمع أن تؤكد الحرص على قيم المجتمع، والمحافظة على ما يسوده من عادات يراها المجتمع نافعة، ولكن المجتمع - أى مجتمع - لا يستطيع أن يؤكد هذه النفعية تأكيدًا مطلقًا؛ لأن ما ينفع مجتمعًا قد يضر سواه، ولا يستطيع أن يؤكد نفع هذه الأخلاق فى المستقبل؛ لأنه - كالقانون - لا يملك شيئًا من علم الغيب ولا علم المستقبل، بل إن هذه الأخلاق إنما يلتزمها الإنسان إذا اقتنع من داخله بأنه فرد من أفراد هذا النوع الإنسانى الذى تسوده قيم بعينها، ولا يحترم الإنسان هذه الأخلاق إلا إذا شعر بعمق أنه ينتمى إلى الإنسانية المكرمة بتكريم الله، الإنسانية التى تنفعها هذه الأخلاق.

ذلك شأن القانون وشأن المجتمع فى فرض أخلاق معينة على الناس، أما ما جاء به الإسلام فهو أخلاق شاملة كاملة متكاملة تحيط بإرادة الإنسان وشعوره، وظاهره وباطنه شمولاً لا يعتريه خطأ أو قصور أو نظرية استعلاء أو استغلال، وترسم له الطريق الواضحة الآمنة التى تحقق للسالك فيها بهذه الأخلاق سعادة الدنيا والآخرة، وذلك أن الإسلام يهتم فى أخلاقه بالمعاش والمعاد معًا، على حين سائر الأخلاق النابعة من قوانين الناس أو نظمهم الاجتماعية إنما همها كله أن تحقق للناس سعادة الدنيا إن استطاعت وقلما تستطيع، ثم إنها متجاهلة أو جاهلة أن حياة الإنسان الآخرة أهم وأطول وأبقى من حياته الدنيا، ويا ليت هذه القوانين وتلك النظم استطاعت يومًا أن تحقق للناس سعادة للدنيا وحدها، فضلاً عن أن تسمو إلى التفكير فى الآخرة.

إن هذه القوانين وتلك النظم قد اعتراها - على مدى تاريخ البشرية كله - من الخطأ والقصور والتعالى والغرور، واستغلال الضعفاء أسوأ أنواع الاستغلال، إلى درجة أن أصبح الضعفاء من الناس يباعون كما تباع السلع، ثم استعبدوا وصاروا متاعًا من المتاع.

لقد هان أمر الإنسان فى ظل هذه الأخلاق التى جاءت بها القوانين والنظم حتى كانت نظم الإقطاع فى الغرب، فأصبحت الإنسانية طبقات يأكل غنيها فقيرها، ونبيلها حقيرها، ولم يكن الشرق مختلفًا فى ذلك عن الغرب، وإنما أصبح فيه فى ظل هذه الأخلاق طائفة من الناس يسمون المنبوذين فى شبه القارة الهندية، وتمكن الرجل الغربى من أن يذهب إلى أفريقيا ويصيد أخاه الإنسان كما يصاد الحيوان ويحمله إلى الغرب أو الغرب الأقصى أمريكا ليكون عبدًا لا لشىء إلا لأنه عجز عن الدفاع عن نفسه أمام غربى سلحه عصر النهضة!!!

أما الأخلاق التى جاء بها الدين فلا تسمح بهذا الامتهان للإنسان، بل تحرص على أن تكون الإنسانية كلها ناعمة فى ظل الأخوة والمحبة وأداء الواجبات وممارسة الحقوق، وإن هذا ليؤكد أن التدين جزء من طبيعة الإنسان وفطرته التى فطره الله عليها، فإن وجد إنسان غير متدين يسىء معاملة أخيه الإنسان فهو ظاهرة تستحق الدراسة والبحث عن أسباب انحرافه عن فطرته.

وإن الإسلام بوصفه خاتم الأديان وأكملها وأتمها، والناسخ لما سبقه منها وبما يتضمنه من قيم أخلاقية صحيحة عادلة منصفة، لهو الدين الذى سوف تصير إليه البشرية كلها فى يوم من الأيام، لن يكون بعيدًا إذا وجد من أبنائه من يحرصون على تطبيق ما جاء به.

●●●●

٢- كيف يربى الإسلام الأخلاق؟

إن دين الإسلام بوصفه الدين التام الخاتم، وبوصف منهجه أنه أكمل المناهج وأقدرها على تحقيق سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته، إن الإسلام بوصفه هذا لقادر على أن يضع لتربية الأخلاق منهجًا متكاملاً، لا يستطيع أحد أن يجد فيه ثغرة من الثغرات، وهذا هو ما كان.

إن الإسلام يربى خلق الإنسان بطرق عديدة متكاملة لا يستغنى بعضها عن بعض. وهذه التكاملية فى تربية الإسلام للأخلاق تعتمد على أسس وركائز هى وحدها التى يقوم عليها صرح الأخلاق الفاضلة، القادرة على أن تحقق للمتحلى بها سعادة الدنيا والآخرة.

وسوف نحاول فى هذا الجزء من هذا الفصل أن نشير إلى مجمل هذه الركائز، ثم نفصل منها ما تسمح به ظروف هذا الكتاب، تاركين التفصيل المطلق إلى كتاب آخر لنا، والله ولى التوفيق.

هذه الركائز التى تقوم عليها تربية الإسلام للخلق هى:

أ- العلم.

ب- والعقيدة.

جـ- والعبادة.

د- والحلال والحرام.

هـ- واتخاذ النبى ﷺ قدوة.

و- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ز- والجهاد فى سبيل الله.

مع التزام أدب الإسلام فى كل ذلك.

وهى ركائز تقوم عليها الأخلاق الفاضلة، بل تقوم عليها الحياة الإنسانية الكريمة التى تليق بتكريم الله سبحانه للإنسان، ويستطيع بها أى مجتمع أن يحقق أقصى درجات الأمن والرخاء.

إن الإسلام بهذا يضع أكمل منهج فى تربيـة الأخلاق، وهو بهذا يؤكد بالدليل والبرهان أن اتباعه والأخذ بما فيه يحقق للبشرية كلها سعادة الدنيا والآخرة.

ولنشرع فى بيـان هذه الركائز وتفصيل الحـديث فيمـا يحتاج منها إلى تفـصيل فى هذا الكتاب، والله المستعان.

الركيزة الأولى: العلم:

من المقرر لدى العقلاء أن الأخلاق المستقيمة الصحيحة إنما تقوم على العلم، والعلم فى المكانة عند الله قرين الإيمان، وأصحاب العلم كـأصحاب الإيمان يرفع الله قدرهم درجات دون سـائر الناس، قال الله تعـالى: **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [المجادلة: ١١].

وأهل العلم هم أهل العقل والتدبر والقدرة على الفهم الصـحيح والتحليل والاستنتاج، وفـهم الأهداف والمرامى، قال الله تعـالى: **﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾** [العنكبوت: ٤٣].

وأهل العلم هم أجدر الناس بعبادة الله ومعرفة حقوقه عليهم، ولذلك فهم يخشون الآخرة ويرجون رحمة الله على كل حال، وليسوا كأولئك الذين لا يذكرون الله إلا فى الضراء لأنهم يهملون النظر فى الأدلـة كما نظر إليهـا أهل العلم فهدتهم ودلتـهم على الخير، قـال تعالى: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [الزمر: ٩].

وأهل العلم هم الذين لا تفتنهم البهارج عن الحق، ولا تصرفهم الخدع عن التمسك به، ولا يشغلون بأعراض الدنيا عن الآخرة، بل يـدركون أن ما عند الله هو خير وأبقى لمن آمن وعمل صـالحًا، ويوجهـون نصائحهم للناس ولكن كـثيرًا من الناس لا يعلمـون، قال الله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾** [القصص: ٨٠].

هذه بعض آيات من القـرآن الكريم تبين مـكانة العلم وأهميـته للإنسـان، وهناك بعض الأحاديث النبوية الشـريفة التى تؤكد ذلك، ومنها: ما رواه أبو نعـيم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أقرب الناس درجة من النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على مـا جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسـيافهم على ما جاءت به الرسل»**.

وما رواه الحاكم فى تاريخ نيسابور بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم».

وما رواه الدارمى بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما، قال: مَرَّ رسول الله ﷺ بمجلسين فى مسجده فقال: «كلاهما على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل فهم أفضل، وإنما بعثت معلمًا» قال: ثم جلس فيهم.

وما رواه الدارمى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم وعلموه الناس، تعلموا الفرائض وعلموه الناس، تعلموا القرآن وعلموه الناس، فإنى امرؤ مقبوض، والعلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف اثنان فى فريضة لا يجدان أحداً يفصل بينهما».

والعلم لا يكون إلا بالتعلّم، فكما شرف الإسلام العلم ورفع من قدر العلماء، حَثَّ على التعلم والتعليم، فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وروى الدارمى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله له طريقًا من طرق الجنة، فإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظه -أو بحظ- وافر».

وروى ابن ماجة بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل خير لك من أن تصلى ألف ركعة».

وروى ابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره».

ولا تكمل فضيلة المتعلم حتى يعلم سواه، لذلك أثنى الإسلام على من يعلم سواه، وعلى من يبلغ الناس ما تعلم، وأوضح أن له أعظم الأجر وأحسن الجزاء، ومعنى ذلك استمرارية العلم وتنقله من جيل إلى جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا تقدير لأهمية العلم ليس كمثله تقدير.

روى ابن ماجة بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه- زاد فيه على بن محمد أحد راويى الحديث - ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم».

وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من علَّم علمًا فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا، ثم يعلمه أخاه المسلم».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله: ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته، يلحقه من بعد موته».

والعلم والتعليم والتعلم كلها أمور تقوم وتستقيم على الأخلاق، كما أنها أمور تزكى الأخلاق وتطهرها من الجهل والأنانية، فلا أخلاق فاعلة عارفة طريق الحق والصواب إلا إن قامت على العلم واستقامت به.

وإن الضبط الأخلاقى الذى يؤدى إلى الضبط الاجتماعى لا يؤتى ثماره إلا إذا كان له من العلم نصيب؛ إذ العلم هذا الذى يقنع كل إنسان بأن كذا واجب وكذا نافع وكذا ضار، وكذا ممنوع، بل إن خشية الله تبارك وتعالى لا تتمكن من أحد فتوجه سلوكه إلا إذا كان من أهل العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والانضباط مع ما جاء به الإسلام من فضائل ومع ما نهى عنه من رذائل إنما يحتاج من المسلم إلى علم يملأ عقله وقلبه اقتناعًا وينعكس على جوارحه أعمالاً وسلوكًا.

وإذا كانت مقاصد الناس ومصالحهم فى الدين والدنيا معًا، فإن من المسلَّم به أن الدين والدنيا هما قوام حياة الإنسان؛ لأن الدنيا كما نعرف مزرعة للآخرة، ولا يمكن فصل الدنيا

عن الدين وإلا تعادى الناس وتصارعوا، إذا كان ذلك كذلك فإن الأخلاق التى جاء بها الإسلام هى التى تذهب هذا التعادى وذاك الصراع، وهذا الأخلاق الإسلامية لابد أن تقوم على العِلْم تعلمًا وتعليمًا وهذا هو الذى يؤدى بنا إلى رضا الله تبارك وتعالى.

الركيزة الثانية: العقيدة:

والعقيدة هى ما يضمر عليه الإنسان قلبه، ولا يقبل الشك فيه فى عمومها، وأما العقيدة فى الدين فهى ما يقصد به الاعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله سبحانه وإرساله الرسل.

وعقيدة المسلم تقوم على ما يقتضيه العقل والنقل، أى على ما يقتضيه العقل السليم، والشرع الحكيم، وعمود هذه العقيدة أو عمادها هو: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فهذه الشهادة تتضمن أصلين عظيمين فى عقيدة المسلم هما:

الأول: إثبات ذات الله سبحانه وإثبات صفاته وإثبات أفعاله.

والثانى: إثبات صدق رسول الله ﷺ فيما بلغه عن ربه.

وهذه العقيدة الصحيحة فى هذين الأصلين العظيمين هى صميم الإسلام المنبعث عن الإيمان، وهذا الإيمان له أركان أساسية يقوم عليها ولا يكون إيمانًا إلا بها، وهى:

أ- الإيمان بالله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته وأفعاله.

ب- والإيمان بأن لله ملائكة يأمرهم الله تعالى بتبليغ رسله عنه كل ما يريد أن يبلغهم إياه.

جـ والإيمان بأن لله تعالى كتبًا أنزلها وأوحى بها إلى بعض رسله عليهم السلام.

د- والإيمان بأن الله سبحانه أرسل رسلاً وأن خاتمهم محمد ﷺ.

هـ- والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء.

و- والإيمان بقضاء الله وقدره: خيره وشره.

والإيمان بالله سبحانه يقتضى معرفة ذاته سبحانه، ووجوده، وأصح ما يستدل به على وجود الله سبحانه العقل السليم والشرع الحكيم، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ

اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والعلم بأن الله تعالى قديم ليس له أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحيّ، إذ لو كان حادثًا غير قديم لاحتاج محدثًا لا حتاج محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك الاحتياج إلى مالا نهاية له.

والعلم بأنه تعالى -مع كونه أزليًا ليس له أول- أبدى ليس له آخر؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، ولو كان له آخر أى نهاية وعدم لترتب على ذلك باطل ومحال عقلاً، إذ لو انعدم لكان إما منعدمًا بنفسه أو بمضاد له، ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه وهذا باطل، ولو انعدم بمضاد له، وكان هذا المضاد هو القديم الأزلى، لما تُصوّر الوجود معه فضلاً عن القدم الذى دللنا عليه آنفا، إذ كيف يوجد فى القدم ويوجد معه ضده، ولو كان هذا الضد حادثًا لأدى ذلك إلى المحال، إذ ليس الحادث فى مضادته لـلقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده.

والعلم بأنه تعالى ليس متحيزًا بمكان، لأن التحيز بالمكان من صفة الحوادث والله سبحانه قديم أول كل شيء - كما أوضحنا آنفًا.

والعلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من أجزاء؛ إذ لو كان كذلك لكان متحيزًا بمكان؛ إذ تلك طبيعة الأجسام.

والعلم بأنه تعالى ليس عرضًا قائما بجسم أو حالاً فيه؛ لأن الجسم حادث ومتحيز بمكان، والله سبحانه وتعالى قديم، وليس جسمًا متحيزًا بمكان -كما قدمنا.

والعلم بأنه سبحانه متنزه عن الاختصاص بالجهات، وهذه الجهات كلها: الفوق والأسفل واليمين والشمال والقدام والخلف هى من خلقه سبحانه، إذ خلق الإنسان، فرأس الإنسان فوق، ورجلاه أسفل، ويمينه يمين، وشماله شمال، وكذلك القدام والخلف، فلو ارتبط الله بالجهات أو اختص بها لكان حادثًا كالإنسان.

والعلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه استواءً لا ينافى وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه شيء من صفات الحدوث والفناء.

والعلم بأن الله تعالى مع تنزهه عن الجسم والجهة سوف يراه المؤمنون يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

أما فى الدنيا فلا يستطيع أحد رؤيته لقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

والعلم بأنه سبحانه أحد لا شريك له، فرد لا ندّ له، انفرد بالخلق والإبداع، ولا مثيل له يساويه، ولا ضد له ينازعه، لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

كما أن الإيمان بالله تعالى يقتضى معرفة صفاته سبحانه وتعالى، أى معرفة أنه صانع هذا العالم، وأنه قادر، صنعه أحكم صنعة بدليل عقلى هو هذا التوازن فيه، الذى لو اختل الانهار، وكان الله سبحانه على ذلك قديراً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]

والعلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل شىء علمًا، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والعلم بأنه سبحانه حى؛ لأن الخالق العالم المحيط بكل شىء علمًا لابد أن يكون حيًّا، ولو تُصورّ أنه قادر عالم غير حىّ لادخل ذلك التصور صاحبه فى المحال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والعلم بأنه سبحانه مريد لأفعاله، فكل الموجودات صادرة عن مشيئته وإرادته فهو المبدئ المعيد الفعال لما يريد، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

والعلم بأنه سبحانه سميع بصير لا يعزب عن رؤيته شىء حتى هواجس الضمير وخفايا التفكير، ولا يغيب عن سمعه حتى دبيب النمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

والعلم بأنه سبحانه متكلم بكلام ليس صوتًا ولا حرفًا ولا يشبه كلام غيره، وأن هذا الكلام القائم بنفسه سبحانه قديم، وكذلك جميع صفاته قديمة، وما لم يكن كذلك كان حادثا، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

والعلم بأن علم الله قديم، فلم يزل عالمًا بذاته وصفاته، وما يخلقه من مخلوقات سواءً كان ذلك الخلق فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

والعلم بأنه تعالى له إرادة قديمة قدم ذاته، وأن هذه الإرادة متعلقة بخلق المخلوقات فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق علمه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والعلم بأنه تعالى عالم بِعِلْم وَحَىّ بحياة وقادر بقدرة ومريد بإرادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر، وأن له هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة، وأن قول القائل: عالم بلا علم كقول القائل غنى بلا مال، فالعلم والعالم والمعلوم متلازمة فى العقل لا ينفك بعضها عن بعض.

كما أنَّ الإيمان بالله تعالى يقتضى معرفة أفعاله سبحانه وتعالى، ولا تعرف أفعاله سبحانه إلا بالعلم بأن كل حادث فى العالم هو من فعله وخلقه إذا لا خالق سواه، فكل ما فى العالم من ناس وأشياء هو من خلقه سبحانه، وكل أفعال العباد مخلوقة له ومتعلقة بقدرته، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والعلم بأن الله سبحانه وقد انفرد بخلق أفعال العباد لا يخرج تلك الأفعال عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل إن الله تبارك وتعالى خلق القدرة والمقدور جميعًا، وخلق الاختيار والمختار جميعًا، فالقدرة وصف للعبد وخلق للرب سبحانه وتعالى، وليست بكسب العبد، أما الحركة فخلق للرب ووصف للعبد وكسب له أيضًا.

والعلم بأن فعل العبد وإن كان كسبًا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادًا لله تعالى، إذ لا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا أن يكون ذلك بقضاء الله وقدرته وإرادته ومشيئته، ومنه الخير والشر، والنفع والضر، والإسلام والكفر..

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] وهذا دليل من النقل.

أما الدليل العقلى على ذلك فهو: أن المعاصى إن كان الله تعالى يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة الشيطان لعنه الله، فقد وقع فى ملكه ما لا يريد، أى قد أكره من أحد من خلقه بل من أفسد خلقه وأفسقهم، ولا قائل بذلك من العقلاء، فالله سبحانه يريد أن تقع الشرور والمعاصى ولكنه سبحانه لا يأمر بها.

والعلم بأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختـراع، وليس ذلك واجبًا عليه سبحانه؛ إذ لا يجب عليه شيء؛ لأنه لو وجب عليه شيء لكان الموجب عليه هذا الشيء أقدر وأقوى إرادة منه سبحانه، وهذا من المستحيلات.

والعلم بأن معرفـة الله سبحانه وطاعتـه واجبة بإيجاب الله تعـالى وبشرعه، وليس هذا بواجب من جهة العقل.

والعلم بأن إرساله الرسل جائز من أجل هداية البشر؛ لأن الـعقل وحده ليس كافيًا لأن يهدى للأعمال الصالحة المقبولة فى الآخرة.

والعلم بأن الله سبحانه قـد أرسل محمداً ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسـلين، وناسخًا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئة، وأن الله تعالى أيده بالمعجزات الكثيرة كانشقاق القمر وتسبيـح الحصى وإنطاق العـجمـاء ونبع الماء من بين أصابعـه، والقرآن الكريم المعـجز فى لفظه، المعجز فى معناه، المعجز فيما أخبر به.

كما أن الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان بما أخبر به محمد ﷺ فى كل ما يتصل باليوم الآخر من: حـشر ونشر، وسـؤال منكر ونكير للمـيت فى قبـره، وعذاب القبـر، والميزان والصراط، والجنة والنار، والشفاعة والحوض، وغيـرها، فضلا عن الإيمان والتصديق بكل ما جاء به من منهج ونظام لحياة الناس فى هذه الدنيا.

والإيمان بأن الله تعالى أنزل كـتبًا على بعض أنبيائه عليـهم الصلاة والسلام، ومن هذه الكتب ما ورد ذكره فى القرآن الكريم مثل: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، وأن آخر هذه الكتب وأجمـعها والذى تكفل الله بحفظه من التـحريف بالزيادة أو النقص، والتصحيف هو القرآن الكريم.

والإيمان بقضـاء الله وقدره والرضا به، سواء كـان خيراً أم شراً؛ لأن الإيمـان بالقضاء والقدر هو الذى يُجنِّبُ الإنسـان الوقوع فى السخط والتذمـر والإحباط والكبت والاكـتئاب وغير ذلك من الأمراض التى تدل على ضعف الإيمان بقضاء الله وقدره.

وبعد: فإن هذه العقيدة بهذه المفـردات التى أجملنا القول فيها[1] أساس ركين تقوم عليه الأخلاق، وكل أخلاق لا تحركها بالفعل أو بالترك عقيدة صحيحة فهى أخلاق مضطربة غير جديرة بأن تحقق لـصاحبها سـعادة الدنيا، فضـلا عن سعادة الآخرة، وبالتالى فلـن يتحقق للمجتمع شيء من الاستقرار والأمن.

---

(١) لا يسعنا أن نتوسع فى الحـديث عن العقيدة بأكثر من ذلك بسبب منهج هذا الكتاب، ولأننا أوليناها الاهتمام الجدير فى كتاب لنا هو: «فقه العقيدة الإسلامية» لم يطبع بعد.

ولأجل هذا قامت التربية الخلقية فى الإسلام على العقيدة كما قامت على العلم، وكما ستقوم على غير ذلك من الركائز.

الركيزة الثالثة: العبادة:

العبادة تكون لله وحده دون سواه؛ إذ هى غاية التذلل، ولا يستحق غاية التذلل إلا من له غاية الإفضال وهو الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبادة نوعان:

عبادة بالتسخير: وهى للحيوان والنبات والجماد وكل شىء فى ملكوت الله سبحانه كما هو واضح فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، والسجود فى هذه الآية هو العبادة؛ إذ هو التذلل والخضوع والتطامن وكل ذلك سخرت له هذه الموجودات.

وعبادة بالاختيار: وهى للإنسان وحده من بين مخلوقات الله سبحانه، وبهذه العبادة الاختيارية يستحق الإنسان الثواب، وقد أمر الله الناس بهذه العبادة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ [النساء: ٣٦].

والعبادات فى الإسلام كثيرة، بعضها فرضها الله سبحانه، وبعضها سنها النبى ﷺ، لكنها جميعا تستهدف توثيق صلة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى للإقبال عليه وحبه والرضا بقضائه وقدره.

وسوف نتناول هنا من هذه العبادات الطهارة والشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، وتلاوة القرآن الكريم، والأذكار، والأوراد، فنتحدث عنها فى إيجاز يقتضيه هذا المقام والله المستعان.

من العبادات فى الإسلام: الطهارة:

والطهارة فى الإسلام نوعان: طهارة جسم وطهارة نفس، وقد حمل على هذين المعنيين عامة الآيات القرآنية الكريمة التى ورد فيها لفظ الطهارة فى صيغه المختلفة.

قال الله تعالى: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»، والطهور هنا يعنى طهارة الجسم والنفس أى الظاهر والباطن، فالظاهر يَطْهُر من الأحداث والأخباث والفضلات مع الأخذ بسنن الفطرة[1]، والباطن يقتضى تطهير الجوارح من الآثام والمعاصى، وتطهير القلب من الأخلاق الذميمة والرذائل والعقائد الفاسدة.

ومن العبادات: الشهادتان:

أى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أى النطق بهما، والعمل بمقتضاهما، بل هما أول درجة فى الإيمان والدخول فى الإسلام، فقد شرح ذلك النبى ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام إذ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...»[2] وليست العبرة بمجرد اللفظ ولكن أن يصحب ذلك العمل والتطبيق، بل إن الشهادتين يكونان وحدهما منهج حياة كاملاً.

ومن العبادات: الصلاة:

والصلاة عماد الدين أو عموده، وهى على المؤمنين كتاب موقوت، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال جل ذكره: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟»، قالوا: لا شىء، قال: «فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن».

---

(١) وسنن الفطرة هى:

١- الختان. ٢- وحلق العانة. ٣- ونتف الإبط.
٤- وتقليم الأظافر. ٥- وقص الشارب أو إحفاؤه. ٦- وإعفاء اللحية.
٧- وإكرام الشعر. ٨- وترك الشيب فى الرأس أو فى اللحية للرجل والمرأة.
٩- وتغيير الشيب بالحناء والحمرة والصفرة ١٠- والتطيب بالمسك ونحوه

(٢) رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما «كتاب الإيمان».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشىء من حسناته».

وهذان الحديثان الشريفان فى الصلوات الخمس المكتوبة.

وهناك صلوات النوافل وهى السنن، سواء أكانت راتبة وهى ما شرع تبعًا للفرائض أو كان راتبًا بوقت كصلاة الضحى والتراويح، وقد واظب عليها النبى ﷺ، أم غير راتبة وهى التطوع المطلق ولم يواظب عليها النبى ﷺ.

والنوافل من الصلوات عمومًا كثيرة منها:

النوافل عقب الصلوات المكتوبة أو قبلها.

وصلاة الضحى، والوتر، والتهجد وغيرها.

وصلوات الأيام والليالى فى الأسبوع.

وصلوات السنين كالعيدين والتراويح.

وصلوات الكسوف والخسوف والحاجة.

وصلوات الاستسقاء.

وتحية المسجد، وركعتا الوضوء، وركعتا ما بين الأذان والإقامة، وهناك نوافل أخرى يتطوع بها العبد لربه غير ذلك كله.

ومن العبادات: الزكاة:

وهى أحد أركان الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

قال العلماء: إن معنى الإنفاق فى سبيل الله فى هذه الآية هو إخراج الزكاة.

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى ذر رضى الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة، لما رآنى قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة»، فقلت: ومن هم؟ قال: «الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا - من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن

شماله - وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس».

ومن الزكاة: زكاة الفطر، وهى واجبة على كل مسلم له فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته، صاع مما يقتات، يخرجه من جنس قوته.

والزكاة بنوعيها: زكاة المال وزكاة الفطر، تطهير للنفس من داء الشح، وإيثار لما عند الله يوم القيامة من جزيل الثواب لمن آمن به والتزم بشريعته.

وللزكاة آداب، منها:

التعجيل بوقتها، والإسرار بها؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٧١]، وله أن يظهرها إن كان فى إظهارها ترغيب للناس فى الاقتداء، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا...﴾ [البقرة: ٢٧١]، وألا يمن بها على أحد؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وأن يستصغرها؛ لأنه لو استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات، ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله، وأن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله.

وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: استصغاره وتعجيله وستره.

ومن أدب الزكاة: أن ينتقى لها من ماله أجوده وأحبه إلى نفسه، وأن يتجه بها إلى الأتقياء المعرضين عن الدنيا الذين لا يسألون.

وارتباط الزكاة بالأخلاق واضح لا يحتاج إلى تفسير فضلاً عن تعليل؛ فإن من يجود بماله اتباعًا لأمر الله ويدفع بهذا المال حاجة المحتاج إنما هو صاحب خلق رضى، وأجدر أن يكون موضع رضا الله سبحانه.

ومن العبادات: الصوم:

وقد فرضه الله على المسلمين كما فرضه على المؤمنين من قبلهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...﴾ [البقرة: ١٨٣]

والصوم ربع الإيمان كله، فقد روى الترمذى بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «... والصوم نصف الصبر»[1].

وروى أبو نعيم فى الحلية بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «... الصبر نصف الإيمان» والحديثان معًا يؤكدان أن الصوم ربع الإيمان.

وقد قال الأسلاف من العلماء رضوان الله عليهم: الصوم درجات ثلاث:

١- صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

٢- وصوم الخصوص: وهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

٣- وصوم خصوص الخصوص: وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله عز وجل.

وصوم الفريضة هو صوم شهر رمضان.

وصوم النافلة هو صوم يوم وإفطار آخر، أو صوم يوم وإفطار يومين، أو صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صوم ثلاثة أيام من كل شهر ليكون موافقًا لسنة النبى ﷺ.

وصلة الصوم بالأخلاق صلة وثيقة لا تخفى على أحد، فالصوم انضباط وكف للبطن والفرج عن شهواتهما، كما أنه انضباط للجوارح وكف لها عن الآثام، والأخلاق فى تفسيرها الصحيح ليست إلا انضباطًا فى السلوك وضبطًا وتهذيبًا للشهوات.

ومن العبادات: الحج:

والحج أحد أركان الإسلام، وهو عبادة العمر، وتمام الإسلام، وكمال الدين، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

---
(١) الترمذى: صحيحه باب الدعاء.

وللحج آداب كثيرة بعد استيفاء شروطه وأركانه.

ومن أهم أعمال الحج الظاهرة أن يَبْدأ من نوى الحج بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى حين رجوعه من حجه، ورد الودائع واستصحاب المال الطيب الذى يكفيه فى رحلته دون تقتير، بل عليه أن يتوسع حتى يواسى الفقراء، وعليه أن يلتمس الرفيق فى الحج، وأن يصلى ركعتين إذا همّ بالخروج إلى الحج.

ولكل ركن من أركان الحج آدابه، والأسوة فى الحج شروطه وأركانه وآدابه هو ما كان من النبى ﷺ فى حجة الوداع، ولذلك تفصيلات جيدة تلتمس فى كتب الفقه.

والعمرة حج أصغر، ولها شروطها وأركانها وآدابها، ولكنها تختلف عن الحج فى أمور كثيرة، من أهمها: أن الحج موقوت بأشهر الحج ولكن العمرة جائزة فى أى وقت من أوقات العام، وتفصيل ما للعمرة من شروط وآداب مبسوط فى كتب الفقه كذلك.

وصلة الحج والعمرة بالأخلاق صلة واضحة، فالحاجّ يقصد بيت الله، ويؤدى المناسك، ويرد المظالم، ويقضى الديون، رجل يقدم للمجتمع الذى يعيش فيه خدمات جليلة، فإذا أتم الحج بهذه النية وبهذه الآداب عاد بريئًا من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فباعد بذلك بين نفسه وبين الآثام والمعاصى، وهذا تطهير للمجتمع من الإثم والمعصية، وحسبنا بذلك من عمل أخلاقى جليل.

ومن العبادة: تلاوة القرآن:

قال الله تبارك وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

قال الأسلاف من العلماء فى هذه الآية: ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه.

روى الطبرانى بسنده الكبير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله».

وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين».

ولتلاوة القرآن الكريم آداب كثيرة نذكر منها ما يلى:

- أن يكون القارئ على وضوء، وقورًا، مستقبل القبلة.

- وأن يختم القرآن كله فى مدة أقصاها شهر وأقلها ثلاثة أيام.

والتوسط أولى وهو ختمه فى أسبوع على سبعة أحزاب؛ كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم.

- وأن يرتله ترتيلاً، وأن يبكى وهو يقرأ.

- وأن يراعى حق الآيات كسجدة التلاوة.

- وأن يستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فى ابتداء تلاوته.

- وأن يجهر بالقراءة بحيث يسمع نفسه.

- وأن يحسن القراءة ما وسعه.

ومن المعروف عند المسلمين أن قارئ القرآن فى مأدبة الله سبحانه وتعالى، وأن ما فى القرآن الكريم من الحث على فضائل الأخلاق والنهى عن مساوئها ما يجعل قارئ القرآن لو استجاب -لهذا وذاك- على أحسن مستوى أخلاقى، ويجعله أرضى ما يكون لله تعالى.

ومن العبادة: الأذكار والدعاء:

وكلاهما ذكر لله تبارك وتعالى، وقد أجمعت الأمة الإسلامية على أنه ليس بعد تلاوة القرآن الكريم عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى، ورفع الحاجات إليه بالأدعية الخالصة له سبحانه. قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وفى الدعاء جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد ورد فى الذكر أحاديث نبوية كثيرة منها ما يلى:

ما رواه الطبرانى بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل»، قالوا: يا رسول الله، ولا

الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع».

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا مشي إليّ هرولت إليه». يعنى بالهرولة سرعة الإجابة.

والأذكار كثيرة منها:

التهليل: أى قول: لا إله إلا الله.

فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، كل يوم مائة مرة كانت عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك».

ومنها التسبيح: أى قول: سبحان الله.

فقد روى الشخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة، حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

وروى مسلم بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت».

وروى مسلم بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟»، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف سيئة».

ومن الأذكار: التحميد: أى قول: الحمد لله.

فقد روى مسلم بسنده عن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال الفقراء لرسول الله ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وتحميدة وتهليلة صدقة، وتكبيرة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة، ويضع أحدكم اللقمة فى فى أهله فهى له صدقة، وفى بُضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال ﷺ: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟»، قالوا: نعم، قال: «كذلك إن وضعها فى الحلال كان له فيها أجر».

وأما الدعاء: فقد وردت فيه أحاديث نبوية شريفة كثيرة نذكر منها ما يلى:

روى أصحاب السنن بأسانيدهم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ليس شىء أكرم على الله عز وجل من الدعاء».

وروى البخارى فى الأدب المفرد بسنده عن أبى هريرة، رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث:

إما أن تُعجَّل له دعوته.

وإما أن يُدَّخَر له فى الآخرة.

وإما أن يُدْفع عنه من السوء بمثلها».

وللدعاء آداب كثيرة، نذكر منها ما يلى:

- أن يتخير لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة وشهر رمضان، ويوم الجمعة، ووقت السحر من ساعات الليل.

- وأن يغتنم لدعائه الأحوال الشريفة، لما روى أن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة المكتوبة، وقد روى الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد».

- ومن أدب الدعاء أن يدعو وهو مستقبل القبلة، يرفع يديه بحيث يرى بياض إبطه.

- وأن يخفض صوته بين المخافتة والجهر.

- وألا يتكلف السجع والدعاء، مع التضرع والخشوع والرغبة والرهبة.

- وأن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة.

- وأن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثًا.

- وأن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل.

- ولا يبدأ بالسؤال.

- وأن يكون تائبًا، مقبلاً على الله، رادًا للمظالم.

ومن الدعاء: الصلاة والتسليم على النبى ﷺ.

ومن الدعاء: الاستغفار.

ومنه: كل دعاء مأثور عن النبى ﷺ.

ومنه: كل دعاء مأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم.

ومن العبادة: الأوراد:

والأوراد جمع ورد، والورد له معان عديدة، نذكر منها:

أ- النصيب من القرآن الكريم أو الذكر.

ب- والجزء من الليل يكون على الرجل أن يصليه.

جـ-والوظيفة من قراءة ونحوها.

وقد ورد فى الأوراد أحاديث نبوية كثيرة، نذكر منها ما يلى:

روى الطبرانى فى الكبير بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله تعالى».

وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

والأوراد المأثورة نوعان:

الأول: أوراد النهار، وهي سبعة:

١- ما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس.

٢- وما بين طلوع الشمس إلى الزوال.

٣- وكسابقه ما بين طلوع الشمس إلى الزوال.

٤- وما بين الزوال إلى وقت العصر.

٥- وكسابقه ما بين الزوال إلى وقت العصر.

٦- وما بين العصر إلى المغرب.

٧- وكسابقه ما بين العصر إلى المغرب.

والثاني: أوراد الليل، وهي خمسة:

١- من المغرب إلى وقت نوم الناس.

٢- وكسابقه من المغرب إلى وقت نوم الناس.

٣- ومن النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

٤- وكسابقه من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

٥- وكسابقه من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

ولكل ورد من هذه الأوردة النهارية والليلية فضيلته، ووظيفته كما تحدثت بذلك أحاديث نبوية كثيرة، نلتمس نصوص هذه الأحاديث الشريفة في كتب الأذكار والأوراد وهي كثيرة[1].

وبعد: فهذه العبادات كلها تصل المؤمن بربه وتعمر بالإيمان قلبه، وتمسك عن الشر جوارحه، وتعينه على أن يفعل الخير وأن ينفع الناس، وتلك في جملتها وتفصيلها هي الأخلاق، والعبادة ركيزة من ركائزها، وتلك هي تربية الإسلام للأخلاق.

هذه التربية الأخلاقية للناشئين والكبار على السواء، تتم هنا عن طريق العبادات من طهارة وشهادتين وصلاة وزكاة وصوم وحج وذكر وأوراد في النهار وأخرى في الليل، وكل

(١) من أحسن هذه الكتب كتاب: «حلية الأوراد وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار» للإمام النووي المتوفى ٦٧٦هـ وقد طبع الكتاب مراراً.

ذلك يهيئ للمتربى من خلال هذه العبادات جواً نقيًا خاليًا من الإثم والمعصية والهوى، ويرسم له طريقًا واضحة المعالم للحق والخير والهدى.

وهكذا تتكاتف ركائز العلم مع العقيدة مع العبادة فى بناء أخلاق الفرد المسلم ناشئًا وكبيرًا، وإلى أن يلقى الله تبارك وتعالى.

ولست أبالغ فى شىء، إن قلت: إن استقامة الأخلاق على الصراط المستقيم، صراط الله الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، هى التى تضمن للمجتمع استقرارًا وأمنًا ورفاهية ورضا لله سبحانه وتعالى.

ولقد ذاق المجتمع الإسلامى عبر قرون ليست بالقليلة حلاوة التمسك بأخلاق الإسلام، وأفاض من ذلك على من حوله من المجتمعات التى لم تكن تدين بدين الإسلام.

ولا تكتمل الصورة للأخلاق الإسلامية إلا بباقى الركائز التى أشرنا إليها آنفًا، والتى نتحدث عنها واحدة واحدة الآن.

الركيزة الرابعة: الحلال والحرام:

الحلال: هو الأمر أو الشىء الذى أباحه الله أو أباح فعله، وأصله من: حَلَّ العقدة أى فكها، واستعير من ذلك قولهم: حلَّ الشىء أى صار حلاً أو حلالاً، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨].

الحرام: هو الشىء الذى منع الشرع من فعله، وأصله من: حَرُم الشىء أى امتنع هو أو امتنع فعله، والحرام ما لا يحل انتهاكه من ذمة أو حق أو صحبة أو نحو ذلك.

وللعلماء فى تعريف الحرام تنويع، فقد قالوا:

الحرام: الممنوع منه بتسخير إلهى، كقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢].

- أو الممنوع بمنع قهرى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

- أو الممنوع بمنع من جهة العقل؛ لأن فى فعله ما يضر أو يزرى بكرامة الإنسان.

- أو الممنوع بمنع من جهة الشرع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ....﴾ [الأعراف: ٣٣].

وتربية الأخلاق فى الإسلام عن طريق معرفة الحلال وممارسته ومعرفة الحرام والامتناع عنه أو عن فعله، مع تأكيد فضيلة الحلال ورذيلة الحرام، إن ذلك ليؤكد أن القيم الأخلاقية فى الإسلام لا تدع مجالاً من مجالات الحياة الإنسانية فعلاً أو تركًا إلا أثبتت أن لها وجودًا من خلاله.

إن تربية الأخلاق عن طريق ممارسة الحلال واجتناب الحرام، لهى إسهام جيد فى تطهير النفس والمجتمع من كل ما يعود عليها بالضرر أو الشر، غير أن ذلك متوقف على معرفة الحلال والحرام، ولذلك كانت هذه المعرفة مطلبًا شرعيًا لا مناص منه.

روى ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»** قال بعض العلماء: أراد به طلب علم الحلال والحرام.

وفى رواية عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«طلب الحلال فريضة على كل مسلم»**.

وقد اعتبر عدد من العلماء أن المراد بالحديثين واحد.

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون: ٥١] وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر: **«الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنَّى يستجاب له»**.

والتماس معرفة الحلال والحرام على وجه التفصيل إنما يلتمس فى كتب الفقه، غير أننا هنا نشير إلى مجمل فى هذا المجال، نراه ضروريًا ولابد منه فى هذا السياق.

فالحرام: هو ما كان حرامًا لصفة فى عينه كالخمر والخنزير وأمثالهما، فهذه يحرم أكلها وشربها لذاتها أولاً، ولما تحدثه من ضرر فى آكلها أو شاربها بعد ذلك، والأصل فى المأكولات والمشروبات أنها أنواع ثلاثة:

الأول: ماكان من معادن الأرض كالملح والطين ونحوها، وهذه لا يحرم منها إلا ما كان ضارًا بالآكل.

والثانى: ما كان من نبات الأرض، ولا يحرم منه إلا ما يزيل العقل كالبنج والمسكرات، وما يزيل الحياة كالسم، وكذلك ما يؤدى إلى ضعف الصحة من هذه النباتات المحرمة.

والثالث: ما كان حيوانًا وهو نوعان:

أ- ما يؤكل وهو ما يحل ذبحه أو ما يخرج من البحر.

ب- وما لا يؤكل وهو السباع وأمثالها من آكلة اللحم وكل ذى مخلب وناب.

ومن الحرام ما كان حرامًا لأن آكله أو شاربه لم يكسبه من حلال كالمسروق والمغضوب وأمثالهما.

وهذا الحرام درجات وإن كان كله خبيثًا؛ إذ أن بعضه أخبث من بعض، كما أن الحلال درجات وإن كان طيبًا؛ لأنه بعضه أطيب من بعض.

والتزم المسلم بممارسة الحلال أو ترك بعضه أو ترك بعضه خشية الوقوع فى الحرام -أى الورع- والتزامه باجتناب الحرام، هو التربية الصحيحة لأخلاقه.

وليس بمقبول من مسلم أن يحرم على نفسه ما أحل الله له من الطيبات والزينة فضلاً عن أن يحرم ذلك على غيره من الناس؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

فليس لأحد أن يحرم على نفسه أو على الناس شيئًا مما أحل الله لهم من الطيبات والزينة؛ لأن الله وحده هو الذى يحرم.

ولقد حرم الله تعالى على الناس كل ما فيه ضرر بهم على أى حال، سواء أكان هذا الضرر أخلاقيًا أم أعم من أن يكون أخلاقيًا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وبعد: فتلك أصول عامة فى الحلال والحرام أجملناها فى هذه الوجازة، تاركين تفصيلها لمن أراد هذا التفصيل فى كتب الفقه الإسلامى عمومًا وفى أبواب الأطعمة والأشربة والحظر والإباحة من هذه الكتب على وجه الخصوص.

وهدفنا هنا أن نركز على تأكيد حقيقة عظمى، هى أن الإسلام يربى الأخلاق من خلال الالتزام بممارسة ما أحل الله، واجتناب ما حرّم سبحانه مع الأخذ بعين الاعتبار مقولة أسلافنا من العلماء: «إن العبرة فى الحرام هو ما حرمه الله، أما ما حرمه الناس فليس بشىء»[1].

ونعتبر فقه الحلال والحرام والعمل بما يجب فيهما، هو ركيزة هامة من الركائز التى يقيم عليها الإسلام التربية الأخلاقية للمسلمين، ناشئين وكبارًا.

الركيزة الخامسة: اتخاذ النبى ﷺ قدوة:

وهذه الركيزة هامة وعملية ومن الركائز التى تقوم عليها الأخلاق فى شريعة الإسلام؛ لأن الناس إذا اتخذوا النبى ﷺ قدوة عصموا أنفسهم من الوقوع فيما يغضب الله سبحانه، وأصبحوا بهذه القدوة أقرب ما يكونون إلى رضاه سبحانه وتعالى.

وقد كانت أخلاق رسول الله ﷺ -التى يجب أن يقتدى بها المسلمون- خير أخلاق وأعظم أخلاق، ويحسبها فى هذا الشرف قول الله تبارك وتعالى فى وصف أخلاق رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ولقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها خلق النبى ﷺ بأنه كان القرآن الكريم، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن هشام بن عامر قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين، ما كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، ثم قالت: أتقرأون سورة المؤمنين؟ قلنا: نعم. قالت: اقرأ، فقرأت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ .... ﴾ فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

---

(١) الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين: باب الحلال والحرام.

ولقد تضمن القرآن الكريم كل خلق فاضل، وكثرت فيه الآيات الكريمة التى عددت وفصّلت مكارم الأخلاق، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وكقوله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٩]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]

وكقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

تلك كانت عظمة أخلاق النبى ﷺ، ولا عجب فى ذلك، فقد أدبه ربه سبحانه فأحسن تأديبه، واصطفاه وعلمه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيمًا، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ ما رواه أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يدعو: «اللهم كما أحسنت خَلْقى فأحْسن خُلُقى».

وروى الترمذى بسنده عن قطبة بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق».

ولقد أخبر الله تبارك وتعالى المسلمين بأن يتخذوا من النبى ﷺ وأخلاقه قدوة، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه الآية -كما قال المفسرون- أصل كبير وعظيم فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله.

روى أبو الشيخ الأصبهانى[1] فى كتابه «أخلاق النبى» بسنده: (عن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما قال: سألت أبى عن دخول النبى ﷺ، قال:

---

(١) أبو الشيخ الأصبهانى المتوفى عام ٣٦٩هـ، ص(٢٢)، ط مكتبة النهضة، القاهرة عام ١٩٧٢م.

كان دخوله لنفسه مـأذونًا له فى ذلك، وكان إذا أتى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله وجـزء لأهله وجزء لنفسه، ثم يجـعل جزاه بين الناس، فَيَرُدّ ذلك على العـامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئًا.

فكان من سيـرته فى جزء الأمة إيثـار أهل الفضل بإذنه وقسـمته على قـدر فضلهم فى الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسـألته عنهم وإخبارهم بالذى ينبغى لهم، ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغـونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حـاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبّت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره».

- قلت: فأخبرنى عن مخرجه كيف كان يَصنع فيه؟

- قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليـه عليهم، ويحذر الناس ويحـترس عنهم من غير أن يطوى عن أحـد بِشْرَه وخلقه، ويتفـقد أصحابه ويسأل عـما فى الناس، ويحسّن الحسن ويصوبه، ويقـبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمـر غير مختلف، لا يغفل مخافـة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عـتاد، لا يقـصـر عن الحق، ولا يجـاوزه إلى غيـره، الذين يلونه من الـناس خيـارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

- وسألته عن مجلسه؟

- فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله عز وجل، ولا يوطن الأماكن، وينهـى عن إيطانها، وإذا جلس إلى قـوم جلس حيث ينتهى بـه المجلس ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه بنصيبه، ولا يحـسب أحد من جلسائه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه[1] لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها أو بميـسور من القول، قـد وسعَ الناسَ منه خُلُقُه فصـار لهم أبًا، وصاروا عنده فى الحق سواء.

مجلسه مـجلس حلم، وحياء وصدق، وأمانة، لا ترفع فـيه الأصوات ولا تؤبن[2] فيه الحرم، ولا تنثى[3] -أى تشاع- فلتاته، معتدلين يتواصلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

---

(١) أي طلب منه أن يقوم لحاجته. (٢) لا تؤبن فيه الحرم: أى لا تذكر فيه بقبيح.
(٣) لا تنثى فلتاته: أى ليس لمجلسه فلتات فتشاع عنه.

- قلت: كيف كانت سيرته فى جلسائه؟

- قال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا فاحش ولا عيّاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى، ولا يُؤيَس منه راجيه[1] ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيّره ولا يطلب عوراته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه، ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم[2] فيقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكاف[3]، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[4] فيقطعه بنهى أو قيام.

- فسألت: كيف كان سكوت رسول الله ﷺ؟

- قال: كان سكوت رسول الله ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير.

فأما تقديره ففى تسوية النظر، والاستماع من الناس.

وأما تفكيره ففيما يبقى ولا يفنى، وجمع له الحلم فى الصبر فكان لا يغضبه شىء ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لِيُنتهى عنه، واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته، والقيام فيما هو خير لهم، جمع لهم خير الدنيا والآخرة[5].

هذه أخلاق النبى ﷺ التى يجب أن يقتدى بها المسلمون، كما تحدث عنها ابن عمه ومن تربى فى حجره، ومن كان أول من أسلم من الصبيان على بن أبى طالب رضى الله عنه.

---

(١) يؤيس منه: أى أن الأمر الذى لا يشتهيه يتغافل عنه ولا يؤيس منه غيره.

(٢) يستجلبونهم: أى يطلبون مجىء الغرباء إلى مجلسه ليستفيدوا من أسئلتهم.

(٣) مكاف: أى مكافئ، بمعنى أنه لا يقبل الثناء من شخص ابتداء.

(٤) حتى يجوز: أى حتى يجوز حديثه إلى غيره ليجعل المستمع فى حل من الانصراف.

(٥) الأصبهانى: أخلاق النبى ﷺ، ص (٢٢-٢٦).

وكل مسلم مطالب بأن يتخذ النبى ﷺ أسوة فى كل تلك الأخلاق؛ لأن القدوة أسلوب فى تربية الخلق لا يعدله أسلوب وبخاصة إذا كانت القدوة بالمعصوم ﷺ.

وأخلاق النبى ﷺ أوضح ما تكون فى كتب السنة والسيرة النبوية المطهرة[1].

وهكذا يقيم الإسلام التربية الأخلاقية على ركيزة راسخة، هى الاقتداء بمحمد ﷺ.

الركيزة السادسة: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

إذا كانت الأخلاق صفة لصاحبها، وكان صاحبها يجنى منها أطيب الثمر كلما التزم بفاضلها واجتنب رذيلها، فإن الإسلام وهو يربى خلق المسلم لا يكتفى بهذا وإنما يوجب على المسلم أن يكون ذا أخلاق إيجابية فاعلة فى المجتمع، بحيث لا يكتفى بأن يكون هو ذا خلق فاضل فى نفسه بل لابد أن يدعو غيره إلى هذا الخلق الفاضل، وأن ينهى سواه عن مقارفة أى خلق رذيل؛ لأن ذلك يتمم الأخلاق الاجتماعية، ويجعل المجتمع كله يجنى أطيب الثمر من التزامه بفاضل الأخلاق واجتنابه رذيلها، وهذا هو صميم فلسفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

إن تربية الأخلاق فى الإسلام تتخذ من وجوب ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركيزة راسخة تقوم عليها ، ولا تستغنى عنها بحال، إن الفرد المسلم لكى يكون خلقه إسلاميًا، عليه أن يأمر بكل معروف كل أحد، وأن ينهى عن كل منكر كل أحد.

والمجتمع المسلم عندما يمارس كل أحد فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذه الحدود التى بيّنا، فإن الأخلاق الفاضلة والخير والبر سوف يسود المجتمع كله، وبالتالى فإن أنواع المنكر والشر والفساد سوف تنحسر وتنكمش فلا تجد لها ممارسًا إلا قلة ضئيلة ممن ساءت نظرتهم وعموا وصموا، وهؤلاء سوف تقوم أحكام الشريعة لهم بالمرصاد حتى تنحسم مادة المنكر والشر والفساد، وفى الحدود والتعزيرات كفاء ووفاء بحسم هذا كله، ولذلك شرعها الله سبحانه.

---

(١) فى موضوع أخلاق النبى ﷺ مؤلفات كثيرة من أشهرها:

أ- كتاب الشمائل النبوية لأبى عيسى الترمذى صاحب الصحيح، وله شروح عديدة وعليه تعليقات كثيرة، توفى الترمذى فى ٢٧٩هـ.

ب- وأخلاق النبى ﷺ للأصبهانى وهو الذى نقلنا عنه.

جـ وكتاب: شمائل النبى ﷺ لأبى العباس المستغفرى ت ٤٣٢هـ.

د- وكتاب: الشفا فى تعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ت ٥٤٤هـ.

هـ- وكتاب: الشمائل بالنور الساطع الكامل لأبى الحسن المقرى ت ٥٥٢هـ.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - كما قال أسلافنا رضوان الله عليهم من العلماء - هو: (القطب الأعظم فى الدين، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعَمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد)[1].

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قيمة أخلاقية رفيعة أوجبها الإسلام على كل مسلم ومسلمة، بل جعل الله تبارك وتعالى الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لما ناطها وكلفها به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد كان لنا حديث موسع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كتاب «فقه الدعوة إلى الله»[2] نحيل عليه من أراد التوسع، ونكتفى هنا بالحديث عما يناسب تربية الأخلاق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فنقول والله المستعان:

إن ارتباط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بتربية الأخلاق، يستدعينا أن نتحدث بإيجاز عن الأمور التالية:

أولاً: توضيح مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثانيًا: تكليف الله سبحانه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثالثًا: شروط وآداب في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

أولاً: توضيح مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

والمنكر: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع قبحه وينكر من جهتيهما.

ومن المسلَّم به بين علماء الإسلام فى مختلف العصور أن جماع الدين ولبابه هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن كل نبى من أنبياء الله سبحانه إنما أرسله الله ليأمر وينهى مبلغًا عن ربه للناس كل ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم.

---

(١) الإمام الغزالى أبو حامد: إحياء علوم الدين: ٢/٢٦٩، ط الحلبى القاهرة.

(٢) للمؤلف: «فقه الدعوة إلى الله» ج١ ص١٣٣، نشر دار الوفاء، ط ثانية ١٩٩٠م.

ولأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلابد أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الدين الذى جاء به على أوسع مدى وأشمل مدلول، وكذلك قد كان، فما ترك رسول الله ﷺ من خير إلا أمر به ولا ترك من شر إلا نهى عنه، وجميع الأوامر التى تضمنها منهج الإسلام هى أوامر بالمعروف، كما أن جميع النواهى التى تضمنها المنهج هى نواهٍ عن المنكرات والشرور، بل إن كل فرد أو جماعة أو مؤسسة أو ولاية أو حكومة فى الإسلام إنما عملها الرئيس هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعند التحقيق والتدقيق نجد أن رسالة الله سبحانه إلى الناس فى آخر كتبه وأتمها وأكملها وأبعدها عن الضياع والتحريف -وهى القرآن الكريم- فى جوهرها هى أمر بمعروف أو نهى عن منكر، وذلك أن ما جاء فى القرآن الكريم -كما قال علماء الإسلام رضوان الله عليهم-:

إما إخبار.

وإما إنشاء.

فالإخبار: قد يكون عن نفسه سبحانه أو عن صفاته أو أفعاله أو خَلْقِه الخَلْق وذلك هو التوحيد.

وقد يكون الإخبار عن قصص الأنبياء أو قصص الأولين، وهذا القصص يتضمن تعليمًا ووعدًا ووعيدًا، ودعوة إلى الاتعاظ والتدبر.

وكل ذلك دعوة إلى الخير وأمر به.

والإنشاء: قد يكون أمرًا أو نهيًا أو إباحة، وذلك صريح فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعلى وجه الإجمال نستطيع القول بأن القرآن الكريم هو «توحيد» و«قصص» و«أمر ونهى» ومن هذه القسمة الثلاثية نفهم الحديث النبوى الشريف الذى رواه مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن**» أى لتضمنها التوحيد وهو ثلث ما جاء فى القرآن الكريم.

وقد أمر الله سبحانه -على لسان خاتم رسله محمد ﷺ- بكل معروف ونهى عن كل منكر، وأحل كل طيب وحرم كل خبيث، قال الله تعالى فى وصف خاتم أنبيائه محمد

ﷺ وتحديد وظائفه وعمله فى الناس: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ولهذا قال رسول الله ﷺ يوضح هذه الوظيفة ويؤكد أنها أخلاقية بالدرجة الأولى، فيما رواه البخارى بسنده: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[(١)].

والأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها أمرت بكل معروف كل أحد، ونهت عن كل منكر كل أحد، ومارست ذلك بالجهاد فى سبيل الله بالوقت والجهد والمال والنفس، وهذا هو كمال النفع وكمال الأخلاق، وسائر الأمم التى سبقت الأمة الإسلامية فى الزمان لم يأمروا بكل معروف كل أحد، ولم ينهوا عن كل منكر كل أحد، وإنما كانوا يأمرون وينهون فى أقوامهم وأوطانهم فحسب، أما الأمة الإسلامية فقد تخطت فى أمرها ونهيها حدود المكان والزمان.

وكما وصف الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى الآية الكريمة السابقة، فإنه كذلك وصف أمته فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فبيَّن سبحانه أن الأمة الإسلامية خير الأمم للناس، وأنفعها لهم، وأعظمها إحسانًا إليهم؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كل أحد، فأكملت هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من جهة الصفّة ومن جهة القدر.

ثانيًا: تكليف الله سبحانه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

كلف الله الأمة الإسلامية بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب ففى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) الإمام البخارى: الأدب المفرد.

وهذه الآية الكريمة تؤكد معانى على جانب كبير من الأهمية هى:

* أن الأمة الإسلامية قد علم الله -فى سابق علمه- أنها أمة الإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأخرجها للناس لتمارس فيهم هذا الخير الوفير.

* وأن هذه الأمة لم يخرجها الله سبحانه لذلك ولم يخترها له لامتياز عِرق أو سكنى إقليم أو لون بشرة، وإنما لأنها أمة الإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* وأن هذه الأمة تتجه بدعوتها إلى الله أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نحو البشرية كلها مشركها وكافرها وعاصيها بعد إيمان؛ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يتجه إلى كل الناس.

وقال عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذه الآية الكريمة تؤكد أمورًا يجب أن نوضحها على النحو التالى:

* تؤكد عموم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ إذ ورد فى الآية دون قيد زمانى أو مكانى.

* وتؤكد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على النساء كما هو واجب على الرجال؛ إذ المرأة تمارس ذلك فى مجالها[١].

* وتؤكد أن المؤمنين والمؤمنات الممارسين للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يعينهم على ذلك أن يوالى ويناصر بعضهم بعضًا فى سبيل ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذه الموالاة تعنى التناصح والتعاون والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

وأما الدليل من السنة النبوية على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو أحاديث نبوية كثيرة، نذكر منها ما يلى:

ما رواه الإمام أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمانعه ذلك أن يكون**

(١) للمؤلف: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» ص١٨٨، نشر دار الوفاء ١٩٩٠م.

أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قرأ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨- ٨١]، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[1].

وما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة»[2].

وما رواه مسلم فى صحيحه بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[3].

وأما دليل الإجماع فهو أن الأمة الإسلامية من لدن عصر الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم إلى يوم الناس هذا، مجمعة على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم ومسلمة، ومادام قادرًا عليه.

ثالثًا: شروط وآداب فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر:

نذكر من هذه الشروط والآداب ما يلى:

أ- شروط وآداب فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر وأهمها ما يلى:

١- أن يكون مسلمًا مكلفًا -أى غير كافر ولا مجنون ولا صبى.

٢- وأن يكون قادرًا على ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٣- وأن يكون من أهل العدالة -وهذا شرط عند بعض الفقهاء- ولكن جمهور الفقهاء لا يشترطون ذلك.

---

(١) ورواه الترمذى بألفاظ مختلفة عن هذه الرواية لأبى داود ولكن المضمون واحد، ورواه أبو داود فى باب الملاحم، والترمذى فى تفسير سورة المائدة.

(٢) الإمام أحمد: مسنده (٤/ ١٩٣).

(٣) الإمام مسلم: صحيحه: باب الإيمان.

وفى عدم اشتراط العدالة فى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر كلمة لسعيد بن جبير رضى الله عنه يقول فيها: (إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شىء - أى من أهل العدالة - لم يأمر أحد بشىء) فأعجب ذلك مالكًا رحمه الله.

ب - وشروط فى المأمور به والمنهى عنه أهمها:

١- أن يكون المنكر محظورًا الوقوع فيه من جهة الشرع.

٢- وأن يكون موجودًا فى الحال، فليس له أن ينهى عن منكر وقع فعلاً أو منكر لم يقع بعد؛ لأن النهى عن منكر وقع غير منطقى، والنهى عن منكر لم يقع فيه إساءة الظن بالمسلم وهذا منهى عنه.

٣- وأن يكون المنكر ظاهرًا من غير تجسس؛ لأن التجسس منهى عنه شرعًا.

٤- وأن يكون المنكر معلومًا أنه منكر بغير اجتهاد، أما ما كان إنكاره عن طريق الاجتهاد فلا نهى فيه.

وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب خمسة ذكرها العلماء هى:

المرتبة الأولى: التعريف بالمعروف حتى يمارسه الناس، والتعريف بالمنكر حتى يجتنبه الناس.

والمرتبة الثانية: الوعظ بالكلام اللين اللطيف، والتذكير بوعيد الله سبحانه لمن يمارس منكرًا.

والمرتبة الثالثة: التعنيف بالقول الغليظ الخشن عند عدم فائدة الوعظ اللين والكلام اللطيف.

والمرتبة الرابعة: التغيير باليد بحيث لا يؤدى إلى منكر أشد مما كان ينهى عنه.

والمرتبة الخامسة: الضرب والعقاب حتى يمتنع، بشرط ألا يحدث هذا فتنة بين المسلمين[1].

وهكذا يتضح لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم الركائز التى تقوم عليها تربية الأخلاق فى الإسلام.

---

(١) للتوسع فى ذلك: انظر للمؤلف: «فقه الدعوة إلى الله» الفصل الرابع من الباب الأول: ١/١٣٣ وما بعدها، ط ثانية ١٩٩٠م، دار الوفاء.

الركيزة السابعة: الجهاد في سبيل الله:

لا يُربى خلق الإنسان على النحو الذى يحقق مصالح الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة شىء مثل ما يربيه تعريفه بالجهاد فى سبيل الله وتشجيعه عليه، بل إلزامه به فى بعض الأحيان.

وإذا كان الجهاد هو بذل الجهد والوسع والطاقة فى القتال فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، فلابد معه من تضحية بالوقت والجهد والمال بل بالنفس، إذ لا جهاد بغير تضحية.

والإنسان الذى يربى على التضحية والجهاد من أجل العقيدة والمبدأ، ومن أجل الحق والخير والهدى، ومن أجل ما يصلح فى دينهم ودنياهم، وما يدفع عنهم الشر والأذى، الإنسان الذى يربى على ذلك الخلق هو الإنسان الإيجابى الفاعل المؤثر فى المجتمع الذى يعيش فيه.

والجهاد فى سبيل الإسلام هو ذروة السنام، وهو أشرف الأعمال وأجلها وأدلها على حسن إسلام المسلم، وهو فرض فرضه الله على كل مسلم قادر عليه.

وقد جعل الله أجره أجزل الأجور وأعظمها، وعلى قدر ما وعد الله المجاهدين بأحسن الجزاء كان وعيده للقاعدين والمتخلفين عن هذا العمل العظيم.

ويكاد الإسلام يكون متفرداً بين الأديان فى فرض الجهاد على الناس بهذا الحشد الهائل من النصوص الدينية من الكتاب والسنة، وتفرد الإسلام وحده من بين الأديان بأن وضع للجهاد آدابًا لم يسبق إليها فى دين ولا نظام، ولا لحقه فيها دين أو نظام.

إن الجهاد فى الإسلام هو الخير كل الخير للمسلمين على الرغم مما فيه من التضحية بالجهد والوقت والمال والنفس، وهى تضحية لا تجود بها إلا أنفس المؤمنين حقًا.

والجهاد واجب على المسلمين بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب ففى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وكتب: معناها فُرض، قال القرطبى فى شرح هذه الآية الكريمة: (هذا هو فرض الجهاد، بيَّن سبحانه أن هذا مما امتحن به، وجعله وصلة إلى الجنة، والمراد بالقتال قتال الأعداء من

الكفار، وهذا كان معلومًا بقرائن الأحوال، ولم يؤذن للنبى ﷺ فى القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أذن له فى قتال من يقاتله من المشركين، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ثم أذن له فى قتال المشركين عامة.

واختلفوا فى: من المراد بهذه الآية:

فقال عطاء والأوزاعى هم: أصحاب رسول الله ﷺ خاصة، فكان القتال مع النبى ﷺ فرض عين عليهم، فلما استقر الشرع صار على الكفاية.

وحكى الماوردى عن سعيد بن المسيب: أن الجهاد فرض على كل مسلم فى عينه أبدًا.

وقال ابن عطية: والذى استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد ﷺ فرض كفاية فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين.

وإنما كان الجهاد كرهًا -﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾- لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله سبحانه وتعالى.

وعسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة، وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم)[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٤ - ٧٧].

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن. باختصار.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأما السنة التى أوجبت الجهاد فهى أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلى:

ما رواه الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذب فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب، فَذَكَرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، ومن قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».

وما رواه ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة».

وما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد فى سبيل الله، ليلزمنكم الله مذلة فى أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه وتتوبوا إلى الله».

وأما الدليل على فرض الجهاد من الإجماع، فقد أجمع الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم وعلماء الأمة على فرضية الجهاد، ومارسوه وضحوا فى سبيل الله بكل مرتخص وغال، بل قدموا مواكب من الشهداء فى ممارستهم الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

ومشروعية الجهاد فى الإسلام لحماية الدعوة إلى الله وأداء رسالة الإسلام الكبرى، وهى نقل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ولكونه ضمانًا للسلام والأمن وإقراراً للاطمئنان، وبالضرورة شرع الجهاد دفاعًا عن الإسلام وردًا للعدوان عليه أو على أى جزء من أرضه.

هذه هى مشروعية الجهاد فى الإسلام، وليست هى -كما يقال- لمجرد الرد على العدوان، إن المقصد الأسمى للجهاد فى الإسلام هو أن تكون كلمة الله هى العليا، ولذلك كان من الضرورى أيضًا الإخلاص لله فى الجهاد، وتحريم خلط ذلك بأى مقصد آخر كالتوسع والكسب المادى، أو الرياء والسمعة وظلم الناس.

وللجهاد فى الإسلام أدب رفيع أوضحته سيرة النبى ﷺ وكلماته المطهرة التى نذكر منها ما يلى:

ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبـى بريدة رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر الأمير على جـيش أو سَرِيَّة أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعـالى ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغـزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً».

وما رواه أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعفُّ الناس قِتْلةً أهل الإيمان».

وما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن يزيد الأنصارى رضى الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن النهب والمثلة.

وروى النسـائى بسنده عن شداد بـن الهادى رضى الله عنه أن رجـلاً من الأعراب جـاء فآمن بالنبى ﷺ ثم قـال: أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ وأصحـابه فكانت غزاة غنم فيها النبى ﷺ شيئًا، فقسم وقَسَمَ له، فقال: ما هذا؟ فقال: «قسمته لك»، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنى اتبعتك على أن أُرْمَى إلى ههنا -وأشـار بيده إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة، قال: «إن تصدق الله يصدقك»، فلبثوا قليلاً ثم نهضـوا فى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبى ﷺ: «أهو هو؟» قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقه»، ثم كُفن فى جبة النبى ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: «اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقتل شهيداً، وأنا شهيد على ذلك».

وما رواه الخمسة بأسانيدهم عن أبى موسى رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

تلك صورة مجملة لآداب الجهاد فى سبيل الله، رأينا أنها تناسب هذا المقام[1].

وإذا كان دين الإسـلام وهو يربى الخلق على ركيـزة الجهـاد فى سبيل الله، فـإنما يربى أحسن ما يجب أن يكون فى خلق الإنسـان وهو الإخلاص لله فى عمله والتضحـية بالجهد والوقت والمال والنفس من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، فـيحيا المجتمع حيـاة سعيدة آمنة مطمئنة.

وبعد: فهـذه هى الركائز السـبعـة التى يربى الإسلام مـن خلالها الخلـق ويتخذ مـنها مرتكزات لهـذه التربية، أشرنا إليـها فى إجمال، لنلقى عليـها الضوء المناسب لطبـيعة هذا الكتاب، سائلين الله تعالى الأجر والمثوبة.

---

(١) للتوسع: انظر للمؤلف: «فقه الدعوة إلى الله» (١/ ١٥٤) مرجع سابق.

الفصل الثالث

التربية العقلية

١- مفهوم التربية العقلية

التربية العقلية هى التى تهتم بالعقل وتغذيه وتمده بأسباب نشاطه وحيويته، وتعطيه القدرة على النظر والتأمل والتدبر والتحليل والاستنتاج، أى تنمية قدراته واستعداداته.

والعقل هو القوة المتهيئة لقبول العلم، أو العلم نفسه الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة.

وتنمية هذه القوة المتهيئة لقبول العلم، أو تنمية هذا العلم هو ما نعنيه فى هذا الفصل بقولنا: التربية العقلية.

والأصل فى التربية الإسلامية للعقل أن يسبقها الإيمان فيعمر القلب أو العقل أو الفؤاد -كما قدمنا عند حديثنا عن العلم- ثم يكون الاهتمام بالعلم والمعرفة، ومن كان الإيمان عنده متأخراً عن العلم والمعرفة فمن النادر أن يستفيد فى العبادة والعمل، وذلك هو الخسران والعياذ بالله من كل شر.

قال ابن عمر رضى الله عنهما: لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن[1]، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغى أن يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالاً يُؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدرى ما آمره، وما زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدَّقل[2].

وروى ابن المحبر بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى بالغوا، فقال النبى ﷺ: «كيف عقل الرجل؟» فقالوا: نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: «إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنما يرفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى عند ربهم على قدر عقولهم»[3].

---

(١) القرآن هنا رمز للعلم والمعرفة.

(٢) الدَّقل: أردأ أنواع التمر، أو أردأ التمر.

(٣) ورواه الإمام الترمذى فى النوادر مختصراً.

وروى ابن المحبر أيضا بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار فى النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]».

إن الإيمان ينبغى أن يسبق إلى العقل قبل العلم والمعرفة، وإذا كان العقل هو الذى ميز الله به الإنسان عن الحيوان وجعله مناط التكليف: إذ أسقط التكليف عن غير العاقل، فلابد أن تكون للإسلام عناية، بل عناية فائقة بتربية العقل.

إن الإسلام يربى العقل عن طريق الشرع، ولا يمكن أن يتضمن الشرع شيئًا يناقض العقل، وذلك أن الشرع دائمًا فى صالح الإنسان فى دينه ودنياه، ولا يتصور مع هذا تناقض بين الشرع والعقل.

فماذا يقصد الإسلام بالتربية العقلية للناشئ أو الكبير على السواء؟ إن الإسلام يقيم تربيته للعقل البشرى على أسس ودعائم فى غاية الأهمية هى:

١- تنقية العقل من الخرافة والوهم، وادعاء علم الغيب، كى لا تسيطر على العقل الخرافات والأوهام التى يهذى بها أهل الشعوذة والدجل والسحر والكهانة والعرافة والقيافة والطيرة والطَّرْق وغيرهم، ولكى لا يتصور أحد من الناس أن أحدًا من البشر قادر على أن يعلم من علم الغيب وعالمه شيئًا؛ لأن الله سبحانه قد استأثر بعلمه وحده، قال تعالى يقطع الطريق على هؤلاء المضللين: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول -وفى رواية: فصدقه فيما يقول- فقد كفر بما أنزل على محمد».

وروى أبو داود بسنده عن قطن بن قبيصة عن أبيه رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت»[1].

وروى البزار بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من تَطَيَّر أو تُطِيِّرَ له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

(١) أبو داود: سننه: باب الطب، والعيافة: زجر الطير، والطيرة: التشاؤم ببعض الأشياء، والطرق: ضرب الحصى أو الخط فى الرمل، والجبت: كل ما عبد من دون الله.

٢- وتنقية العـقل من الأحكام المبنية على الظنون والتخـمينات والأهواء؛ لأن ذلك كله يضر بالعـقل، ويعوده أن يأخـذ بما يباعـد بينه وبين الحق والحقـيقة، بل يحـول بينه وبين العلم، وكل ذلك يؤدى إلى فساد فى الأرض وإفساد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦] وقال سبـحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

٣- وتعويد العقل الاستدلال بعـد النظر والتأمل، وذلك منهج علمى دقيق، وقد ضرب القرآن الكريم لذلك المثل فى استدلال أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسـلام على الإيمان بإله واحد، فقال سـبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٨٠].

٤- والمباعدة بين العـقل والتبعية وتعـويده رفض التقليد، وذلك أن كل إنسان يسـتعمل عقله فى التفكير فيما يحيط به من أمور، ولا يتبع فى ذلك أحدًا، ولا يقلد فيه سواه، دون تعقـل وتدبر، حتى إن علمـاء الإسلام مـجمعـون على أن التقليـد فى الإيمان لا يـحقق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

٥- وتنمية العـقل بالعلم والمعرفة: والعلم والمعرفة يزودان العـقل وينميانه، ولكن ليس كل علم ولا كل مـعرفـة، فـإن بعض هذه العلوم والمعـارف قد يصـيب العـقل بالجمـود والتحـجر، وإنما العبـرة بمصادر هذا العلم وتلك المعرفـة، فكلما كانت هذه المصـادر أمينة صحيحة، أسهمت فى تنمية العقل.

وهذه المصادر فى أعلى مستوياتها فى الإسلام هى: كتاب الله سبحانه، وسنة نبيه ﷺ وسيرته، ثم يلى ذلك التأمل والنظر الصحيح فى الكون كله وفى بديع ما خلق الله سبحانه وتعالى.

وقد امتن الله سبحانه على الإنسان بأن منحه وسائل الإدراك للعلم والمعرفة وهى السمع والبصر والفؤاد، والفؤاد هو محل العقل، والقلب موضع الفقه لكل ما تدركه الحواس كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وإذا نما العقل بالعلم والمعرفة والنظر والتأمل فإن الإنسان ترتفع منزلته عند ربه سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ذلك هو مفهوم التربية للعقل فى الإسلام كما تصورته من خلال ما يستهدفه هذا الفصل من الكتاب، وهى تربية تمنح العقل منهجًا يعصمه عن الزيغ والضلال وييسر له سبل النجاح والفلاح.

●●●●

٢- كيف يربى الإسلام العقل؟

إن الإسلام وهو يربى العقل يقرر أن هذا العقل من أكبر نعم الله على الإنسان بعد نعمة الإسلام، وقد ذكرنا آنفًا قول النبى ﷺ من الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه «.... وإنما يرتفع العباد غدًا فى الدرجات الزلفى عند ربهم على قدر عقولهم».

وإذا كانت هذه منزلة العقل فى الإسلام فلابد أن يعنى الإسلام بتربية العقل عناية تساوى هذه المنزلة، وهذا هو الذى قد كان، فإن الإسلام رسم لتربية العقل طريقًا وحدد لهذه الطريق معالم، وعند النظر والتأمل فى هذه الطريق وتلك المعالم، يتبين لنا بفضل من الله وتوفيق أن الإسلام فى مجال تربية العقل قام بأعمال ثلاثة رئيسة، كل منها مؤيد بالكتاب والسنة النبوية والسيرة المطهرة.

هذه الأعمال هى على وجه الإجمال ما يلى:

الأول: تحرير العقل من الخرافة والدّجل والتبعية والتقليد، وتنقيته من كل ذلك.

والثانى: تحديد مسار العقل فى الاتجاه الذى يطيق السير فيه، وإعفاؤه مما لا يطيق؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

والثالث: تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلى وتسديده فى ذلك.

ولكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة تفصيل ومفردات كثيرة، نكتفى منها بما يلى:

العمل الأول:

تحرير العقل من الخرافة والدجل والتبعية والتقليد:

إن الإسلام قام- منذ نزلت كلماته الأولى وحيًا على خاتم الأنبياء محمد ﷺ- على أساس احترام عقل الإنسان وفكره، واعتبر ذلك أكبر تكريم له، ولذلك كان أول ما نزل من القرآن الكريم هو قول الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥].

وقد كان من احترام الإسلام للعقل، أن عرض الله على الإنسان الدين ليتدبر العقلاء آياته فيؤمنوا فيرشدوا، وليذكر أصحاب هذه العقول ما فى الدين من خير فيهتدوا ويسعدوا، قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

هذا العقل الذى احترمه الإسلام طالبه بأن يتحرر من الدجل والخرافة ودعوى علم الغيب، والتبعية والتقليد، وذلك أن من يصدق شيئًا من دجل الدجاجلة وخرافات الضالين فكأنما فقد عقله، وكذلك شأن من صدق أن أحدًا يعرف الغيب أو يرى ما فى المستقبل، فضلا عما فى ذلك من ضعف الإيمان وتكذيب الشرع، والكفر بما أنزل على محمد ﷺ، كما ذكرنا هذا الحديث آنفًا.

ومن أجل ذلك فإن الإسلام وهو يربى العقل، حرّم على الناس أن يأتوا الكهان والعرافين، والزاعمين بأنهم يعلمون ما تضمره الأيام.

روى الإمام مسلم بسنده عن معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أموراً كنا نصنعها فى الجاهلية، كنا نأتى الكهان، قال: «فلا تأتوا الكهان».

قلت: كنا نتطيّر، قال: «ذاك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم».

وروى الإمام مسلم بسنده عن عروة بن الزبير عن أبيه رضى الله عنهما أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ: «ليسوا بشىء»[1]، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون أحيانًا الشىء يكون حقًا، قال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه قرَّ الدجاجة فيخلطون أكثر من مائة كذبة».

هكذا يحرر الإسلام العقل من الوهم والدجل والخرافة.

كما يحرص الإسلام على تحرير العقل من التبعية والتقليد، وفى إبطال التبعية والتقليد كلام كثير ومفصل من العلماء المسلمين القدامى منهم بالذات، وقد أجمعت كلمتهم على إبطال التقليد فى أمور العقيدة والإيمان، وإن كانت لبعضهم آراء متعددة فى التقليد فى الأمور البعيدة عن قضايا العقيدة ومسائل الإيمان، وأجاز بعضهم التقليد فى الحق يلجأ إليه من قَصُرَ عن النظر فى ذلك، غير أن الأرجح لدى جمهور العلماء إبطال التقليد عمومًا؛ لأن التقليد إبطال للعقل وتقييد له بالأغلال، ولا قائل بذلك.

ومن آيات القرآن الكريم الدالة على إبطال التقليد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

---

(١) قال القسطلانى: قد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية، لكن يبقى من يتشبه بهم، وثبت النهى عن إتيانهم فلا يحل إتيانهم ولا تصديقهم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

قال القرطبي: (قال علماؤنا: ألفاظ هذه الآية -آية سورة البقرة- تعطي إبطال التقليد، ونظيرها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ.... ﴾ آية سورة المائدة...

التقليد ليس طريقًا للعلم ولا موصلاً له، لا في الأصول ولا في الفروع، وهو قول جمهور العقلاء والعلماء، خلافًا لما يحكى عن جهال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق وأن ذلك هو الواجب وأن النظر والبحث حرام، والاحتجاج عليهم في كتب الأصول[1]. وقد أوسعهم ردًا وأبطل حججهم غير واحد من العلماء ومنهم ابن حزم رحمه الله.

فالإسلام يحرر العقل من التبعية والتقليد، وكيف لا يحرره من ذلك وقد جعله مناط التكليف؟

إن الإسلام يُنقي العقل من كل ذلك، ليكون على الفطرة التي فطره الله عليها، نقيًا نظيفًا من أي دجل أو خرافة، ومن كل تبعية أو تقليد، فما أسوأ أن يمتلئ العقل بالمعلومات والمعارف القائمة على الظنون والأوهام، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].

إن الإسلام يطالب العقل بألا ترد إليه معلومة فيصدقها إلا بعد تثبت وتأكد، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]

إن الإنسان في الإسلام مسئول أمام الله عن كل ما عرفه واقتنع به، بحيث يجب عليه أن يتثبت منه، وأن يجد على صحته الدليل والبرهان، قبل أن يأخذه ويجعله سلوكًا له.

وإن التماس الدليل والبرهان في الإسلام مطلب عام في كل الأمور العقدية والعبادية والأخلاقية والعادية، وما لم يجد المسلم الدليل النقلي اتجه إلى الدليل العقلي فإن قام على الأمر دليلان من العقل والنقل فلن يتعارضا أبدًا.

والقرآن يوجه ويشير إلى ضرورة البحث عن الدليل حتى في العقيدة، إذ يحكي لنا موقف أهل الكهف- وهم فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى -فيقول على لسانهم: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: تفسيره بتصرف.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٤، ١٥].

وفى أبواب كثيرة من أبواب الفقه الإسلامى كأبواب التقاضى والشهادات والحدود والقصاص والجنايات وغيرها، تأكيد على ضرورة التثبت والبحث عن الدليل والبرهان قبل إدانة متهم فضلاً عن توقيع عقوبة عليه، ورفض لأى أحكام تنبنى على الظنون والأوهام.

والعمل الثانى:

تحديد مسار العقل فى الاتجاه الذى يطيق العقل السير فيه، مع إعفائه مما لا يطيق، وذلك من منطلق أن الله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها:

فإن ذلك إنما يتم بتربية العقل تربية واقعية عملية، تعود على العقل وعلى الإنسان بالخير والنفع فى دنياه وآخرته.

إن الإسلام -فى سبيل معاونة العقل وتسديده- يحدد له مساره واتجاهه، ولا يدعه يشتط ويجنح فيورط نفسه فيما لا يقدر عليه وفيما لم يخلق مُيَسَّرًا له.

وللإسلام فى ذلك منطق جيد؛ لأن العقل إذا طفق يفكر فيما لا يستطيع الوصول إليه وقع فى الأخطاء والسلبيات التالية:

١- تبديد الجهد والطاقة فى غير فائدة، وذلك يشبه من يحرث فى بحر أو ينقش على ماء؛ إذ لا ثمرة لكل ذلك.

٢- وإعطاء فرصة للعقل أن يخطئ ويضطرب ويشعر بالعجز والحيرة، فيدخل بذلك فى الضلال.

٣- وتعويد العقل على الجنوح والاشتطاط، والدخول فى أمور لا طائل من وراء الدخول فيها، مما يصيبه بالقلق من أجل تعلقه دائمًا بالخيال والوهم وما لا وجود له فى الواقع.

وعلى سبيل المثال فإن العقل أعجز من أن يتصور لذات الله سبحانه شكلاً أو حيزًا أو بداية أو نهاية، فماذا يجدى عليه التفكير فى ذلك؟ إنه لم يهيأ له، ولذلك ورد فى السنة النبوية الصحيحة ما رواه أبو الشيخ بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن قومًا تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى ﷺ: **«تفكروا فى خلق الله، ولا تتفكروا فى الله، فإنكم لن تقدروا قدره».**

وكل الذين تكلموا فى ذات الله سبحانه من المفكرين وغيرهم لم يصلوا من وراء ذلك إلى شىء، فكان عملهم هذا سببًا فى ضلالهم وفى فتنة من جاءوا بعدهم ممن أخذوا بكلامهم؛ لأنهم أقحموا عقولهم فيما لم يخلقها الله له ولا هيأ لها التفكير فيه، ولا أعطاها القدرة على الوصول من ذلك إلى طائل.

غير أن ذلك ليس معناه أن الإسلام يحجر على العقل أو الفكر، وإنما معناه تسديد مسار العقل حتى لا يدخل فى متاهات تضره ولا تنفعه، وإنما فعل الإسلام ذلك عصمة للعقل عن الضلال والضياع وإقناعًا له بأن من الحق أن يتوقف عند حدود ما فطره الله عليه ومكنه منه، وإن الوقوف عند هذه الحدود هو أدب الصالحين من أسلافنا المسلمين رضى الله عنهم، فلقد سُئل أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى[1] الإمام الزاهد، فقال له رجل: أخبرنى عن الله عز وجل، فقال له: إله واحد، فقيل: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقيل له: أين هو؟ فقال: هو بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته فهى ما أخبرتك عنه.

إن الإسلام شجع على الفكر والتفكر بل اعتبر ذلك من العبادة مادام التفكير فيما يقدر عليه العقل مما هيئ له، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل مستلق على فراشه، إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك ربًا وخالقًا، اللهم اغفر لى، فنظر الله إليه فغفر له»[2].

وقال القرطبى: (قال ابن العربى: اختلفت الناس أى العملين أفضل؟ التفكر أم الصلاة؟[3] فذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل، فإنه يثمر المعرفة، وهى أفضل المقامات الشرعية، وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل لما ورد فى الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها)[4].

وروى الشيخان بسنديهما (عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين - وفيه: . . . فقام رسول الله ﷺ فمسح النوم عن وجهه، ثم قرأ

---

(١) واعظ زاهد لم يكن له نظير فى وقته، من أهل الرأى، أقام ببلخ ومات فى نيسان، والمسمون يحيى بن معاذ ثلاثة: أحدهم: نيسابورى، والثانى: رازى، والثالث: تسترى. انظر طبقات الصوفية، وصفة الصفوة وغيرهما.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: (٤/ ٣١٤)، مرجع سابق.

(٣) أى النافلة.

(٤) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٣١٥)، مرجع سابق.

الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران[١]، وقام إلى شنّ -قربة ماء صغيرة- معلق فتوضأ وضوءًا خفيفًا، ثم صلى ثلاث عشرة ركعة... الحديث. فانظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده، وهذه هى السنة التى يعتمد عليها، فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يومًا وليلة وشهرًا مفكرًا لا يفتر، فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر ولا مستمرة على السنن[٢].

إن الإسلام سمح للعقل أن يفكر فى أمور عديدة مما يحيط به ومما تقع عليه حواسه، ليعرف بل يؤمن بقدرة الله وعظيم خلقه وجليل صنعه، وأوجب عليه أن يفكر فى أمور الدنيا ليعمر الأرض، كما طلب منه ذلك فى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] (أى جعلكم عمارها وسكانها... وقال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار...

قال ابن العربى: قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة والطلب المطلق من الله على الوجوب[٣].

وإعمار الأرض لا يكون بغير تفكر وتدبر وبحث لتكون هذه الأرض على النحو الذى يليق بتكريم الله للإنسان، وعلى الوجه الذى يمكنه من عبادة الله وحده وفق ما شرع.

إن المسلم الذى يمتنع عن هذا التفكر وهو قادر عليه آثم عصى الله سبحانه فيما أوجب عليه من إعمار الأرض، ولو فقه المسلمون اليوم هذا المطلب لما سبقهم أحد من الناس إلى كشف أو اختراع، كما كانوا كذلك يوم كانوا على هذا الفقه للدين، فخلفوا للإنسانية فى مجال العلم والكشف والاختراع ما استطاع الغرب أن يقيم على أسسه نهضته العلمية، ثم زاد عليها.

---

(١) هى الآيات الكريمة التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إلى آخر السورة الكريمة. الآيات من الآية: ١٩٠ إلى الآية: ٢٠٠.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: (٤/ ٣١٥)، مرجع سابق.

(٣) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: (٩/ ٥٦). وفيه آراء أخرى ذكرها العلماء، ومن هذه المعانى: مكنكم من عمارتها واستثمار ما فيها والانتفاع بخيرها، ومنها: خلقكم لعمارتها... إلخ.

ومعنى ما قدمنا: أن الإسلام يحترم العقل ويقدره ولا يحجر عليه، بل لقد بلغ من احترام الإسلام للعقل وتشجيعه على التفكير أن جعل دخول الإنسان فى الإسلام واقتناعه به وبعقيدته وعباداته يجب أن يتم من خلال الفكر والنظر والتأمل.

إن أهم قضايا العقيدة الإسلامية وهى توحيد الله سبحانه أقامها الإسلام على أساس من الاقتناع والحوار العقلى واستخدام الأدلة والبراهين، بل أوضح الإسلام أن هذا الاستدلال عمل من صميم أعمال العقل حين قدم القرآن الكريم كثيراً من القضايا مصحوبة بالأدلة والبراهين، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الكهف: ٨١].

وكقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٨].

وكقوله عز من قائل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التى توجه العقل إلى أن يناقش ويحاور ويستدل، حتى فى قضية التوحيد؛ ليكون إيمان الإنسان عن اقتناع، وبعد جدل فكرى يستهدف إيضاح الحق والوصول إليه.

إن الله تبارك وتعالى جعل كل نبى من أنبيائه يجادل عن الحق الذى جاء به، ويقدم عليه الأدلة والبراهين، ويطالب من يدعوهم بأن يعملوا عقولهم للاهتداء إلى الحق، أو تقديم الأدلة والبراهين التى لديهم.

كانت تلك سنة أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، حتى إن قوم نوح ﷺ لما ضاقوا بما يقدمه لهم نبيهم من أدلة وبراهين وجدل عقلى قالوا له -كما يحكى القرآن الكريم ذلك-: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢].

وكذلك كان شأن هود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، إنهم جميعًا جاءوا مع دعوتهم بالآيات والبراهين والمعجزات وما ذلك فى جوهره إلا لإقناع المدعوين، ولا إقناع إلا بعد فكر وعمل للعقل.

إن معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الإيمان من أحد من خلقه إلا أن يستعمل عقله، ويفكر ويجادل عما يعتقد حتى يتبين له الحق.

ومهما ذكرنا من أمثلة وشواهد على تقدير الإسلام للعقل واحترامه له وللعلم الذى يتجه إليه، فإن ما نقوله وما نحشده من أمثلة وشواهد أقل بكثير مما جاء فى الإسلام وتشريعه عمومًا، ومما تضمنه القرآن الكريم على وجه الخصوص.

العمل الثالث:

تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلى وتسديده:

وذلك بكل الوسائل المشروعة - من وجهة نظر الإسلام- التى تؤدى إلى تحقيق هذا الهدف، وإنما يكون ذلك بما يلى على وجه الإجمال:

أ- دعوة العقل إلى الأخذ بأسباب العلم.

ب- ودعوته إلى التأمل والنظر فى سنن الله فى خلقه.

جـ- ودعوته إلى تدبر حكمة الله فى الخلق ونواميس الكون.

د- ودعوته إلى تدبر حكمة الله فى التشريع.

وأما تفصيل هذه الدعوات على النحو الملائم لهذا الكتاب فنقول فيه:

أ- دعوة الإسلام العقل إلى الأخذ بأسباب العلم:

إن ذلك يؤكد أن الإسلام يشجع العلم ولا يحاربه كما فعلت بعض الأديان، والسر فى ذلك أن الإسلام لا يخشى أبدًا من العلم ولا مما يكشف عنه من مخترعات، بل يعتبر ذلك تأكيدًا له وللإيمان الذى يدعو إليه.

إن الإيمان الذى يدعو إليه الإسلام إيمان يقوم على العلم والمعرفة لا على التسليم الساذج المقلد؛ لأنه لا يرضى بالتقليد فى الإيمان- كما أوضحنا آنفا.

ويحاول كثير من الناس أن يتهموا الإسلام بما اتهم به غيره من الأديان فى محاربة العلم، وهى تهمة باطلة لا يقوم عليها دليل أو برهان، أدنى دليل أو برهان.

وإن أقوى الردود على هؤلاء المتهمين هو التعرف على التاريخ الحضارى للإسلام، فلقد كانت الحضارة التى أقامها المسلمون باسم الإسلام تضمنت -بغير أدنى مبالغة أو شك- بناء نهضة علمية عميقة وواسعة شملت كل مرافق الحياة الإنسانية، وهيأت للمسلمين ولمن يعيش فى ظلالهم من غير المسلمين حياة إنسانية أكثر تحضراً ورقيًا من كثير من الحضارات الأخرى.

لقد كانت حضارة شهد بها التاريخ الإنسانى من المسلمين وغيرهم.

ولم تكن تلك الحضارة الإسلامية -على هذا المستوى الرفيع- داعية للدهشة أو الاستغراب؛ لأن الإسلام أعطى العلم منزلته اللائقة به وجعله أهم وسائل الإيمان، وأجدى ما يحرر العقيدة من الأوهام والترهات، فأى تناقض هذا الذى يزعمون بين الإسلام والعلم؟

وإذا كان الإسلام يدعو دائمًا إلى التوصل إلى الحق والحقيقة -وهذا شأنه دائمًا، ويأمر بالتواصى والتناصر فى سبيل ذلك، بل يأمر بالصبر على ذلك بعد الإيمان والعمل الصالح، كما جاء فى قوله الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، إذا كان الإسلام كذلك فكيف يعادى العلم أو يقلل من شأنه، وكيف يتوصل إلى الحق والحقيقة بغير العلم؟

وإذا كانت طرق التوصل إلى الحقيقة كثيرة، وكان منها التلقين ومنها إدراك الحواس، ومنها الإلهام، ومنها العقل، فإن العقل لا يمكن التقليل من أثره وعمله فى الوصول إلى الحقيقة.

وإذا كانت المعرفة فى عمومها ذات طرق متعددة، فإن منها على سبيل المثال القاطع العقل بل هو أهمها.

وإذا كانت المعرفة من حيث أهدافها ذات هدفين كبيرين هما: الإيمان والعمل، فإن كلا الهدفين بحاجة إلى العقل والعلم ليكون له الأثر الطيب فى حياة الناس.

وقد أسلفنا أن الإيمان الذى يتوصل إليه عن طريق التقليد غير مقبول، وإذا قبل فهو أضعف الإيمان، فإن الوصول إلى الإيمان عن طريق العقل والعلم هو أعلى مستويات الإيمان وأقواها وأكثرها ثباتًا واستقراراً.

إن القـرآن الكريم رفع من شـأن العلم والعلمـاء فى توصلهم إلـى توحيـد الألوهيـة وتوحيـد الربوبية، فقال الله تعـالى فى إعلاء شأن العلمـاء الذين وحَّدوا الله سبحـانه بعد علم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفى كثيـر من آيات القرآن الكريم ربط وثيق بين العلم والإيمان كـقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله عـز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وخـلاصة ذلـك أن الإسلام ينظـر إلى العلم -وهو عـمل عقـلى- على أنه يؤدى إلى الإيمان، لو أحسن التوجه فيه، وخضع فى مجرياته للمعايير الإسلامية الأخلاقية، وإن كان العلم وحده لا يغنى -فى سـبيل وصول الإنسـان إلى ما يصلحه فى الدنيـا والآخرة- عن الإيمان، كـما أن الإيمـان بغير علم -أى بالتـقليد- لا يصلح فى الغـالب، وفى النادر إذا صلح يكون من أضعف الإيمان.

وإن القرآن الكريم قد دعا إلى الأخذ بأسـباب العلم، ودعا إلى أن يستزيد المسلم من العلم ما استطاع، ودعا إلى أن يلجأ المسلم إلى الأسلوب العلمى فى التعامل مع الدين والدنيا.

ولعل حديثنا عن ذلك يوجب عـلينا إلقاء بصيص من الضـوء على كلمة العلم -كى لا تكون أمام من لا يحققون ولا يدققون مقابلة أو مضادة لكلمة الإيمان- فنقول:

إن مـعظم المعاجـم والموسوعـات ودوائر المعـارف تقول: إن العلـم هو: ابتكار ومنهج وطريقة تحدد بها القواعد الموصلة إلى الكشف عن حقـيقة شىء أو وصفه بصفة ما، أو نفى تلك الصفة عنه، ويدخل فى ذلك الإنسان والمادة ومعظم مفردات الكون.

ومعنى ذلك أن العلم فى جوهـره قيمة مادام منهجًـا وطريقة، وما دام العلم قيمـة فما وجه تعارضه مع الإيمان؟

وعند التأمل فى التقنيـة «التكنولوجيا» المتوصل إليها بالعلم نجدهـا كذلك عملية ابتكار، أى أنها قـيمة من القـيم عن طريقها يتـوصل الإنسان إلى الآلات والأجهـزة التى تمكنه من ممارسة الحيـاة على نحو أيسر وأفضل، وأكـثر قدرة على تحقيق رغـباته بأقل عناء وفى زمن

أقل، ولكنها فى الوقت نفسـه قد تصرف بعض الغافلين عن الإيمان كـما حدث للناس فى عصـرنا هذا، وهى بهذا المفهـوم وحده تناقضت مع الإنسـان الذى يرغب فى تنمية حـياته بنفسـه، إذ هو جزء أصـيل من الكون حينما حـرمتـه «التكنولوجيا» مـن ممارسة هذا الحق وأحلت محله الآلات والأجهزة وغيرها من معطيات «التكنولوجيا». . . فليس التناقض إذن بين العلم والدين، ولا بين «التكنولوجيا» والدين، وإنما هو بين «التكنولوجيا» والإنسان.

ولعل هذا التناقض يفهم بدقة عند التأمل فى هذه القضية، قضية أن الإنسان وهو يخترع الآلة لتفى بحـاجاته وليسيطر بهـا على هذا الكون الذى يعيش فيه، مـا لبث هذه الآلة أن سيطرت عليه وأضحت بالنسبة له غاية بعد أن كانت وسيلة.

والمخرج من هذا التناقض هو الـتنسيق بين الآلة والإنسان، أى أن تبـقى للإنسان إرادته وإيمانه وحريته، وتبقى للآلة صفة أنها وسيلة لا غاية.

والعلم بوصفه منهجًا وطريقة هو قيمة أساسية فى الإسلام[1]، أكدها الإسلام فى كثير من آيات القرآن الكريم، كـقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]

بل إن الإسلام دعـا كل مسلم إلى أن يـتزود من العلم بمعناه الواسع الذى يشـمل علوم الدين والدنيا معًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

إن الإسـلام وهو يدعـو إلى التأمل والـنظر والاعتـبـار، إنما يدعـو إلى الخطوة الأولى الضرورية النظرية التى تسبق التجريب، كـما جاء فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

ولقد تضمن القرآن الكريم كثيـرًا من الآيات التى تدل أو تشير إلى ضرورة الأخذ بمنهج الاستدلال مـثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٧٧- ٨٢].

---

(١) انظر للمؤلف: «نحو منهج بحوث إسلامى» حيث توسع فى الحديث عن ذلك، نشر دار الوفاء ١٩٨٩م.

وهذه الآيات الكريمة عند النظر إليها بعين الاعتبار توحى إلينا بكثير من منهج الاستدلال، نشير إلى بعضه فيما يلى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾: أى ينظر ويعتبر ويتفكر، وهى رؤية القلب، كما يقول القرطبى رحمه الله.

- الآيات للرد على من أنكر البعث من المشركين، وهو رد استدلالى جدلى، يستهدف أن يصل المنكر إلى حد الاقتناع بوقوع ما أنكر.

- ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ ... قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي...﴾: أى من قدر على البدء والإنشاء من العدم قادر على الإعادة بعد التفرق.

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾: أى جوابه من نفسه حاضر، قال العلماء: وفى هذه الآية دليل على صحة القياس؛ لأن الله سبحانه احتج على منكرى البعث بالنشأة الأولى.

- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً....﴾: استدلال على أن الله سبحانه له من كمال القدرة ما يجعله يخرج الضد من ضده.

- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾: استدلال على أن من خلق السموات والأرض -وهما من العظم كما ترون- قادر على أن يخلق مثلهم - أى مثل من أنكروا البعث ويبعثهم.

هذه هى عظمة الاستدلال والجدال ليستبين الحق.

ومن دعوة الإسلام إلى تحرى المنهج العلمى أنه وجه النقد إلى أولئك الذين يناقشون أمراً لا علم لهم به، ولم يتحروا جميع مفرداته أو معطياته، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

ومن التأكيد على أن الإسلام يدعو إلى المنهج العلمى أنه جعل المنهج التجريبى كذلك من مطلوباته، بل نص على أولئك الذين يتوصلون إلى العلم من غير طرقه الأساسية، التى أهمها الإدراك الحسى والإدراك العقلى، نعى عليهم ذلك بل نهاهم عنه، كما يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ إذ المنهج التجريبى فى جوهره هو الاعتماد على

الحواس فى إدراك المحسوسات، وعلى العقل فى إدراك المعقولات، ذلك هو الأصل، وعلى كل إنسان اتباعه، بل إن الإنسان مسئول بين يدى الله تعالى إذا لم يستخدم أدوات المعرفة التى أتاحها الله له من سمع وبصر وفؤاد -أى عقل أو قلب- ولو فعل فإنه عندئذ يتصرف من غير علم، ويقع فى دائرة المؤاخذة.

ب- دعوة الإسلام إلى التأمل والنظر فى سنن الله فى خلقه:

وتلك تربية للعقل المسلم عن طريق إطلاعه على هذه السنن الإلهية فى مخلوقات الله سبحانه، وهى أحسن الوسائل لكى يتعرف العقل البشرى على التاريخ وما فيه ومن فيه، فيفيد من ذلك ما يزيده قدرة وينمى فيه الإحساس بهذه السنن، فيحسن التعامل مع حاضره، ويحسن التوجه إلى مستقبله.

إن الله تعالى وجَّه إلى ذلك توجيهًا صريحًا واضحًا فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

وفى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

إن السير فى الأرض للتعرف على سنن الله فى خلقه، من أجل أخذ الاعتبار مندوب إليه شرعًا، كما قال بذلك علماء الإسلام.

وإن إقناع العقل بالحق ليس له طريق أحسن من طريق التأمل والنظر فى سنن الله سبحانه مع من كذبوا الحق وعاندوا الرسل مهما كان هؤلاء المعاندون أقوياء، وسنته مع من صدقوا بالحق وآمنوا بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام مهما كان هؤلاء المصدقون المؤمنون ضعفاء، والله سبحانه يقرر ذلك لتعتبر العقول وتنتبه الأفهام، ويضرب لذلك الأمثال على النحو التالى:

أولاً: من المعاندين الأقوياء الفراعنة، والله تعالى يقول فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا

يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

ثانيًا: من المستضعفين الذين صبروا على الشدائد وتحملوا من بطش فرعون بهم ما تحملوا: بنو إسرائيل، قبل أن يضلوا فيطلبوا إلـها كما للمشركين آلهة، وقبل أن يعبدوا العجل، وقبل أن يعاندوا موسى عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وكما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

تلك سنة الله فى الذين كذبوا وعصوا، وفى الذين صدقوا وأطاعوا، ما تخلفت ولا تغيرت ولا تبدلت: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]

إن سنة الله سبحانه قد اقتضت أن يكون الناس أمام منهج الله سبحانه الذى جاءت به رسله عليهم السلام صنفين: إما أهل هدى أعملوا عقولهم ونظروا فاهتدوا، وإما أهل ضلال عطلوا عقولهم ولم يعتبروا فضلوا وضاعوا.

وإن سنة الله فى الذين يهتدون أن يأتى بعد الهدى الخير فى الدنيا بالتمكين للحق وأهله، والخير فى الآخرة برضا الله وجزيل ثوابه.

كما أن سنة الله فى الذين يضلون أن يأتى بعد الضلال الشر والفساد والانحلال فى الدنيا، ثم الخسران فى الآخرة.

ومهما يكن أهل الهدى والحق من الضعف المادى والقلة العددية، ومهما يكن أهل الباطل والضلال من القوة المادية والكثرة العددية، فإن هذه سنة الله فى أولئك وهؤلاء لا تتخلف أبدًا.

وإن على الناس أن يتعاملوا مع عقولهم ليهتدوا بها إلى هذه السنن الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل؛ ليتعظ الضالون ويزداد الذين آمنوا إيمانًا، ولا ينخدع غافل بما يرى عليه أهل الباطل من سطوة وسلطة فى تحدى الحق وأهله.

ومن أجل تأكيد دعوة العقل إلى التأمل والنظر والاستدلال، فإن الإسلام دعا إلى الاستقراء والفحص الدقيق لحقائق الأشياء، كيف كانت؟ وكيف صارت؟ وكيف تطورت؟ ومم تركبت؟ يتضح هذا عند التأمل فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وفى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

إن هذه الدعوة إعمال للعقل، وتدريب له على أن يشارك فى إدراك حقائق الأشياء، وفى هذا ما فيه من تربيته وتعليمه.

وإن مخلوقات الله فى هذا الكون كثيرة، وإن على رأس هذه المخلوقات الإنسان نفسه، وإن الإسلام دعا الإنسان إلى التأمل فى هذه المخلوقات جميعًا ليهتدى بذلك إلى الحق، وليصبح به أقوى إيمانًا، وإن فى قول الله سبحانه: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢٣]، لدعوة إلى إعمال العقل والنظر والتأمل.

قال قتادة رحمه الله: إن المعنى أن من سار فى الأرض رأى آيات وعبرًا، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله.

إن من تأمل وتدبر فى الأرض وجد فيها دلالات وعلامات على أن الله سبحانه قادر على كل شىء، وأنه قادر على بعث الناس بعد موتهم وحسابهم على ما قدموا فى الدنيا من خير أو شر.

قال القرطبى: (قال بعض الحكماء: إن كل شىء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير الذى هو بَدَنُ الإنسان، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ فحواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابًا من جنس الأرض، وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات الجسم، ومن جنس الهواء فيه الروح

والنفس، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء، وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض، وكبده بمنزلة العيون التى تستمد منها الأنهار، لأن العروق تستمد من الكبد، ومثانته بمنزلة البحر، وعظامه بمنزلة الجبال التى هى أوتاد الأرض وأعضاؤه كالأشجار، فكما أن لكل شجر ورقًا أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر، والشَّعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض، ثم إن الإنسان يحاكى بلسانه كل صوت حيوان، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان، فهو العالم الصغير مع العالم الكبير، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو)[1].

إن الإنسان وهو يعمل عقله ويتأمل فى نفسه وفيما حوله، يقوم بعملية تربية جيدة لعقله، مما يهيئ لهذا العقل أن يهتدى إلى الحق إلى الطريق المستقيم.

جـ- و الدعوة إلى تدبر حكمة الله فى الخلق ونواميس الكون:

وهى تربية عقلية تطبع بطابع الدقة والنظام، وذلك أن هذه الحكمة وتلك النواميس تجرى على سنن ثابتة ونظام دقيق لا يتخلف ولا يختل؛ لأنه من سنن الله سبحانه.

إن القرآن الكريم يشير إلى أن خلق الإنسان وخلق الكون وكل شىء فيه، ما خلق عبثاً، ولكنه تَمَّ وفق إرادة الله سبحانه وبأمره، ويؤكد أن كل تلك المخلوقات إنما خلقت بالحق ومن أجل الحق، وأن عملية الخلق هذه لم يتخللها باطل أو عبث أو لعب، وإنما خلق بالحق، ودبر بالحق، فسبحان الله أحسن الخالقين.

وإن دعوة الإسلام العقل إلى أن يتأمل فى الخلق والتدبير، ليس المقصود منه مجرد التأمل والتدبر، وإنما القصد تنوير العقل بهذا التأمل والتدبر، وإيقاظ القلب، وتصفية الروح من الشوائب، ليستطيع الإنسان أن يقيم على هذه الأرض حياة إنسانية كريمة، تليق بتكريم الله سبحانه للإنسان.

إن آيات القرآن الكريم تؤكد أن خلق هذا الكون لم يكن عبثًا ولا لهوًا ولا لعبًا وإنما كان بالحق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (٢/٢٠٢) مرجع سابق.

وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

والقرآن الكريم الذى تضمن كل ما ينفع الإنسان فى دنياه وآخرته، هذا القرآن نزل بالحق وأنزل بالحق، قال الله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

إن العقل وهو يتأمل ويتدبر فى مخلوقات الله جميعًا، وفى مفردات هذا الكون، ليرى أن كل ذلك كان بالحق، وإنما خلق من أجل الحق، إن العقل وهو يتأمل ذلك إنما يعتاد الحق ويلتزم به فى حياته، ويستعين به فى ممارسة هذه الحياة على أحسن نحو ممكن يحفظ للإنسان كرامته.

إن هذا هو الذى يجعل الإنسان طالبًا للحق محبًا له متواصيًا فيه صابرًا عليه، يتخذه شعارًا ودثارًا فيما يأتى وما يدع من الأمور، فينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

إن هذا العقل الذى تأمل وتدبر وأحب الحق، هو القادر على أن ينقى عقيدته من كل زيغ وضلال، ويصفى روحه من كل غبش ورين، إنه يصبح ذلك الإنسان المتفكر فى خلق الله، المهتدى إليه وإلى الحق وإلى الصراط المستقيم، إنه ذلك الإنسان الذى آمن بربه يوم سمع منادى الإيمان: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، وعرف حلاوة الحق وجماله، فأخذ يدعو ربه أن يغفر له ما ألم به من ذنب، وأن يكفر عنه سيئاته، فاستجاب له ربه فأدخله الجنة ثوابًا منه، والله عنده حسن الثواب، إن القرآن الكريم يتحدث عن أتباع الحق الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض فيوقنون أنه سبحانه ما خلق ذلك باطلاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا

مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

إن هذا هو التأمل والتدبر المفضى إلى الحق، المؤدى إلى الإيمان والعمل الصالح، الملتزم بكل مفردات الإيمان وكل ما ينتمى إلى العمل الصالح.

إنه الإنسان القادر على أن يمارس الحياة وفق منهج الحق، الذى اختاره منهجًا للناس إلى أن يقوموا لرب العالمين.

د- دعوة الإسلام العقل إلى تدبر حكمة التشريع:

إن الإسلام يتيح للعقل أن يتفكر ويتأمل ويتدبر حتى فى حكمة التشريع، مع أن التشريع صادر عن حكمة إلهية سامية ولكنه يطبق على الناس جميعًا، ومن منطلق أنه يطبق على الناس فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يتأمل الناس فى حكمة التشريع وأن يتدبروا ما جاء فيه، حتى يكون تطبيقهم له بعد علم ومعرفة واقتناع، فيطبقونه كاملاً غير منقوص وصحيحًا غير مشوب بخطأ وعن يقين غير مصحوب بأدنى شك.

إن الآيات القرآنية الكريمة التى دعت العقل البشرى إلى التفكر والتأمل فى حكمة التشريع كثيرة، نذكر منها:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]

والذكر هو القرآن الكريم، وقد نزله الله سبحانه وتعالى مجملاً، وكلف خاتم أنبيائه محمدًا ﷺ بتفصيله وتفسيره، وبيان أحكامه، ووعده ووعيده، وهذا التفصيل والتفسير والبيان من النبى ﷺ -كما قال القرطبى- (على ضربين:

* بيان لمجمل فى الكتاب:

مثل بيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها.

وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، فقد قال ﷺ إذ حج بالناس: «خذوا عنى مناسككم» وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» كما أخرجه البخارى.

وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعًا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله مُفَسَّرًا؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا وإن السنة تفسر هذا...

* وبيان آخر: وهو زيادة على حكم الكتاب:

كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها.

وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع.

والقضاء باليمين مع الشاهد.

وغير ذلك)[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]

وقال جل شأنه: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال عز من قائل: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩، ٢٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٨، ٣٩.

رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة: ٢٨٢]

وقال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤١، ٢٤٢].

وقال سبحانه فى شأن التوارث وتحديد أنصبة الورثة من مورثيهم، وأنواع الورثة، وعقوبات بعض الجرائم، وأحكام أخرى كعضل النساء[1] واستبدالهم بأخريات، وتوضيح ما لهن من حقوق فى هذا وذاك، وما حرم الله على الرجال من النساء اللاتى لا يجوز لهم التزوج منهن. . . قال فى ذلك: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١]. إلى الآية التى يقول فيها: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦].

إن التشريع الإسلامى فيما يتصل بالعقيدة والعبادة ثابت لا يقبل تغييرًا ولا تبديلاً، ولكنه فيما يتصل بالتعامل مع الناس والمتغيرات التى تقتحم على الناس حياتهم يقبل الاجتهاد فيما لا نص فيه، بل يدعو أرباب العقول إلى أن يتدبروا فى هذا التشريع ليتعرفوا على أهدافه، ويستشفوا روحه العام، ثم يكون لهم بعد ذلك أن يجتهدوا ويتصرفوا فى حدود المحافظة على الهدف والروح، بحيث يحققون لأنفسهم مصالح فى الدين أو فى الدنيا، أو يدفعون عن أنفسهم أضرارًا فى الدين أو فى الدنيا.

وتاريخ التشريع الإسلامى مشتمل على مثل تلك الأحكام التى اجتهد فيها من لهم حق الاجتهاد فغيروا وبدلوا واقترحوا وأقروا، وما أخطأوا ولا تعنتوا مع الناس، وعلى سبيل المثال نذكر طرفًا مما اجتهدوا فيه:

---

(١) عضل المرأة: ظلمها ومعاملتها بغير الإحسان المطلوب شرعًا.

١- سهم المؤلفة قلوبهم: قد ورد به نص قرآنى فى آية كريمة هى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٠].

هذا السهم أوقفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين بعدما استشار كبار الصحابة فى ذلك، فرأوا أن الإسلام قد قواه الله وأعزه فلم يعد بحاجة إلى أن يُعْطَى هؤلاء قدراً من المال اتقاء لشرهم.

٢- حد السرقة: ورد فيه نص، ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين قد استشار الصحابة فى إيقافه مؤقتًا فى ظل ظروف بعينها، فوافقوه على ذلك.

٣- فتح الإسلام للقاضى باب «درء الحدود بالشبهات» التى يراها قوية تسقط الحد عن المخالف.

ومعنى ذلك أن العقل البشرى إذا تدبر فى هدف التشريع وروحه، فإن له أن يذهب وراء المصلحة أو دفعًا للمضرة، إلى الحد الذى يغير فيه ويبدل مادام محافظًا على هدف التشريع وروحه.

ومعنى ذلك أن العقل البشرى تدبر التشريع ودار مع حكمته وجودًا وعدمًا، وليس أكثر احترامًا للعقل البشرى من إعطائه هذا الحق.

على أن التشريع الإسلامى بطبيعته يعطى العقل البشرى هذا الحق، حينما يكتفى بإيراد الأسس العامة والمبادئ الشاملة، ويتوقف عن التفسير والتفصيل -والله قادر على ذلك قطعًا- ليعطى أصحاب العقول التى تفكر وتتدبر فرصة لتفسير يلائم الزمان والمكان، ولتفصيل يلائم الظروف، وتلك مرونة جعلها الله رحمة للمسلمين وتخفيفًا عنهم، وكل ما يطلب من هؤلاء المفسرين أو المفصلين أمران:

الأول: أن يكونوا من أهل الفكر «أولى الألباب».

والثانى: أن يحافظوا على الأسس والمبادئ العامة التى جاء بها التشريع.

والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

٢- وقال جل شأنه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

فهاتان الآيتان الكريمتان وضعتا الأسس والمبادئ العامة للسياسة التى يقوم عليها نظام الحكم فى الإسلام، وهى أمران:

الأول: العدل.

والثانى: الشورى.

ثم سكتت عن التفسير الدقيق والتفصيل الذى يجب أن يكون عليه العدل والشورى، تاركة ذلك للمسلمين يفكرون فيهما على النحو الذى يلائم ظروف الناس والمتغيرات المحيطة بهم فى الزمان والمكان، ما داموا أهلاً للاجتهاد.

ويشبه ذلك فى الناحية الاقتصادية فى إطارها العام قوله تعالى: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، حيث وضعت هذه الآية الكريمة المبدأ العام فى تداول المال وسياسته، ثم تركت التفصيل للمجتهدين من المسلمين فى مختلف الأزمنة والأمكنة، يتفقون فيما بينهم على أنسب الظروف لتداول المال فيما بينهم، بحيث لا يمارسون ظلمًا لأحد.

إن الإسلام أعطى للعقل البشرى حق التفكر والتدبر والاجتهاد حتى فى أمور التشريع التى لم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة، وما ذاك إلا ليربى هذا العقل تربية صحيحة تمكنه دائمًا من أن يجلب لنفسه ولغيره مصلحة الدين والدنيا، ويدفع عن نفسه وغيره أى ضرر يعود عليه فى دينه أو دنياه كذلك.

••••

الفصل الرابع

التربية الجسدية

١- مفهوم التربية الجسدية

وقد يطلق عليها التربية البدنية، نسبة إلى جسد الإنسان أو بدنه، وهذه التربية تعنى ببذل جهود تعليمية تستهدف الاستفادة من ميل الإنسان للنشاط البدنى الحركى، بتنظيمه، وتحديد أوجه نشاطه، ونوع هذا النشاط من حيث هو فردى أو جماعى، حتى يمارس الجسم هذا النشاط وتلك الحركات بقصد تقويته وتمكينه من أداء وظائفه على نحو أفضل.

كما أن تربية الجسد تعنى إلى جانب ذلك تعويد الفرد على صفات سلوكية نافعة له، بل ولغيره من الناس كالنظام والنظافة، والتعاون والاعتماد على النفس، والرغبة فى القيام بالعمل بتقبل وانشراح، وذلك يؤدى إلى تكوين الإنسان الصالح القادر على التجاوب مع المجتمع الذى يعيش فيه، تجاوبًا بنّاء يحقق له ولغيره الرضا والسعادة فى دينه ودنياه.

وقد أسلفنا أن الجسد لا يمكن فصله عن الروح والخلق والعقل، ولذلك فإن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه وحدة متكاملة، روح مع عقل فى بدن، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بتربية هذه الطاقات فى الإنسان.

إن الجسد بوصفه عددًا من الأعضاء والأجهزة والقدرات يتأثر بالروح والعقل ويؤثر فيها بكل تأكيد، ومن خلال هذا التأثير والتأثر يستطيع الجسد أن يؤدى وظائفه على وجهها فيكون قويًا صحيحًا، أو ينحرف عن أداء تلك الوظائف أو يهملها فيكون ضعيفًا عاجزًا.

وجميع أنواع التربية للإنسان إنما تستهدف أن تحدث توازنًا بين مطالب الروح والعقل والجسد فى الإنسان.

ولقد حاولتْ إحداثَ هذه التربية كثيرٌ من الفلسفات والمذاهب ومدارس التربية، وغَبَرتْ فى ذلك أزمانًا متطاولة منذ كان الإنسان على وجه هذه الأرض، ومنذ أن عرف الإنسان الحضارة ومنذ كان على وجه الأرض فلسفات ومذاهب وحضارات، ولكنها جميعًا وعلى مدى قرون عديدة من عمر الزمان لم تستطع أن تحقق هذا التوازن بين طاقات الإنسان الثلاث - الروح والعقل والبدن - وإنما كان قصاراها، أو غاية ما تنجح فيه، أن تعنى

بإحدى هذه الطاقات على حساب سواها، حتى أعرق الحضارات فى العالم مثل الفرعونية واليونانية والرومية لم تستطع أكثر من هذا، وهو أن تعنى بتربية طاقة على حساب غيرها.

ولقد امتلأ تاريخ الإنسان بنماذج من هؤلاء الذين عنوا بإحدى هذه الطاقات دون غيرها، فمنهم من اعتنى بالعقل حتى فتن به وتجاهل ما سواه كالحضارة اليونانية، ومنهم من فتن بالبدن وأهمل غيره كالحضارة الرومية، ومنهم من فتن بالروح فأهمل سواها كالحضارة الهندية القديمة.

وظلت البشرية تعانى من هذا الاضطراب - حتى فى ظل الأديان التى سبقت ظهور الإسلام لا تستطيع بفعل أهلها أن تحدث هذا التوازن بين طاقات الإنسان - إلى أن مَنَّ الله على البشرية بخاتم الأديان وأتمها وأكملها.

ولابد أن نشير إلى أن الإنسان فى ظلّ هذه النظم والمدارس والحضارات ظَلَّ يتمزق بين هذه الاتجاهات، بحيث يفقد الاهتمام بروحه حينًا فيصبح ماديًا قاسيًا، أو يفقد الاهتمام بعقله فيقبل من الأوهام والخرافات وكل ما يناقض العقل شيئًا كثيرًا، أو يفقد الاهتمام ببدنه فيضعف ويُغلب على أمره ويتغلب عليه الأقوياء.

فلما كان آخر الأديان وأتمها وأكملها وهو ما أُنزل على محمد ﷺ، آن للإنسان أن يكون إنسانًا بأن يجد من منهج الإسلام ونظامه عناية بروحه وعقله وبدنه جميعًا، فاستقام فى حياته على الفطرة السوية التى فطره الله عليها، ولم يجنح المنهج الإلهى - وحاشا لله ذلك - إلى تغليب إحدى طاقاته على غيرها، وإنما غذاها جميعًا ونماها كلها فى الاتجاه الصحيح للتنمية، فكان الوئام بين هذه الطاقات، وكانت الحياة الإنسانية الكريمة الفاعلة المتوازنة.

إن منهج الإسلام والتربية يقوم دائمًا على إحداث التوازن بين متطلبات الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فالروح كالعقل كالبدن فى ضرورة الاهتمام بمتطلباتها وتربيتها التربية الصحيحة.

وإن التربية الصحيحة للجسم ينبغى أن تأخذ فى اعتبارها أن لهذا الجسم مطالب مادية هى من صميم فطرته، وليس فى التعبير عنها ما يوجب لومًا أو مؤاخذة فضلاً عن تحريم أو تجريم، غاية ما يجب أن يراعى فى هذا التعبير عن هذه الحاجات هو ألا ينحرف الإنسان عن الحدود التى أحلها الله، ورسم أبعادها المنهج، وربما حدد لهذا الجسم وسائل التعبير فى بعض الأحيان.

إن للجسم - بحكم فطرته - رغباته وشهواته، ولا منقصة فى ذلك ولا هذا؛ لأن كل رغبة أو شهوة وراءها حكمة إلهية لخالق هذه الفطرة فى الإنسان، بل حكمة بالغة تترتب عليها استمرارية الحياة وتكاثر الإنسان وممارسته حياته قويًا قادراً على العمل والسعى على الرزق، وإن الإسلام يعتبر التعبير عن هذه الرغبات والشهوات فى إطار الشرعية عبادة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه سبحانه وتعالى، ففيم المعاناة التى يهذى بها الذين لا يعلمون؟

إن المعاناة إنما تأتى من المبالغة أو الإسراف أو الانحراف فى ممارسة هذه الرغبات وتلك الشهوات، كما أنها تأتى كذلك من حرمان الجسد من رغباته وشهواته بدعوى أنها رجس أو هبوط أو زهادة، وكل ذلك خطأ فى فهم الإنسان وفهم وظيفته فى الحياة أولاً، ثم هى ثانيًا خطيئة فى تربية الإنسان.

وإن كلا الاتجاهين إنما يتحرك فى دائرة من الجهل أو الهوى.

فمن ذا الذى حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق أو الميل إلى الجنس الآخر؟

من ذاك الذى زعم أن التعبير عن الرغبة الجنسية فى إطار الشرعية هبوط بإنسانية الإنسان، فدعا إلى رهبانية ما كتبها الله على أحد من بنى الإنسان؟

من ذلك الذى زعم أن الزهد هو لُبس المرقعات والفوط والكتان والصوف واعتبار ذلك وحده هو اللباس؟

ما يملك أحد من هؤلاء جميعًا أن يقدم على دعواه دليلاً أدنى دليل، ولا برهانًا أضعف برهان، وإنما يجد نفسه مناقضًا لنفسه وللفطرة التى فطره الله عليها.

ولأبى الفرج ابن الجوزى رحمه الله كلمة فى الزهد والمتزهدين ما أحب أن يفوتنى ذكرها[1] يقول فيها: (وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه:

أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة.

والثانى: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه.

---

(١) هو عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى البغدادى أبو الفرج، محدث، مؤرخ، له مؤلفات كثيرة جداً فى الحديث الشريف والتاريخ، وهو مؤلف كتاب: المنتظم فى تاريخ الملوك، وكتاب تلبيس إبليس..... و.....

والثالث: إظهار التزهد، وقد أمرنا بستره.

والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم).

وكذلك الأمر في الطعام والشراب، فليسوا على صواب أولئك الذين حرموا الجسم من الطعام إلا ما حفظ الحياة، زاعمين أن ذلك من الزهد؛ إذ الطعام والشراب الذى تدعو إليه الحاجة في غير سرف أو مخيلة مطلوب شرعًا وعقلاً، لما فيه من حفظ النفس وحراسة البدن والحواس، ولهذا نهى الشرع الحكيم عن الوصال في الصوم، لما فيه من إضعاف البدن وإماتة الروح والعجز عن العبادة، وكل ذلك يمنع منه الشرع، ويرفضه العقل.

كما أن الزيادة عن الحاجة في الطعام والشراب، إسراف وتبذير منهى عنه شرعًا بنصوص إسلامية كثيرة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

وإنما المطلوب في الطعام والشراب هو الاعتدال والتوسط؛ لأنه الأصل الذى يحقق صالح الإنسان في دينه ودنياه.

والإسلام قد وضع لذلك نظامًا يحقق به للإنسان كل مصلحة ويدفع عنه كل مضرة، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال القرطبي: (قال ابن عباس رضى الله عنهما: أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة - أى تكبرًا - فأما ما تدعو إليه الحاجة، وهو ما سد الجوعة وسكّن الظمأ، فمندوب إليه عقلاً وشرعًا. . .)[١].

وروى الإمام الترمذى بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمى وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

قال القرطبي في التعقيب على هذا الحديث الشريف: (قال علماؤنا: لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا، فقال له: ما هى؟ قال: قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصرانى: ولا يؤثر عن رسولكم

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ١٩١).

شيء من الطب؟ فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل جسد ما عودته»[1] فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا[2].

إن الإسلام وهو يضع هذه الأنظمة ليمكن البدن من التعبير عن حاجاته، إنما يتساوق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو بذلك يؤكد أن التربية الصحيحة للجسم هي أن يعبر عن حاجاته ويحققها من غير إسراف أو مخيلة.

إن تربية الإسلام للجسم على هذا النحو لم تشبهها تربية في الماضي ولن تلحقها تربية في المستقبل؛ لأنها نابعة من منهج الله خالق الإنسان، العالم بما يصلحه في دينه ودنياه، العليم بما أودع فيه من طاقات ورغبات، الذي لم يجعل عليه حرجًا في أمر أمره به، لا من أمور الدين ولا أمور الدنيا، وتلك هي التربية الإسلامية للجسم.

وهذا ما سنفصل فيه القول في الصفحات التالية من الكتاب، والله المستعان.

●●●●

(١) هذا ليس بحديث نبوي وإنما هي حكمة تنسب إلى الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور، والقريب من هذا المعنى مما ورد في السنة ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معى واحد» فهو دعوة إلى عدم الإسراف في الطعام.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ١٩٢).

٢- كيف يربى الإسلام الجسد؟

سبق التنبيه إلى أن الإسلام وهو يربى الجسد الإنسانى يعترف بأن هـذا الجسد له مطالبه التى تمليها عليه فطرته التى فطره الله عليهـا، ويعطى لهذا الجسد الحق فى أن يعبر عن هذه الحاجات فى إطار الشرعية التى جاء بها منهج الإسلام.

هذا الجسـد بهذه الفطرة وضع له الإسـلام خطة لتربيتـه نابعة من منهـجه العام لتـربية الإنسان، فاعتمدت هذه الخطة على أسس مهمة أربعة هى:

أ- المعرفة الدقيقة بطبيعة الجسد البشرى.

ب- والاعتراف لهذا الجسد بحقه فى التمتع بما أحل الله.

جـ- وحمايته بسياج من الأخلاق القويمة.

د- ودعوة الإنسان إلى حماية جسده بالتربية البدنية.

وفى كل أساس مـن هذه الأسس نصوص إسلامـية عـديدة من الكتاب والسنة النـبوية المطهرة، ولنفصل القول فى ذلك بعض التفصيل.

أ- المعرفة الدقيقة بطبيعة الجسد البشرى:

وهى معرفـة جاءت عن طريق الوحى، أوحى بها خـالق الناس سبحانه وتعـالى العالم بكل ما فـيه، وبكل ما يـعتريه من مـتغيـرات، ومن المنطقى - بناء على ذلك - أن تكون التربية الصحيحة نابعة وتابعة لهذه المعرفة الدقيقة المفصلة.

وتقوم معرفـة الإسلام بطبيعة الجسـد على أن الله سبحانه قد كرم الإنسـان - نعمة منه عليه - كرمه فى خلقته بأن جعله معتدل القوام يمشى على اثنين لا على أربع، وجعله ناطقًا قادراً على التـعبيـر بل حسن التعبير، وجـعله قادراً على تخـير الأشيـاء عن طريق عقله وإرادته، كمـا أنعم عليه بأن خـلق له الدواب لتحـمله وليأكل منهـا ويلبس من أصوافـها وأوبارها وأشعارها، وخلق له النبات وهيأ له أن يـتغذى منه ويتفكه، وخلق له الماء وجعل من هذا الماء كل شىء حىّ.

وخلق له العـقل وجعلـه به قادراً على أن يصنع مـن الأشيـاء والأدوات ما يلبس ومـا يسكن، وما يركب وما يجعل به حـياته أكثر يسرًا، وأقدر على الاستفـادة من كل ما سخر الله له فى هذه الدنيا.

ثم رزقه من طيبات الحياة الدنيا كثيراً مما يلزمه، وكثيراً مما يتلذذ به، وكثيراً مما تسره رؤيته أو سماعه أو شمه أو لمسه، وسمح له بممارسة كل ذلك فى إطار الشرعية والبعد عن الإسراف والمخيلة.

والإنسان بهذه الطبيعة التى خلقه الله عليها متميز على كثير ممن خلق الله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن طبيعة الإنسان أن الله سبحانه خلقه مهيأ لأن يتحمل من الشدائد والصعاب فى مكابدة الحياة الدنيا - وهى كثيرة تصاحب كل مرحلة من مراحل حياته - بل جعل من طبيعته كذلك أن يُضَيِّع ما يعنيه ويشتغل بما لا يعنيه كما يقول الإمام الترمذى رحمه الله.

ومن طبيعة هذا الإنسان أنه مغرور، يظن ألا يقدر عليه أحد ناسيًا قدرة الله عليه.

ومن طبيعته أنه فى بعض الأحيان يهلك ماله فيما لا يفيده بل ربما فيما يضره متغافلاً عن أن الله سبحانه يراه، وسوف يحاسبه على تبديد نعمه فى غير طائل، مع أن الله أرسل له الرسل يهدونه إلى ما يفيده، قال الله تعالى فى توضيح هذه الطبيعة البشرية: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٤-١٠].

قال القرطبى - رحمه الله -: (قال أبو حازم رضى الله عنه: قال النبى ﷺ: «يا بن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمتُ عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك بصرك فيم حرمتُ عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، وإن نازعك فرجك فيما حرمتُ عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق»).

ومن طبيعة هذا الإنسان أنه يجزع عندما يصيبه الشر، ويؤدى جزعه إلى تفاقم أخطائه، وأنه إن أصابه الخير فحصل على المال أو السلطان أو الجاه بخل وشح وامتنع أن يعين الناس، فأنكر حقوقهم فيما أنعم الله عليه به، وهى طبيعة فى معظم الناس إلا من عصم الله منهم بالإيمان والهدى، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخطه، ثم تعبده الله بإنفاق ما يحب، والصبر على ما يكره.

ومن طبيعة الإنسان أن الله سبحانه خلقه ضعيفًا يستميله هواه، وتستخفه شهواته وغضبه، فلا يستطيع الصبر على مكروه، ومن أجل هذه الطبيعة فإن الله خفف عنه بأن شرع ما هو أيسر عليه وأقدر على تحقيق مصلحته فى دينه ودنياه؛ لأنه سبحانه ما جعل على أحد فى الدين من حرج، وما شرع شيئًا يعجز الإنسان عن أن يمارسه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ومن طبيعة الإنسان أن الله فطره على حب الشهوات التى تتمثل أوضح ما تتمثل فى النساء، والبنين، والاستكثار من الذهب والفضة، والأعيان والأملاك، ومتع الحياة، ومحاولته الحصول على هذه الأمور من كل سبيل، وأحيانًا من أى سبيل دون تَحرٍ لما أحل الله، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال القرطبى: (قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس:

أما الذهب والفضة فيتمول به التجار.

وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك.

وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادى.

وأما الحرث فيتمول به أهل الرساتيق (القُرى).

فأما النساء والبنون ففتنة للجميع)[١].

تلك هى طبيعة الإنسان يعرفها الإسلام تمام المعرفة، ويشرع لها أنسب التشريعات وأحسنها.

ومن خلال هذه المعرفة الدقيقة بالإنسان، تكون المعرفة الدقيقة أيضًا لتربية هذا الإنسان وتربية جسده كما ربيت روحه وعقله.

إن هذه الطبيعة البشرية تستطيع أن تعبر عن نفسها ورغباتها وشهواتها فى حدود ما شرع الله لها وما أباح.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١/٣٦).

وأما مسألة قمع شهوات الجسد ومحاربة رغباته فهى غير واردة فى الإسلام، كما أن ترك الجسد يعبر عن شهواته ورغباته دون قيود فهو غير وارد كذلك فى الإسلام ولا فى منهجه التربوى للجسد؛ لأن الله تعالى لم يفطر الإنسان على حب الشهوات ثم يحرمها عليه أو يحرمه من ممارستها: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إن الله تبارك وتعالى تفضل على الإنسان فأحاطه بنعمه ما ظهر منها وما بطن: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

ب- الإسلام يعترف بحق الإنسان فى التمتع بما أحل الله:

إن مخلوقات الله سبحانه التى خلقها للإنسان ينتفع بها ويستمتع كثيرة، وإن الله تبارك وتعالى ليعتبر ذلك كله من نعمه على الإنسان، نعمه التى لا يمكن حصرها ولا إحصاؤها، قال الله تعالى: ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥-١٨].

إن من حق الإنسان أن يستمتع بكل ما خلق الله فى البر والبحر - كما أوضحت سورة النحل فى تلك الآيات الكريمة التى ذكرنا آنفًا - كما أن من حقه أن يستمتع بكل ما أودع الله فى البحار والأنهار، يأكل منها اللحم الطرى، ويستخرج للآلئ والأحجار الكريمة للزينة، ويركب مياهها فى الفلك يقطع بها المسافات فى تنقلاته وتجارته، ويحمل عليها

أمتعته، أباح الله سبحانه له كل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

والآيات القرآنية التى توضح أن الإنسان من حقه أن يمد جسمه بالغذاء واللباس والطيبات كثيرة - قدمنا طرفًا منها ونحن نتحدث عن مفهوم التربية الجسدية - وكلها تؤكد حق الإنسان فى ذلك، وبعضها يلوم من يمنع الإنسان من التمتع بذلك، وهذا هو اعتراف الإسلام بحق الجسد فى أن يعبر عن رغباته وشهواته فى حدود ما أحل الله له.

جـ- حماية الإسلام الجسد بالأخلاق القويمة:

وذلك أن الإسلام فى معرفته بطبيعة هذا الجسد واعترافه له بحقه فى التعبير عن رغباته وشهواته فى حدود ما شرع الله، يعمل من جانب آخر على حماية هذا الجسد - وعاء الروح والعقل - من كل ما يصيبه بالضرر، ويدعوه إلى ممارسة ما يعود عليه بالنفع، كل ذلك فى دينه ودنياه معًا.

وإن هذه الحماية لتتمثل فى خطين رئيسين:

الأول: التَّخلى عن ذميم الأخلاق.

الثانى: التحلى بحميد الأخلاق.

ومن خلال ممارسة هذا التخلى وذاك التحلى، تكون استقامة الجسد على شرع الله ومنهجه، وتكون فى ذلك سعادته فى الدنيا والآخرة.

وإذا كانت الأخلاق الذميمة معروفة للناس، غير أننا نذكر منها ما نود أن ننبه إلى خطره وضرره على الجسد البشرى -وإن كان كل خلق ذميم ضارًا بالإنسان جسده وعقله وروحه- ومن هذه الأخلاق الذميمة الزنا والمسافحة واللواط وشرب الخمر وغيرها مما سنشير إليه.

أما الزنا فهو محرم فى كل دين وكل كتاب، وقد وصف الإسلام الزنا بأنه فاحشة، وذلك لسوئه وسوء عاقبته وضرره الشديد على الجسد والنفس والمجتمع والأبناء الذين يولدون من الزنا.

والمسافحة: أن يعاشر الرجل امرأة من غير زواج صحيح وهو نوع من الزنا ولا يقل عنه ضررًا وشرًا.

واللواط: إتيان الرجل الرجل، وهو شذوذ عن الفطرة، وخروج بها عن منزلة الكرامة الإنسانية التى أوجبها الله للإنسان، وقد حرم اللواط فى كل دين كذلك، وقد بشع الإسلام هذه الجريمة وتحدث عنها القرآن الكريم فقص قصة قوم لوط، وأوضح كيف عاقبهم الله على هذه الجريمة البشعة.

ومن الأخلاق الذميمة التى تضر بالإنسان جسده وروحه وعقله: خلق الإسراف، ولذلك حمى الإسلام الإنسان بتحريم الإسراف مطلقًا، فى الطعام والشراب والملبس والمسكن وفى كل عمل يمارسه الإنسان؛ لأن فى الإسراف خروجًا على حد التوسط والاعتدال، وكل خروج عن هذا الحد ضار بالجسد وبالإنسان كله.

وكذلك الشأن فى سائر الأخلاق الذميمة كالخلاعة، والتخنث، وتشبه الرجال بالنساء، أو تشبه النساء بالرجال.

وكذلك الشأن فى تعاطى أم الكبائر وما فى حكمها، من كل مسكر أو مخدر أو مفتر، ولو شئنا أن نعدد ذميم الأخلاق لاتسع بنا مجال القول بأكثر مما يتحمل هذا الجانب من الكتاب، ولكن حسبنا هنا أن نؤكد أن كل محرم حرمه الله فيه ضرر بالغ يلحق بالإنسان جسده أو روحه أو عقله أو المجتمع الذى يعيش فيه؛ لأن الله سبحانه لا يحرم على الإنسان شيئًا إلا ليدفع عنه بهذا التحريم ضررًا يعود عليه فى دينه أو دنياه.

وإن التأمل فى باب الحلال والحرام أو باب الحظر والإباحة فى كتب الفقه الإسلامى، ليدلنا ويضع أيدينا على قائمة ضخمة من المحرمات أى من الأخلاق المذمومة، وفى كل هذه المحرمات وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.

وإن الإسلام يحمى الجسد بالتخلى عن هذه الأخلاق الذميمة، يضم إلى ذلك دعوته إلى التحلى بالأخلاق الحميدة، ويحشد لهذه الدعوة عددًا من آيات القرآن الكريم، وتأتى السنة النبوية المطهرة لتحشد عددًا هائلاً من الأحاديث النبوية الشريفة.

وإن من الأخلاق الحميدة التى يجب التحلى بها لحماية الجسم من الأضرار غض البصر، والعفة، والاستقامة، والنظافة، والطهارة، والاعتدال، والتوسط فى تناول أى أمر من أمور الحياة؛ لأن التحلى بذلك خير ما يحفظ على الإنسان بدنه.

د- الدعوة إلى الرياضة البدنية:

الرياضة البدنية حماية للجسد وتدريب له على الأخذ بأسباب القوة والنشاط، وهى فى ذات الوقت تعويد على تحمل الشدائد والمصاعب التى قد تواجهه فى حياته، كما أنها تعطى الجسد القوة والقدرة على ممارسة نصيبه من الاستمتاع بما فى الحياة من طيبات ما أحل الله؛ لأن الجسد الضعيف يعجز عن هذا كما يعجز عن ممارسة الحياة اليومية التى تؤمن له كسب قوته.

إن الإسلام وهو يربى الجسد يحرص على أن يكون هذا الجسد قويًا، ولا تتوفر له القوة وأسبابها إلا إذا أعطى هذا الجسد حقه من الرعاية والعناية، والالتزام بكل ما أوجب الله عليه.

روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «... **ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة**»، فقلت: بلى يا نبى الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «**فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام**»، قلت: يا نبى الله، إنى أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فإن لزوجك عليك حقًا، ولزورك عليك حقًا، ولجسدك عليك حقًا...**».

وحق الجسد معروف وهو مده بأسباب القوة من طعام وشراب وتمتع بطيبات الحياة، ومنعه من أسباب الضعف كالحرمان من هذه الأمور أو الإسراف فيها أو ممارسة شىء مما حرم الله، كما أن من حق هذا الجسد ترويضه بالفروسية والرمى والسباحة وغيرها من وسائل تقوية الجسد.

روى الإمام مسلم بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠] **ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى**».

وروى مسلم بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه**».

وروى النسائى بسنده عن خالد بن يزيد الجهنى قال: كان عقبة بن عامر رضى الله عنه يمرّ بى فيقول: يا خالد، اخرج بنا نرمى، فلما كان ذات يوم أبطأت عنه، فقال: يا خالد، تعال أخبرك بما قال رسول الله ﷺ، فأتيته، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يدخل**

بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب فى صنعه الخير، والرامى به، ومُنْبِله، وارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا، وليس اللهو إلا فى ثلاثة: تأديب الرجل فرسه - الفروسية - وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها» أو قال: «كفر بها».

قال القرطبى بعد أن ذكر هذا الحديث: (ذُكر هذا الحديث بلفظ: «كل لهو يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق» ومعنى هذا، والله أعلم، أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدة فهو باطل، والإعراض عنه أولى، وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهى بها وينشط فإنها حق لإتصالها بما يفيد، فإن الرمى بالقوس وتأديب الفرس جميعًا من معاون - جمع معونة - القتال، وملاعبة الأهل قد تؤدى إلى ما يكون عنه ولد يوحد الله ويعبده، فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق)[1].

وروى البخارى بسنده عن يزيد بن أبى عبيد قال: سمعت سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: مر النبى ﷺ على نفر من أسلم - قبيلة من اليمن - يتناضلون بالسوق، فقال: «ارموا بنى إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا، وأنا مع بنى فلان - لأحد الفريقين -» فامسكوا بأيديهم، فقال: «ما لكم؟» قالوا: كيف نرمى وأنت مع بنى فلان؟ قال: «ارموا وأنا معكم كلكم».

قال القرطبى - بعد ذكره جزءًا من الحديث هو: «ارموا فإن أباكم كان راميًا..» -: (وتعلم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية، وقد يتعين - أى يصير فرض عين-)[2].

وبعد: فأى اهتمام من الإسلام برياضة الجسم أكبر من أن الرسول ﷺ نفسه كان يتسابق، وكان يصارع.

فقد سابق عائشة أم المؤمنين فسبقته مرة، وسبقها أخرى.

وقد صارع ركانة - وهو يجيد المصارعة - فصرعه الرسول ﷺ.

روى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع النبى ﷺ فى سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجلى - أى غير راكبة - فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى، فقال: «هذه بتلك السبقة».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٥ - ٣٦

(٢) السابق: ٨/٣٦.

وروى أبو داود بسنده عن محمد بن على بن ركانة: أن ركانة رضى الله عنه صارع النبى ﷺ فصرعه النبى ﷺ.

ومن كلمات عمر بن الخطاب رضى الله عنه التى وجّه بها إلى الولاة فى الأقطار قوله: أما بعد، فعلموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل.

تلك تربية الإسلام للجسد واهتمامه به ذلك الاهتمام الذى لا يغيب عنه الهدف أبدًا، والهدف دائمًا هو التوسط بين طرفى المبالغة فى شأن الجسد بإطلاق الحرية لشهواته، والتهوين من شأنه إلى درجة قمعه ومقاومة رغباته.

إن الإسلام يمكن الجسد بهذه التربية من أن يؤدى فى الحياة وظيفته، وهى عبادة الله، وإعمار هذا الكون، والتعارف مع الناس والتعاون والتراحم والتواصى بالحق والتواصى بالصبر مع المؤمنين؛ رغبة فى إرضاء الله تبارك وتعالى.

إن الناشئين عندما يشبون على هذا النحو من العناية بأجسادهم بعد العناية بأرواحهم وعقولهم، فإنهم يكونون الأمة الإسلامية القادرة على أن تمارس الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله تعالى.

●●●●

الفصل الخامس

التربية الجمالية

١- مفهوم التربية الجمالية

الجمال بالنسبة للإنسان هو: حُسن الخَلْق أو الخُلق أوالفعل أو جميع هذه الصفات.
والجمال: صفة تلحظ فى الناس والأشياء وتبعث فى النفس سروراً ورضا.

وللجمال مقاييس فى الخلقة والخلق والفعل، وهذه المقاييس، وإن اختلفت عند بعض الناس عن بعض، أو بعض الأزمنة والأمكنة عن بعض، إلا أن منها جانبًا ثابتًا لا يتغير، ولا يختلف عليه الناس أو الأزمنة أو الأمكنة، وهو ما يتصل بالأخلاق؛ إذ الأخلاق الفاضلة متفق عليها عند الجميع، وكذلك الأخلاق المرذولة ليست محل خلاف عند الناس، ويلى ذلك فى ثبات المقاييس الأفَعَال؛ لأنها فى الأعم الأغلب تابعة وتابعة للأخلاق.

أما جمال الأجساد عند الناس، وجمال الأشياء، فليحظ فيه فى الأعم الأغلب اختلاف فى المقاييس بين الناس وفى الأزمنة والأمكنة.

وللفلسفة فى هذا المجال باع طويل، وأحاديث ذات تفاريع، غير أن الذى يعنينا هنا هو أن نؤكد أن الجمال فى الإسلام -وبخاصة ما يتصل منه بالأخلاق والأفعال - مُسلّم به، وغير قابل للتغيير أو التبديل.

أما جمال الخَلْق وجمال الأشياء فإن الإسلام علَّم الإنسان أن يحاول ما وسعه أن يكون جميلاً فى مظهره وجوهره، ومطعمه ومشربه، وملبسه ومسكنه، وأن يجعل ما حوله من الأشياء جميلاً أى متناسقًا مترتبًا نظيفًا محببًا، يبعث على السرور والرضا.

ولعلماء الإسلام من أسلافنا تعريف وتحديد للجمال، فقد قالوا: (الجمال يكون فى الصورة وتركيب الخلقة، ويكون فى الأخلاق والعاطفة، ويكون فى الأفعال.

فأما جمال الأخلاق: فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد.

وأما جمال الأفعال: فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم.

وأما جمال الخلقة: فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائمًا، فتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر[1].

وقد وردت كلمة «الجمال» و«الجميل» فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية المطهرة الصحيحة.

أما ورودهما فى القرآن الكريم ففى الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٨].

وَوَصْفُ الصبر بأنه جميل فى الآيتين يعنى أنه صبر بلا شكوى، وقد سئل النبى ﷺ عن الصبر الجميل فقال: «هو الذى لا شكوى معه».

وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦].

أى اعف عنهم، واصفح صفحًا حسنًا أى تتنازل فيه عن حق نفسك.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩].

والتسريح الجميل فى هاتين الآيتين هو التسريح بإحسان.

وقال عز شأنه: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ١-٧].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٧١.

والصبر الجميل فى هذه الآية هو الصبر الذى لا جزع فيه ولا شكوى.

وقال عز من قائل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والصبر الجميل هنا هو الإغضاء عنهم وترك الانتقام منهم، أى لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن فى ذلك تركهم إلى الله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦].

والجمال هنا: سرور ورضا.

قال القرطبى: «الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله، أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى بنبى الله يعقوب وسائر النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو.

وقال ابن جريج عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى لا أشكو ذلك إلى أحد.

وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ لم يصبر»[(١)].

ذلك معنى «جميل» و«جمال» كما وردت فى القرآن الكريم، وهذا المعنى لم يخرج فى جملته عن الحُسْن الخِلقى والخُلقى والعملى، والتناسق والنظام، وكل ما يبعث فى النفس السرور والرضا.

وأما ورود هذه الكلمة -الجمال والجميل- فى السنة النبوية فيما يلى على وجه الاستشهاد لا الحصر[(٢)].

روى الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ: قال: «لا

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: تفسير الآية ٨٣ سورة يوسف.

(٢) وعلى سبيل الحصر فقد وردت الكلمة فى الكتب السبعة فى اثنين وعشرين حديثًا نبويًا، وهى البخارى ومسلم والترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجة وأحمد بن حنبل.

يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

وروى الترمذى بسنده أن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان»، قال رجل: إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنًا ونعلى حسنًا، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من بَطِر الحقَّ وغمط الناس».

وروى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبى ﷺ، وكان رجلاً جميلاً، فقال: يا رسول الله، إنى رجل حُبِّب إلىَّ الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل -أو قال: بشسع نعل، أفمن الكبر ذلك؟ قال: «لا، ولكن الكبر من بطر الحقَّ وغمط الناس».

وهى كذلك فى السنة دلت على الحسن الخِلْقى وحسن الثوب والمنظر وعدم دلالة ذلك على الكبر.

وهكذا يتضح لنا مفهوم الكلمة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أما التربية الجمالية فإنها تعنى لدينا فى هذا المجال -مجال الحديث عن الناشئين- إيجاد الحس الجمالى لديهم، وتدريبهم على ترقية هذا الحس، حتى يشعر الإنسان بما يحيط به من جمال الكون وجمال الحياة الإنسانية، بل جمال الإنسان نفسه فى خَلقه وخُلقه وأقواله وأفعاله؛ لأن الإنسان فى الحق -لو استقام على الفطرة التى فطره الله عليها -أجمل ما خلق الله وأكرم على الله من كثير من خلقه.

إن الناشىء عندما يرى هذا الجمال ويتذوقه، يفيد منه ما يساعده على أن يصبغ حياته كلها بهذا الجمال، إنه إن يفعل يصبح جميلا فى شكله وملبسه ومسكنه ومطعمه ومشربه وقوله وفعله، فيحقق بذلك لنفسه ولمن يتعايش معه من الناس الرضا والسعادة.

وهذه التربية الجمالية لا تقل أهمية عن التربية الروحية أو التربية الخلقية أو التربية العقلية أو الجسدية؛ لأن كل أنواع التربية -التى ذكرنا والتى سنذكر- تهتم بالإنسان وهو روح وخلق وعقل وجسد وحس جمالى بنفسه وبما يحيط به.

إن الكون الذى يحيط بالإنسان ملىء بمظاهر الجمال وعلاماته، وإن الإنسان بحكم فطرته لابد أن يتأثر بما يحيط به ويؤثر فيه، فتأثر الإنسان بجمال الكون فى الناس والأشياء يأتى

من تأمله فى هذا الجمال الذى يحيط به، وهذا التناسق والنظام والانسجام الذى يجمع بين الموجودات بحكمة إلهية جليلة، يتأمل ليرى ببصره ويحس ببصيرته وتمتلىء مشاعره إعجابًا فسعادةً فسرورًا، فإذا به يحاول أن يكون جميلاً فى منظره وجوهره، فى قوله وفعله؛ لأنه أحس فأعجب فسعد، فإن غفل الإنسان عن التأمل والنظر والتدبر فإنه يحرم نفسه متعة الإعجاب بالجمال الذى حوله، ويحرم نفسه من التأسى به وصبغ حياته به، إن ذلك هو التأثر الإيجابى بالجمال وهو ما تستهدفه التربية الجمالية للإنسان.

أما تأثير الإنسان فيما يحيط به، فيتمثل فى أن يحاول الإنسان أن يتصدى لكل عابث بشيء جميل يحول بينه وبين ذلك، ويحاول أن يعيده إلى ما كان عليه من جمال، فضلاً عن صناعته الجمال بنفسه فى نفسه وفيما يحيط به، فإن لم يفعل فإنه يحرم نفسه ويحرم ما حوله ومن حوله من هذا الجمال، وما أتعس أناسًا أو أشياء حرموا من الجمال!!

إن التربية الجمالية للإنسان فى الإسلام تعنى أن ينطبع هذا الإنسان على حب الجمال، وممارسته فى كل أموره؛ لأن ذلك هو الإنسان المسلم السوى المتأثر بما حوله المؤثر فيه، ومن غير هذه التربية فإن الإنسان يصبح سلبيًا غير فاعل، وغير جدير بأن يكون الإنسان المسلم؛ لأن المسلم إيجابى فاعل.

إن التربية الجمالية فى الإسلام تحدث تكاملاً فى شخصية المسلم، وبدونها يضيع هذا التكامل، فيندفع الإنسان إلى ما يضره، ويحال بينه وبين ما ينفعه فى أمر دينه ودنياه.

●●●●

٢- كيف يربى الإسلام الحس الجمالى؟

للإسلام فى التربية الجمالية للإنسان خطة تقوم على إيقاظ الحسّ الجمالى عنده، وذلك بمطالبة الإنسان أن يتأمل فى نفسه وفيما يحيط به من جميل مخلوقات الله فى الكون والحياة، فإذا استيقظ هذا الحسّ فإن الإنسان مطالب بأن يجعل الجمال هدفه ورائده، فى مظهره ومخبره، فى قوله وفعله، وتعامله مع كل ما يحيط به، والالتزام فى هذا الجمال بالأسلوب أو الوسيلة التى ترضى الله عز وجل وتجيزها الشريعة الإسلامية، حتى لا يحدث للإنسان فتنة بالجمال.

وإذا عمل الإنسان على أن يكون كل ما يمارسه جميلاً فإن ذلك يزكى إنسانيته، ويدعم النزعة الاجتماعية فيه، وبالمعايير الإسلامية فإن الإنسان عندئذ يصبح قادرًا على أن يحقق لنفسه ولغيره سعادة الدنيا والآخرة.

فما هى خطة الإسلام فى تلك التربية الجمالية؟ إنها خطة تقوم على أسس ثلاثة:

الأول: النظر والتأمل فى صنع الله سبحانه.

والثانى: العمل على أن يكون الجمال هدفًا للإنسان.

والثالث: الالتزام بالوسيلة أولا أو الأسلوب الذى يرضى الله.

ولتفصيل هذه الأسس نقول:

الأساس الأول: النظر والتأمل فى صنع الله سبحانه:

وهو النظر والتأمل فى جمال ما خلق الله تعالى من خلال عرض القرآن الكريم ذلك - والقرآن الكريم حافل بالحديث عن مظاهر الجمال الحسى والمعنوى -ومن خلال نظر الإنسان وتأمله فى مخلوقات الله التى يراها أو يحسّ بها فى حياته.

فمن الجمال المعنوى الذى يدرك بالمشاعر لا الحواس، وعن طريق استمتاع الروح ورضا القلب والعقل، ما تحدث عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

إن هاتين الآيتين الكريمتين تتضمن الأولى منهما تقابلاً فى المعنى بين الموت جهاداً فى سبيل الله والموت فراراً من الأعداء، فكله موت، ولكن الغاية مختلفة فى النوعين وذلك أن الموت بالنسبة للذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، خشية أن يقتلوا فى الجهاد بسيوف أعدائهم فى ساحات الشرف، ماتوا بسيوف أعدائهم وهم فى غاية الذلة والمهانة لم يجاهدوا ولم يقاوموا، ماتوا على الرغم من أنهم ألوف فى الكثرة وأشد حذراً وخشية -على حين أن قلة منهم صبروا على قتال الأعداء، وأدوا واجب الجهاد فأحيا الله بذلك جماعتهم، وعاشوا حياة العزة بعد الذلة.

والجمال فى هذه الآية جمال معنوى هو التقابل بين موت شريف فيه حياة، وموت ذليل فيه ذلة وفناء، إن ذلك درس للمجاهدين فى سبيل الله فى كل زمان ومكان، لا ينبغى أن يهابوا عدواً ولا يخنعوا أو يذلوا، فالفرق شاسع بين شهيد فى سبيل الله أو منتصر أعز الله به الحق، وهارب فار مقتول بيد عدوه لم يُجْدِ معه حَذَر ولا كثرة.

ومن الجمال المعنوى كذلك جمال قوة الحجة، ونصاعة الجدل الذى يستهدف إحقاق الحق، كما بدا فى الحوار الذى دار بين أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومن جادله فى ألوهية ربه سبحانه ووحدانيته، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفى جمال التقابل بين أثر الكلمة الطيبة التى تشبه الشجرة الطيبة الراسخة الثابتة والضاربة بأفنانها إلى السماء، وأثر الكلمة الخبيثة التى تشبه الشجرة الخبيثة التى لا جذر لها وإنما هى ملقاة على الأرض لا فائدة منها، فالأولى هى كلمة التوحيد الثابتة فى قلب المؤمن المترجمة بالعمل الصالح الصاعد إلى الله، والثانية: كلمة الباطل أو الكفر المزعزعة القلقة التى لا تؤدى إلا إلى شر، كما جاء هذا التقابل فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

وفى جمال العدالة التى تقر مبدأ خصوصية العقوبة أو شخصيتها -وهو مبدأ لم يعرفه الفقه القانونى إلا فى العصور الحديثة- جاءت آيات قرآنية تقر هذا المبدأ لتمنع أن يعاقب أحد على جريمة ارتكبها سواه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وقد تكرر لفظ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فى سور فاطر والزمر والنجم.

وفى جمال المقارنة بين الأضداد فى مجال الهداية والحيرة، والحق والباطل، والإيمان والكفر، أو بين العمى والبصر والظلام والنور والحر والظل، والموت والحياة، حيث يكون الإيمان بصراً وبصيرة ونوراً وهداية وظلاً وراحة، وحياة إنسانية كريمة، بينما يكون الكفر عمى وانطماسًا وظلاما وضلالا وحرورا ومشقة وموتًا لإنسانية الإنسان، فى هذه المقارنة بين هذا وذلك، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٨-٢٤].

ومن الجمال الحسّى، الذى تدركه الحواس من سمع وبصر وغيرهما، ما هو مبثوث فى القرآن الكريم فى آيات عديدة، تستهدف تعميق إحساس الإنسان بهذا الجمال بعد إدراكه بحواسه وتأمل ما فيه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] أى النظر والاستدلال بعظيم مخلوقات الله تبارك وتعالى، النظر الذى يقوى الإيمان، وملكوت السموات والأرض أى الملك العظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن الجمال هنا كامن فى أن الحواس وهى تدرك كل هذه العظمة فى المخلوقات، فإن عليها أن تتدبر وتتأمل، هل يكون كل هذا الإعجاز فى المخلوقات من تلقاء نفسه؟ كما يهرف بذلك من لا يعرفون، أم أنه من صنع اللطيف الخبير العليم القدير؟ وما لم تنقل الحواس ذلك إلى العقل والقلب بأمانة فلن يكون إيمان بالخالق سبحانه ولا إيمان بالحق.

إن بديع صنع الله وجميل خلقه للإنسان يدعو هذه الحواس التى ترى هذا وتلمسه إلى أن تهتدى إلى الإيمان وإلى الحق، وإن جمال مخلوقات الله وبخاصة الإنسان الذى كان حيوانًا منويًا لا يرى، ثم صار فى رحم أمه إنسانًا متكامل البناء!! والذى يرى فى تلك الأرض التى كانت هامدة قاحلة ثم أنزل الله سبحانه عليها الماء فأنبتت وأزهرت ونفعت، إن كل ذلك من الجمال الحسى الذى تدركه الحواس، فيؤدى بصاحبه إلى تأصيل الإيمان وتحقيقه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومن الجمال الحسى الذى يدركه البصر والسمع قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٢-١١].

إن هذا النظر والتأمل فى بديع صنع الله سبحانه فى خلق الإنسان وما خلق من السموات والأرض والأجرام، إن هذه الدعوة إلى هذا التأمل والنظر فى هذا الجمال، هى الخطوة الأولى للتربية الجمالية عند الإنسان، لأنها توقظ عنده الحسّ الجمالى وتهيىء نفسه لأن تمارس الجمال، وتحاول أن يحيطها من كل جانب حتى تكون الحياة أكثر جمالاً وأكثر راحة للإنسان الذى كرمه الله.

الأساس الثانى: العمل على أن يكون الجمال هدفًا للإنسان:

بأن يعمل على تحقيقه فى ذاته، خُلُقًا وسلوكًا وعملاً وتعاملاً مع الناس.

وما دام الجمال -كما أسلفنا عند علماء المسلمين -يكون فى الصورة وتركيب الخلقة، ويكون فى الأخلاق الباطنة، ويكون فى الأفعال، فإن الإنسان قادر -بعد هذا التأمل والنظر فى مخلوقات الله- أن يجعل من أهدافه أن يكون هو جميلاً فى صورته، من حيث نظافته وطهارته وملبسه ومسكنه ومطعمه ومشربه، بحيث يبدو دائمًا جميل الشكل والصورة باعثًا من يراه على أن يسر به ويرضى عنه، ويحاول أن يأنس به.

إن جمال الصورة يبدأ بالنظافة والطهارة، لكنه لا ينتهى حتى يكون هناك تناسق وتلاؤم بين أجزاء هذه الصورة وما يتعلق بها، من شكل، وملبس، ومسكن، وصمت، وكلام، وحركة، وسكون.

إن الجمال فى كل ذلك يخضع دائمًا لما أقرته مفردات الشريعة فى هذه الأمور، فالشكل من ملبس ومسكن ومطعم ومشرب مشروط بألا يصاحبه إسراف أو مخيلة، والكلام والصمت والحركة والسكون مشروط فيها السكينة والوقار والبعد عن الصخب والضجيج وشهوة الكلام ورفع الصوت. إن هذا هو الجمال الحقيقى للإنسان فى ذاته وفى كل ما يحيط به من أشياء.

وأما جمال الأخلاق -وهو الهدف الثانى الذى تستهدفه التربية الجمالية فى الإسلام- فهو فى إجمال: أن تكون هذه الأخلاق على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل أحد -هكذا قال أسلافنا من العلماء بالإسلام.

ولو شئنا أن نفصل هذا الإجمال بعض التفصيل لقلنا: إن التأمل فى أوائل آيات سورة «المؤمنون»، والآيات الأواخر من سورة «الفرقان»، وأواسط آيات الشورى -التى سنذكرها بعد قليل- تدلنا على تفصيل كاف لجمال الأخلاق الإسلامية.

أما آيات سورة «المؤمنون» فهى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وأما آيات سورة الفرقان فهي: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

وأما آيات سورة الشورى فهي: ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٣].

وفى القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن محامد الأخلاق وتدعو الناس إلى التحلى بها، كما أن فيه آيات كثيرة تدعو إلى التخلي عن مساوئ الأخلاق.

وأما جمال الأفعال: فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم، وذلك أن مقاصد الشريعة -كما قال أسلافنا- إما ضرورية أو حاجية أو تحسينية في العبادات أو المعاملات.

وقد اتفق علماؤنا على أن الضروريات أصل للحاجيات، ومن المسلم به أنه ليس فى الدنيا مصلحة محضة ولا مفسدة محضة، ومقصود الشريعة فى كليهما ما غلب منهما.

ولابد من التنبيه إلى أن مقاصد الشريعة كلية وأبدية لا تتخلف أبدًا، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان، وبخاصة ما كان منها له صلة بالعقيدة والعبادة والأخلاق.

وكل ما أمرت به الشريعة فهو نافع للناس ومحقق لمصالحهم فى الدنيا والآخرة، وكل ما نهت عنه الشريعة فهو ضار بالناس ومُفَوِّت عليهم مصالح الدنيا والآخرة.

ولابد من التنبيه كذلك على أن الشريعة عندما كلفت الناس بالعبادة والعمل، إنما كلفتهم فى حدود ما يطيقون، وما لا يشق عليهم، ومالا حرج عليهم فى ممارسته، وأن الشريعة ما كلفت بهذه التكاليف إلا لكى تمتثل، ولكى تخرج المكلف عن دائرة الهوى، وأنها عندما تكلف بعمل فإنما تقصد أن يدوم عليه المكلف.

ولابد كذلك من التأكيد على أن أحكام الشريعة هى المرجع فى أعمال الظاهر وأعمال الباطن، وأن الذين يدعون أن أعمال الباطن خارجة عن تكاليف الشريعة آثمون.

ولابد من التنبيه إلى أن الأصل فى العبادات التعبد والتزام النص، فى حين أن الأصل فى العادات التعليل والقياس، وأن العادات لا تخلو من تعبد لله إذا عقدت النية على ذلك.

وكل تكليف شرعى لا يخلو أبدًا من حق الله تعالى وهو طاعته والتقرب إليه بالاستجابة للعمل المكلف به، كما لا يخلو من حق للعبد، وحق العبد هذا إما عاجل فى الدنيا وإما آجل فى الآخرة.

وهذا الحق العاجل للعبد -أى فعل العبد- على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما كان حقًا خالصًا لله تعالى كالعبادات، فإذا طابق الفعل الأمر كان صحيحًا، وإن لم يطابقه كان غير صحيح.

والثانى: ما كان مشتملاً على حق الله وحق العبد، وكان الغالب فيه حق الله، والأصل فيه أن يطابق المأمور به.

والثالث: ما اشترك فيه الحقَّان، وحق العبد هو الغالب، والأصل فيه أن الشريعة تجيزه؛ لأنها لا تأمر بما يضيع مصالح العباد.

ومن مقاصد الشريعة توضيح أن الدنيا تبذل فيها النعم من الله سبحانه لعباده لينالوها ويتمتعوا بها، وليشكروا الله على نعمه فيجازيهم فى الدار الآخرة على ما شكروا أو كفروا من نعمه حسبما يتضح لنا ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ودليل ذلك قول

الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

ولابد كذلك من التنبيه فى هذه الأفعال على أن صاحبها لابد أن يوافق قصده لقصد الشارع الحكيم، وكل فعل يقصد غير ما قصد الشرع فهو باطل، وكل فعل لواحد من الناس يجوز له أن يسقطه ما لم يكن إسقاطه مخالفًا للشرع، ولكن ليس لأحد كائنًا من كان أن يسقط حق الله تبارك وتعالى أو أن يحتال على ذلك؛ لأن الحيل فى ذلك ممنوعة بالكتاب والسنة والإجماع.

هذه الأمور العامة إذا تقيد بها الإنسان ووافق فعله قصد الشارع الحكيم، فذلك هو الفعل الجميل الذى يعود عليه وعلى الناس بالنفع والخير فى الدنيا والآخرة، وما يتم له ذلك إلا إذا جعل الجمال هدفًا له فى أخلاقه وسلوكه وأقواله وأفعاله، على نحو ما بينا آنفا.

بل إن الإسلام أمر باختيار جمال الأسماء للناس عند تسميتها أو إطلاق أسماء أو ألقاب عليهم، ورد ذلك فى السنة النبوية أكثر من مرة.

روى أبو داود بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم».

وروى أبو داود بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ غيَّر اسم عاصية وقال: «أنت جميلة».

وروى أبو داود بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال له: «ما اسمك؟» قال: حَزْن قال: «أنت سهل».

وهكذا ينبغى أن يكون الإحساس بالجمال والرغبة فى الحصول عليه حتى فى اختيار الأسماء، واختيار الأسماء فِعْل من الأفعال التى يمارسها الناس عندما يولد لهم فكان عليهم أن يختاروا أجمل الأسماء.

الأساس الثالث: الالتزام بالوسيلة أو الأسلوب الذى يرضى الله:

وهو الالتزام بأن يكون هذا الجمال الذى أصبح هدفًا للمسلم فى ذاته وقوله وفعله خاضعًا للوسائل والأساليب التى يرضى الله عنها لخلوها مما يغضب الله لأن الشريعة أجازتها، ومعنى ذلك أن الجمال ليس هدفًا لذاته فيفتن به بعض الناس، وإنما هو جمالٌ موظفٌ يحقق للفرد والجماعة مصلحة فى الدنيا والآخرة.

وإن كل الوسائل التى تتيحها الشريعة للوصول إلى أهداف بعينها لابد أن تكون مشروعة، ومعنى مشروعيتها ألا تشتمل على محرم، والمحرمات فى هذا المجال كثيرة، نذكر منها ما يلى:

أ- أن بعض الناس عندما يرغب فى أن يكون الكلام الذى يقوله جميلا قد يمارس فى الحصول عليه وسيلة نهى عنها الشارع الحكيم، مثل أن يتعاظل فى كلامه، أو يتكلف، أو يسجع عن تعمد، أو يتفيهق أو يتشدق، وكل ذلك مما وردت أحاديث نبوية بالنهى عنه.

ب- وأن بعض الناس وهو يحرص على أن يكون جميلا فى شكله أو فيما يحيط به، وعلى سبيل المثال فإن الحرص على جمال الملبس أو المطعم أو المشرب أو المسكن قد يوقع فى الإسراف أو المخيلة، وذلك منهى عنه فى الشريعة بآيات وأحاديث كثيرة.

إن الإسلام وهو يربى الحسّ الجمالى عند الإنسان يحرص تمامًا على ألا ينمو هذا الحس على حساب القيم الأخلاقية، وإنما يوجب أن ينمو موازيًا وملائمًا لكل القيم التى دعا إليها الإسلام وحبب فيها.

وإن التربية الجمالية فى الإسلام تعنى أن يكون الإنسان قادرا على تذوق ما فى الحياة والكون من مظاهر الجمال ليحبها ويقبل عليها ويحاكيها، فتتفتح بذلك حواس الإنسان على تلقى ما فى الكون من جمال، وتملأ قلبه بهذه المشاعر الكريمة التى تحس بهذا الجمال فيزداد لذلك إيمانًا على إيمانه لأنه تذوق جميل ما صنع الله.

والقرآن الكريم حافل -كما قدمنا آنفا- بما يغذى هذه الحواس وينميها، وأوضح ما يكون ذلك فيما تدركه حواس الإنسان من مرئيات ومذوقات ومشمومات ومسموعات.

ففى القرآن الكريم من الألوان مالا يشبع الإنسان من التأمل فيها بل الاستمتاع بها، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وفى القرآن الكريم عرض لبعض المذوقات، كقوله تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣].

وفى القرآن الكريم عرض لبعض المشمومات التى إذا تركت لطبيعتها تغيرت روائحها فأصبحت كريهة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لها أن تظل طيبة الرائحة على سبيل الإعجاز، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ويتسنَّه أى يفسد وتتغير رائحته.

وكقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [محمد: ١٥]

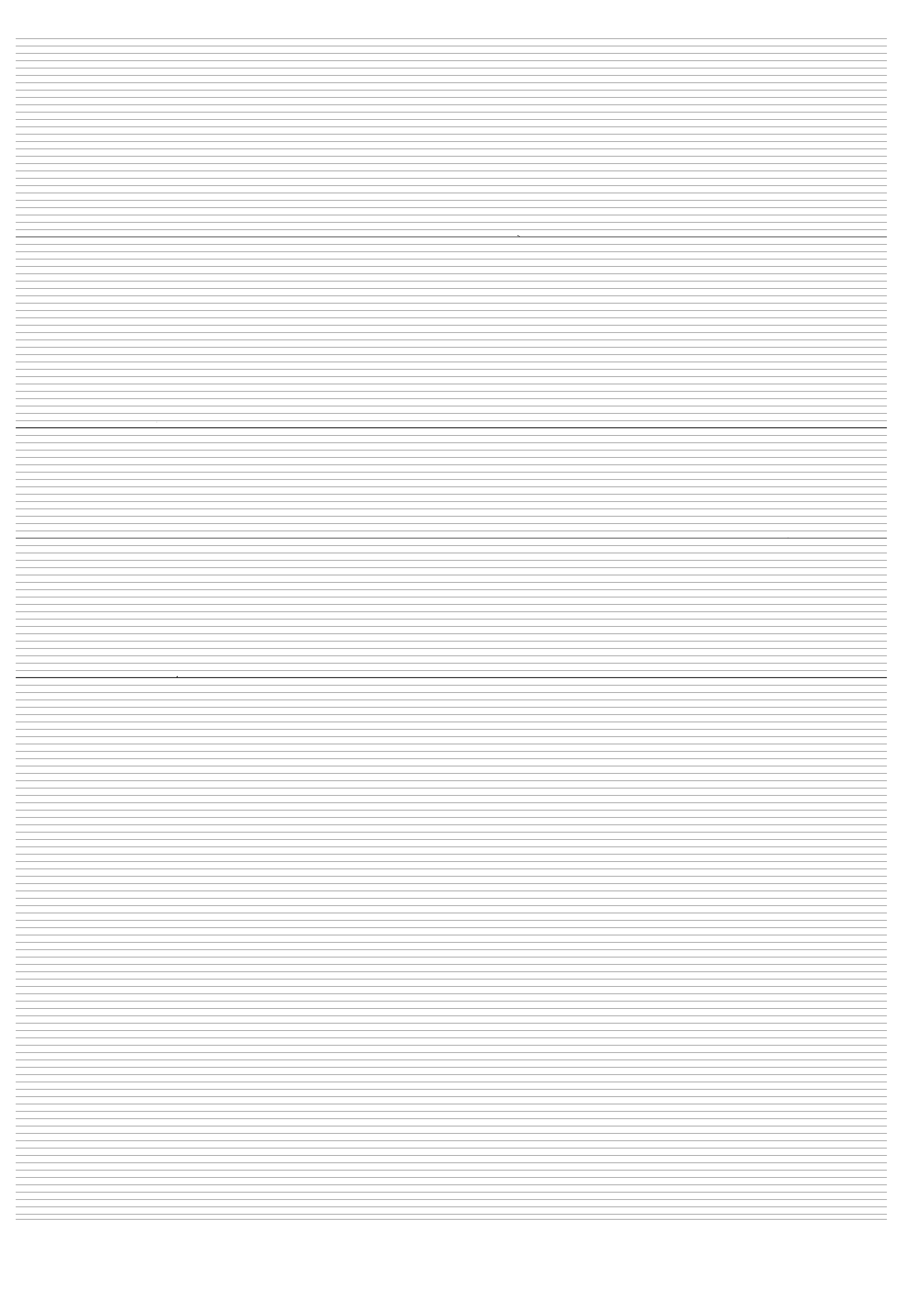
وفى القرآن الكريم من المسموعات آيات كريمة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦١، ٦٢].

وقوله جل وعلا: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ [ق: ٤١-٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٦-٨].

إن اشتمال القرآن الكريم على ذلك كله ليوحى إلينا بأن هذه الحواس منافذ للمعرفة والعلم، وأن من صالح الإنسان فى دينه ودنياه ألا يستعمل هذه الحواس إلا فيما أحل الله سبحانه، وذلك هو ترشيد الوسائل التى يلجأ إليها الإنسان وهو يحاول أن يحصل على الجمال فى نفسه وفى حياته.

●●●●



الفصل السادس

التربية الاجتماعية

١- مفهوم التربية الاجتماعية

التربية الاجتماعية تعنى: توضيح موقف الإنسان وتحديده بدقة من الجماعة التى يعيش معها، صغيرة كانت هذه الجماعة- كالأسرة- أو كبيرة- كالمجتمع- أو كبرى- كالعالم كله-.

كما تعنى توضيح علاقة هذا الإنسان بالكون والبيئة، وما يحكم هذه العلاقات من نظم اجتماعية كالدين والأسرة والأخلاق والسياسة والاقتصاد والثقافة والفكر، وأنواع السلوك والعادات والتقاليد والأعراف.

كما أن التربية الاجتماعية تهتم بتحديد القواعد التى تضبط لدى الناس سلوكهم الاجتماعى، الذى يسهم فى استقرار الحياة الاجتماعية واستمرارها، على النحو الذى يحقق لهم الأمن والرخاء.

وإن التربية الاجتماعية عند المسلمين تعنى تحديد النظم الاجتماعية بعامة، كما تعنى إقرار هذه النظم فى المجتمع، وإلزام الناس بها تقربًا بذلك إلى الله تعالى، وحصولاً على مصالح الدنيا والآخرة.

وإن النظم الاجتماعية الإسلامية التى تعنى التربية الاجتماعية بتحديدها، تتناول كل ما له علاقة بالإنسان المسلم، من حيث أنشطته التى يمارسها فردًا فى جماعة أو عضواً فى مجتمع، بدءًا من معتقداته وأفكاره وقيمه الأخلاقية التى يجب أن يتبناها ويعمل وفقها، ومُضِياً مع كل ما يمارسه الإنسان من قول وصمت وعمل وترك وتعامل مع أسرته وأقاربه وجيرانه وتعامل مع غير المسلمين.

إن التربية الاجتماعية الإسلامية تعنى بكل ذلك وتحدده بدقة، لا على أنه دراسة وصفية تفسيرية، تقارن بين المجتمعات فى مختلف الأزمنة والأمكنة، للتوصل إلى قوانين التطور التى تخضع لها هذه المجتمعات الإنسانية فى تقدمها وتغيرها - كما يفعل علم الاجتماع - وإنما تحددها على أساس أن الوحى قد جاء بها وفصلها، وأوضح أنماط السلوك التى يجب أن يسلكها المسلم فى حياته كلها، أملاً فى تحقيق مصالح دينه ودنياه.

كما أن التربية الاجتماعية الإسلامية لا تعتمد فى مجال الضبط الاجتماعى لسلوك الإنسان على الرقابة التى يتخذها المجتمع ليُلزم الإنسان بالتصرف وفق المعايير التى حددها المجتمع، سواء أكان ذلك فى شكل حكومة أم قانون أم رأى عام، لا تعتمد على ذلك وحده وإنما تعتمد قبل ذلك ومع ذلك على تنمية الإحساس لدى الإنسان بوجود الله سبحانه ومراقبته له - «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» - وهذا الإحساس بتلك المراقبة مع التزام بما أوضحه الإسلام من حلال وحرام، هو الذى يجعل الضبط الاجتماعى لسلوك الإنسان المسلم أكثر فعالية؛ لأنه نابع من سلطة داخلية فى نفس الإنسان وليس نتيجة لرهبة من سلطة خارجية تتمثل فى القانون أو العرف أو الشرطة مثلاً.

إن ذلك فارق حاد فى الضبط الاجتماعى، بين التربية الاجتماعية الإسلامية، والضبط الاجتماعى الذى يقرره علم الاجتماع.

كما أن التربية الاجتماعية الإسلامية تعمل على أن توقظ فى الإنسان المسلم حبه للانتماء، والاندماج فى أمته الإسلامية الكبيرة على مستوى العالم الإسلامى كله، لا مجرد الانتماء أو الاندماج فى الأسرة وحدها أو النادى أو النقابة أو الحزب السياسى أو المجتمع الإقليمى المحلى، وذلك أن المسلمين جميعًا أمة واحدة، أمة التوحيد أى عبادة الله وحده وفق ما شرع، كما يحدثنا عن ذلك القرآن الكريم فى آيتين كريمتين هما قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

أى أن الإسلام هو الدين الصحيح الذى يجب أن يحافظ عليه المسلمون وينتموا إليه ويعتزوا به، ويصبحوا به أمة واحدة؛ لأن الله تبارك وتعالى أبلغ الرسل جميعًا أن ما أرسلهم به هو الدين الواحد الصحيح فى عقائده وأصول شرائعه، وأن المؤمنين به أمة واحدة فى أى زمان وأى مكان إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

كما أن التربية الاجتماعية الإسلامية هى وحدها - من خلال الكتاب والسنة - التى تتكفل بوضع الأحكام والأنظمة التى توضح للأفراد حقوقهم الاجتماعية من تعليم وعمل وعلاج وتأمين ضد كل ما يمكن أن يتعرض له الإنسان من متاعب أو معوقات، وهى التى تقرر نوع المساواة بين الناس وحدودها، وتؤكد العدالة وتكافؤ الفرص، وتلزم بالواجبات، وتعمل على تنفيذ الحدود والعقوبات بالنسبة للخارجين على هذه الآداب والأخلاق.

إن التربيـة الاجتماعـية الإسلامـية تفعل ذلك من خلال الكتـاب الكريم والسنة المطهرة أصلاً، وقد تستعين أحيانًا باجتهـادات أهل الفقه بالإسلام، أو بإجماع أهل الدين والخبرة، ولا تدع ذلك لمن يسـمون أنفسـهم مشرعين ويتـجهـون فى عملهم وما يتـفقـون عليه إلى الاستـيحـاء من النظريات والنظم والمبـادئ المغـايرة للإسـلام أو المعادية له؛ لأن الـتربيـة الاجتماعية الإسلامية بهذه الأصول وقاية للمجتمع من هذا الانحراف وذاك الضلال.

التربيـة الاجتماعـية الإسلامـية تقف من المشكلات الاجتـماعية - وهى المفـارقات بين الواجب والواقع بالنسبـة للأفراد، وهى تمثل اضطرابًا وبعدًا عن الواجب - موقـفًا يختلف عن موقف علماء الاجتماع من هذه المشكلات.

ونستطيع أن نوضح بعض أوجه الاختلاف فيما يلى:

١- أن المشكلة الاجتـماعية عند المسلـمين هى المفارقة بين الواجب الذى أوجبـه الشرع والواقع الذى يمارسه بعض المخالفين لهذا الواجب.

بينما يرى عـلماء الاجتـماع - من الغَرْبيين - أن المشكلـة الاجتمـاعية هى المفـارقة بين المستويات المرغوبة والظروف الواقعية، بمعنى أنها تمثل اضطرابًا وتعطيلاً لسير الأمور بطريقة مرغوبة، كما يحددها القائمون بدراسة المجتمع.

٢- وأن الجماعة التى تنشأ بينها المشكلة الاجتمـاعية لدى المسلمين هى الجماعة الإنسانية كلها، لأن الإسلام حَدَّد للجماعـة الإنسانية كلها وظيفة اجتماعية، وألزمـها بأدائها واعتبر هذا الأداء تقربًا إلى الله ونيلاً لحسن الجزاء، كـما اعتبر التقصير فى الأداء مـوجبًا لعقوبات مقدرة - حدود - فى الدنيا، فضلاً عما يوجبه من عقوبات أخروية.

بينما ينظر علماء الاجتماع الغربيون إلى هذه الجماعة على أنها جماعة إقليمية تتفق فيما بينها على مـستوى مـرغوب فيه من الـسلوكيات - بغض النظر عن أن يكون هذا المسـتوى متمشيًا مع جماعة أخرى أو معاديًا لها ولمصالحها.

٣- وأن الإسلام لا يعفى حكومة أو راعيًا مسئولاً عن مسـئوليته المباشرة أو غير المباشرة فى هذه المشكلات الاجتماعية، على اعتـبار أنه لم يعمل على إزالة أسبابها أصلاً، أو على اعتبار أنه لم يضع لهـا العلاج الذى يقضى عليها، ويظل الإسلام يتنزل بهـذه المسئولية من الحاكم خليفـة المسلمين حتى يصل بها إلى مجال الأسـرة - أصغر كيان اجتمـاعى - فيرى المرأة مسئولة عن بيتها ومال زوجها وأولاده، والولد مسئولاً عن مال أبيه وهكذا. . .

أما علماء الاجتماع الغربيون فيكتفون بوصف المشكلة وتفسيرها، وربما وصفوها وصفًا دقيقًا، لكنهم لا يهتمون بوصف العلاج ولا بتحديد المسئول عن المشكلة، ولا بمطالبة المسئولين بالعمل على حلها.

إن هذه الفروق وغيرها بين التربية الاجتماعية الإسلامية وما يراه غير المسلمين فى هذه التربية، هى التى تضفى على التربية الاجتماعية الإسلامية إيجابية وحركة وقدرة على القضاء على أسباب المشكلات الاجتماعية قبل أن تحدث.

إن التربية الاجتماعية الإسلامية وهى تعد التخطيط الاجتماعى - أى تصنع خطة تتعلق بالمواد والمؤسسات الاجتماعية لتلبية حاجات المجتمع الإنسانى - تنظر إلى ذلك بنفس العمق والشمول الذى لا تقبل به أو معه أن تتعادى المجتمعات الإقليمية فى تلبية حاجاتها.

كما أن التربية الاجتماعية الإسلامية تنظر بنفس العمق والشمول لهذه الحاجات فترتبها ترتيبًا منطقيًا من جانب، وتتوسع فيها من جانب آخر.

أما الترتيب المنطقى لهذه الحاجات فحيث تبدأ بحاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة فى الخالق سبحانه وعبادته وفق ما شرع، وخلافته على هذه الأرض، وضرورة تعارفه على الناس جميعًا، وتعاونه وتكافله وتناصره وتواصيه بالحق والصبر مع المؤمنين من أمثاله، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وجهاده فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

وأما التوسع فى تحديد هذه الحاجات فإنه وإن بدأ بحاجات الإنسان الفردية من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وتعليم وعمل وثقافة وحق ثابت له فى التعبير عن رأيه ومعتقده وممارسة عمله، ومشاركته فى بناء أسرته ومجتمعه المحلى ومجتمعه الإقليمى ومجتمعه الإسلامى العالمى، فإنه يضع على رأس قائمة هذه الاحتياجات مفاهيم تكاد تكون جديدة على البشرية كلها قديمًا وحديثًا.

وهذه المفاهيم فى تصورى هى:

أولاً: أن كل مسلم فى المجتمع مطالب من قبل الشرع بأن يدعو إلى الله، إلى الحق والهدى، إلى هذا الدين الخاتم التام الكامل، وأن هذه الدعوة تعتبر من حاجاته الأساسية؛ لأنه بها يستطيع أن يؤمن نفسه وغيره فى الحاضر والمستقبل، فى الدنيا والآخرة ضد الأخطار وضد المشكلات الاجتماعية من أى نوع وعلى أى مستوى كانت.

إن القرآن الكريم يحكى على لسان خاتم الأنبياء محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالدعوة إلى الله حاجة أساسية من حاجات المؤمن السوى[1]، ومعنى ذلك أن الدعوة إلى الله هى السبيل لكل من اتبع محمداً ﷺ، بشرط واحد هو أن يكون على بصيرة بما يدعو إليه، وليس شىء أقدر على تطهير المجتمع من كل ما يسىء إلى الناس أو يوقعهم فى الضرر من الدعوة إلى الحق والخير والهدى.

ثانيًا: أن كل مسلم فى المجتمع مطالب من قبل الشرع بألا يكتفى بأن يمارس عمل الخير أو عمل الدعوة وحده، وإنما الأصل أن تتضافر جهوده مع جهود إخوانه من المسلمين، من مبدأ أن يد الله مع الجماعة، ومن منطلق أن التكاليف الفردية فى الإسلام هى أيسر التكاليف وأبسطها، وأن التكاليف الجمعية هى التى تحتاج إلى تضافر الجهود وتَضَامّ الصفوف والتعاون والتكافل والتناصر فى ظل التآخى فى الإسلام، ويتأكد ذلك عند التأمل فى القرآن الكريم الذى تردد فيه كثيراً مطالبات لسدّ الاحتياجات، ترددت بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، كقوله تعالى: ﴿يأيها الناس﴾ ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ ﴿اعبدوا ربكم﴾ ﴿وافعلوا الخير﴾ ﴿وأقيموا الصلاة﴾ ﴿وآتوا الزكاة﴾ ﴿كتب عليكم﴾ ﴿وأحسنوا﴾ ﴿وقل اعملوا...﴾ ﴿قل أطيعوا الله...﴾ إن هذه الصيغ تكررت فى القرآن الكريم مئات المرات، وما ذلك إلا لأن الأصل فى المسلمين أن يكونوا جماعة وأن يخاطبوا خطاب الجماعة، ويعملوا عمل الجماعة، ويلتزموا بآداب عمل الجماعة.

إن التربية الاجتماعية فى الإسلام تعد لكل إنسان فى المجتمع الأسلوب الذى يناسبه، وتعترف بواقعه، وتعمل على تحسين هذا الواقع بجعله مطابقًا لما أمره الله به، وإن الدعوة إلى الله تتدرج بذلك من الضلال إلى الهدى.

فهى دعوة تتجه إلى غير المؤمنين ليدخلوا ساحة الإيمان.

وتتجه إلى المؤمن غير المسلم ليدخل فى واحة الإسلام.

وتتجه إلى المؤمن المسلم العاصى ليدخل فى رياض الطاعة.

---

(١) توسعنا فى الحديث عن وجوب الدعوة إلى الله ومكانتها فى كتابنا الموسع: «فقه الدعوة إلى الله» نشر دار الوفاء ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

وتتجه إلى المؤمن المسلم الطائع ليكون فى دار الأمن مع الجماعة، فيأمن أن يأكله الذئب وهو شارد عن الجماعة.

وتتجه إلى المؤمن المسلم الطائع العامل فى الجماعة ليذوق لذة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وتتجـه إلى المؤمن المسلم الطائع العـامل فى الجماعـة الآمر بالمعـروف الناهى عن المنكر ليكون فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله، حتى تكون كلمة الله هى العليا، ولا يُعبد غير الله فى الأرض.

إن التربية الاجتماعية الإسلامية فى كلمات هى:

رفض الخضوع للحتمية الاجتماعـية، ورفض الانخداع بالحرية الاجتماعية؛ إذ هى وفق التشريع الإسلامى استواء للاجتماعية الإنسانية فى أكمل صورها.

●●●●

٢- كيف يربى الإسلام الإنسان الاجتماعى؟

ليس من المبالغة فى شىء القول بأن الإسلام وحده هو الذى نظم العلاقات الاجتماعية بين الناس بأسلوب لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، ليس ذلك من المبالغة؛ لأنه حقيقة، أصبح غير المسلمين يعترفون بها، على الرغم من أن بعضهم يضمر بعض الشر والحقد على الإسلام وهم يعترفون بهذه الحقيقة.

ومن أمثلة أولئك الكتاب الغربيين الذى اعترفوا بذلك «أوجست كونت» الفيلسوف الوضعى الذى لا يقيم وزنًا يذكر لكل القضايا المتعلقة بالإيمان والروح، هذا الفيلسوف يؤكد أن الإسلام قد وجهت إليه حملات الحقد والتشويه من كُتَّاب الغرب، يؤكده فى كتاب له شهير بين علماء الاجتماع هو: «نسق السياسة الوضعية».

حيث قارن فى كتابه ذاك بين الأديان بمنظار وضعى بحت، إنه يعترف أولاً: بأنه لن يشارك فى الحملة المفتعلة المسعورة ضد الإسلام فى الغرب دون معرفة بأعماقه الحقيقية، وأنه لن ينساق كما انساق «ديدرو diderot» فى حكمه على الإسلام؛ إذ أن حكمه لا يخلو من التعنت[1].

كما يؤكد «أوجست كونت» اجتماعية الإنسان المسلم بحيث لم يلحق بهذه الاجتماعية دين أو نظام، فى كتاب له آخر عنوانه: «محاضرات فى الفلسفة الوضعية» حيث يقول:

(فى الوقت الذى كان الغرب المسيحى مشغولاً بقضايا لاهوتية عقيمة تخدر العقل ولا تنشطه، كان العالم الإسلامى ينفتح على العلم والمعرفة والفنون، وبالتالى أصَّل اجتماعيته جنبًا إلى جنب مع روحانيته.

إن التفوق الاجتماعى وأهميته فى التعاليم الإسلامية أهَّلت المسلم ليكون أكثر صلاحية من غيره اجتماعيًا وأهلته للعالمية.

حاول الإسلام أن يحد من سلبية القضايا التى يواجهها فكريًا وذلك بمناقشته الصريحة.

وحينما نتكلم عن تقهقر الإسلام، فإنما الأولى أن نتحدث عن تقهقر المسلمين حين اشتغالهم بأمور ثانوية أبعدتهم عن تعميق تجاربهم الناجحة فى ماضى التاريخ، وتكيفها مع

---

(١) د. رشدى فكار: تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع ص ١١٧، نشر وهبة، القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م الطبعة الثانية.

طبيعة عصر اليوم عن طريق الاجتهاد العلمى فى واقع المجتمع ومعطياته الحالية، بل هذا ما ينصح به الإسلام.

لقد سَدَّ الإسلام فراغًا كبيرًا فى الميدان الاجتماعى بالنسبة لتطور الإنسانية، وقدم الكثير، وفاق ما قدمته «بيزنطة».

وركزت العبقرية الإسلامية نشاطها فى تنظيم المجتمع وحكمه وإدارته، وقالت بصدارة العلوم والفنون، فأكدت بذلك أصالة الإنسان اجتماعيًا)[1].

إن الإسلام قد وضع أحسن الأسس للاجتماع الإنسانى بحيث لم يُسبق إلى ذلك بدين أو نظام، ولم يلحقه فى ذلك أيضًا دين أو نظام.

إن القرآن الكريم قد أقر من المبادئ الاجتماعية ما يمكن من بناء الإنسان بناء صحيحًا، ويمكنه من التجاوب والتكيف مع الحياة الإنسانية فى ظل الأسرة والجماعة والمجتمع والأمة الإسلامية، بل البشرية كلها على مستوى الزمان والمكان.

وليس هناك فى هذا الكتاب مجال لتفصيل ذلك، وإنما مكان ذلك فى كتاب لنا يحمل عنوان: «التربية الاجتماعية الإسلامية»، ونكتفى هنا بإشارات خاطفة تؤكد ما نذهب إليه من أن التربية الاجتماعية من الأسس الإسلامية التى يجب أن يربَّى وفقها كل مسلم.

وعلى سبيل المثال:

فإن الأسرة فى الإسلام «الأبوين والأبناء...» هى الوحدة الأولى التى يتكون منها المجتمع المسلم، وقد أحاط الإسلام الأسرة بنظم اجتماعية تميزت بصلاحيتها وواقعيتها وقدرتها على تلبية حاجات الإنسان والمجتمع، وفى الوقت نفسه ألزم المسلمين بهذه النظم، ولم يسمح لأحد أن يخرج عليها لما لها من أهمية وفاعلية وقدرة على تحقيق مصلحتى المعاش والمعاد.

وإن أهم نظام من نظم الأسرة بل أول نظام هو الزواج، فقد أحاط الإسلام هذا النظام بكل أسباب النجاح والاستمرار والكفاءة والقدرة على أداء الوظيفة الاجتماعية له، إذ قد حدد للرجل والمرأة على السواء معايير الاختيار، ويكاد يكون قد حصرها بالنسبة للطرفين

---

(١) د. رشدى فكار - المرجع السابق: ١١٨.

فى الصلاح والتقوى أولاً، فإن وجد معهما ما يرغب أحد الطرفين فى الآخر من مال أو جمال أو حسب فذلك من فضل الله.

فقد قال رسول الله ﷺ يخاطب الرجال فى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك**».

وقال رسول الله ﷺ يخاطب المرأة أو أولياءها فى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى بسنده عن أبى حاتم المزنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**»، قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه؟ قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه**» ثلاث مرات.

وكان موقف القرآن الكريم من الأسرة موقفًا يضمن لها الاستقرار والرضا بما أوضح لها من الحقوق والواجبات بين الزوجين، وبما نظم لأمر الطلاق والخلع وتعدد الزوجات بأسلوب تأمن معه الأسرة أى قلق أو اضطراب[1]، وكذلك كان الأمر فى الأبناء وكل من يعيش فى كنف الأسرة المسلمة.

إن كل العيوب الاجتماعية التى كانت تحيط بنظام الأسرة قبل ظهور الإسلام، قد عمل الإسلام على تحرير الأسرة منها، كما أن كل الميزات والفضائل التى تحقق للأسرة حياة سعيدة هانئة فى الدنيا والآخرة، قد ألزم الإسلام بها، وجعل الخروج عليها إثمًا ومعصية وسببًا فى استحقاق العقاب فى الدنيا «الحدود والتعزيرات» وفى الآخرة بما شاء الله.

وإن إلزام الإسلام الناس بهذه النظم الاجتماعية للأسرة عن طريق الإقناع أولاً، ومراقبة الله ثانيًا، وخضوعًا للقانون وما يتضمنه من حدود وتعزيرات ثالثًا، هو بعينه التربية الاجتماعية للإنسان الاجتماعى.

إن الإنسان المسلم لا يستطيع أن يسىء اختيار زوجته فيخالف المعايير التى وضعها الإسلام للاختيار، بدعوى أنها مسألة تخصه؛ لأن هذه الخصوصية لابد أن تخضع لتلك المعايير وإلا دخل دائرة الإثم والحرج، كما أن الزوج المسلم لا يستطيع أن يهضم زوجته شيئًا من حقوقها ولا يجوز له ذلك شرعًا، ولكنه يستطيع أن يتنازل هو عن بعض حقوقه نحوها فيكون من خيار المسلمين، إذ أصبح بهذا التنازل خيرًا لأهله، والحديث الشريف

(١) فصلنا هذا فى كتابنا: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» نشر دار الوفاء ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، انظر الباب الثانى بفصليه والفصل الثانى من الباب الرابع - إن أردت التوسع.

الذى رواه البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «خيركم خيركم لنسائه وبناته».

كما لا تستطيع الزوجة المسلمة أن تقصر فى واجباتها نحو زوجها وإلا دخلت دائرة الإثم والحرج، وإنما تستطيع أن تتنازل عن شىء من حقوقها نحو زوجها فيكون ذلك فى ميزان حسناتها بهذه السماحة.

والأب المسلم لا يملك ولا يجوز له أن يهمل فى تربية أبنائه ولا فى بِرّ أرحامه وأقاربه، ولو فعل فقد خالف الله ورسوله بتنكبه للنظم الاجتماعية الإسلامية.

والمسلم لا يجوز له أن يجر على أسرته بسوء تصرفه فى نفسه أو ماله أى شىء يضر بالأسرة فى حاضرها أو مستقبلها، ولو فعل فقد عصى الله ورسوله بخروجه عن النظم الاجتماعية الإسلامية.

إن النظم الاجتماعية الإسلامية للأسرة قد أحاطت الأسرة بسياج متين من الأخلاق الفاضلة، وألزمت به كل أفراد الأسرة، ابتداء بأدب الاستئذان، وأدب غض البصر، وأدب الاختلاط بين النساء والرجال، وأدب تحمل مسئولية الأسرة، وانتهاءً بالالتزام بكل ما أمر الإسلام به أو حبب فيه.

وتلك هى التربية الإسلامية الاجتماعية التى لا تضاهى.

ولم يقف أمر التربية الاجتماعية الإسلامية عند حد الأسرة، بل تجاوز ذلك متوسعًا ليشمل الجماعة - وهى مجموعة من الناس تربطهم روابط خاصة - وليشمل المجتمع كله؛ إذ عمد الإسلام إلى تطهير الجماعة والمجتمع من كل عيب أو آفة تسىء أو تضر بالجماعة والمجتمع، وذلك من خلال صفات أخلاقية حاربها الإسلام وأخرى أقرها الإسلام وألزم بها، ومن خلال أقوال وأفعال وعادات أمر بها أو ندب إليها، وأخرى حَرَّمها أو كرَّه فيها؛ إن الإسلام صنع هذا وذاك ليضمن للجماعة والمجتمع علاقات طيبة تؤدى إلى التعاون والتراحم والتناصر والتكافل.

بل إن الإسلام من أجل المحافظة على الجماعة والمجتمع ألزم الأفراد جميعًا بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل الجمعى المنظم، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، ولينتشر دين الله، ويتحاكم إليه عباد الله.

إن قائمة الفضائل الاجتماعية التى جاء بها الإسلام طويلة طويلة لا نستطيع أن نحصيها فى هذا الكتاب من صدق وأمانة وعفة وعدل وإحسان واستقامة، وإنما نقول إجمالاً: إن الإسلام قد أمر بكل خير وبكل معروف، وبكل ما يحقق للإنسان مصالحه فى الدنيا والآخرة.

وإن قائمة الرذائل الاجتماعية التى نهى عنها الإسلام طويلة طويلة كتلك، لا نستطيع أن نحصيها فى هذا الكتاب، ولكن يمكن أن نشير منها إلى الكذب والنفاق والفسق والزُّور والبهتان والظلم والعدوان والزنا والسرقة وشرب الخمر والتجسس والغرور والتكبر.. ثم نقول إجمالاً: إن الإسلام قد نهى عن كل شر ومنع كل ضرر، وقاوم كل منكر، وكل ما يجلب على الإنسان ضرراً فى دينه أو دنياه.

إن هذه القوائم للفضائل والرذائل التى أوضحها الإسلام تستطيع - إذا الْتُزِمَ بالفاضل منها واجْتُنِب الرذْل منها - أن تؤكد فى نفوس الناس وعقولهم وأقوالهم وأفعالهم تلك الروح الاجتماعية الإسلامية، حيث لا تكون التربية الاجتماعية الإسلامية أوقع ما تكون وأنجح ما تكون إلا إذا أحيط المتربى وفقها بأسلوبى الإثابة على الطاعة، والعقوبة على المخالفة والمعصية، فهكذا ربى الإسلام الإنسان الاجتماعى بين هذين الحدين، فكان بذلك يقر أكمل نظام وأحسنه لحاضر هذا الإنسان ومستقبله ودنياه وآخرته.

وسوف نتحدث فى هذا الجانب من تعرفنا على كيفية تربية الإسلام الاجتماعية على أمرين نراهما مهمين وهما:

أ- النظم الاجتماعية الإسلامية.

ب- والدعائم التى تقوم عليها هذه النظم.

ومن أجل عدم الإسهاب فى هذا الكتاب رأينا أن نقصر البحث على النظم الاجتماعية والدعائم التى تقوم عليها فى سورة واحدة من سور القرآن الكريم وهى سورة النساء - لنقدم بذلك برهانًا على صحة ما نقول ودقته والله المستعان.

أ- النظم الاجتماعية الإسلامية:

إن سورة قرآنية واحدة هى سورة النساء قد جمعت من هذه النظم الاجتماعية للإنسان، ما لا يستطيع قانون أو نظام أن يجمعه، فضلاً عن أن يحيط به، ولله المثل الأعلى.

إن سورة النســاء وهى السورة الرابعة فى ترتيب المصحـف الشريف، التى نزلت بالمدينة المنورة بعد أن استقر المسلمون فيها، وأقاموا مجتـمعًا متميزًا عن مجتمع أهل الشرك والكفر والجاهلية، وعن مجـتمع أهل الكتاب من يهود ونصارى ممن يكتـمون الحق ويشترون بآيات الله ثمنًا قليـلاً، وهؤلاء وأولئك من أهل الكتاب وغيـر أهل الكتاب قـد عرضوا المجـتمع المسلم لكثير من أنواع الابتلاء والأذى.

هذه السورة القرآنية الكريمة قد اشتملت على النظم الاجتماعية الإسلامية التالية -حسب ترتيب آيات السورة الكريمة-:

١- تأكيد أن الناس جميعًا قد خلقهم الله من نفس واحدة، وأن العلاقة بينهم تقوم على قـاعدة الأسـرة التى تعطف الأرحام بعـضـهم على بعض، وفى ذلك تنظيم أحـسن تنظيم للعلاقات الاجتماعية. (الآية الأولى من السورة).

٢- والوصاية القوية البالغة باليتامى، والتحذير الشديد من ظلمهم أو الاحتيال على أكل أموالهم أو شىء منها. (الآيتان ٢، ٣).

٣- وتأكيـد حق الزوجات فى حيـاة أسرية عادلة تظللهـا الرحمة، وتتـبادل فيـها المودة والمشاعر الطيبة. (الآية ذات الرقم ٤).

٤- والمطالبة بتـحصين الأموال من أن توضع فى أيدى السفـهاء؛ لأن المال فى حقيـقته ملك للمسلمين عمومًا، وبخاصة إذا كانت الأموال أموال يتامى. (الآيتان ٥، ٦).

٥- وتنظيم نقل الملكية من المورث إلى الورثة - رجالاً ونساء وصـغارًا وكبارًا وأصحاب فروض وغيرهم - وتوضيح نصيب كل واحد من هؤلاء الورثة. (الآيات من ٧ - ١٤).

٦- وحمـاية المجتـمع من فاحـشتى الزنا واللواط، مع تحـديد بشاعة هاتـين الجريمتين، وتوضيح للتوبة عنهما. (الآيات من ١٥ - ١٨).

٧ - وتأكيد احترام المرأة بإعطائها حقوقها المالية، وإحسان عشرتها ووضع نظام لطلاقها أو مفارقتها بسبب مشروع. (الآيات ١٩ - ٢١).

٨- وتحديد المحرمات من النساء على الرجال فى علاقة الزواج. (الآيات من ٢٢-٢٨).

٩- وتأكيد وجوب احـترام الناس للأموال، وتحديد أسباب دخـول هذه الأموال فى ذمة المسلم، وتهـديد من لم يلتزم بذلك، فـإنه يعتبـر عندئذ معـتديًا على حـدود الله ونظامه. (الآيات من ٢٩ - ٣١).

١٠- واحترام الحقوق التى أقرتها الشريعة للرجال والنساء، وتأكيد أن القوامة فى الأسرة للرجل، حتى تستقر الحياة الأسرية، مع ضرورة الالتجاء إلى الوسائل التى تقضى على الخلافات الأسرية. (الآيات من ٣٢ - ٣٥).

١١- والتأكيد على ضرورة التزام المسلمين بعدد من الآداب والأخلاق الإسلامية بعد تحقق الإيمان فيهم بعبادة الله وحده، مثل:

- الإحسان إلى الوالدين وذوى القربى والجار الجنب والصاحب بالجانب وابن السبيل وما ملكت اليمين.

- ومقاطعة البخل، وتشجيع الإنفاق فى سبيل الله، لا رياء للناس.

- والامتناع عن شرب الخمر.

- والتطهر من الجنابة.

- ومشروعية التيمم عند فقد الماء حقيقة أو حكمًا.

- وعدم الاغترار بموقف الضالين من أهل الكتاب الذين يحرفون كلام الله، ويزكون أنفسهم ويكذبون على الله ويشجعون الوثنيين على وثنيتهم كراهية فى الإسلام.

- والمقارنة بين الكافرين بآيات الله والمؤمنين بها.

- والأمر بأداء الأمانة إلى أهلها.

- والأمر بالعدل بين الناس.

- والأمر بطاعة الله ورسوله والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند الاختلاف، وتوضيح صفات المنافقين فى المجتمع، وتأكيد أنهم بهذا النفاق يظلمون أنفسهم، وبيان أن باب التوبة مفتوح أمام الناس أجمعين، وأن طريقها هو طاعة الله ورسوله. (الآيات من ٣٦-٧٠).

١٢- وتوضيح آداب الجهاد والحرب فى سبيل الله، وهدفها والمشاركين فيها، وتحديد أنواع من يقاتلهم المسلمون فيها، والتشجيع على تحمل أعباء القتال فى سبيل الله، وترك الخوف أو الجزع من ذلك؛ لأن فى كل ذلك إقرارًا للحياة الاجتماعية الجيدة. (الآيات من ٧١-٧٨).

١٣- وتأكيد أن ما أصاب النبى ﷺ أو ما يصيبه وأصحابه من حسنة فمن الله، وما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم، وأن طاعة الله ورسوله تباعد بين الإنسان والسيئات، وأن التردد عن ممارسة هذه الطاعة يعرض المترددين لعقاب الله، مع أنه لا مجال للتردد؛ لأن الحجة الناصعة وهى القرآن الكريم ماثلة أمام أعينهم. (الآيات من ٧٩ - ٨٣).

١٤- ومطالبة النبى ﷺ والمسلمين بالقتال فى سبيل الله، ومطالبة النبى ﷺ بتحريض المسلمين على القتال. (الآية ٨٤).

١٥- وتعليم المسلمين التعامل مع المنافقين، وبيان جزاء كل منهم عند الله. (الآية ٨٥).

١٦- وتعليم المسلمين أدب التحية وإلزامهم بهذا الأدب، وتوضيح أن الله سبحانه سيحاسبهم على أخذهم بما أمرهم به. (الآيتان ٨٦ - ٨٧).

١٧- ووضع نظام لا يسمح بالانخداع بالمنافقين مهما أظهروا من صفات، ورفض اتخاذ الأنصار منهم حتى يخرجوا عن نفاقهم، فإن لم يخرجوا قوتلوا كغيرهم ممن يجب قتالهم. (الآيات من ٨٩ - ٩١).

١٨- وتحريم قتل المؤمن للمؤمن عمدًا، فإن قتله خطأ كانت عليه الدية تسلم إلى أهله، مع تنظيم دفع الدية، وعقاب من لم يستطع دفعها لفقره بتحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين. (الآيات من ٩٢ - ٩٤).

١٩- وتأكيد أن الجهاد فى سبيل الله مع الاحتراس من قتل من لا يستحق القتل، فضله عند الله عظيم، وما ينبغى أن يقعد عنه قادر عليه. (الآيتان ٩٥، ٩٦).

٢٠- وتعليم المسلمين أن يرفضوا العيش فى ذل أو مهانة، فإن فرض عليهم ذلك ولم يستطيعوا مقاومته فعليهم أن يهاجروا إلى دولة مسلمة أخرى ليعيشوا فى ظلها أعزة كرامًا، ومن لم يهاجر وصبر على الذل عاقبه الله، ما لم يكن ضعيفًا لا يستطيع حيلة، وتأكيد أن من يهاجر فى سبيل الله طلبًا لإحقاق الحق ثم يموت دون ذلك فإن أجره عند الله عظيم. (الآيات من ٩٧ - ١٠٠).

٢١- وتعليم المسلمين صلاة الحرب أو صلاة خوف العدو أثناء الحرب فى سبيل الله، ونظام هذه الصلاة ومتابعة الحرب بعد أدائها وتحمل آلام الحرب فى سبيل الله. (الآيات من ١٠١ - ١٠٤).

٢٢- وتأكيد أن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم على رسوله ﷺ ليحكم به بين الناس بالعدل الذى أوجبه الله، ولا يدافع أحد عن خائن مهما حاول أن يخفى خيانته، ولو دافع عنهم أحد فى الدنيا فمن سيدافع عنهم أمام الله فى الآخرة، وأن من أخطأ فى شىء من ذلك فباب التوبة مفتوح. (الآيات من ١٠٥ - ١١٠).

٢٣- وتوضيح أن مـرتكب الذنب يضر نفسه بتعـرضه لعـقاب الله سبـحانه، وأن من الذنب العظيم أن يأتى الإنسان خطأ ثم يتـهم به بريئًا، أى إقرار شخصيـة الجريمة. (الآيتان ١١١، ١١٢).

٢٤- وطمـأنة النبى ﷺ إن ما أنعم الله به عليـه من الوحى هو الذى يحـول بينه وبين خيانة أعدائه له، أو إضرارهم به وبالمسلمين؛ لأن الوحى علم وحكمة. (الآية ١١٣).

٢٥- وإقرار مبـدأ أن الذين يحدثون أنفسهـم بالشر دون أن يظهروا ذلك لا خيـر فيه، وإنما الخير فى التـحدث بالصدقة أو العـزم على القيام بعمل لا ينكره الشـرع أو تدبير عمل يؤدى إلى الإصلاح بين الناس. (الآية ١١٤).

٢٦- وتأكيد أن من يكون فى شقاق مع النبى ﷺ فإنه يسلك غير سبيل المؤمنين، وهذا مثله كمثل المشـرك لا أمل له فى غفران الله له؛ لأنه سبحانه يغفـر كل شىء ما عدا الشرك به، وأن هؤلاء المشركين أتباع للشياطين الذين يزينون لهـم الشر، وفى الآخرة جزاء الجميع جهنم. (الآيات من ١١٥ - ١٢١).

٢٧- والتنبيـه على أن المؤمنين الذين يعملون الصالحـات لهم الجنة وعدًا من الله، وهذا الجزاء للمـؤمنين أو ذاك الجزاء للكافرين ليس هـو ما يتمناه الإنسـان، وإنما الذى يجلبه هو الإيمان والعـمل الصالح وإخـلاص الدين لله كما فـعل أبو الأنبيـاء إبراهيم عليـه السلام. (الآيات ١٢٢ - ١٢٦).

٢٨- والتأكيد على دعم أواصر الأسرة بتأكيد حقوق الزوجية وتأكيد حقوق الضعاف من البنات أو الولدان - وقـد كان أولئك يظلمـون فى ظل النظم الاجتـماعـية الجائرة فـأبطل الإسلام ذلك.

- وإن حرص الإسـلام على الروابط الوثيـقة للأسـرة ليؤكـد تلك النظرة الاجتـماعـية الإسلامية التى لا تساويها نظرة أخرى.

- كما تؤكـد النظم الاجتماعية الإسـلامية أن للمرأة التى لا يعترف لهـا زوجها بكامل حقوقـها وحقوق أسرتهـا أن تطالب بمجلس صلح مع زوجها يحضـره أهلهما، وأن يكون رائد الزوجين هو التسامح لتستمر الحياة الزوجية.

- ويطالب النظام الاجـتماعى الإسـلامى الرجل وهو الذى بيده عقـدة النكاح أن يكون عادلاً مع زوجته ما وسعه العدل ويحذره من الميل والهوى.

- ويؤكد أن الفرقة بين الزوجين لا تكون إلا بعد استحالة الاستمرار فى الحياة الزوجية.

- والتأكيد على أن هذه النظم الاجتماعية الإسلامية جزء من نظام الله سبحانه للكون كله، وأنها وصاته لكل أهل دين، وأن الذين يتحدون هذه النظم فيستغنون عنها يعرضون أنفسهم لضياع دنياهم ولعذاب الله. (الآيات من ١٢٧ - ١٣٤).

٢٩- والتنبيه على أن من أبرز النظم الاجتماعية فى الإسلام، ضرورة أن يلتزم كل إنسان بالعدل ولو كان ذلك على نفسه والأقربين إليه؛ لأن ذلك هو أقوى دعامة تقوم عليها الحياة الاجتماعية الإنسانية. (الآية ١٣٥).

٣٠- والتأكيد على أن من أبرز النظم الاجتماعية الإسلامية الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ والكتاب الخاتم الذى نزل عليه، والإيمان بما أنزل الله من كتب وما أرسل من رسل، وما تحدث عنه من ملائكة، ويوم آخر وما فيه من بعث وحشر وحساب، وأن هذا الإيمان بمفرداته تلك يجب أن يكون راسخًا لا يتزعزع، فإن تزعزع فإنما يكون ذلك من كفر أو نفاق وله جزاء أليم. (الآيات من ١٣٦ - ١٣٨).

٣١- وتوضيح أنه لا يجوز للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من غيرهم، ومن فعل منهم ذلك فكأنه يريد أن يعتز بهؤلاء، مع أن الاعتزاز لا ينبغى أن يكون إلا بالله وحده. (الآية ١٣٩).

٣٢- ومن النظم الاجتماعية البناءة فى المجتمع أن يرفض المسلمون الاستماع إلى الذين يستهزئون بما أنزل الله عندما يستمعون إليه، فضلاً عن أن يجالسوهم، ومن فعل ذلك بأن استمع إليهم أو جالسهم كان مثلهم وله نفس جزائهم، وذاك أدب اجتماعى إيجابى يعزل الذين يستهزئون بما أنزل الله، ويحول بينهم وبين التأثير فى غيرهم. (الآية ١٤٠).

٣٣ - وتوضيح صفات المنافقين التى يجب أن يعرفها المسلمون، وتأكيد وجوب حذر المسلمين من المنافقين فى كل حين؛ لأن المنافقين جبلوا على أن يتربصوا بالمسلمين ويتمنوا لهم السوء، فإن كان المسلمون فى حرب مع عدو فانتصروا على عدوهم جاءهم المنافقون قائلين: لقد كنا معكم، وإن كان النصر للكافرين على المؤمنين قالوا للكافرين: ألم نكن معكم؟ إذ من صفات المنافقين الخداع والقيام إلى الصلاة فى كسل، ويراءون الناس، ومن صفاتهم التذبذب والتردد، وإعطاء الولاية لغير المؤمنين - والتأكيد على أن جزاء المنافقين الدرك الأسفل من النار، إلا من تاب وآمن حقًا وأصلح واعتصم بالله - والتأكيد على أن الله تعالى لا يطلب من الناس سوى الإيمان والعمل الصالح، وأنه يجزيهم على ذلك بشكره لهم على فعل الخير. (الآيات من ١٤١ - ١٤٧).

٣٤- ومن النظم الاجتماعية الإسلامية المطالبة بتطهير المجتمع كله من الكلام الفاحش والبذاء والفحش، إلا أن يكون قد وقع على أحد الناس ظلم، فإنه يحق له أن يشكو ظالمه ذاكراً ما فيه من سوء.

ومن هذه النظم الاجتماعية إظهار فعل الخير حيناً وإسراره حيناً؛ إذ لكل عند الله جزاء حسن، كالجزاء الحسن الذى يناله من عفا عن مسئ إليه، وهذا كله من الآداب الاجتماعية المطلوبة فى المجتمع ليستقر وينتج، ويمارس العمل الصالح - ومما يطهر المجتمع من أرجاسه أن يكون الناس جميعًا مؤمنين بالرسل جميعًا، دون تفرقة بينهم؛ فكلهم أرسلهم الله تعالى للناس ليؤمن الناس بما جاءتهم به الرسل، وكل الرسل جاءوا بالتوحيد أى عبادة الله وحده، إن هذا الإيمان بجميع الرسل يحقق للمجتمع نوعًا من الاستقرار لسلامة العقيدة وقوة الإيمان وترجمته بالعمل الصالح. (الآيات من ١٤٨ - ١٥٢).

٣٥- ومن النظم الاجتماعية المؤثرة فى المجتمع أن ينعدم أو يقل فيه المجادلون بالباطل الممارون فى الحق، لأن هذا الجدل وتلك المماراة تصرف الناس عن الحق وتشغلهم باللهو والباطل، وقد كان للبشرية تجربة مرة مع اليهود إذ جادلوا أنبياءهم وماروَهم فيما جاءوا به من حق، فطالبوا موسى عليه السلام بأن يريهم الله جهرة رأى العين فعوقبوا على ذلك بصاعقة أهلكت هؤلاء المطالبين، وطالبوه بأدلة وبراهين ومعجزات فكان لهم من ذلك شيء كثير، ومع ذلك لم يؤمنوا وإنما اتخذوا العجل إلهًا، وهذه تجربة ضارة بالمجتمع ما ينبغى أن تتكرر.

- ولقد هدد الله سبحانه عصاة يهود وأهل المراء والجدل منهم بأن رفع فوق رءوسهم الجبل لينهار عليهم إن لم يؤمنوا بشريعة الله ويتركوا الجدل والمراء، حتى قبلوا، فأخذ عليهم الميثاق وقيل لهم: ادخلوا الباب خاضعين لله ولا تعتدوا فى السبت، ولكنهم رفضوا شريعة الله، ونقضوا ميثاقه، وقتلوا أنبياءه، وقالوا: قلوبنا محجوبة عن قبول ما يدعونا موسى إليه، وقالوا على مريم الطاهرة البتول عليها السلام بهتانًا، ورموها بما هى منه بريئة، وزعموا أنهم قتلوا المسيح ابن مريم، والحق أنهم ما قتلوه وما صلبوه، واختلفوا فيمن قتلوا اختلافًا كبيرًا، فى حين أن الله سبحانه قد رفع إليه المسيح، وأنقذه من أعدائه، والله سبحانه فعّال لما يريد.

- واليهود جميعًا يدركون حقيقة عيسى وأنه عبد الله ورسول منه، ولكن اليهود يعاندون ولن ينفعهم عنادهم فى شيء؛ لأن المسيح عليه السلام سوف يشهد عليهم يوم القيامة، ويحجُّهم بأنه بلّغهم ودعاهم فلم يستجيبوا له.

- وبمقتضى ظلم هؤلاء اليهود لأنفسهم ولغيرهم؛ إذ منعوا غيرهم من الدخول فى دين الله، عاقبهم الله سبحانه بأن حرم عليهم ألوانًا من الطيبات كانت حلالاً لهم قبل ذلك.

- كل هذه الأعمال التى قام بها اليهود وكلها تفسد المجتمع وتضر الناس وبخاصة أخذهم الربا واستيلاؤهم على أموال الناس بالباطل واستغلال حاجة المحتاجين أسوأ استغلال، كل هذه الأعمال يستحقون عليها عند الله عذابًا أليمًا.

- غير أن المتثبتين فى العلم من اليهود، والمؤمنين من أمة محمد ﷺ يصدقون بما أوحى الله إلى محمد ﷺ وإلى الرسل من قبله، يشاركهم فى هذا التصديق الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر فيسهمون بذلك الإيمان فى بناء المجتمع السليم الآمن، وهؤلاء جميعًا سوف يجزون أحسن الجزاء. (الآيات من ١٥٣ - ١٦٢).

٣٦- والتنبيه على أن مما يدعم المجتمع التأكيد على أن ما أوحاه الله إلى محمد ﷺ هو مثل ما أوحاه إلى جميع الأنبياء من قبله نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - وهم أنبياء الله من ذرية يعقوب عليه السلام - وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود صاحب الزبور، وغير أولئك ممن استأثر الله بعلمهم ولم يقص سيرهم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

- كل هؤلاء الرسل جاءوا مبشرين للمؤمنين منذرين للكافرين والمنافقين، ليقطع الله على الناس حججهم، ويؤكد صدق ما نزل على خاتم أنبيائه.

- وإن الإيمان بذلك يدعم وحدة الأمة الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان، لا وحدتها فى زمان بعينه أو مكان بعينه فقط، فأى استقرار للمجتمع الإنسانى أعمق من ذلك وأحسن؟

- وإن الكافرين الذين لا يصدقون بمحمد ﷺ ويصدون عن سبيل الله إنما يضلون بذلك ضلالاً بعيدًا، وقد أخذ الله على نفسه العهد ألا يغفر لهم هذا الكفر وذلك الضلال، وألا يهديهم إلى طريق النجاة جزاء بما فعلوا، إنهم ليس أمامهم إلا طريق جهنم والخلود فيها أبدًا، وهو أمر يسير على الله سبحانه.

- وعلى الناس عمومًا - من أجل استقرار المجتمع واطمئنانه - أن يصدّقوا بما جاءهم على لسان محمد ﷺ، فإن فعلوا كان خيرًا لهم، وإن أبوا إلا الكفر فما أغنى الله عنهم وعن إيمانهم به، وهو مالك لهم، مالك لكل ما يحيط بهم من أرض وسماء، عليم بخلقه، حكيم فى صنعه، لا يضيع أجر محسن، ولا يهمل جزاء مسيء. (الآيات من ١٦٣-١٧٠).

٣٧- وإن من دواعى استقرار المجتمع ألا يتجاوز الناس فيه الحق حتى لو كانوا بذلك يغالون في دينهم؛ لأنه ما من دين من عند الله يرضى عن هذه التجاوزات، وإنما يكون ذلك افتراء على الله الكذب.

- وإن اليهود قد غالوا فى عيسى ابن مريم عليه السلام فوصفوه باطلاً بما ليس فيه، مع أن المسيح ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ونفخ جبريل روحه فى مريم وذلك دليل قدرته سبحانه فى خلق غير المألوف للناس إظهارًا لقدرته؛ إذ ألف الناس أن الإنسان إنما يكون من ذكر وأنثى، فخلق الله آدم من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر دون أنثى، وخلق عيسى من أنثى دون ذكر، سبحانه وتعالى جلت قدرته، فلا وجه لزعمهم أن الآلهة ثلاثة، إن الانتهاء عن هذا الباطل خير لصاحبه، فما من إله إلا الله الواحد تنزه عن أن يكون له ولد، وما حاجته إلى الولد، وله ملك السموات والأرض وما فى السماوات والأرض، وكفى به مدبرًا حكيمًا لهذا الكون كله. (الآية ١٧١).

٣٨- ومن أقوى الأدلة على دحض مزاعم الزاعمين ألوهية المسيح عليه السلام، أن المسيح نفسه لا يمكن أن يترفع عن أن يكون عبدًا لله، بل لن يترفع عن ذلك الملائكة المقربون إلى الله سبحانه، ومن ترفع منهم عن ذلك - وحاشاهم - فسوف يحشرهم إليه جميعًا ليجازيهم عليه. وعندما يجازى الله الناس، فإن الذين آمنوا به وبرسوله وعملوا الصالحات سوف يؤتيهم أجورهم ويدخلهم يوم القيامة جنته ويغمرهم بفيوض رحمته ويشملهم بواسع فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا عن عبادته فسوف يعذبهم عذابًا أليمًا، وعندئذ يبحث المعذبون عن الولى النصير الذى يحميهم من عذاب الله فلا يجدون. (الآيتان ١٧٢، ١٧٣).

٣٩- وإن من أبرز أسباب الاستقرار الاجتماعى للبشرية كلها أن يؤمن الناس جميعًا بما أنزل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من دلائل واضحة، وبراهيم صادقة، تؤيد صدقه وصدق ما جاء به، وعلى رأس هذه الدلائل القرآن الكريم، النور الذى يهدى الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الذى يضع لهم المنهج الصحيح لحياة إنسانية تحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة.

- وإن الذين آمنوا بما جاء به محمد ﷺ وصدقوا بالله وبرسالاته كلها وتمسكوا بدين الله دين الحق والتوحيد، واعتصموا بالله فنجوا بذلك من الضلال والزيغ فى الدنيا، هؤلاء سيدخلهم الله فى الآخرة جنته، ويغمرهم برحمته، ويشملهم بواسع فضله، وأما فى الدنيا

فسـوف يوفقهم إلى الثبـات على الصراط المسـتقيم، وهذا غاية النجاح والفـلاح. (الآيتان ١٧٤، ١٧٥).

٤٠- ومن دواعى استقرار المجتمع وأمنه ألا يحرم أحد من حقه فى مورثه، وذلك مثل إخـوة المتـوفى وليس له ولد ولا والد(الكلالة)، فلهـؤلاء الإخـوة حق فى الميـراث. وهذا النظام فى توريث هؤلاء الإخوة قد انفرد به الإسلام عن الأنظمة الغربية؛ لأن تلك الأنظمة لا تورث الإخـوة ولا الأخوات ولا أولاد الإخـوة والأخوات، أما الإسـلام فيـقر لـهؤلاء حقوقًا - على النحو الذى سنفصله - وهذا دعم للقرابة وللأسرة وللمجتمع.

وحقوقهم على النحو التالى:

* إن كان المتوفى لا ولد له ولا والد وله أخت واحدة، فلها النصف مما ترك.

* وإن كان المتوفى امرأة لا ولد لها ولا والد ولها أخ واحد، فإنه يرث كل ما تركت.

* وإن كان للمتوفى أختان أو أكثر وهو (كلالة) فلهما أو لهن الثلثان مما ترك.

* وإن كان المتوفى امرأة (كـلالة) ولها أخوان أو أكثر، فإن التركـة كلها بينهم بالتساوى إن كانوا ذكورًا، وللذكر فيهم مثل حظ الأنثيين إن كانوا رجالاً ونساء.

* وإن كان المتوفى رجلاً (كلالة) وله إخوة رجال ونسـاء، فالتركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

- وهذا بيان من الله حتـى لا يضل الناس فيضيعـوا حق أصحاب الحقـوق، فيضطرب المجتمع، ويفقد الاستقرار.

ب- الدعائم التى تقوم عليها نظم التربية الاجتماعية:

من خلال هذه السـورة القرآنية الكـريمة وحدها، ومن خلال مـا أوضحنا فيـها من نظم عبـرنا عنها فى تلك النقـاط الأربعين التى سردناها آنفًـا، نستطيع أن نتبـين فى إيجاز تلك الدعائم التى قامت عليها هذه النظم الاجتماعية، وقد عددنا منها ما يلى:

١- توضيح النظـم والآداب التى يجب أن يلتزم بها النـاس فى الأسرة، الأبوان والأبناء والأقارب والأرحام والأصهار، تلك هى الدعامة الأولى فى السـورة الكريمة.

٢- والتركيز على الجـوانب الخلقية التى يجب أن تسود أفراد الأسرة، وهـى فى جملتها حقوق وواجبات بالنسبة لكل فرد، ومودة ورحمة تهيمن على تلك العلاقات.

٣- وتوضيح الحقوق المتعلقة بالأموال، ورفض وضعها فى أيدى السفهاء الذين لا يحسنون القيام عليها.

٤- وتطهير المجتمع من الفواحش كلها كالكلمات البذيئة والأفعال الرديئة، كالكذب والخيانة والسرقة وشرب الخمر.... إلخ.

٥- والعمل على إشاعة الفضائل فى الناس وتشجيعهم على ممارستها واعتبار ذلك لبنات قوية فى المجتمع المسلم.

٦- وضرورة التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله فى كل ما يحيط بالمسلمين من قضايا ومسائل ومشكلات، ففى ذلك العلاج لكل داء.

٧- والدقة فى توزيع ثروة المتوفى على ورثته وفق هذا النظام الإلهى العادل، وتوريث كل ذى حق من أصحاب الفروض أو العصبات أو القرابات.

٨- وإقرار مبدأ التعاون والتراحم والتكافل بين أفراد المجتمع جميعًا؛ إذ بغير ذلك لا يكون استقرار ولا أمن.

٩- والتنبيه على أهمية التربية الإسلامية للمجتمع واستيعاب كل مفرداتها مثل السلوك الفردى للإنسان وصفاته بل جميع صفاته الأخلاقية، والسلوك الاجتماعى له، والتأكيد على أنه جزء من أمة إسلامية تعيش فى هذا العالم كله، وأن عليه أن يسلك السلوك الذى يراعى فيه أنه جزء من تلك الأمة.

١٠- ووضع النظام الاجتماعى الذى يتعامل المسلمون وفقه مع غير المسلمين من أهل الكتاب يهودًا ونصارى، أو من غير أهل الكتاب من مشركين وغيرهم، وهو تعامل لا يجيز للمسلمين أن يوقعوا ظلمًا على أحد، ومن ظَلَم من المسلمين أو غيرهم عوقب وألزمت النظم بتنفيذ هذا العقاب.

١١- وتوضيح نظام الحرب والجهاد فى سبيل الله؛ لأن الجهاد فى الإسلام لا يتوقف أبدًا، وما يتركه المسلمون إلا ويصيبهم الذل، وتوضيح آداب الجهاد فى التعامل مع الأعداء، وتوضيح كيفية صلاة الحرب.

١٢- ومشروعية الهجرة للمسلمين من البلاد التى يراد لهم فيها الذل والهوان الذى لا يستطيعون دفعه، ومن لم يهاجر فى هذه الظروف فهو محاسب، باستثناء الضعفاء من النساء والولدان الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

١٣- ورصد صفات المنافقين فى المجتمع لتعريف المسلمين بهم وبها ليأخذوا منهم الحذر.

١٤- والتأكيد على أن التربية الاجتماعية الصحيحة هى التى تقوم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن هذا الإيمان هو الذى يترجم إلى عمل صالح، وهذا العمل الصالح يفيد منه كل إنسان فى المجتمع، وليس إيمانًا ذلك الذى لا يؤدى إلى عمل صالح، فالآيات التى وردت فى السورة عن الإيمان عددها عشرون آية، كل آية منها ذكرت بعد الإيمان عملاً يجب أن يمارسه الإنسان أو عملاً يجب أن يكف عنه - وكل ذلك عمل صالح.

١٥- ودعت السورة الكريمة إلى تطهير المجتمع من المجادلين والممارين فى الحق رغبة فى الجدل والمراء، فهؤلاء عناصر قلق واضطراب فى المجتمع، إذ تبدد طاقته وتصرفه عن أهدافه.

وبعد: فهذه هى دعائم التربية الاجتماعية فى الإسلام، وفى صورة مجملة نستطيع أن نقول:

إن التربية الاجتماعية الإسلامية للإنسان هى أن يلتزم عن طيب خاطر ورغبة داخلية بكل هذه النظم والآداب التى لا يتحقق للمجتمع أمن ولا رخاء إلا بها، بل لا يستطيع المجتمع أن يؤدى واجباته ويمارس حقوقه إلا فى ظلها.

••••

الفصل السابع

التربية السياسية

١- مفهوم التربية السياسية

- السياسة: القيام على الأمر بما يصلحه.

وساس الرجل وسيس عليه أى أمرَ وأُمر عليه، وفى الحديث النبوى: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وأنه لا نبى بعدى، وستكون خلفاء فتكثر» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فُوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[١].

- والوالى يسوس رعيته.

- ويقولون: سسته أسوسه، كأنه يدله على الطبع الكريم ويحمله عليه؛ لأن السوس هو الطبع والجبلة والخلقة.

- وسست الرعية سياسة: أمرتها ونهيتها.

- وفلان مجرب قد ساس وسيس عليه أى أدَّب وأُدِّب.

هذه هى المفاهيم اللغوية لكلمة السياسة كما ذكرت فى المعاجم اللغوية.

وأما علماء الاجتماع فيقولون:

- السياسة هى: التدبير الحكيم والنظر الحصيف فى عواقب أمر ما.

- والسياسة هى: الجهة التى تضع سياسة خاصة بهدف معين ترتبط بإطار العمل التنفيذى لتحقيق هذا الهدف.

- والسياسة: تعنى مجموعة الشئون التى تهم الدولة، كما تطلق على الطريقة التى يسلكها الحاكمون.

- والسياسة هى: علم إدارة الدولة وتنظيمها الرسمى، ولهذا العلم جوانب رئيسة ثلاثة هى:

---

(١) الإمام مسلم: صحيحه: باب الإمارة ٢/ ١٣٢ ط الحلبى القاهرة، دون تاريخ.

* الجانب الوضعى ويتناول: دراسة التنظيم الرسمى للحكومة والإدارة المركزية والمحلية.

* والجانب العملى ويتناول: دراسة المشكلات التطبيقية فى التنظيم والإجراءات.

* والجانب الفلسفى ويتناول: تحقيق التكامل بين القضايا الوصفية والتقويمية فى إطار ما يطلق عليه عادة: النظرية السياسية مثل: السياسة المتحررة والسياسة المحافظة.

كما يقسم علماء الاجتماع التنظيمات السياسية إلى أقسام عديدة، منها:

١- التنظيم السياسى الذى ينشأ على أساس تحقيق مبادئ وأهداف معينة.

٢- والتنظيم السياسى الذى ينشأ على أساس ظروف تاريخية معينة.

٣- والتنظيم السياسى الذى ينشأ حول قائد أو زعيم.

٤- والتنظيم السياسى الانتهازى الذى ينشأ لمجرد الاستيلاء على السلطة فى ظل ظروف معينة متاحة.

ولاشك أن أفضل هذه النظم وأطولها عمراً وأقدرها على تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية، هو التنظيم الذى يقوم على المبدأ والعقيدة.

ذلك هو مفهوم السياسة أو مفهوم الأنظمة السياسية.

فما مفهوم التربية السياسية الذى نوليه هنا اهتمامًا خاصًا؟

إن الذى نقصده من التربية السياسية للناشئين أو للناس عمومًا هو : إعداد الفرد لأن يُساس ويسوس، أو تعويد الفرد على التدبير الحكيم والنظر الحصيف فى عواقب أمر ما.

وهذا الإعداد يتطلب تضافر جهود البيت والمسجد والمدرسة والنادى والشارع وكل من له بذلك الإعداد علاقة.

إذا كان هذا هو مفهوم التربية السياسية، فإن تساؤلاً ملحًا لابد أن يرد على الذهن هو: ما التنظيم السياسى الإسلامى؟ أو ما هى السياسة الإسلامية العامة للناس؟

وإنما ورد هذا التساؤل؛ لأن كثيرين ممن يشغبون على الإسلام - من الغافلين الذين يزعمون أن الإسلام دين لا علاقة له بالسياسة -يلقون بذلك فى روع الناس أن السياسة ليست من الدين!!!

والذى أتصوره أن هؤلاء الغافلين الشـاغبين لا يدركون على وجه الحقيقـة مفهوم الدين الإسلامى، ولا يعرفون بدقة علمـية معنى السياسة، حتى ولو كان بعـضهم يمارس السياسة وربما إدارة دولة ما؛ لأنه ليس بالضرورة فى زمـننا هذا أن يمارس الرجل أو يوسد من الأمر ما يعرف أو مـا يدرك فضلاً عما يفقـه، فإن الانقلابات العسكرية التى اجتاحت كـثيراً من بلدان العالم الثـالث أخلّت بكل المعاييـر وعطلت كثيـراً من الخبـرات فأصبح وزير التـربية والثقـافة أبعد مـا يكون عن ذلك، ووزير المالية لا يعـرف فى علوم المال والاقتـصاد، وإنما بحسب أى وزير أن يكون شـارك فى الانقلاب ليصبح على رأس العلمـاء فى أى تخصص من التخصصات، فكم سمعنا!!! وكم رأينا!!!

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول:

إن الإسلام منهج حياة إنسـانية كاملة، ومادامت السياسة جزءاً من الحـياة الإنسانية بأى مفهوم من المفاهيم التى قدمنا آنفا، فلابد أن يكون للإسلام فقهه السياسى الذى يلائم تنظيم أمور الناس وتدبير شئونهم بمزيد من الحكمة والحصافة.

ودعنا من أولئك الغافلين أصحاب الهوى الذيـن ينعقون بما لا يعلمون حين يقولون، لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة، أو يهـرفون بما لا يعرفون حين يقولون صائحين: لا تسييس للدين ولا تديين للسياسة، إنهم مـعذورون بجهلهم للإسلام من جانب، وأصحاب هوى بخوفـهم من عدالة الإسلام لو أمسكت بتـلابيبهم وهم يمارسون ظلم النـاس وانتهاك حقوق الإنسان، واتخاذهم كراسى الحكم وسائل للكسب غير المشروع.

وإن جهلهم بالإسـلام يعالج بالعلم والاستمـاع إلى العلماء، أما اتباعهـم الهوى فذلك أصعب فى العلاج.

إن الإسلام قد حرم اتباع الهوى فى كثير من آيات القرآن الكريم، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

وقال سبـحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وروى البخارى بسنده عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة».

وروى البخارى بسنده، قال الحسن: أخذ الله على الحكام ألا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً. ثم قرأ: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقد جرّم الإسلام من اتخذ منصبه فرصة لكسب غير مشروع أى شخصى لا حق له فيه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤] وقال عز شأنه: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠].

وروى الشيخان بسنديهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه....».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول -السرقة- فعظمه وعظم أمره ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله، أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد أبلغتك».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي حميد الساعدى رضى الله عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية - قال عمرو وابن أبي عمر- على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدى لى، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدى لى؟ أفلا قعد فى بيت أبيه - أو فى بيت أمه- حتى ينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذى نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه، ثم قال: «اللهم هل بلغت» مرتين.

وروى مسلم بسنده عن عدى بن عميرة الكندى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولاً يأتى به يوم القيامة»، قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأنى أنظر إليه فقال: يا رسول الله، اقبل عنى عملك، قال: «وما لك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: «وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجىء بقليله وكثيره، فما أوتى أخذ، وما نهى عنه انتهى».

وهكذا حرم الإسلام الهوى على أصحاب الهوى، وحرم الكسب الشخصى من وراء تولى المسئوليات على أصحاب المنافع الدنيوية.

وأعود من الحديث عن ذلك فأقول:

إن للإسلام نظامًا سياسيًا محكمًا، ومنهجًا سياسيًا متكاملاً، أقامه على أسس لا تقبل التغيير ولا التبديل، تلك الأسس هى:

العدل.

والإحسان.

والشورى.

وقد ألزم بهذه الأسس الحاكم والمحكوم، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقد حدد الإسلام للدولة الإسلامية منهجًا ونظامًا فى تعاملها مع غيرها من الدول، كما حدد لغير المسلمين فى الدولة الإسلامية حقوقًا وأوجب عليهم واجبات، مما يلتمس التوسع فى القراءة عنه فى كتب الأحكام السلطانية والتراتيب الإدارية وغيرها.

إن التربية الإسلامية السياسية تعنى أن يعرف كل مسلم ومسلمة حقه على الأمة المسلمة التى ينتمى إليها وواجبه نحوها، وأن يعرف حقه على الحكومة المسلمة التى أسهم فى اختيارها، وأن يؤدى واجبه نحوها.

إن التربية السياسية الإسلامية تعنى فقه نظام الحكم الإسلامى ومعرفة مكان الفرد ومكانته فيه، ومعرفة مكان الحاكم فيه ومكانته، كما تعنى أداء ما يوجبه هذا المكان وتلك المكانة على الفرد، وعلى كل مشارك فى الحكم.

إن هذه التربية السياسية الإسلامية تعنى كذلك أن يفقه كل مسلم يعيش فى الدولة أن جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية تتغير من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان، وأن ما يصلح لأهل زمن من المسلمين قد لا يصلح لأهل زمن آخر، وأن ما يلائم أهل مكان من المسلمين قد لا يصلح لأهل مكان آخر من المسلمين أيضًا.

ومن أجل هذا فإن الجانب السياسى فى الإسلام قابل للتغيير وخاضع لاجتهادات أهل العلم والخبرة من المسلمين، وليس كجوانب العقيدة والعبادة والأخلاق -مثلاً- فإنها غير قابلة للتغيير بل صالحة كما جاءت لكل زمان ومكان.

إن وعى ذلك وإدراكه أساس فى التربية السياسية للمسلمين الناشئين والكبار على السواء.

ومادام اقتصاد أمة من الأمم جزءًا من سياستها، فإن وضع منهج أو نظام للاقتصاد هو من صميم المنهج السياسى للأمة.

وقد وضع الإسلام للاقتصاد منهجًا يقوم على أسس ثابتة أصيلة لا تختل ولا تتغير بتغير الزمان والمكان، وترك ما وراء تلك الأسس من مفردات وتفاصيل تخضع للمتغيرات وتتجاوب معها، مادام ذلك فى ظل الأسس العامة الأصيلة.

وإذا كان لابد لنا من إشارة إلى تلك الأسس فهى فى إجمال شديد ما يلى:

١- تحريم الاحتكار.

٢- وتحريم كنز المال.

٣- وتحريم استغلال حاجات الناس.

٤- وتحريم أن يعيش أحد متبطلاً وهو قادر على العمل.

٥- ووجوب تداول الأموال بين أفراد المجتمع كله لا بين الأغنياء وحدهم.

٦- ووجوب أن يكون للضعفاء من: الفقراء والمساكين، والغارمين وابن السبيل، وفى سبيل الله، وفى الرقاب، والعاملين على جمع الزكاة، حصة سنوية فى أموال الأغنياء، لا تقل عن جزء من أربعين جزءاً من الثروة - على مستوى الأمة كلها- وقد تزيد هذه الحصة عن ذلك إذا دعت إلى ذلك ضرورة فندب إليها إمام المسلمين أو جادت بها أيدى المحسنين من المسلمين.

تلك هى الأسس الأصيلة التى إذا تحققت أولاً فلا حرج على المسلمين أن يضعوا لأنفسهم نظامًا اقتصاديًا كيفما كان، وعندما ينجحون فى وضع هذا النظام فى أى عصر من العصور فإنه يمكن أن يسمى النظام الاقتصادى الإسلامى، وذلك جزء أصيل من السياسة الإسلامية للأمة.

وكذلك الأمر فى السياسة الإسلامية للأمة، فقد وضع لها الإسلام الأسس الأصيلة التى لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً، وترك ما وراء هذه الأسس من مفردات وتفصيلات، خاضعة لظروف الناس وما يحيط بهم من متغيرات.

وهذه الأسس السياسية الإسلامية فى إجمال هى ما يلى:

١- أوجب الإسلام أن يقوم نظام الحكم فيه على العدل والإحسان.

٢- وأوجب كذلك أن يقوم على الشورى.

٣- وأوجب أن تستقى قوانين الحكم من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة لكى يضمن أن تكون الحكومة المسلمة دائمًا تعمل على جلب المصالح للمسلمين ودرء المفاسد عنهم.

هذه الأسس العامة هى الثوابت، وتأتى وراءها مفردات كثيرة يستطيع المسلمون أن يجتهدوا فى الوصول إليها، ماداموا محافظين على هذه الأصول.

ومعنى ذلك أنه لا حرج على المسلمين أن يقيموا حكومة عن طريق انتخاب أفراد يمثلون عموم الناس، وانتخاب حكومة من هؤلاء الذين انتخبوا، بشكل مباشر أو غير مباشر، كما لا حرج عليهم أن يلجأوا إلى البيعة أو غيرها من أى طريقة تحافظ على الأسس الأصيلة: العدل والإحسان، والشورى، والتقيد بما جاء فى الكتاب والسنة.

وكل نظام يهتدى إليه المسلمون مع المحافظة على تلك الأسس، هو نظام سياسى إسلامى، قادر على حل جميع مشكلات الناس.

وإن التربية الإسلامية السياسية تستهدف أن تربى الناشئين والناس جميعًا على هذا الفقه للسياسة؛ ليعملوا وفقه وليسهموا به فى بناء الحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى.

٢- كيف يربى الإسلام الإنسان السياسى؟

أوضحنا فيما سبق من مفهوم التربية الإسلامية السياسية، أن السياسة هى القيام على الأمر بما يصلحه، وهى التدبير الحكيم والنظر الحصيف فى عواقب الأمور، ومعنى ذلك أن الإنسان السياسى الذى يريده الإسلام، ويضع نظامًا لتربيته، هو الذى يحسن القيام على الأمور بما يصلحها، ويحسن التدبير بحكمة ونظر صائب فى عواقب الأمور.

والإنسان المسلم ليس كغيره من الناس، فهو لا يستطيع أن يعيش لنفسه وحدها، بل ولا لأسرته أو مجتمعه أو وطنه فحسب، وإنما هو جزء من أمة إسلامية كبيرة تملأ كثيرًا من أقطار الأرض، وبالتالى فلابد أن تكون تربيته السياسية قد راعت الاتساع فى عمله السياسى، وذلك هو ما كان، وهو فى الوقت نفسه علامة بارزة تميز التربية الإسلامية السياسية عن غيرها من أنواع التربية.

ومن أجل أن نوضح كيفية تربية الإسلام للإنسان السياسى، نجد من الضرورى أن نتحدث عن ثلاث نقاط هامة هى:

أ- تكوين الوعى السياسى لدى المسلم.

ب- وأهم الأعمال السياسية التى يجب أن يمارسها المسلم.

جـ- والحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم، أو بين السائس والمسوس، سائلين الله العون والتوفيق.

ولتفصيل ذلك بعض التفصيل، نقول:

أ- تكوين الوعى السياسى لدى المسلم:

أتصور أن التربية السياسية الإسلامية المعاصرة لابد أن تعنى -من أجل تكوين الوعى السياسى لدى المسلم -بأمرين جوهريين بدونهما لا يتكون الفكر السياسى أو الوعى السياسى، وهذان الأمران هما:

الأول: تنقية الفكر السياسى للمسلم من المغالطات.

والثانى: تمكين الإنسان من ممارسة حقوقه وأداء واجباته.

الأمر الأول: تنقية الفكر السياسى للمسلم من المغالطات:

وهى مغالطات أوقعهم فيها أعداء الإسلام، وهى كثيرة تستهدف أن تتعلق آمالهم ورغائبهم ببعض النظريات المعادية للإسلام، التى من أبرزها إطلاق عدد من الشعارات الخادعة الجوفاء، التى لا تعنى أكثر من الألفاظ التى تعبر عنها هذه الشعارات الخادعة التى يجب أن ينقى منها فكر المسلمين هى:

١- شعار: «الإخاء والحرية والمساواة»:

وهو شعار أطلقته الثورة الفرنسية - التى ثارت على فساد بالغ وظلم فادح فى فرنسا، ونجاح هذه الثورة فى القضاء على الظلم والفساد - مما أكد فى نفوس المسلمين الغافلين أن ما أطلقته هذه الثورة من: إخاء وحرية ومساواة هو الذى يحقق العدالة الاجتماعية فى الناس- على اعتبار أن العدالة الاجتماعية مطلب للناس جميعًا- وهم فى الواقع قد موهوا على الناس عمومًا وعلى المسلمين خصوصًا، مما جعل بعض المسلمين ينادون بهذا الشعار[1].

٢- وشعار: «الديموقراطية»:

وهو شعار أطلقته الدول التى تعتمد النظام الرأسمالى، والديموقراطية تعنى منهج حكم خاصًا يدعى تبنى الحرية السياسية والحرية الاقتصادية والحرية الاجتماعية -أى تحقيق العدالة الاجتماعية كذلك- وقد انخدع بهذا الشعار بعض المسلمين الغافلين فتصوروا مخطئين أن تحقيق العدالة الاجتماعية، بل التقدم والرقى لهم لا يكون إلا من خلال الديموقراطية.

وشعار الديموقراطية بهذه الدعاوى المموهة لم ينجح فى بلاده فى تحقيق العدالة الاجتماعية، فضلاً عن أن يمد مظلتها على بلاد خارج بلادها وبخاصة بلاد المسلمين[2].

٣- وشعار: «الاشتراكية»:

وهو شعار أطلقته الدول التى تقوم على مبدأ ملكية الدولة لكل وسائل الإنتاج وآلاته- والآن وقد لفظت أنفاسها الأخيرة- وتزعم هذه الدول مُطْلِقَة هذا الشعار أنها تحقق العدالة الاجتماعية كذلك، على الرغم من سيطرتها وتحكمها فى الناس والأشياء، بل واعتسافها فى التعامل مع الناس وإهدار حقوق الإنسان.

---

(١) ليس هنا مجال الحديث عن انتكاس الثورة الفرنسية سريعًا ومعاداتها لمحتوى هذا الشعار، وإنما لذلك مظانه من البحوث والدراسات.

(٢) ليس هنا مجال الحديث عن مفارقات الديموقراطية واضطراب مفاهيمها، وإنما لذلك مظانه أيضًا.

وقد انخدع فى هذا الشعار عدد غير قليل من بلاد المسلمين الغافلين كذلك وتبنوا أنظمة حكم اشتراكية، ونهجوا فى حياتهم السياسية نهجًا اشتراكيًا، فاتخذوا نظام الحزب الواحد وما يجره هذا النظام على الحياة السياسية من استبداد الحاكم رئيس الحزب، وتصنيف أكبر عدد من المواطنين فى جانب أعداء النظام، وانتهاك حقوقهم السياسية والإنسانية، وقد راجت شعارات برروا بها انتهاك حقوق الإنسان مثل:

الثورة المضادة.

وأعداء الاشتراكية.

وأعداد مكاسب الشعب.

والقوى الرجعية.

والمتدينون الذين يخدرون بالدين الشعوب.

والمتطرفون الدينيون، وغير ذلك.

وهى تسميات ما إن تلصقها وسائل الإعلام التابعة للحزب الحاكم حتى تدور أحداث قصة قذرة الأهداف، دنيئة الوسائل، منعدمة الحوار، رديئة الحبكة، متوحشة الشخوص، منتهكة لأبسط حقوق الإنسان، مما جعل منظمة حقوق الإنسان العالمية تدين معظم هذه البلاد التى تبنت الفكر الاشتراكى.

وعلى الرغم من سقوط النظام الاشتراكى سقوطًا فاحشًا فى أوربا الشرقية، واهتزازه اهتزازًا عنيفًا فى الاتحاد السوفيتي باسم إعادة البناء والحوار بصوت مسموع، على الرغم من كل ذلك فإن كثيرًا من المسلمين حتى اليوم يصرون على أن يكونوا أذنابًا وأتباعًا وملكيين أكثر من الملك نفسه!!! فيهذون باشتراكية أو شيوعية أو يسارية دون خجل أو حياء!!!

تلك أهم الشعارات الخادعة التى أطلقت لتخدع المسلمين، وغيرها ليس بالقليل مما لا نجد مبررًا لذكره هنا[1].

إن التربية السياسية الإسلامية حريصة على أن تنقى أفكار الناشئين خصوصًا والمسلمين عمومًا من هذا الباطل، الذى يحمل أسماء هذه الشعارات الزائفة، كما هى حريصة على

---

(١) تحدثنا عن بعض ذلك فى كتابنا: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام» نشر دار المنار الحديثة فى طبعته الثالثة، وسوف نتوسع فى الحديث عن ذلك فى كتاب لنا أعد معظمه باسم: «التحدى الموجه للإسلام».

أن ترد هذه الأفكار إلى الحق والصواب وإلى منهج الله الذى شرعه لعباده؛ ليكون أكبر وأشمل وأعم من أن يكتفى بتحقيق العدالة الاجتماعية، وإنما يمد مظلة عدالته لكل شُعب الحياة اجتماعية وفكرية وثقافية واقتصادية وسياسية، وكل ما يحتاج إليه الإنسان ليعيش حياة كريمة لائقة بتكريم الله سبحانه للإنسان.

الأمر الثاني: تمكين الإنسان المسلم من ممارسة حقوقه وأداء واجباته:

وذلك هدف للتربية السياسية فى الإسلام؛ وهو إقدار الإنسان المسلم على ممارسة حقوقه وواجباته السياسية ليحيا حياة تمكنه من تحقيق كرامته الإنسانية ومصالحه الدنيوية والأخروية.

وهذا التمكين من ممارسة الحقوق والواجبات إنما يكون فى تصورى -ومع مزيد من الإيجاز والتركيز -فيما يلى:

١- تعريف الإنسان بكافة حقوقه الإنسانية التى كفلها له منهج الإسلام ونظامه، وعلى رأس هذه الحقوق الحريات:

- حرية الفكر
- وحرية التعبد
- وحرية العمل
- وحرية التعبير
- وحرية الملك والتملك
- وحرية الكسب
- وحرية التنقل وغيرها من حقوق الإنسان.

ولكن فى إطار من الانضباط الذى لا يسمح له -وهو يمارس هذه الحريات- أن يسىء إلى حريات الآخرين، بمصادرتها وانتقاص شىء منها، وهذا الضبط هو المواجهة الحاسمة للفوضى والفساد والظلم والعدوان الذى يمارسه بعض الناس باسم الحرية.

٢- ودعوة الإنسان إلى ممارسة هذه الحريات فى ظل تلك الضوابط، بل لومه على أن يقبل أى انتقاص منها فضلاً عن مصادرتها، ومنعه من أن يقبل الظلم أو الذل من أحد، أو أن يفقد العدل، واعتبار قبول ذلك تقصيراً وجرمًا يحاسبه عليه الإسلام، بل أعطاه

الإسلام- فى حالة عجزه عن ممارسة حرياته أو عن دفع الظلم عن نفسه- الحق فى أن يهاجر إلى حيث الأمن وممارسة الحريات التى كفلها له الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

إن هذه الآية الكريمة توضح أن الذين يرضون بالذل - أى انتقاص حقوقهم وحرياتهم- مع قدرتهم على الهجرة مأواهم جهنم وهى أسوأ مصير لهم، لأن المسلم لابد أن يعيش عزيزًا كريمًا لأن الله هو الذى كرمه.

٣- وتعريف الإنسان بواجباته جميعًا، والتأكيد على ضرورة أدائها، وهذه الواجبات أنواع:

- واجباته نحو خالقه سبحانه، وهي توحيده وعبادته.

- وواجباته نحو نفسه، وهى أن يسلك السلوك الذى يقيه عذاب النار.

- وواجباته نحو أبويه، وهى البر والطاعة فى غير معصية.

- وواجباته نحو أسرته: زوجه وأبنائه، وهى الرعاية وحسن التربية، والعمل على وقايتهم من عذاب النار.

- وواجباته نحو أقربائه وأرحامه وأصهاره، وهى البر والصلة.

- وواجباته نحو جيرانه الأدنين والأبعدين، وهى حسن التعامل والبذل والإكرام.

- وواجباته نحو المجتمع الذى يعيش فيه، وهى العمل على جلب المصلحة له، ودفع المضرة عنه.

- وواجباته نحو الأمة الإسلامية كلها، وهى الاعتزاز بالانتماء إليها، والعمل على كل ما فيه مصلحة لها.

- وواجباته نحو دينه الإسلامى، وهى العمل على أن يمكن هذا الدين من حياة الناس، وأن تسود أحكام شريعته تعاملاتهم، وأن تقوم الدولة باسمه لتحكِّم كتابه وسنة رسوله ﷺ. وهذه الواجبات وإن بدت كثيرة إلا أن لها ضابطًا عادلاً هو أن الله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يوجب واجبًا إلا على من يقدر عليه، ولا يكلف الناس إلا ما يطيقون، أكد الله سبحانه ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

[الحج: ٧٨] وفى قوله سبحانه: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ٢] وقوله جل شأنه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤- ومطالبة هذا الإنسان المسلم بأداء واجباته مادام قادراً عليها دون تقصير فيها أو قصور، ودون مبالغة أو إعنات، فإن حدث تقصير فى أداء هذه الواجبات أو بعضها مع القدرة والاستطاعة، فإن الإسلام شرع الحدود- وهى عقوبات مقدرة- توقع على كل مقصر بعد استيفاء موجبات العقاب، وقد تصل العقوبة إلى حد القصاص إن كانت الجريمة التى ارتكبها تستوجب قصاصًا، فإن كان تقصيره دون التقصير الذى يوجب عليه الحد ووُجه بالتعزير فى ظل منهج عادل، لأنه من عند الله.

٥- وتوضيح حقيقة هامة لكل مسلم وهى أن بين ممارسة الحقوق وأداء الواجبات منزلة رفيعة القدر عند الله سبحانه هى منزلة الإحسان - وهى أن يتنازل المسلم بمحض إرادته عن بعض حقوقه لصالح غيره من الناس أقرباء أو بعداء من أبواب التسامح أو البر أو الرحمة، أو أن يزيد بمحض إرادته كذلك فى أداء واجباته فيعطى أكثر مما عليه، تسامحًا أو براً أو رحمة، وهذا الإحسان له عند الله أجر عظيم يتضح فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥] وقوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والناس فى هذا الإحسان يتفاضلون حتى يبلغوا أرفع الدرجات عند الله سبحانه وتعالى.

ب- أهم الأعمال السياسية التى يمارسها المسلم:

وسنحاول -والله المستعان- أن نرصد هذه الأعمال رصداً تقريبيًا؛ لأن استقصاءها فوق ما يحتمله هذا الكتاب، وأن نربط هذه الأعمال بنصوصها القرآنية التى تؤصلها، وتؤكد فاعليتها فى العمل السياسى على مستوى الأفراد والجماعات وعلى مستوى الأمة الإسلامية كلها.

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

- وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

- وقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

وغير هذه الآيات الكريمة كثير، مما أوضح الأعمال التى يمارسها المسلم وهى من صميم العمل السياسى ولكنا اقتصرنا عليها لمقتضى الحال.

إن المؤمنين الذين ناداهم الله فى هذه الآيات الكريمة، مطالبون بممارسة أمور سياسية لها أوثق العلاقة بالمجتمع والدولة والأمة، وهؤلاء المؤمنون المنادون بهذه الآيات هم الأفراد والجماعات والمجتمع كله والحكام والحكومات والأمة الإسلامية كلها فى كل زمان ومكان.

هذه الممارسات السياسية التى طالبت بها الآيات الكريمة هى كما توحى بذلك نصوصها:

١- القيام على العدل والقسط فى كل أمر من الأمور، وقد جاء ذلك بصيغة المبالغة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾، على أن يكون القيام بالعدل لله أى لذاته ووجهه ومرضاته.

٢- وأن تكون ممارسة العدل مع جميع الناس واجبة، سواء أكان هؤلاء الناس أقرباء أم بعداء أم أعداء أم كفارًا؛ إذ العدل أمر من الله حتى مع الكفار.

٣- والتحذير من أن تجر العداوة أو الحرب مع الآخرين إلى ترك العدل؛ لأن ترك العدل يدخل فى الجرم والجريمة، والعدل دائمًا واجب وهو أقرب للتقوى.

٤- وأن القيام بالعدل يجب أن تصاحبه الشهادة بالحق؛ لأنها شهادة لله سبحانه وتعالى، ولو كانت ضد النفس، قال ابن عباس رضى الله عنهما: أمروا أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم.

٥- وأن أداء شهادة الحق لا يجوز أن يتأثر بغنى المشهود عليه أو فقره، فلا يُخاف غنى لغناه ولا يُستضعف فقير لفقره، فإن تأثر أداء الشهادة بذلك فهو اتباع للهوى، قال الشعبى: أخذ الله على الحكام ثلاثة أشياء:

ألا يتبعوا الهوى.

وألا يخشوا الناس ويخشوه.

وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلاً.

٦- وأنهم مطالبون بأداء الأمانات كائنًا من كان صاحبها، أبراراً كانوا أو فجاراً، لما روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «القتل فى سبيل الله يكفر كل شىء إلا الدَّيْن».

وروى أبو نعيم بسنده «فى الحلية» عن ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ: «القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة» والأمانة فى الصلاة والأمانة فى الصوم والأمانة فى الحديث، وأشهر ذلك فى الودائع.

٧- وأن المؤمنين مطالبون بطاعة الله ورسوله ﷺ وطاعة أولى الأمر -أى الولاة والحكام- فيما كان فيه طاعة لله، قال سهل التسترى: أطيعوا السلطان فى سبعة: ضرب الدراهم والدنانير، والمكاييل والأوزان، والأحكام، والحج، والجمعة، والعيدين، والجهاد.

ولا تجب طاعة السلطان فيما كان فيه معصية لله، وللقرطبى صاحب التفسير المشهور عند تفسيره لهذه الآية الكريمة كلمة يقول فيها: (ولذلك قلنا: إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم، ويجب الغزو معهم متى غزوا والحكم من قبلهم، وتولية الإمامة والحسبة وإقامة ذلك على وجه الشريعة، وإن صلوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصى جازت الصلاة معهم، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يُخافوا فيُصلى معهم تقية وتعاد الصلاة)[1].

٨- وأن المؤمنين مطالبون بالتزام الأدب الإسلامى فى الحديث، وفى الإعلام فى مجالى النصر على العدو أو الانهزام أمامه، وهذا الأدب هو ترك إذاعة ذلك، مع الإخبار به للنبى ﷺ ليحدث هو به إذا أراد ذلك، أو ترك ذلك إلى أولى الأمر من الحكام والعلماء يذيعونه على الوجه الذى لا تترتب عليه مضرة، أو يأمرون بالسكوت عنه، ولو فعلوا ذلك لكانت المصلحة العامة للمسلمين فيما يذاع خبره وفيما يكتم أمره.

وبعد: فهذه جملة الممارسات التى عرف بها المسلمون، وطولبوا بممارستها من خلال هذه الآيات الكريمة التى ذكرنا.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٢٩٥، ط وزارة الثقافة بمصر عام ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧م.

وهناك آيات قرآنية كريمة تنادى على المسلمين بأن يمارسوا أعمالا هى فى صميم السياسة وحسن التدبير، والنظر الحصيف فى عواقب الأمور - على نحو ما عرفنا السياسة - وهى:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

٢- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

٣- وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٤- وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

٥- وقال سبحانه: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

٦- وقال عز وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

٧- وقال تقدست أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

٨- وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

٩- وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

١٠- وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن صميم السياسة التى يربى الإسلام عليها الإنسان، وجوب ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حيث تكون الأمة الإسلامية بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خير أمة أخرجت للناس كما جاء ذلك فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد ذكرنا ما تدل عليه هذه الآية الكريمة عند حديثنا عن أهداف الأسرة المسلمة[١]، وهو توجيه الأبناء نحو ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد توسعنا فى ذلك واستشهدنا بما وسعنا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، فليعد إليه القارئ فسيجد فيه مقنعًا وكفاية.

ومن صميم السياسة التى يربى عليها الإسلام الإنسان، وجوب الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا على كل مسلم ومسلمة من أهل القدرة على ذلك، سواء أكان هذا الوجوب على سبيل فرض العين أم فرض الكفاية.

الجهاد فى سبيل الله بكل آدابه وأخلاقياته، الجهاد مع النفس ومع العدو ومع الشيطان، كل ذلك داخل فى السياسة والتدبير بالحكمة، وقد سبق أن تحدثنا عنه كذلك ونحن نتحدث عن الهدف السابع من أهداف الأسرة المسلمة[٢].

ومن صميم العمل السياسى الذى توجه إليه التربية الإسلامية وجوب الدعوة إلى الله على كل مسلم ومسلمة من أهل القدرة عليها بشرط أن يكون الداعى على بصيرة بما يدعو إليه، ويؤكد هذا الوجوب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الدعوة إلى الله بشروطها وآدابها ومراحلها وأهدافها ووسائلها، هى من صميم السياسة التى طولب بها كل مسلم ومسلمة[٣].

---

(١) كان ذلك فى الفصل الثانى من الباب الأول - الهدف السادس من أهداف الأسرة المسلمة.

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب.

(٣) للتوسع: انظر كتابنا: «فقه الدعوة إلى الله» بجزءيه، نشر دار الوفاء ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

جـ- الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم:

كما عرفت التربية الإسلامية السياسية الفرد بحقوقه وواجباته، ودعته إلى ممارسة حقوقه، وأمرته بأداء واجباته، وجعلت لهذا وذاك منزلة أعلى هي منزلة الإحسان -كما بينا آنفًا - فإنها عنيت تمامًا بتحديد حقوق الحاكم وواجباته، ودعته كذلك إلى ممارسة حقوقه، وألزمته بأداء واجباته، وجعلت منزلة الإحسان -على نحو ما بينا آنفًا- منزلة أرفع وأرضى لله سبحانه.

ونزيد هنا أن منزلة الإحسان -أى التنازل عن بعض الحقوق والقيام بأكثر مما يجب على الإنسان- هذه باب واسع من أبواب التفقه فى الإسلام، والحاكم المسلم أحوج ما يكون لهذا الإحسان من أجل أن تصلح الأمة التى يسوسها؛ إذ ما أجمل أن يأخذ الحاكم أقل مما له وأن يعطى أكثر مما عليه.

والحاكم فى مفهوم التفقه فى الإسلام يدخل فيه كل راع استرعاه الله غيره من أسرة وعيال، ونساء وأيتام، وكل من يتولى عملاً ويجد نفسه مسئولاً فى هذا العمل عن غيره من الناس، وكل مدير وكل وزير، كما أن الخطاب موجه أصلاً إلى الحاكم الأكبر وهو الخليفة أو الرئيس أو الأمير أو القائد، وسواء فى ذلك من كان يحكم جزءًا صغيرًا من الأمة الإسلامية أو يحكمها جميعًا.

ونستطيع أن نجمل حقوق الحاكم المسلم فيما يلى:

١- الولاء.

٢- والطاعة فى غير معصية.

٣- والمعاونة بالنفس والمال.

٤- والنصيحة[1].

كما نستطيع أن نجمل الحديث عن واجباته فيما يلى:

١- الحكم بما أنزل الله.

٢- وتحقيق العدل.

٣- والأخذ بالشورى.

---

(١) يلتمس التوسع فى ذلك فى كتب الفقه الإسلامى، وبخاصة باب الإمارة.

٤- وممارسة الإحسان.

٥- وجلب المصالح للمسلمين ودرء المفاسد عنهم.

٦- والعفة عمومًا، والعفة عن المال الحرام بخاصة.

٧- وصيانة الأمن.

٨- وإعداد القوة لمواجهة الأعداء.

٩- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله.

١٠- ونشر دعوة الإسلام فى الناس[1].

والتربية السياسية الإسلامية تعتبر كثيراً من حقوق الحاكم هى واجبات المحكوم، وكثيراً من واجبات الحاكم هى حقوق المحكوم، وترى أن قيام كل بواجباته وممارسة كل لحقوقه هو صميم العمل السياسى القادر على تأمين حياة إنسانية كريمة.

ثم تعمد التربية السياسية الإسلامية إلى إنضاج الحاكم والمحكوم فى المجتمع المسلم بإحاطته بشروط الدعوة إلى الله وآدابها، ومطالبته بممارستها وتوضيح موقف الحاكم والمحكوم من قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى ظل شروط ذلك وآدابه، وتحديد موقف الحاكم والمحكوم من الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

كما أن التربية السياسية الإسلامية حريصة تمامًا من خلال منهجها وأنظمتها على ألا تطحن الفرد من أجل المجتمع -كما تفعل النظم الاشتراكية - ولا تضحى بالمجتمع من أجل الفرد - كما تفعل النظم الرأسمالية - وإنما أقرت التربية السياسية الإسلامية العدل والتوازن وإحقاق الحق ورعاية الفرد والمجتمع، واعتبار الفرد غير منفصل من المجتمع بحال ورفض محاباة أحد على حساب أحد.

وتهتم التربية السياسية الإسلامية بأن تسود السياسةَ القيمُ الخلقية، وتسود الناس أفرادًا وجماعات وحكامًا ومحكومين؛ على اعتبار أن القيم الخلقية هى التى تحقق الأمن والاستقرار بل الرخاء للمجتمع، وذلك أن كل جريمة صغرت أو كبرت يمارسها حاكم أو محكوم إنما تعنى غيبة قيمة أخلاقية وتعطيل تنفيذها.

---

(١) يلتمس التوسع فى ذلك فى كتب الفقه الإسلامى، وبخاصة باب الإمارة.

إن القيم الخلقية قيم ثابتة ثبات العقائد والعبادات فى المجتمع المسلم، فالفضائل سوف تظل فضائل فى كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذ يستحيل أن يأتى على الناس زمان يعتبرون فيه الصدق رذيلة، أو العفة أو الأمانة، أو غيرها من الفضائل رذائل.

كما أنه لن يأتى على الناس زمان يعتبرون فيه الكذب فضيلة، أو العهر والخيانة والغش وغيرها من الرذائل فضيلة.

إن ثبات هذه القيم الخلقية فى الإسلام وتربيته للإنسان على احترام هذه القيم والتحلى بفضائلها والتخلى عن رذائلها، إن ذلك هو الذى يجعل الإنسان يمارس حياة إنسانية كريمة لائقة بمكانة الإنسان عند الله؛ إذ كرمه الله سبحانه وفضله على كثير من خلقه.

وهكذا يربى الإسلام الإنسان تربية سياسية بعيدة عن الزيف والخداع، وبعيدة كذلك عن المناهج الوضعية التى تخطئ دائمًا أكثر مما تصيب.

إن الإسلام يربى الناشىء المسلم على ذلك كله، وكلما درج الناشىء مدرجة تالية فى حياته، تعهده الإسلام بالتربية التى تلائمه، وتحقق له سعادة الدارين.

كما يؤكد الإسلام أن التماس منهجه فى الحياة الإنسانية كلها، الروحية والخلقية والعقلية والبدنية والجمالية والاجتماعية والسياسية[1]، إنما يكون من مصادر الإسلام الأصلية وهى:

القرآن الكريم.

والسنة النبوية الصحيحة.

والسيرة النبوية المطهرة.

ثم للمسلمين من بعد ذلك أن يجتهدوا ما وسعهم فيما لا نص فيه؛ ليواجهوا كل المتغيرات التى تعترى حياتهم فى أى شعبة من شعبها، وليواجهوها بعد علمهم بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة العطرة.

وإن ذلك من صميم السياسة، ومن أهم ما يُرَبَّى عليه الإنسان المسلم.

●●●●

(١) عالجنا ذلك بالتفصيل فى سلسلة: «مفردات التربية الإسلامية» التى صدرت عن دار التوزيع والنشر الإسلامية فى عشرة كتب، والحمد لله على توفيقه.

الباب الرابع

مستقبل الناشيء المسلم

التمهيد

الفصل الأول: توجيه الناشئ المسلم وتوظيف طاقاته، ويشمل:

١ – مفهوم التوجيه والتوظيف.

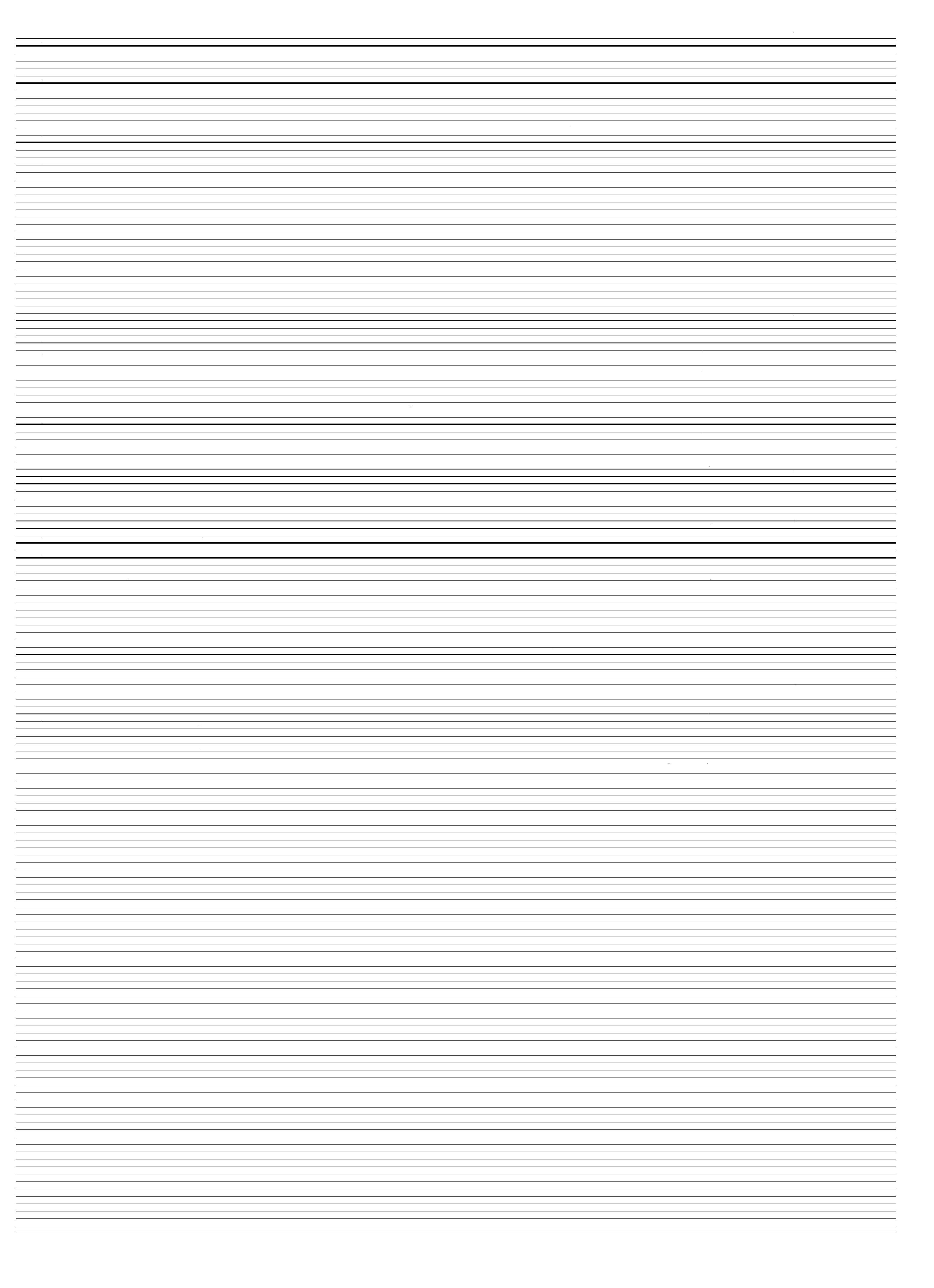
٢– كيف يوجه الإسلام الناشئ المسلم؟

٣– كيف يوظف الإسلام طاقات الناشئ المسلم؟

الفصل الثاني: وصل الناشئ المسلم بأمته وبعالمه الإسلامي، ويشمل:

١ – مفهوما الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي.

٢– كيف يُوصل الناشئ بأمته الإسلامية وعالمه الإسلامي؟



التمهيد

نحاول فى هذا الباب الأخير من الكتاب أن نصل إلى إكمال الهدف من تأليفه، وأن نضع أيدينا على اللباب والجوهر، وذلك من خلال ما سوف نتحدث عنه من توجيه الناشئ المسلم وتوظيف طاقاته، ثم من خلال وصل هذا الناشئ المسلم بأمته الإسلامية وعالمه الإسلامى كله.

ففى الفصل الأول من فصلى هذا الباب نحاول أن نوجه هذا الناشئ المسلم فى اتجاهين يكمل أحدهما الآخر.

أما الاتجاه الأول فهو أن نوضح له مدى تأثره وتأثر الأجيال التى سبقته بحضارة الغرب، المعادية لنا من حيث لبابها وقشرتها عداء فكريًا وخلقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، بتوضيح مدى هذا التأثر فى حياتنا الإسلامية، وفى أجيالنا المسلمة التى عاصرت فترة التراجع الحضارى من المسلمين لتعيش ظروف المغلوب المقهور، الذى احتلت أرضه، وديست كرامته، واستولى عدوه على مقدراته، وشوّه فكره، حتى أصبح يقلد عدوه وينحو منحاه فى حياته، ويتزيى بزيه، ويتناول مثل مطاعمه ومشاربه، ويتخذ منهجه فى حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية.

نحاول أن نوضح للناشئ المسلم ولمن يقومون على تربيته فى هذا الفصل، مدى ما تأثر به هو وأسلافه من حضارة الغرب التى تقوم على أسس مناقضة لأسس حضارتنا الإسلامية فى المعتقدات، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، بل العادات والتقاليد.

نوضح له ذلك لينأى بنفسه عن أن يكون أسيرًا لها تابعا ذليلا لكل ما تأتى به، لكى لا يتحول ولاؤه نتيجة لذلك إلى هذه الحضارة الغازية، ثم يتبع ذلك أن يكون انتماؤه لهذه الحضارة المعادية.

وعندما يضطرب أمام الناشيء الولاء، وينحرف به الانتماء فإنه ينتظر مستقبلاً يغلله الضياع والضعف والانحلال، ثم خسارة الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

وأما الاتجاه الثانى فهو توجيه الناشئين والشباب وردهم إلى المعين الأصيل لحضارة الإسلام، التى قامت على أساس مكين وصحيح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته، تلك الحضارة التى استطاعت فى أقل من نصف قرن أن توصل صوت الحق وممارسة العدل إلى ما يقرب من نصف المعمورة فى ذلك الوقت.

إنها الحضارة الإسلامية التى أقامت مجتمعًا كان بالإسلام رائدًا فى كل شعبة من شعب الحياة.

إننا بهذا نحاول أن نرد الشباب إلى الحق وإلى العدل وإلى المنهج الإسلامى المتكامل، بعد أن جنحوا وجنح آباؤهم وأجيال سبقت آباءهم، وخرجوا عن إطار المنهج الإسلامى من يوم حدث التراجع الحضارى من المسلمين، إذ غلبتهم الصليبية وحضارة الغرب على أمرهم.

ثم نتحدث فى هذا الفصل عن توظيف طاقات الناشئين والشباب، طاقاتهم الروحية، لتصفو أرواحهم من درن الحضارة الغربية فتعود إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره، إذ يعتبر ذلك هو الأساس الركين لبناء الحضارة الإنسانية الراقية حقًا، وليستعد هؤلاء الناشئون ويشمروا فى عبادة الله وفق منهجه وفى التعامل مع الناس بمقتضى هذا المنهج، ويتسلحوا بخلق الإسلام فى كل ما يأتون وما يدعون من أمر.

كما نتحدث عن توظيف طاقاتهم العقلية، بتعويدهم على الفكر الصحيح المهتدى بالوحى وبالعقل، القادر بهذا على أن يبدع ويبتكر ويعمر الأرض ويمشى فى مناكبها ساعيًا على رزقه، وليستعين بهذا العقل المهتدى بالوحى فى التغلب على ما يواجهه فى الحياة من متاعب ومشكلات، وأن يحقق فى مجال البحث العلمى ما هو أهل له، بوصفه صاحب أكمل منهج وأتم شريعة، وأحفل تاريخ فى التقدم العلمى فى مختلف مجالات الحياة.

مع التأكيد على أن الطاقات العقلية للمسلمين ما لم توظف لتحقيق هذه الأهداف فلن يستطيع المسلمون أن يأخذوا مكانهم اللائق بهم فى الحياة -وهو مكان الأمة الوسط، خير أمة أخرجت للناس، بما تملك من رصيد حضارى هائل، يستنبط دائمًا من المعين الذى لا ينضب، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وتوظيف طاقاتهم البدنية؛ لكى يكونوا أصحاب أبدان صحيحة قوية قادرة على ممارسة الحياة ممارسة إيجابية فاعلة، وإنما يكون ذلك إذا تخلّت هذه الأبدان عن كل أسباب الضعف، وتحلت بكل أسباب القوة، ليستطيع الناس أن يؤدوا بهذه الأبدان القوية وظيفتهم الأولى وهى عبادة الله، ثم يتمكنوا من شق طريقهم فى الحياة الدنيا يعالجون أسباب الرزق، وينشرون دعوة الله، ويعمرون الأرض، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، ومنهجه ونظامه هو السائد القائد، حيث لا يوجد فى ظل هذا المنهج مظلوم أو ذليل أو فاقد للكرامة التى كرمه الله بها.

إن هذا التوظيف للطاقات البدنية عند الناس، يستهدف إقدارهم على أن يؤدوا واجبهم في الحياة الدنيا ليسعدوا فيها وفي الآخرة.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب نحاول وصل هذا الناشئ بأمته الإسلامية على مستوى وطنه الإسلامي الذي يعيش فيه، ثم على مستوى وطنه العربي، ثم على مستوى العالم الإسلامي كله، وإنما يكون ذلك في تصورنا بتوليد الولاء لهذه الأمة والانتماء إليها، انتماء روحيًا عقليًا حسيًا شعوريًا خلقيًا سلوكيًا، بحيث لا يمارس أمرًا في حياته إلا من خلال نظرته إلى هذه الأمة الإسلامية كلها وتساؤله دائمًا فيما يعود على هذه الأمة الإسلامية من نفع ويمنع عنها من ضر، في ممارسته لأي أمر من الأمور قولاً أو فعلاً أو سلوكًا.

ولن يتم وصل هذا الناشئ أو الشاب أو المسلم عموما بأمته الإسلامية إلا إذا عرف عنها ما لابد أن يعرفه من حيث:

- مكان الأمة الإسلامية على الكرة الأرضية.
- والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بها.
- ومدى تمسك هذه الأمة بمنهج الإسلام في حياتها.
- وماذا يقوم في وجهها من عقبات وعراقيل، تحول بينها وبين التمسك بمنهج الله ونظامه.

إن بعث هذا الانتماء للأمة الإسلامية في النفوس بحاجة ماسة إلى هذه المعرفة، ما يشك في ضرورة ذلك إلا غافل.

كما أن هذا الانتماء بحاجة ملحة إلى فقه عميق للروابط التي تربط المسلمين بعضهم ببعض في مختلف أقطار الأرض؛ لتستيقظ في نفس المسلم المفاهيم الصحيحة للجنسيات والقوميات والعرقيات، وليدرك أن جنسية المسلم الحقيقية هي بالدرجة الأولى عقيدته القائمة على توحيد الله وعبادته والعمل وفق منهجه ونظامه، ثم تأتي بعد ذلك اعتبارات الأقاليم واللغات والألوان، فلا تستطيع أن توجد فروقًا بين المسلمين فضلا عن تفاوت المنزلة؛ لأن هذا التفاوت محكوم بمبدأ قرآني ثابت طالما على الأرض حياة إنسانية هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الأمة الإسلامية بحاجة مستمرة إلى شباب يحسنون الانتماء إليها، والعمل على إعلاء شأنها، مهما سكنوا أقطارًا متباينة، وانتسبوا إلى أعراق متفاوتة، وتحدثوا لغات متعددة؛ لأن الإسلام وحّد بينهم بعقيدته، وأحكم نَسْجَهم بعبادته ومعاملاته وأخلاقه وسلوكياته، وألزمهم جميعًا بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل ذلك، وفقههم فى ذلك لو تأملوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إننا يوم نستطيع أن نوقظ فى نفوس الشباب هذا الانتماء، نكون قد قدمنا لهم ولأنفسنا وللأمة الإسلامية كلها خيرًا كثيرًا، وحققنا لها أهدافًا عظيمة فى دنياها وأخراها.

كما نحاول -مستعينين بالله سبحانه- فى هذا الفصل الثانى الأخير من هذا الكتاب أن نصل الناشئ المسلم أو المسلم عمومًا بقضايا العالم الإسلامى الكبرى، القضايا التى تؤرقه وتحول بينه وبين تحقيق أهدافه الكبرى فى الحياة.

ومن أبرز هذه القضايا:

١- قضية تربية المسلم وفق منهج الله.

٢- وقضية تزويد المسلم بالإعلام الإسلامى الهادف.

٣- وقضية خصائص المجتمع المسلم وسماته.

٤- وقضية الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية.

٥- وقضية النظام السياسى الإسلامى.

٦- وقضية الأخذ بشريعة الله فى الحياة.

٧- وقضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٨- وقضية الدعوة إلى الله.

٩- وقضية الجهاد فى سبيل الله.

١٠- وقضية الأخذ عن الحضارات الأخرى.

كما أن المسلمين لا يستطيعون أن يتصلوا بهذه القضايا اتصالاً فاعلاً مؤثرًا، إلا إذا أحاطوا علمًا بالتيارات المعادية للإسلام المعوقة لهم عن الوصول إلى تحقيق أهدافهم، وما تمارسه هذه التيارات من أعمال ظاهرة أو خفية تكيد بها للإسلام والمسلمين، وتضلهم عن دينهم الحق، وعن منهجهم الصحيح، ونخص من هذه التيارات ما يلى:

١- الصهيونية أو اليهودية.

٢- والصليبية.

٣- والإلحاد.

٤- والإباحية والفوضى.

٥- والغزو الفكرى.

٦- والاستشراق وبعض المستشرقين الحاقدين.

٧- والتنصير وجهوده.

٨- والتبعية السياسية منظورة أو غير منظورة.

٩- والتبعية الاقتصادية منظورة أو غير منظورة.

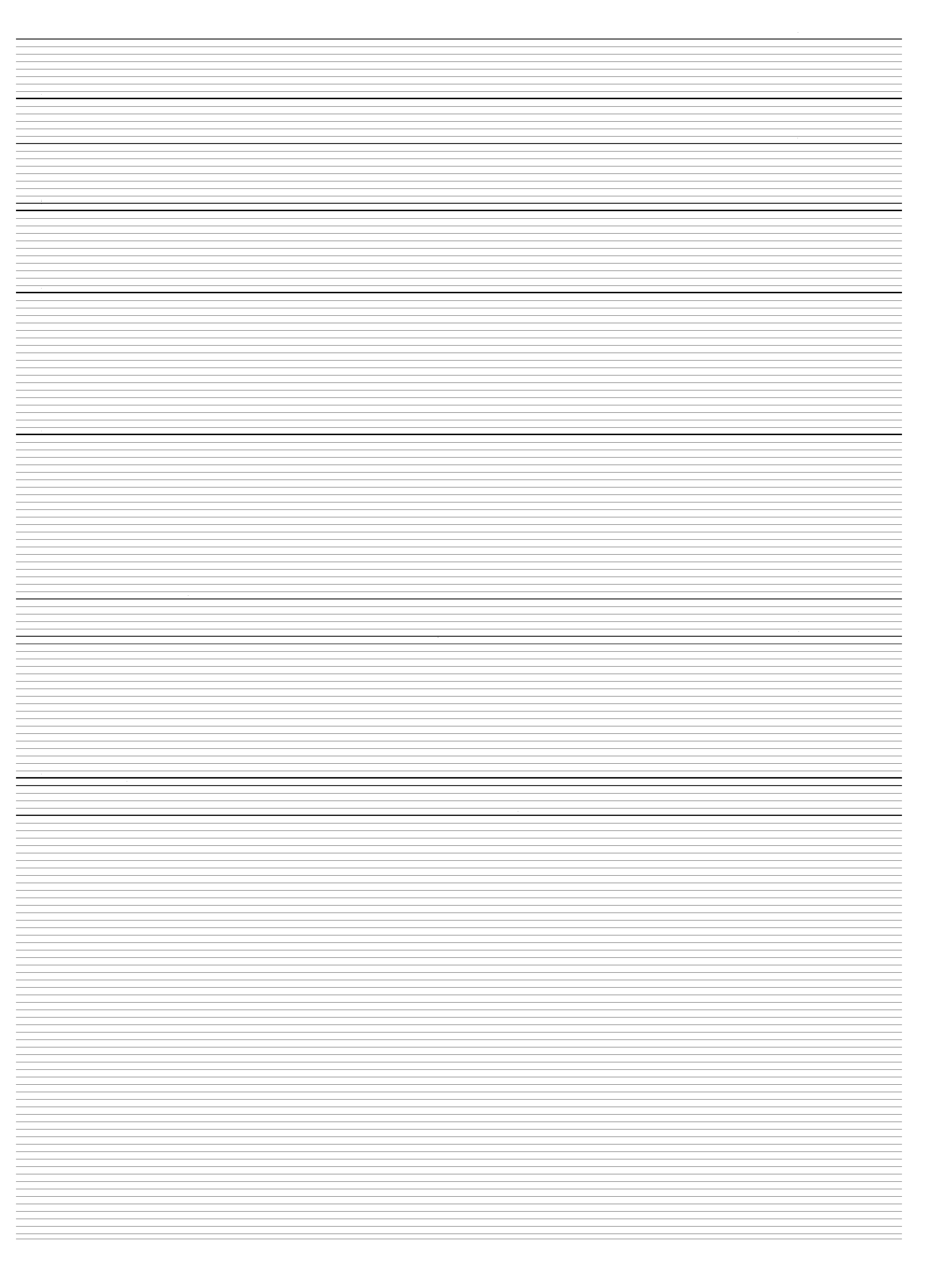
١٠- وسائر التحديات الموجهة للإسلام.

ولابد من أن نوضح للشباب وللمسلمين ماذا عليهم أن يفعلوا فى مواجهة هذه التيارات، وماذا عليهم أن يعدوا لها من كيد وعُدَّة وقوة، ليسلم لهم دينهم، ولتتحرر لهم أوطانهم من أعدائها المنظورين، ولتستقيم لهم حياة إسلامية تهتدى بمنهج الله ونظامه، لا ترضى به بديلاً أيا كان هذا البديل.

إننا إن نوفق إلى ذلك فى هذا الفصل فسوف يكون ذلك من فضل الله علينا وعلى المسلمين، وإلا فحسبنا أننا حاولنا واجتهدنا وبذلنا غاية ما فى وسعنا، ولن نحرم بفضل من الله أجر المجتهدين.

وبهذا الفصل وذلك الباب يكون الكتاب -فى نظرنا- قد استوفى أبعاده، واستجمع أبوابه، وحقق كثيرا من أهدافه، والله سبحانه من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

●●●●



الفصل الأول

توجيه الناشئ المسلم وتوظيف طاقاته

١- مفهوما التوجيه والتوظيف

أ- مفهوم التوجيه:

التوجيه في اللغة: جعل الشيء على جهة واحدة.

ووجهته فتوجه: أي انقاد لما وُجِّه إليه.

والتوجيه في علم الاجتماع:

هو: «مجموع الخدمات التي تهدف إلى مساعدة الفرد على أن يفهم نفسه، ويفهم مشاكله، ومساعدته على أن يستعمل إمكاناته الذاتية من قدرات ومهارات واستعداد وميول، وأن يستعمل إمكانيات بيئته، فيحدد أهدافًا تتفق وإمكاناته، ويختار الطرق المحققة لها بحكمة وتعقل، فيتمكن بذلك من حل مشاكله حلاً عمليًا يؤدي إلى تكيفه مع نفسه ومع مجتمعه، فيبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه من النمو والتكامل في شخصيته»[١].

ومن خلال هذا المفهوم الاجتماعي للكلمة، وهو ملائم للمفهوم اللغوي لها، نستطيع أن نحدد لتوجيه الناشئين أو الشباب خطوات هامة نذكر منها ما يلي:

١- وضع خطة عمل للشباب تملأ فراغ أوقاتهم، بما يعود عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه بالنفع والفائدة.

٢- وحسن استثمار طاقات الشباب وإمكاناتهم المختلفة؛ لكي يستخدموها فيما يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم.

٣- وتدريبهم على الاتزان والحكمة والتعقل؛ ليساعدهم ذلك على حل أي مشكلات تعترضهم.

٤- والعمل على تنمية مهاراتهم واستعداداتهم، وتوجيه ميولهم نحو ما يعود على الناشئين والشباب خصوصًا والأمة الإسلامية عمومًا بالنفع والفائدة.

---

(١) د. أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: ص ٢٩٨.

٥- والعمل على تسديد أقوال الشباب وأفعالهم بحيث تكون موافقة لما أمر به الإسلام من خُلق، ومستجيبة لكل ما دعا إليه من عمل، ومنتهية عن كل ما نهى عنه الإسلام من شيء.

هذا هو مفهوم التوجيه فى هذا الفصل كما بدا لنا من خلال التأمل الطويل فى توجيه الناشئين والشباب نحو دينهم وما دعا إليه.

ب- التوظيف ومفهومه:

التوظيف فى اللغة: مصدر وَظَّفَ.

والوظيفة من كل شيء ما يقدر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب، وجميعها وظائف.

ووَظَّف الشيء على نفسه ووظفه توظيفًا: ألزمها إياه.

وعند علماء الاجتماع:

التوظيف: إلحاق الفرد بعمل فى منشأة مّا، ويعتبر فيه ضرورة أن يكون العمل ملائمًا للعامل، والعامل ملائمًا للعمل[1].

والذى نقصده من التوظيف هنا هو: أن نحدد للناشئ أو الشباب -بعد التعرف على إمكاناته ومهاراته وميوله- ما يناسبه من الأعمال اليومية التى يجب أن تُرتب عليه، ولن يكون ذلك مجديًا ما لم تكن أهداف العمل واضحة ووسائله معروفة ومشروعة، والقدرة على ممارسته ممكنة ومتاحة، والزمان والمكان الواقع فيهما العمل ملائمين.

إذا روعى كل ذلك فإن التوظيف بتحديد الأعمال اليومية أو الدورية سوف يحقق أهدافه المرجوة.

وكل إخلال بأى من هذه المفردات يعوق العمل ويبدّد الهدف أو يباعد بين الناس وبينه.

إن الناشئ المسلم أو الشاب المسلم يجب أن تحدد له وظيفة أولى -وهى العبادة- ووظيفة ثانية فى معاملاته، ووظيفة ثالثة فى بيته، ورابعة فى المسجد، وخامسة فى المعهد أو المدرسة التى يتعلم فيها، وسادسة مع أقرانه وأقربائه وأصدقائه وجيرانه، وسابعة فى عمله، وثامنة من أجل أن يمارس الدعوة إلى الله، وتاسعة من أجل أن يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعاشرة فى مكانه ومكانته فى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

إنها عشر وظائف أساسية، من خلالها يربى الناشئ المسلم تربية إسلامية صحيحة هادفة.

---

(١) المرجع السابق: (٣١٦).

٢- كيف يوجه الإسلام الناشئ المسلم؟

إن توجيه الإسلام للناشئ المسلم يهدف إلى أن يقيمه على الحق وأن يؤهله للدعوة إليه والعمل به والصبر عليه؛ لأن الله تبارك وتعالى أرسل الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط أي بالعدل، والعدل إحقاق للحق، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

والإسلام لايدع أحدًا من المسلمين دون أن يطالبه بأن يكون من أهل الحق، ومن دعاة الحق، ومن المتواصين بالحق الصابرين على التمسك به، إن أحدًا من المسلمين لا يعفيه الإسلام من ذلك ما دام قادرًا عليه، ومعظم توجيهات الإسلام العامة والخاصة توصل إلى ذلك.

والمسلمون منذ عصر النبى ﷺ وإلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يمارسون ذلك ويقومون عليه محتسبين عند الله الأجر والثواب، محاولين أن يحققوا من وراء ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

وعصور الإسلام جميعًا تقاس أعمال المسلمين فيها بمقاييس دقيقة هى: مدى تمسكهم بالحق ودعوتهم إليه وتواصيهم به وصبرهم عليه، لأن الحق هو الله أو هو القرآن الكريم أو هو الإسلام كله، والعدل جزء منه.

والمسلمون إنما يعزون ويسودون فى زمن من الأزمان إذا هم تمسكوا بالحق ودعوا إليه، وأقاموا على أساسه حياتهم وحضارتهم، فإن لم يفعلوا ذلوا وضعفوا، وتراجعوا عن موقفهم الحضارى العظيم.

تلك حقائق لا يجادل فى صحتها أحد ممن يعترفون بالحق، ويعرفون الإسلام، ويقرءون تاريخه ويعون ما يقرءون، ومن أجل ذلك لم يكن شىء أهم لدى أعداء المسلمين فى كل زمان ومكان من صرف المسلمين عن الحق بصوارف عديدة بعضها ظاهر كالحروب التى يهزم فيها المسلمون أمام أعدائهم لتخليهم عن الحق، وبعضها خفى مثل إشغالهم وإلهائهم بما يحسبون أنه مصلح لهم وهو مفسد.

وسوف نتناول بالحديث فى كيفية توجيه الإسلام للناشئين والشباب نقاطًا ثلاثة، يتبين من الحديث عنها كيف يوجه الإسلام الناشئين خصوصًا والمسلمين عمومًا التوجيه الملائم.

هذه النقاط الثلاث هى:

أ- التَّخلِّى عن القيم الإسلامية فى زمننا هذا.

ب- وأثر الحضارة الغربية فى المسلمين اليوم.

جـ- ونتائج تأثر المسلمين بالحضارة الغربية.

إن توضيح كل نقطة من هذه النقاط يسهم فى التعرف على توجيه الإسلام للناشئين.

أ- التخلى عن القيم الإسلامية فى زمننا هذا !!!:

العصر الذى نعيشه الآن هو عصر تخلى فيه كثير من المسلمين عن التمسك بدينهم وبالحق وبالدعوة إلى الله والصبر عليها، متأثرين فى هذا التخلى بالحضارة الغربية التى خدعتهم عن دينهم وعن واجبهم، وأوهمتهم أن الدوران فى فلكها هو التقدم وهو التحضر وهو زهرة الحياة الدنيا.

ولهذه الحضارة الغربية الموهمة الواهمة قصة طويلة مع الدين نفسه «الدين المسيحى» نوجز أبعادها فى كلمات، لما لها من صلة بإيهام المسلمين بجدوى هذه الحضارة الغربية، وجدوى استبدالها بالحضارة الإسلامية.

إن صراعًا رهيبًا نشأ بين الحضارة الغربية والدين المسيحى منذ ما يعرف عندهم بعصر النهضة renaissance وهو عصر بدأ بعد انتهاء ما يسمى عندهم كذلك «بالعصور الوسطى»، وامتاز بحركة إحياء العلوم والفنون والآداب، ويرمز له كثيراً بعصر التجديد والإحياء.

وكان متكلمو المسيحية القدماء قد بنوا عقائدهم الدينية -التى هى أصلاً نابعة من الإنجيل- على أسس ونظريات فلسفية يونانية فى مجالات العلم والفن والحياة، وقد تشبثوا بهذه النظريات بحيث لم يجدوا بأسًا فى ترك الدين نفسه إن تعارض مع هذه الفلسفات - وقد فعلوا-. وقد صاغ علماء الكلام النصارى أفكارهم وفلسفاتهم على هذه الأسس واعتبروها مسلمات لا تقبل حواراً، فضلاً عن جدل أو ردّ، ووصلوا وصلاً وثيقًا بين الدين

المسيحى وهذه الفلسفات، بحيث قامت المدنية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والثقافة والفن والأدب على فلسفة اليونان وأكسبوها من الدين قداسة.

فلما كان عصر النهضة العلمية أو التجديد، اصطدم بهذه الفلسفات البالية العتيقة الضعيفة الواهنة العاجزة فى نظرهم عن أن تنظم الحياة أو تمدها بأسباب الحضارة، فأوسعوا هذه الفلسفات نقداً، فإذا بهم يتقدون الكنيسة دينها وفكرها ورجالها، وما كان لرجال الكنيسة أن يسكتوا على ذلك حيث دار بين الفريقين صراع رهيب تمسَّك فيه رجال الكنيسة بموقفهم مستغلين سلطتهم الدينية ونفوذهم السياسى، متشبثين بذلك مهما قامت ضده الأدلة الناصعة والبراهين القاطعة، فدعوا إلى تحطيم رءوس أصحاب النهضة العلمية، فكان هذا الصراع وهذا العداء المستحكم، وأخذ كل فريق يكيل للفريق الآخر من الحرب والعداء ما يستطيع، حتى إن رجال النهضة لم يَقْصُروا تجريحهم وإهانتهم على الدين المسيحى ورجاله، بل اعتبروا هذا التخلف والجمود من صفات كل دين، ورموا الأديان كلها بالدجل والتزوير والتناقض مع العقل والمنطق.

وكان الصراع فى أوله علميًا عقليًا، ثم اتسع مداه وتعمق فتناول النظام الاجتماعى والنظام السياسى والاقتصادى، وما لبث أن ضعفت الكنيسة أمام هذه الضربات العاتية المؤيدة بالعقل والمنطق المفقودين لدى رجال الكنيسة، وقد أدى ذلك إلى نتائج وخيمة فى الواقع، وإن كانت رائعة لدى رجال عصر النهضة، ومن أبرز هذه النتائج ما نرصده فيما يلى:

١- عزل الدين -أىّ دين وليس الدين المسيحى وحده- عن تنظيم حياة الناس والتشريع لهم.

٢- وقصر الدين والتدين على العقيدة الشخصية لأى إنسان، وعلى العمل الفردى له.

٣- واعتبار القيم الخلقية التابعة من الدين أى دين مظهراً من مظاهر التخلف، وينبغى أن يظل فى الدائرة الشخصية للفرد، وأن يكون بمعزل عن المجتمع.

٤- وقد ترتب على ذلك انتشار الإلحاد وكفران الخالق سبحانه، والتخلى عن الدين بوصفه مظهراً من مظاهر الرجعية والتخلف.

٥- وترتب على ذلك أن سيطر على الناس أن كل شىء يأتى به الدين فى العقيدة أو العبادة أو المعاملة مرفوض لذاته، وأن كل ما يأتى به العقل أو العلم مقبول لذاته كذلك.

٦- وشاع بين الناس عمومًا وبعض العلماء خصوصًا كفر صريح بكل ما هو وراء العالم المادى المحسوس، أى كفر بالغيب كله، وكفر بالتالى بالوحى وباليوم الآخر.

٧- وشاع بين الناس بناء على ذلك الإيمان بالطبيعة والقوانين الطبيعية، والكفر بما وراء ذلك.

٨- وكان من نتيجة ذلك أن ترعرعت أفكار ثلاثة من المفكرين، كانوا شراً وشؤمًا على البشرية كلها وهم:

- هيجل.
- ودارون.
- وكارل ماركس.

والثلاثة متشابهون فى الفلسفة والهدف وإن اختلفوا فى التحليلات.

إذ جعل الأول منهم العالم الفكرى كله والحضارة بأسرها ميدانًا للصراع يطرد فيها الجديد القديم، وهكذا يحدث فى كل عصر.

واعتبر الثانى الفكر والحضارة وكل ما على الأرض حقًا للأقوى، وما على الضعيف إلا أن يتنحى للقوى.

وجعل الثالث المجتمع البشرى كله مجتمع صراع لا وئام، وكل ذلك التفسير إنما يدعم الأنانية وحب الذات وتنكر الإنسان للإنسان، لا لشىء إلا لأنه الأضعف.

لقد ضربت مذاهب هؤلاء الثلاثة «هيجل ودارون وكارل ماركس» بالأديان كلها والقيم الفاضلة جميعًا عرض الحائط.

٩- ولقد سادت بين الناس بعد هذه الفلسفات فكرة نبذ الأديان ونبذ الإيمان بالله واليوم الآخر، ونبذ القيم الخلقية التى جاء بها الأنبياء والرسل، لتحل محلها الرذائل الخلقية التى تقوم على الأنانية واللذائذ والشهوات، والتنكر لكل ما هو فاضل من الأخلاق.

١٠- ونتيجة لكل ذلك اضطربت المعايير الخلقية والمعايير السياسية السليمة، وتبنى العالم -والمسلمون جزء منه- نظمًا سياسية قامت على مبادئ ذاعت وطارت شهرتها فى العالم كله شرقه وغربه، وهى:

- اللادينية secularism.

- والقومية Natiomalism.

- والديموقراطية Damocracy.

وخلاصة اللادينية: أن لا علاقة للسياسة بالدين ولا بالإله سبحانه، ولا بأى شىء جاء به الدين فى الاجتماع أو الأخلاق أو السياسة.

وخلاصة القومية: أن يحل القوم محل الشرع والمشرع سبحانه وتعالى، ولا يقاس الخير والشر إلا بمقياس المصلحة والمنفعة للقوم أو الشعب، ولتذهب سائر الشعوب وسائر الأقوام إلى الجحيم الدنيوى طبعًا.

وخلاصة الديموقراطية: أن يتولى جمهور الشعب التشريع لنفسه، بحيث يصبح الرأى العام هو معيار الحق، وأن يكون كل ما جاء عن غير الرأى العام باطلاً، ولو كان قد جاء من عند الله أو الدين؛ إذ لا دين عندهم إلا ما تضعه غالبية الأمة.

وبعد: فتلك قصة موجزة للحضارة الغربية فى صراعها مع الدين أى دين، ذكرناها لنذكر آثارها علينا معشر المسلمين المغلوبين على أمرنا المنهزمين أمامها، المتخلفين من أجلها عن القيم الإسلامية التى يجب أن تسود حياتنا، حتى ليمكن أن نقول مطمئنين إلى صحة ما نقول: إن هذا الزمن الذى نعيشه هو زمن التخلى عن القيم الإسلامية فى معظم بلدان العالم الإسلامى.

ولن يكون للإسلام توجيه للناشئين أو الشباب إلا إذا عادوا إلى التمسك بالقيم الإسلامية التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الكريمة الراشدة.

هذه هى النقطة الأولى التى يجب أن يعرفها المسلمون لكى يجدى معهم توجيه الإسلام لهم فى الحياة.

أما النقطة الثانية التى يجب أن نحيط بأبعادها فهى:

ب- أثر الحضارة الغربية فى المسلمين اليوم:

ولابد لنا أن نعترف فى غير خجل بأن الحضارة الغربية اليوم هى الحضارة الغالبة المسيطرة على العالم كله غربه وشرقه، وعلى العالم الإسلامى فى الشرق والغرب، وذلك أن العالم الإسلامى لما تخلى عن قيمه وحضارته كان لابد أن يقع فى قبضة هذه الحضارة الغربية المعادية.

بل إن العالم الإلحادى -الاتحاد السوفيتى- قد وقع الآن أو يكاد فى قبضة الحضارة الغربية طائعًا مختارًا باسم البناء والتفكير بصوت مرتفع.

لابد أن أن نعترف بذلك سلفًا دون مكابرة؛ لأنه قد قامت على ذلك مئات الشواهد والبراهين، من واقع حياة المسلمين فى مختلف بقاع الأرض.

فماذا تركت هذه الحضارة الغربية المعادية للإسلام فى المسلمين على مستوى العالم الإسلامى كله من آثار؟

ذلك ما نحاول عرضه فى إيجاز فيما يلى -والله المستعان-:

أولاً: الإشارة إلى الأسباب التى جعلت الحضارة الغربية تؤثر فى المسلمين هذا التأثير البالغ.

وثانيًا: مظاهر تأثر المسلمين بتلك الحضارة.

أما الأسباب التى أدت إلى تأثر المسلمين بتلك الحضارة الغربية فنشير إلى مجملها فيما يلى:

١- جثمت هذه الحضارة على صدر العالم الإسلامى بجيوشها وعتادها، منذ ما يقرب من مائة عام من زمننا الذى نعيشه الآن، فسيطرت على العالم الإسلامى.

٢- واكبت هذه السيطرة فترة ضعف المسلمين؛ لتخليهم عن قيم دينهم وأخلاقه، وعن الحق، الأمر الذى أدى إلى شرذمتهم وذهاب ريحهم.

٣- تضافرت جهود أبناء هذه الحضارة الغربية - المستعمرين - لإضعاف شوكة المسلمين، بإغرائهم بحضارة الغرب وما فيها من زيف وبهارج، وإرضاء للنزوات والشهوات.

٤- عملت وسائل الإعلام الغربية أو المستغربة على غسل عقول المسلمين من كل ما هو إسلامى؛ ليحل محله مفردات هذه الحضارة، من «أفلام ومسرحيات وقصص ومقالات» تتضمن قيما غير قيمنًا، وأخلاقًا غير أخلاقنا.

٥- عملت الضغوط السياسية والاجتماعية والفكرية لهذه الحضارة على أن تعبث بقيم التعليم عندنا، وبمناهجه وأهدافه ووسائله، حتى باعدت بيننا وبين إسلامنا ما وسعها.

٦- بذلت أقصى ما وسعها لتحل القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية، والقضاة المثقفون ثقافة غربية محل القضاة الذين يتثقفون ثقافة إسلامية.

٧- وكثف دعاة هذه الحضارة جهودهم ليصبغوا حياة المسلمين بصبغة الحضارة الغربية، فى السياسة، والاقتصاد، والفكر، والثقافة، وكل أنظمة الحياة الاجتماعية.

وأما مظاهر تأثر المسلمين بتلك الحضارة، فكانت كثيرة وعميقة، وقد ساعد على هذا الاتساع وذلك العمق أن المسلمين يعيشون فترة تراجع حضارى مهين، فتأثروا بحضارة الغرب فى مجالات رئيسة بعينها، بحيث يمكن إدراك هذا التأثر بسهولة، وإن تفرعت عنها مئات المجالات التى قد لا يتضح فيها التأثر بنفس السهولة.

وحسبنا هنا أن نتحدث عن هذه المجالات الرئيسة التى تأثر فيها العالم الإسلامى بالحضارة الغربية على النحو التالى:

١- الدين والتّديّن:

فقد جاءت إلينا هذه الحضارة مجردة من الدين مزرية على التديّن، لا تعرف للدين إلا بأنه سبب التخلف والرجعية والحد من المنافع والرغبة - وذلك ما أوصلتهم إليه تجاوزات الكنيسة عبر قرون عديدة فى بلادهم - فتركوا فينا هذا الأثر، وأصبحنا نرى من المسلمين بل من مثقفى المسلمين من يرددون هذه المقالات ويدينون بها، ويرمون الإسلام نفسه -أتم الأديان وأكملها- بأن دين محلى إقليمى بيئى، لا يستطيع أن يتجاوب مع المتغيرات ومع التمتع بالحياة!!

ولقد أصبح من السهل أن تجد بين حملة الأقلام من يسخر بالإيمان والدين، ومن يهزأ من المصدقين بعالم الغيب[1].

وكان من المغالطات التى انطلت على كثير من الغافلين من المسلمين، أن أحدثوا ربطا وثيقًا بين الإسلام وأخطاء بعض المسلمين، فكلما خالف أو انحرف واحد من المسلمين حكامًا أو أفرادًا عاديين فأتى من الأعمال ما لا يرضاه الإسلام، تعالت صيحاتهم: هذا هو الإسلام.

وأخذ بعض كتابهم وبعض الكتاب من المسلمين- مع بالغ الأسف- يحصون هذه الأخطاء على المسلمين فى عصور التاريخ المختلفة ليلقوا اللوم على الإسلام، ولقد خدعوا بذلك الغافلين من المسلمين؛ إذ توهموا أن التمسك بالإسلام يؤدى إلى تلك الأخطاء التى مارسها المخطئون من المسلمين.

---

(١) ولقد كان من بين أسوأ ما كتب فى ذلك رواية كاتب مسلم إنجليزى أسماها «آيات شيطانية» سخر فيها من الدين الإسلامى ومن رسوله ﷺ ومن كثير من قيمه ومقدساته.

وقد أدخلت هذه المغالطات فى مناهج التعليم فى العالم الإسلامى معظمه؛ لأنهم سيطروا على التعليم فترات طويلة، فملأوا بذلك عقول المتعلمين بهذه المفتريات، وسُحر المتعلمون ببريق الكتاب المدرسى واحترامه واحترام كل ما فيه لدى الصغار، ولقد صدق الصغار هذا الباطل، فلما كبروا وكان منهم الكُتَّاب والإعلاميون رددوا هذه الأباطيل واستغلوا فى ذلك ما يسيطرون عليه من وسائل الإعلام.

ولقد أصبح لهذه المفتريات والأباطيل مؤسساتها ورجالها، الذين إذا غَلبوا صاحوا بأعلى أصواتهم: إن الدين رجعية وجمود وتخلف وتخدير للعقول، وإن غُلبوا قالوا: إن التدين مسألة شخصية وأعمال فردية يجب أن تكون بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية!!

بل لقد أصبح لهذه المفتريات فى بعض بلدان العالم الإسلامى حكوماتها وسلطاتها التى تبطش بكل من يتمسك بإسلامه أو يعمل على إحيائه فى نفوس الناس وتجديد أمره، وتجرد عليهم الحملات الانتقامية وتبنى لهم السجون والمعتقلات، وتتولى أجهزة الإعلام تشويههم وتنفير الناس منهم ومن الدين والتدين!!

٢- الأخلاق:

استطاعت هذه الحضارة الغربية أن تفرض على العالم الإسلامى مباذلها الأخلاقية بحكم سيطرتها السياسية عليه، بل سيطرتها الاجتماعية والفكرية والثقافية والإعلامية والتربوية.

وأقول: مباذلها الأخلاقية؛ لأنها أخلاق لا تعرف الفضائل ولا تعرف الانضباط السلوكى، وإنما تستجيب لشهوات الجسد باسم الحرية الشخصية، وتستجيب لشطحات الرأى باسم حرية الرأى، وتستجيب للصراع الرهيب بين الناس باسم المنافع الشخصية.

وكان لهذه المباذل الأخلاقية منافذ، نفذت منها إلى بلدان العالم الإسلامى ونستطيع أن نذكر منها ما يلى:

أ- المرأة: وهى فتنة الرجال، وقد استغلت هذه الحضارة المرأة أسوأ استغلال لتفسد بها أخلاق المجتمع، فجردتها من ملابسها قطعة قطعة، وجردتها بالتالى من حيائها وخفرها ثم عفتها، وألقت بها أمام الرجل الذى استعبدته شهواته، فكان اختلاط بين الرجال والنساء، وكانت خلوات وكانت مراقصة ومخاصرة، ثم أصبح الزنا والخنا من الحريات الشخصية التى لا يعاقب عليها القانون ما دامت المرأة راضية، كل ذلك قدمته هذه الحضارة باسم التمدن والتحضر والحرية الشخصية.

ب- والخمر: وهى عندنا أم الكبائر، وهى وإن ضيعت العقل والمال والكرامة الإنسانية إلا أنها مع ذلك كله تجر إلى معظم الجرائم والكبائر؛ لذلك سميت عندنا أم الكبائر، فأصبحنا نرى فى كثير من بلدان العالم الإسلامى حانات لشرب الخمر، ترعاها الدولة وترخص لها.

جـ- والميسر: وهو مما حرم الله لما ينطوى عليه من استيلاء على أموال الناس بالباطل، وما يجره هذه من جرائم أخرى، ومن عجب أن كثيراً من بلدان العالم الإسلامى ترخص أماكن لممارسة الميسر.

د- والغناء والرقص: وكلها مما يثير الغرائز، ويجمع الناس على إغضاب الله تبارك وتعالى، وسواء أكان هذا الرقص شرقيًا أم غربيًا - كما يقسمونه - فإنه مقدمات الزنا أو الزنا نفسه فى بعض الأحيان.

هـ- والحفلات المختلطة بين الرجال والنساء، وما يدور فيها من أعمال وممارسات غير أخلاقية، مهما تكن أسماء هذه التجمعات، ومهما تحمل من شارات ثقافية أو اجتماعية أو أسماء مضللة «كالروتارى» وغيره.

ولكى يصبح أبناء العالم الإسلامى وبخاصة الكبار والمسئولون فيه على مستوى من التقدم والرقى، فلابد لهم أن يتخلقوا بخلق هذه الحضارة الغربية، ثم تنتقل العدوى من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى إلى عامة الناس، حتى يصبح ذلك مألوفًا لدى المسلمين ولا لوم عليه ولا اعتراض، إلا أن يكون المعترض رجعيًا أو متخلفًا أو متدينًا!!

٣- الفكر والثقافة:

استطاعت هذه الحضارة الغربية الغازية أن تستولى على مؤسسات التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى، ولذلك تمكنت من أن تشكل فكر المسلمين وأن تصوغه كما يحلو لها، عن طريق مناهج التعليم وبرامجه، دون رقيب أو حسيب، وكيف يستطيع الذى احتُلت أرضه بجيوش أعدائه المنظورة أو غير المنظورة أن يراقب أو يحاسب، وقد عملت هذه المؤسسات التعليمية على أن تقضى على كل ما هو إسلامى، لتحل محله كل ما هو معادٍ للإسلام من مفردات الفكر والعلم والمعرفة.

وكانت سيطرتهم على مؤسسات التعليم فرصة جيدة لهم؛ ليربطوا بين الوظائف الهامة فى الدول وهذه المؤسسات والذين تعلموا فيها، حتى إن مدارس أجنبية برمتها أخذت تمارس عملها الباغى على دين الأمة ولغتها فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وعومل

المتخرجون فى هذه المدارس معاملة المدللين الذيـن يغدق عليهم الرزق وتحتجز لهم المناصب الهامة.

وقد انحـصر التعليم الإسلامى -فى مـصر على سبيل المثـال- فى الأزهر وحده، وفى أمثاله من مـعاهد التعليم فى العالم الإسلامى- ومع ذلك لم تـسلم مناهج هذه المؤسسات التعليمية من التحريف والتشويه كذلك.

وقد شنت على الأزهر والمتخرجـين فيه حملات تشويه وتهوين، كمـا جُعِل المتخرجون فيه للأعمال الأقل أهمـية فى المجتمع، وحتى هذه الأعمال زوحموا فـيها بمَن تخرجوا فى المدارس والجامعات الأخرى، كما ضيق عليهم فى الرزق تبعًا لذلك.

وكان من الطبيعى أن تقبل ناشئة العالم الإسلامى على تلك المعاهد والجامعات التى يُوسد المتخـرجون فيـها أهم المناصب وينالون الأرزاق الوفـيرة، بل تعدى ذلـك إلى أن يصر بعض الناس على تعليم أبنائهم فى المدارس الأجنبية، وتبارى الناس فى ذلك ولا يزالون يفعلون.

وعندما استطاعت بعض بلدان العالم الإسلامى أن تنـال قدرًا من الاستقلال، أو تتولى هى بنفسها وضع مناهج التعليم لم تستطع أن تتخلص من هذه المناهج الشائهة المغالطة.

ومع ذلك فقد أنشأ الأعداء مدارس تحقق أهدافهم بصـورة مباشرة سميت أحيانًا مدارس اللغات، وأخرى انتمت إلى طوائف كنسية عندهم، وثالثة إلى أفراد لهم شهرة فى الغرب، وكل هذه المدارس لا تكتفى بتعليم اللغة الأجنبية فـقط وإنما تعلم فكرًا أجنبيًا وثقافة أجنبية وتخرج إنسانًا أجنبيًا عن إسـلامه أولاً ثم عن وطنه ثانيًا. وكل من تعلموا فى هذه المدارس أو المعـاهد أو الجامـعات -كـالجامـعة الأمـريكية- تنتظرهـم أهم الوظائف، وينالون أعلى الأجور، ثم يدفع بهم إلى أعلى المـناصب فى البلاد؛ لأنهم أولياء السـادة الحقيقـيين لتلك البلاد وكل متعلم فى هذه المدارس أو المعاهد أو الجامعات إنما هو فرد يخسر الإسلام أولاً، ثم يخسر أسرته بعد ذلك.

ولا تزال هذه الظاهرة حتى يومنا هذا فى كل بلدان العالم الإسـلامى دون استثناء، وما سمـعنا عن حكومة فى بلد إسـلامى أمرت بإغـلاق هذه المدارس أو إلزامها بمـناهج البلاد وبرامج التعليم فـيها -على ما فى هذه البـرامج من عيوب- حـتى تلك البلاد التى أعلنت تطبيق الشريعة الإسلامية لم تجرؤ على مثل هذا القرار!!

وقد أفـرز ذلك كله تشويه الفكر والثقـافة والذوق والمعرفة، وإبعـاد الإنسان المسلم عن الإسلام وحضارته.

٤ - النظم والقوانين:

استطاعت هذه الحضارة الغازية أن تطرد من معظم بلدان العالم الإسلامي نظمه وقوانينه النابعة من الشريعة الإسلامية، لتُحِلَّ محلها نظمًا وقوانين وضعية نابعة من تصورات عصر النهضة الأوربية الذى قام على محاربة الأديان لذاتها، والأخلاق باسم الحرية الشخصية.

وكل عاقل مثقف يدرك تمام الإدراك أن تغيير النظام والقانون لا يعنى مجرد إحلال نظام محل نظام أو قانون محل آخر، وإنما يعنى تغيير المجتمع والقيم السائدة فيه بتغيير الفلسفة التى تقوم عليها النظم الاجتماعية والأخلاقية، بل تغيير كل مظاهر الحضارة فى مجتمع من المجتمعات.

وبالتالى فإن الذى حل ببلدان العالم الإسلامى من جراء تغيير النظم والقوانين هو كارثة بكل المقاييس؛ لأنه أدى إلى تغيير مجتمع مسلم إلى مجتمع غربى فى أخلاقه وعاداته وتقاليده، وما يحترم من نظم وما يخضع له من قوانين.

ولقد استعان أعداؤنا على تغيير النظم والقوانين فى بلادنا بأن أنشأوا مدارس وكليات حملت اسم: «مدارس الحقوق» أو «كليات الحقوق» وأعطوها من الأهمية والصدارة ما يوازى ما أهلت له من هذا التغيير الخطير.

وقد ألحقت كليات الحقوق بالجامعات فى البلدان التى أنشئت فيها جامعات، ومارس التدريس فيها أول الأمر أجانب عن الإسلام والمسلمين، ثم مارسه فيها من تعلموا فيها وابتعثوا فى بلدان الغرب ليعودوا غربيين لحمة وسداة، فيوالوا الغرب وكل ما يسوده من نظم وقوانين.

وقد دُرِّست لأبناء المسلمين فى هذه الكليات القوانين المدنية والجنائية وغيرها، وأُلقى فى روع المتعلمين أن التشريع ليس لله وإنما هو لمن يسنون القوانين، فهم الذين لهم أن يقولوا إن هذا العمل واجب أو مباح أو حرام، وهم الذين يختارون العقوبات جزاءً على ارتكاب الجرائم، بل هم الذين يحددون الجرائم أى يجرمون بعض الأعمال ولا يرون حرجًا -فضلا عن جريمة- فى أعمال أخرى.

كل ذلك يدرسونه للطلاب المسلمين بغض النظر عن أن تكون الجرائم التى عدوها جرائم مما حرم الله، أو التى اعتبروها غير مجرمة مما أحل الله، وبغض النظر عن العقوبات التى اقترحوها لبعض الجرائم أهى ملائمة لما شرع الله أم مخالفة له.

ولقد ترتب على ذلك فى المجتمعات الإسلامية أمور أدت إلى تعطيل الشريعة الإسلامية عن أن يحكم بها بين المسلمين، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

أولا: عطلت الحدود الشرعية كحد السرقة أو الحرابة أو حد الزنا أو شرب الخمر أو القذف، وحلت محلها عقوبات رأوها خيرًا مما شرع الله!! فلا رجم ولا جلد؛ لأن هذا فى نظرهم وحشية فى التعامل مع المجرم، متناسين وحشية المجرم وهو يرتكب الجريمة.

حتى عقوبة القتل قصاصًا عطلت فى كثير من البلدان وحلت محلها عقوبة السجن مدى الحياة، تعففًا عن قتل من لم يتعفف عن قتل سواه!!

ثانيًا: واعتبرت بعض الجرائم فى الإسلام غير محرمة مثل:

أ- شرب الخمر وسائر المسكرات.

ب- وقذف المحصنات المؤمنات.

جـ- والزنا ما دام برضا الزانية الراشدة.

د- والسرقة لا قطع فيها بحال.

هـ- وزنا المحصنين والمحصنات كزنا غيرهم، مع أن الزناة المحصنين والمحصنات يرجمون حتى الموت، وغيرهم يجلدون مائة جلدة.

و- ولعب الميسر لا غبار عليه ما دام فى مكان مرخص له بذلك.

ز- وكشف ما أمر الله بستره من جسم المرأة.

ح- وكشف ما أمر الله بستره من جسم الرجل.

ط- والتعامل بالربا يتم مع المصارف التى تنشئها الحكومات المسلمة.

ى- وغير ذلك مما لا نقصد استقصاءه هنا.

ثالثًا: وحَلَّتْ أنظمة فى العلاقات الأسرية محل أنظمة الشريعة كبعض ما أدخل على نظام الزواج والطلاق والحضانة وغيرها فى كثير من بلدان العالم الإسلامى.

رابعًا: وكذلك كان الشأن فى المعاملات كالتجارة والشركة والصرف والسلم والوكالة والكفالة والحوالة والمزارعة والمساقاة والديات وأروش الجنايات وغيرها، كل ذلك حل فيه القانون الوضعى محل أحكام الشريعة وقوانينها.

وإن الأنظمة والقوانين الوضعية التى أتت بها إلينا الحضارة الغربية فى معظم بل كل بلدان العالم الإسلامى لجد خطيرة، إذ حسبها من الشر والخطر أن حالت بين الناس وقوانين ربهم وأنظمته، فضلاً عما أحدثته فى المسلمين من حيرة وتخبط وضياع.

إن ناشئة العالم الإسلامي وشبابه تتفتح عيونهم على هذه الأنظمة وتلك القوانين الوضعية فيألفونها ويتعاملون بها، ولا يفكرون في الطريقة التي يتخلصون بها منها، لتحل محلها أنظمة الشريعة الإسلامية وقوانينها، وإن ذلك لمعوق كبير من المعوقات المبثوثة في طريق العمل الإسلامي.

٥- السياسة:

أتت هذه الحضارة الغازية بنظم ونظريات سياسية لا تصلح للمسلمين بحال من الأحوال، وذلك أنها نظم ونظريات تولدت من فلسفة لا دينية، ومن قيم ومعايير لا أخلاقية - كما أوضحنا آنفًا- على حين أن حياة المسلمين في كل شعبها السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية والعسكرية والرياضية، وكل شعبة من شعب الحياة جميعًا، إنما تنبع أصلاً من الشريعة الإسلامية وتشق طريقها من خلال أنظمتها وقوانينها وأخلاقياتها.

إن النظم والنظريات السياسية الغربية تقوم -كما ألمحنا إلى ذلك فيما مضى من هذا الكتاب -على أسس متعددة، بعضها يدعم الرأسمالية، وبعضها يدعم الاشتراكية أو الشيوعية، وبعضها إقطاعي النزعة حتى يومنا هذا، وكلها تنبع من فلسفة لا دينية تعتمد القوميات والديموقراطيات، بل تجعل منها هدفًا تسعى إلى تحقيقه.

وقد توزعت هذه النظريات السياسية مذاهب مشهورة في عصرنا هذا الحديث -قرنين تقريبًا من تاريخنا اليوم- ومن أهمها:

- النازية والفاشية.
- والشيوعية والاشتراكية.
- والديموقراطية.

ويكاد الناس يجمعون على أن الديموقراطية هي أحسن المذاهب وأنفعها للناس، وأقدرها على منحهم الحريات.

غير أن الواقع الذي عايشه الغرب نفسه كَذّب هذه الدعاوى؛ إذ سريعًا ما تحدى بعض الغربيين هذه الديموقراطية، وجاء على رأس قائمة المتحدين «الدكتاتورية» وهي الطغيان الذي يمارسه الحاكم على الشعب تحت شعار خادع هو: «مصلحة الشعب» وهي كلمة كثيرًا ما ديست بها حقوق الشعب وكرامة الإنسان وحقوقه.

وقد عرفت الحضارة الغربية ألوانًا من «الديكتاتوريات» كان من أبرزها.

- ديكتاتورية نابليون الأول.
- وديكتاتورية نابليون الثالث.

مع ضرورة أن نتذكر أن الثورة الفرنسية كان شعارها: الحرية والإخاء والمساواة. والأثر المباشر «للديكتاتورية» هو الإرهاب والتعذيب وتكميم الأفواه لكل أصحاب الرأى أو المعارضين أدنى معارضة للحاكم «الديكتاتور» ولعل الذى يحرك «الديكتاتوريات» هو الأحقاد الشخصية أو القومية.

وفى حياة الغرب شخصيات بارزة فى الحكم «الديكتاتورى» لا ينساها الناس مهما تطاول الزمان، ومن أمثلة ذلك:

- «بلسودسكى» فى بولونيا.
- ومصطفى كمال فى تركيا.
- وبريمودى ريفيرا فى أسبانيا.
- والملك إسكندر فى يوغوسلافيا

ولكن أشهر الديكتاتوريات فى الغرب ثلاثة:

- «الديكتاتورية» الروسية التى أقامها «لينين» ١٩٢٣م، ثم من بعده «ستالين»، ثم «خروشتيشوف» ثم «بريجنيف» وغيرهم إلى أن جاء «جرباتشوف» صاحب فكرة إعادة البناء والتفكير بصوت مرتفع، وعلى الرغم من ذلك الشعار فهو يمارس «الديكتاتورية» مع بعض الجمهوريات وبخاصة الإسلامية منها.

- و«الديكتاتورية» الإيطالية التى أقامها «موسولينى» «الفاشية» سنة ١٩٢٣م، حيث حل الأحزاب، وقضى على المعارضة، واستخدم كل وسائل الإرهاب.

- «والديكتاتورية» الألمانية التى أقامها «هتلر» «النازية» حيث أصبح رئيسًا للدولة ورئيسًا للوزراء وقائدًا أعلى للجيش، وحل جميع الأحزاب وفرض الإرهاب على الناس، وأجَّجَ نيران الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥م.

وكل نظام من الأنظمة أو المذاهب السياسية قد كان له صدى بل صدى كبير فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، وبخاصة الأنظمة «الديكتاتورية» فقد عششت «الديكتاتورية» وفرخت وفاقت فى القمع والإرهاب الأصل الذى قلدته.

ونستطيع أن نقول مطمئنين يؤيدنا الواقع: إن كل نظام حكم عسكرى فى أى بلد إسلامى هو نظام «ديكتاتورى» يقوم على أساس الاستيلاء على السلطة وقمع الرأى الآخر، وحل الأحزاب أسوة بنظام مصطفى كمال مشئوم تركيا، بل مشئوم العالم الإسلامى كله، أو أسوة «بموسولينى» أو «هتلر» أو «لينين» أو «ستالين» أو «بريجنيف».. أو غيرهم مثل «شاوسيسكى» وغيره، ولكن مصطفى كمال كان أكثر إغراءً لهم حتى إن بعضهم كان يعلق صوره فى بيته ويعلن فى غير خجل أنه يقدره ويحترمه ويتخذه قدوة فى حكمه!!

كما أن بعض بلدان العالم الإسلامى تعيش -كما تدعى- على أنظمة حكم ««ديموقراطية» رئاسية أو ملكية أو عائلية أو قبلية، والديموقراطية -على الرغم من كل ما فيها من المساوئ - منهم بريئة.

وكل تلك الأنظمة والمذاهب السياسية تعادى الإسلام، وتخالف نظامه وأحكامه وأخلاقه، وكل هذه النظم والمذاهب السياسية مفروضة فرضًا على بلدان العالم الإسلامى بشكل مباشر حيناً وبشكل غير مباشر أحيانًا، المهم ألا يكون هناك -فى العالم الإسلامى كله- نظام حكم إسلامى يقوم على العدل والشورى والحكم بما أنزل الله.

٦- الاقتصاد:

وهو فى الغالب تابع للنظام السياسى مهما تعددت مذاهبه، وبالتالى فهو اقتصاد رأسمالى حر، أو اقتصاد اشتراكى موجه، أو اقتصاد يجمع بين هذين المذهبين.

غير أن المذاهب الاقتصادية كلها تقوم على فلسفة لا دينية، أى لا تتفق مع الإسلام فى شيء، وذلك أن المبادئ التى تعد أهم مبادئ يقوم عليها الاقتصاد هى:

- مبدأ الملكية.
- ومبدأ الحرية الاقتصادية.
- ومبدأ العدالة الاجتماعية.

وكل هذه المبادئ التى جاءت بها الحضارة الغربية تناقض تمامًا ما جاء به الإسلام من نظام اقتصادى.

وبيان ذلك كالتالى:

- الملكية التى جاءت بها الحضارة الغربية فى صورتيها الرأسمالية والاشتراكية، تخالف ما جاء به الإسلام فى الملكية.

فالرأسمالية التى تقر الملكية الخاصة لكل أنواع الثروة، ولا تعترف بالملكية العامة إلا تحت وطأة الضرورة الاجتماعية، والاشتراكية التى تقر الملكية العامة، ولا تعترف بالملكية الخاصة إطلاقًا وتعتبر الاعتراف بها شذوذًا عن القاعدة - كلاهما لا يتفق مع الإسلام الذى يقر الملكية الخاصة والملكية العامة وملكية الدولة فى توازن ومرونة محكومة بالقيم الخلقية الإسلامية.

- ومبدأ الحرية الاقتصادية التى يتيحها النظام الرأسمالى والاشتراكى، مخالف كذلك لما جاء به الإسلام؛ لأن الرأسمالية تمارس حريات بلا قيد، بينما تصادر الاشتراكية أى قدر من الحرية، فى حين أن الإسلام يتيح هذه الحريات فى ظل قيم ومعايير إسلامية نابعة من العقيدة والإيمان والالتزام بأخلاق الإسلام وآدابه.

- وكذلك الشأن فى مبدأ العدالة الاجتماعية التى جاءت بها هذه الحضارة الغربية مختلف تمامًا عن العدالة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام، وذلك بالنظر والتأمل فى أساسين عظيمين هما:

- التكافل الاجتماعى.

- والتوازن الاجتماعى.

فعن طريق هذين الأساسين تقوم العدالة الاجتماعية فى الإسلام، وهى عدالة تأخذ فى اعتبارها الواقع الذى يجب أن يعيشه الناس أو الذى يعيشونه فعلاً.

وليس هنا مجال تفصيل هذه العدالة الاجتماعية الإسلامية وأسسها التى تقوم عليها، وإنما لذلك مظانه من كتبنا وكتب غيرنا[1].

---

(١) انظر لنا: أ- «عالمية الدعوة الإسلامية» نشر دار عكاظ، ط: ثالثة ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤م

ب- «مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس» نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م، ودار الوفاء بالمنصورة ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

وانظر لغيرنا:

أ- «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» للمرحوم سيد قطب.

ب- «الحضارة الإسلامية» للمرحوم أبى الأعلى المودودى.

جـ- «حصوننا مهددة من داخلها» للمرحوم الدكتور محمد محمد حسين.

د- «مفاهيم إسلامية» للمرحوم أبى الأعلى المودودى.

هـ- «الأسرة والمجتمع» للدكتور على عبدالواحد وافى.

جـ- نتائج تأثر المسلمين بالحضارة الغربية:

كان من نتيجة تأثر المسلمين بهذه الحضارة الغربية الغازية، أن طغى على السطح فى العالم الإسلامى تياران قويان، كان لكل منهما نتائج حاسمة بالنسبة للمسلمين، هما: تيار التجاوب مع هذا الحضارة الغربية وقبول معطياتها، تجاوب المبهورين بكل ما جاءت به هذه الحضارة الغربية، مع غض النظر عما فى هذه الحضارة من مخالفات واضحة لما جاءت به الحضارة الإسلامية، ابتداء من العقيدة والإيمان ووصولاً إلى العادات والتقاليد وأسلوب تناول الحياة.

وتيار الرفض المطلق لهذه الحضارة ومعطياتها، رفض الذين أغمضوا عيونهم وعقولهم عن كل ما جاءت به هذه الحضارة، لأنها حضارة غربية وكفى.

ولكل من هذين التيارين إفرازات لم تكن فى صالح المسلمين فى مختلف أقطار العالم الإسلامى، وهذا ما نحاول أن نوضحه هنا لندرك من خلال توضيحه كيف نوجه الناشئين والشباب، بل الكبار، إلى الموقف الراشد الواعى المحافظ على الأصالة المتقبل من المعاصرة ما لا يتعارض مع شيء من دينه ويحقق له النفع والفائدة. وقد علمنا الإسلام دائمًا أن نبحث عن الحكمة وأن نفتش عن الحق، وأن نلتزم به، إذ الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

وسوف نتحدث هنا بإيجاز -كذلك- عن إفرازات هذين التيارين، ثم نوضح أبعاد الموقف الذى ندعو إليه فى التعامل مع هذين التيارين وما أفرزاه، أملاً فى توجيه المسلمين إلى ما فيه صالحهم فى المعاش والمعاد.

التيار الأول: تيار قبول الحضارة الغربية:

هذا التيار تبناه ناس كثيرون فى العالم الإسلامى دون مراجعة لمحتواه، وهؤلاء فى الغالب هم الذين تعلموا وتثقفوا وفق مناهج الغرب وبرامجه ووسائل إعلامه.

وقد كان لهذا التيار آثار سيئة كثيرة، نسجل منها فى هذه الصفحات ما يلى:

١- تبنى أفكار الحضارة الغربية عن الدين عمومًا وعن الدين الإسلامى على وجه الخصوص، وهى أفكار سبق أن أوضحنا شدة بعدها عن الحق، وشدة تجنيها عليه، وخضوعها فى هذا الضلال والتضليل لظروف تخص هذه الحضارة وما عانته من تجاوزات الكنيسة ورجالها للدين باسم الدين.

وقد أدى ذلك إلى الشك والارتياب فى الإسلام بوصفه من الأديان، حيث لم يعرف تاريخ الإسلام تجاوزات للدين باسم الدين، وإنما عندما يحدث التجاوز فإنما يكون باسم الحكام الذين تجاوزوا، هذا فرق هام بين المسيحية والإسلام، وفرق آخر بينهما هو أن الكنيسة فى تجاوزاتها للدين باسم الدين إنما كان ذلك على أيدى رجال الدين أو الكهنة الذين يسيطرون على شئون الكنيسة وشئون الناس غالبًا، أما فى الإسلام فليس فيه من يسمون رجال دين أو كهنة يلجأ الناس إليهم للاعتراف بالذنب أو التماس الرحمة؛ إذ ليس فى الإسلام شيء أى شيء من هذا القبيل.

٢- وقد وقع المسلمون -أصحاب هذا التيار- فى خطأ القول بأن الدين يجب أن يكون بمعزل عن الحياة؛ لأنه -كما تزعم هذه الحضارة الغربية- شأن من شئون الإنسان الشخصية ينبغى أن يظل بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية.

وقد شجع على تبنى هذا التيار أن عدداً كبيراً من معتنقيه تعلموا- كأولئك- فى ظل مناهج وبرامج تعليمية وضعها الأعداء، وكافئوا على تبنيها بالمال والجاه والسلطان فى فترة تحكمهم فى ظروف بلدان العالم الإسلامى -فترة الاستعمار- وهذا خطر ماحق لكل ما فى الدين من قيم.

٣- ووقع المسلمون فى شِراكٍ نصب لهم بمهارة من أنصار الحضارة الغربية، بحيث أقبل المسلمون على تلك الحضارة وما تحققه لهم من متع وشهوات ووسائل ترفيه للعيش دون أن يقيِّموا ما فيها، ليأخذوا منها ويدعوا شأن العقلاء الذين يبصرون ويتبصرون فيما حولهم، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول المسلمون أو كثير منهم إلى ذلك الإنسان الذى تنتجه الحضارة الغربية المادية التى لا تؤمن بالله ولا بعالم الغيب، ولا تقيم وزنًا للمعنويات والقيم، وقد ترتب على ذلك ما ترتب عليه من صراعات ومشكلات حول الأهداف المادية للإنسان.

٤- وغاص كثير من المسلمين فى مستنقع آسن من الفكر المريض الذى اهتزت ثقة صاحبه فيه بنفسه، فظن هؤلاء المسلمون بدينهم وأنفسهم شرًا، فطفقوا ينظرون إلى دينهم ومنهجه ونظامه وقيمه وآدابه نظرة من يحاول أن يلوى عنق هذا المنهج الإسلامى ليلائم تلك الحضارة، فضلاً عن أن يقف منه موقف العداء، فتغيرت لدى هؤلاء المسلمين المناهج التى جاء بها الإسلام فى الاجتماع والسياسة والفكر والثقافة والاقتصاد والتربية وغيرها، بغية أن يلائموا بين الإسلام وهذه الحضارة الغربية.

وأصبحنا نرى ونقرأ ونسمع عن:

- الديموقراطية فى الإسلام.

- والاشتراكية فى الإسلام.

- والاستبداد المصحوب بالعدل -كما وصفوا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه المستبد العادل!!

ولو سادت بين المسلمين الفاشية أو النازية فتحكمت فيهم كما فعلت سواها، لما كان يستغرب على بعض المسلمين أن يكتبوا قائلين:

- الفاشية فى الإسلام.

- والنازية فى الرسلام.

- والديكتاتورية فى الإسلام!!

وليس لذلك الذى رأيناه وسمعناه أو ذاك الذى تصورناه إلا معنى واحد هو أنَّه يصدر عن أناس مقهورين فكريًا وحضاريًا تائهين ضالين إسلاميًا.

٥- وتردى كثير من المسلمين فى هوة سحيقة الغور من التخلق بأخلاق الغرب، والتخلى عن أخلاق الإسلام، وكان ذلك أسوأ ما كان؛ لأن التخلى عن الأخلاق الإسلامية هو بالقطع تخلٍّ عن الفضائل والقيم الإنسانية الرفيعة، والمثل الصالحة للناس فى الدنيا والآخرة.

كما أن التحلى أو التخلق بأخلاق الحضارة الغربية هو كذلك بالقطع تحلٍّ وتخلق بالرذائل والقيم المادية التى تجعل من الإنسان المكرم شيئًا أقرب ما يكون إلى الحيوان.

وقد شاعت فى المجتمعات الإسلامية قيم خلقية هابطة كالكذب والغش والمكر والخداع والخيانة والغدر والظلم والإرهاب والأثرة، والتزوير، وإن كانت الحضارة الغربية أحيانًا لا تسمح بممارسة بعض هذه الرذائل فى مجتمعات الغربيين، أما الزنا وشرب الخمر وممارسة الشذوذ الجنسى ولعب الميسر، فذلك ما تراه الحضارة الغربية حقًا لكل راغب فيه.

ومن أسف أن كثيرًا من هذه الرذائل قد أصبح شائعًا اليوم بين كثير من المسلمين، تأسيًا بإباحة الحضارة الغربية له.

التيار الثانى: تيار رفض الحضارة الغربية:

وهو تيار تبناه عدد ليس بالقليل من المسلمين، وهو يرفض الحضارة الغربية بكل ما فيها دفعة واحدة، ويقف منها موقف الرفض المطلق الذى لا مبرر له فى بعض الأحيان، سوى أنه من مفردات الحضارة الغربية وكفى.

وقد كان لهذا الرفض غير الواعى إفرازات وآثار سيئة فى حياة المسلمين يمكن أن نسجل منها ما يلى:

١- هذا الرفض المطلق للحضارة الغربية كان يقابله تمسك شديد بالحضارة الإسلامية، وهذا فى حد ذاته حسن، غير أن ما أحاط بالمسلمين من وراء ذلك كان سيئًا، وعلى سبيل المثال فلم يكن التمسك بالحضارة الإسلامية تمسكًا بها فى فترات مدّها وتأثيرها وفاعليتها وقدرتها على ملء الأرض عدلاً وتقدمًا أى فى القرون الثلاثة الأولى التى أثنى عليها النبى ﷺ وعلى أهلها من السلف الصالحين. . . ولكنه كان تمسكًا -مع بالغ الأسف- بحضارة المسلمين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين -الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين- وهما قرنان لم يكن المسلمون فيهما على المستوى الذى يتطلبه الإسلام من المسلمين، وإنما كان المسلمون فى هذين القرنين يعيشون فترة ضعف سياسى وتراجع حضارى، واستيلاء لأعداء الإسلام والمسلمين على كثير من بلدان العالم الإسلامى وتشويهها وتشويه كل ما فيها ومن فيها. . .

هذا ما كان من رفض ومن تمسك، وهو ليس فى صالح المسلمين.

٢- وقد أدى هذا الرفض المطلق للحضارة الغربية إلى أن يغلق المسلمون عقولهم عما هو نافع مما جاءت به هذه الحضارة، وبخاصة فى مجال المكتشفات والتقنية.

وعلى سبيل المثال فلا يستطيع أحد أن يشك فى نفع الكهرباء وعلم الاتصال السلكى أو غير السلكى، وعلم المواصلات، وعلوم الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة والصناعة - وكلها فى عصرنا هذا من معطيات الحضارة الغربية، أفيجوز أن نحارب هذه العلوم وهذه المخترعات بحجة أنها من معطيات حضارة الغرب؟ أيسوغ هذا فى منطق أحد؟ إن أخذ الحضارات بعضها من بعض أمر سائغ ومقبول مادام هذا المأخوذ لا يتعارض مع المبادئ والقيم السائدة عند الآخذ.

ومن البديهى المعروف لدى الخاصة والعامة أن الحضارة الغربية قد أخذت عن الحضارة الإسلامية -أيام كانت حضارة المسلمين فى ازدهار- من خلال اتصالها بالمسلمين فى

الأندلس ومصر والشام وصقلية، بل إن عصر النهضة العلمية عند الغرب تأثر كثيراً بما كان المسلمون قد وصلوا إليه من مكتشفات.

٣- وقد أدى هذا الرفض المطلق لكل ما جاءت به حضارة الغرب دون تفريق بين ما يعارض الإسلام وما لا يتعارض معه، أدى ذلك إلى أن يوصف المسلمون بالجمود والرجعية ومعاداة المدنية، ثم انسحب هذا الوصف من المسلمين- على ألسنة الحاقدين وبأقلام الأعداء -إلى وصف الإسلام نفسه بالجمود والرجعية، وهى تهم باطلة تحمل فى طياتها سبب بطلانها لكنها انطلت على بعض الغافلين، ولقد أوضحنا آنفًا أن الذين يفرقون بين المبدأ ورجاله قلة من المُنصِفين ذوى الوعى والرشد، فلماذا تسبب هؤلاء المسلمون الرافضون للحضارة الغربية لدينهم فى أن تلقى عليه هذه التهم. فضلاً عما حرموا به أنفسهم وأوطانهم من الانتفاع بما هو نافع من تراث العقل البشرى أكبر نعم الله على الإنسان، حتى ولو كان من مفردات ومعطيات الحضارة الغربية، إن أبسط ما نقول فى شأن هؤلاء الرافضين رفضًا مطلقًا للحضارة الغربية هو أنهم فى غفلة عما يحيط بهم من نفع مما لا يتعارض مع الإسلام.

ولم تكن نتائج هذين التيارين كليهما فى صالح المسلمين بوجه من الوجوه، ومن أجل ذلك عاش المسلمون مع الحضارة الغربية أسوأ فترة مرت بها الأمة الإسلامية مع أى حضارة أخذت منها أو أعطتها فى أى حقبة من حقب التاريخ.

إن التوسط مطلوب دائمًا فى التعامل مع الناس والأشياء والأخذ من الحضارات.

وبعد هذا الاستعراض للتخلى عن القيم الإسلامية فى عصرنا هذا، ولأثر الحضارة الغربية فى المسلمين اليوم، ولنتائج تأثر المسلمين بالحضارة الغربية، لابد أن نتساءل قائلين:

كيف يوجه الإسلام الناشئين والشباب ليعيشوا حياتهم غير متنحين عن مبادئ دينهم وقيمهم، وغير مبهورين بمعطيات الحضارة الغربية وغير رافضين لها دون مبرر؟

هذا ما نأمل أن نجيب عنه فى النقطة التالية بعون الله.

د- الخطوات العملية لتوجيه الإسلام للناشئين:

إن حديثنا عن هذه الخطوات العملية يستوجب علينا أن نتعرف على أنواع القصور الكائنة فى المسلمين ونشخصها، لنتعرف بعد ذلك على توجيه الإسلام للناشئين والشباب لعلاج هذا القصور.

وإن التربية الإسلامية وهى تعالج هذه المشكلات، وتطب لها وتستأصل أسبابها، إنما تمهد لتوجيه الشباب نحو ما يصلح دينهم ودنياهم.

ولابد للتربية الإسلامية أن تعترف ببعض أنواع القصور فى المسلمين، وأن تتعقب هذا القصور وترصده وتدل عليه وتنبه على خطره لتبدأ بعد ذلك فى علاجه.

وسأحاول هنا أن أذكر أنواع القصور وأوضح أبعاده، ثم أتحدث عن توجيه الإسلام لعلاجه وتلافيه، والقضاء على أسبابه أو على الأقل أحد تصورات القضاء على أسبابه.

فما هى أنواع القصور فى المسلمين من جراء اتصالهم بالحضارة الغربية المعادية؟

أنواع القصور فى المسلمين وتوجيه الإسلام لعلاجه:

أولاً: قصور أحدثته هذه الحضارة الغربية فى عقيدة المسلم: إذ تعمدت هذه الحضارة أن تباعد بين المسلمين وإسلامهم، وأن تبث فى طريق الإسلام من الشبهات والأضاليل ما يشوه على المسلم عقيدته، فلو قلنا: إن الحضارة الغربية قد شنّت على المسلمين حملات لتشويه العقيدة الإسلامية ما جاوزنا الواقع ولا بالغنا فيه فى شىء.

وحملات التشويه استهدفت الدين نفسه، واستهدفت محمداً ﷺ، واستهدفت القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وسيرة المعصوم ﷺ[1].

هذا هو القصور أما التوجيه للعلاج:

* فما أتصور علاجًا أنجع لهذا القصور من أن نعيد للمسلم إسلامه، ونرد عليه عقيدته سليمة صافية بدفع هذه الشبهات، ودحض هذه المفتريات، ببحوث ودراسات علمية جادة، يقوم بها الجادون من علماء المسلمين، مستندين فيما يكتبون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته العطرة.

* كما لابد أن تتضافر على عودة الإسلام للمسلمين والمسلمين للإسلام جهود البيت والمدرسة والمسجد والشارع والأندية والمحافل.

* كما لابد من أن يصحب هذا وذاك كشف لأعوان الأعداء فى بلادنا المسلمة، مع تنوير لأذهان الجهلة والغافلين من المسلمين حكامًا كانوا أو محكومين.

ثانيًا: قصور يشاهده كل ذى عينين فى الفكر الإسلامى عند المسلمين: إذ قد أصبحت هناك أزمة فكر إسلامى، لا يشك فيها إلا غافل عن التتبع والمتابعة.

---

(١) انظر لنا من أجل التوسع: «الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى» نشر دار المنار الحديثة، ط٣، ١٩٨٩م.

وإن لهذه الأزمة الفكرية أبعادًا تلتمس بغاية اليسر والسهولة، ويمكن إجمالها فى انشغال المسلمين بالقشور عن اللباب، وبالعرض عن الجوهر، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

١- انشغال المسلمين اليوم بموضوعات خلافية حدثت وقائعها منذ العصر الأول للإسلام -القرن الأول الهجرى- ورغبة بعضهم فى تصويب أحد طرفى الخلاف وتخطئة الطرف الآخر وتحميله وزر هذا الخلاف، ولابد لنا أن نتساءل اليوم قائلين:

- من الذى أحيا هذه النعرة فى إثارة الخلاف حول مواقف مضى على حدوثها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان؟

- ومن الذين كتبوا وألفوا الكتب فى هذا الخلاف؟

- وما مدى ولاء هؤلاء الكتاب والمؤلفين للإسلام ولمصلحة المسلمين؟

- وما أثر بعض المستشرقين فى إحياء هذه القضايا؟

- ومن الذين حذوا حذو المستشرقين من كتاب المسلمين؟

- وما لون ثقافة هؤلاء الكتاب من المسلمين؟

- وأين قضوا فترات تعليمهم؟ ومن أين حصلوا على درجاتهم العلمية؟

- ولماذا توسد بعض هؤلاء الكتاب مناصب رفيعة فى الدول التى يعيشون فيها؟

أليست هذه المحاولات لإحياء الخلافات التاريخية وشغل المسلمين بها عن أعدائهم، وعن القيام بما يصلح أمرهم أزمة فكر؟ بلى إنها أزمة فكر جد خطيرة.

أليس من صميم أزمة الفكر عند المسلمين اليوم أن يدعوا حاضرهم ضعيفًا مريضًا فقيرًا عاجزًا، وأن ينشغلوا بالفتنة الكبرى - كما سماها أحد الكتاب- بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وأن يقوموا ويقعدوا حول معرفة من هم قتلة عثمان رضى الله عنه؟

انظروا فى أسماء من كتبوا حديثًا فى هذه الموضوعات تعرفوا مدى ما كان لديهم من ولاء وانتماء للأمة الإسلامية!!

٢- ثم هذا الجدل القائم فى كثير من بلدان العالم الإسلامى اليوم حول الإمامة والأئمة، الذى أدى -أو استمر يؤدى- إلى تفريق وحدة المسلمين وجعلهم شيعة وسنة، وقول بعضهم بعصمة غير الأنبياء من الأئمة، وأولئك الذين لووا أعناق النصوص وحملوها فوق ما تحمل.

- من الذى أيقظ هذا الفكر فى العصر الذى نعيشه الآن؟

- ومن الذى شغل المسلمين بذلك عن قضاياهم المصيرية اليوم فى السياسة والاقتصاد، والتحرر من النفوذ المفروض عليهم منظورًا كان ذلك النفوذ أو غير منظور؟

- ومن الذين كتبوا فى هذه الموضوعات وروجوا لها وأنفقوا بسخاء على نشر هذه الكتب، ووزعوها دون مقابل؟

- من الذين تعصبوا حتى بلغ بهم التعصب حد المواجهة العسكرية بين المسلمين؟

- هل يسوغ فى عقل مسلم أن يتقاتل المسلمون لخلافات مذهبية؟

- أليس ذلك من صميم أزمة الفكر التى تركت انعكاساتها فى الأزمات السياسية التى تعيشها الأمة الإسلامية اليوم؟

٣- ثم هذا الجدل العقيم حول مفهوم الشورى الذى يثيره البسطاء الغافلون عما يُدَبَّر للأمة الإسلامية من أضرار وأخطار، وكيف نجد من الوقت والجهد والطاقة ما ننفقه فى تحرير الإجابة عن سؤال ساذج يشغل السذج وحدهم هو: هل الشورى ملزمة أم غير ملزمة؟

- كيف ننشغل بهذا والعدو المتربص قد اقتحم البيت وأخذ يقاسمنا لقمة العيش وشربة الماء وقطرة «البترول» وينازعنا السيادة على أرضنا؟

- ومن المستفيد من دخول المسلمين فى متاهات جدلية عقيمة، أبسط ما يقال فيها إنها لا تخدم الشورى نفسها؟

- ألم يكن حسب المتحمسين لهذا الجدل التافه أن الله سبحانه قد امتدح المؤمنين بأنهم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

- ألم يكن كافيًا لهم عن هذا الجدل العقيم أن الله تبارك وتعالى أمر رسوله المعصوم ﷺ أن يشاور أصحابه فى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- ألم يكن ذلك كافيًا لاعتبار الشورى مبدأ أساسيًا يقوم عليه نظام الحكم فى الإسلام؟

- أما كان فى كل ذلك ما يغنى عن هذا الجدل العقيم؟

٤- ثم هناك قضية أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأن المسلمين اليوم ليس لهم أن يجتهدوا فيما لا نص فيه؛ لأنهم فقدوا وسائل الاجتهاد وأدواته، وكأن هذه الوسائل والآلات مسمار سقط فى البحر!! أو كأنها من المستحيلات عقلاً اليوم!!

- من الذى حرك هذا الكلام وجعل منه قضية، يتبارى فى الكتابة فيها الغافلون حينًا والمتشددون حينًا آخر؟

- أليس أولئك جميعًا يعيشون أزمة فكر تشغلهم عن الواجب عليهم نحو حاضر الأمة الإسلامية؟

- وكيف يزعم بعض المسلمين تعطيل أصل رئيس من أصول التشريع فى الإسلام هو الاجتهاد؟ وماذا يفعل المسلمون فيما يحيط بهم من متغيرات لا نصوص فيها؟

٥- ثم هذا الحديث عن الحاكمية -والحاكمية لفظ وافد علينا لم أجده فى تاريخنا الفكرى والثقافى- وإثارة قضية أن الحاكمية لله وحده، وأن جميع السلطات الزمنية لا شأن لها بالحاكمية.

- أليس ذلك نوعًا من التقارب بين نظام الحكم الإسلامى وما يعرف عند الغربيين -فى أسوأ ظروفهم وأظلم عصورهم -العصور الوسطى- بالحكومة الدينية أو «الثيوقراطية» كما أسموها؟

- أفى نظام الحكم الإسلامى حاكم -بعد رسول الله ﷺ- يتلقى عن السماء أو يعصم من الخطأ، ويسوق الناس إلى ما يريد بحجة أنه حاكم لا يراجع لأنه يتلقى عن السماء؟

- من الذى يزعم - وفيه مُسْكَةٌ من عقل -أن فى الإسلام كهانة أو تسلطًا من الكهان على الناس باسم الإسلام؟

- وما قيمة إثارة هذه القضية كلها إذا قورنت بالقضايا الحيوية التى يجب أن يوليها المسلمون اهتمامًا؟

٦- ثم استعمال كلمة «الديموقراطية» بديلاً أو مساويًا للشورى فى الإسلام، أليس ذلك دليلاً على سذاجة وعفوية يؤكد أن المسلمين يعيشون أزمة فكر اليوم؟

إن الشورى عندنا تستهدف التعرف على الحق والصواب بالتماسه عند القادرين على الاهتداء إليه، كما تستتبع وجوب اتباع الحق إذا عرف، بغض النظر عما تمارسه «ديموقراطيتهم» فى هذا المجال.

- من الذين أثاروا هذه المسائل والمشكلات؟

- ومن الذين يحبون أن يقفوا معها طويلا ولا يتجاوزوها إلى غير مما يفيد ويجدى؟

- من الراغبون فى أن يصفوا الإسلام بأنه «ديموقراطى»؟

- ومن أصحاب مؤلفات «ديموقراطية الإسلام» «واشتراكية الإسلام» و«أبو ذر أول اشتراكى فى الإسلام»؟ أليس أولئك كانوا يعيشون أزمة فكر يوم كتبوا ما كتبوا؟

إن الخلاصة أن للإسلام فكراً أى تصوراً لكل أمر يهم الناس فى معاشهم أو معادهم، وتصوراً لحل أى مشكلة تعترضهم، وأن للإسلام نظامًا ومنهجًا، وأن الخروج عن هذا وذاك إلى القضايا الفرعية والجزئية والهامشية والمسائل الخلافية هو من صميم أزمة الفكر التى يعيشها المسلمون اليوم، متأثرين فى ذلك بما تريد الحضارة الغربية أن توصلهم إليه.

وإن توجيه الإسلام لعلاج هذه القشريات معروف -أشرنا إليه ونحن نتحدث عن تربية الإسلام للناشئ فى الفصول الثلاثة الأولى من الباب الثالث من هذا الكتاب.

وجوهر هذا التوجيه أن ينشغل المسلمون بالجوهر عن العرض، وبما ينفع عما لا ينفع، وبما يرضى الله عما لا يرضيه.

ثالثًا: القصور فى معرفة الإسلام والوقوف على تاريخه: إذ كيف يتصور أن المسلمين اليوم لا يعرفون عن الإسلام إلا قشوراً، قشوراً فى معرفتهم بالعقيدة والعبادة والمعاملة وسائر أحكام الإسلام، فى حين يعرفون عن أنظمة الحكم والسياسة فى الغرب شيئًا ليس بالقليل!!

- أليس ذلك عجيبًا وداعيًا إلى الدهشة والتعجب؟

- أليس من وراء هذا التعمية على الإسلام أعداء يتربصون؟

لقد كان لى تجربة متواضعة فى تجول فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، رأيت فيها من جهل المسلمين بالإسلام ما يثير الدهشة بل الحيرة..

- لقد رأيت إمامًا يؤم المسلمين فى الصلاة وهو خلفهم!!

- ورأيت إمامًا فى الصلاة لا يحسن قراءة القرآن ويلحن فى آياته لحنًا بشعًا!!!.

- ورأيت مسلمين يصلون الفرائض وهم لا يعرفون من الوضوء إلا بَلّ وجوههم بالماء!!

- ورأيت نساء مسلمات يصلين الفرائض ومعظم أجسامهن مكشوفة تمامًا!!

إن الجهل بالإسلام عقيدة «وعبادة» ومعاملة يمثل أزمة فكر إسلامية، يشارك فيها كل من علم من هذا الدين شيئًا ثم لم يعلمه وينشره فى أى مكان يمكن أن يصل إليه.

ثم إن الجهل بتاريخ الإسلام وسيرة النبى ﷺ وسيرة أصحابه جهل واضح فاضح.

- فمن الذى وراء خلو مناهج التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى من الاهتمام بسيرة النبى ﷺ؟

- من الذى جعل حَظّ تاريخ الأقاليم والبلدان والقوميات فى مناهج التعليم أوفر من حظ تاريخ الإسلام نفسه؟

وإن توجيه الإسلام فى علاج هذه الظاهرة هو بإعادة النظر فى مناهج التعليم فى بلاد المسلمين ليأخذ الإسلام ورسوله ﷺ وأصحابه وتاريخ الإسلام حظه الواجب له، إن ذلك خطوة أولى، يجب أن تتبعها خطوات أشرنا إليها آنفا من ضرورة تضافر جهود البيت والمدرسة والمسجد والشارع والنادى وكل غيور على دينه من المسلمين.

رابعًا: القصور فى فهم التكيف الصحيح بين الأصالة والمعاصرة: وذلك أن جمهوراً عريضًا من المسلمين الذين ربوا وشبوا فى ظل سيطرة أعداء الإسلام على التعليم مناهجه ومعلميه وأهدافه ووسائله، كثير من هؤلاء المسلمين ينجرفون وراء ما توحى إليهم به الحضارة الغربية من ضرورة رفض القديم أو الأصيل لمعاداته للجديد أو المعاصر من الأمور.

ولئن صح ذلك عند الغربيين فرفضوا القديم لأنهم عانوا منه أشد أنواع المعاناة، ودفعوا باسمه أبهظ الأثمان وغالى التضحيات، فكان القديم عندهم هو الدين أو الكنيسة ورجالها، فتخلصوا من كل ذلك بالإقبال على الجديد أو المعاصر الذى جنبهم هذه التضحيات، لئن كان الغربيون فعلوا ذلك، فإن المسلمين لا يجوز لهم فعل مثله، لأن القديم أو الأصيل عند المسلمين -أو الثابت الذى لا يقبل التغيير- هو العقيدة والعبادة والأخلاق، هو أحكام الشريعة السمحة، أحكامها الواقعية التى يستحيل عليها أن تشق على أحد أو تجلب ضرراً له، الأصيل عندنا هو الذى قام عليه بناء مجتمع إنسانى فى أحسن ظروفه.

ولا تزال الشريعة الإسلامية قادرة على إقامة هذا البناء حتى اليوم؛ لأن العناصر الثابتة الأصيلة فيها باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فرفض الأصالة بالنسبة للمسلمين رفض لما فيه صالحهم فى الدنيا والآخرة.

ثم إن الإسلام لا يقر أن يرفض كل جديد أو أى جديد لأنه جديد وكفى؛ إذ الجدة فى حد ذاتها ليست عيبًا يقف منها الإسلام موقف الرفض، فربما كان فى هذا الجديد فائدة فى الدين أو فى الدنيا.

إن الإسلام ينظر إلى كل جديد ليقبله أو يرفضه وفق معيار خاص هو: ما يتضمنه هذا الجديد من أمور إن كان فيه شيء يتعارض مع الإسلام رفض وإلا قُبل.

إن المعاصرة فى الإسلام ليست شراً، وإن كانت الأصالة فيه خيراً، أما أن يفهم بعض المسلمين الغارقين فى مخالطات الحضارة الغربية الأصالة على أنها تقليد الأقدمين والأخذ عنهم والتجمد على ما كانوا عليه، فهذا لا يستقيم مع الإسلام أولاً، ثم لا يستقيم مع العقل والمنطق بعد ذلك.

إن الأصيل فى الإسلام هو ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه والسلف الصالحون رضوان الله عليهم، وقد كانوا على الحق، وعلى حد ما شرع الله لهم وما سن لهم الرسول ﷺ، فهذا الأصيل فى الإسلام هو الأصل، ولا يعاب أحد على أخذه بالأصالة وفق هذا المفهوم لها.

ولئن كان فى بعض عصور المسلمين – بعد عصر السلف– من أخل بالإسلام أو بالحق فوزره على نفسه، ولن يسمى أصيلاً، ولا يجوز لأحد أن يحذو حذوه؛ لأنه تجاوز ما أوجب الله.

وبالتالى فإن كثيراً من القضايا والأحكام التى حدثت فى عصور سابقة وخالف فيها الناس الشريعة أو الحق الذى جاءت به، فإن هذه العصور ليست منتمية إلى الأصالة.

كما أن أى مستجدات معاصرة لا تعارض بينها وبين ثوابت الإسلام فى العقيدة والعبادة والخلق والأحكام الشرعية الثابتة، تُصبح مقبولة ما دامت تجلب للمسلمين مصلحة أو تدفع عنهم مضرة.

وإن الإسلام وهو يوجه فى هذا المجال ليدعو إلى تحرير العقول من هذه القيود، التى تكون فى الغالب لصالح أعداء المسلمين، إذ ترمى بهم فى أحضان الحضارة الغربية المعادية باسم المعاصرة والتجديد، وتنأى بهم عن الإسلام والحق الذى جاء به باسم الأصالة!!

وهذا أعجب ما يمكن أن يقع فيه المسلمون من قصور!!

والوعى لهذه الشراك وتلك الأحابيل، وفقه الأصالة والمعاصرة فقهًا صحيحًا هو العلاج لهذا القصور.

خامسًا: قصور فى علاقة الفرد بأسرته: وقد يكون من المؤكد اليوم أن الفرد يعامل أسرته بجفاء، متأثراً فى ذلك بالحضارة الغربية، التى تفككت فيها الروابط الأسرية نتيجة لتفكك المعايير الخلقية.

إن الحضارة الغربية تعتبر الزواج -فى كثير من الأحيان- عبئًا ثقيلاً على الرجل والمرأة على السواء، وتجد فى العلاقة الجنسية القائمة بين الرجل والمرأة دون زواج -تحت اسم الحرية الشخصية- غنى عن القيد بأعباء الأسرة وقيودها.

وقد أدى ذلك إلى امتلاء دور الحضانة بملايين أبناء السفاح الذين لا يعرفون أبًا شرعيًا لهم، وأحيانًا لا يعرفون أمًا شرعية لهم كذلك؛ لأن الأم تترك وليدها فى المستشفى الذى ولدت فيه ولا تحمل عبء تربيته إلا فى القليل النادر، وقد تُرَبِّيه دار الحضانة أو يتبناه أحد الناس!!

فكيف يكون بين الأبناء وأسرهم علاقة ود أو ولاء؟ إن القليل النادر فى الغرب اليوم هو أن ينتمى الأبناء إلى أسر أو آباء فى ظل شرعية قامت على الزواج.

وإذا حرم الوليد من حنان الأم وحب الأب الشرعيين، فلن يعوضه عن ذلك دار حضانة ولا أب يتبنى، لأن تلك هى الفطرة الإنسانية وكل خروج عنها له متاعبه ومشكلاته.

إن الأسرة فى ظل تلك الحضارة الغربية لم يعد لها الاحترام والتقدير إلا فى القليل من الأحوال، وبالتالى فقدت الأسرة القدرة على توجيه الطفل وأخذه بالقيم الخلقية الفاضلة، فأدى ذلك بالتالى إلى مجافاة الأبناء للأسرة فى كثير من الأحيان، ثم انتقلت هذه العدوى إلينا معشر المسلمين فى هذا العصر الذى نعيشه.

أما الأسرة فى الإسلام فقد تحدثنا عنها فى هذا الكتاب حديثًا ضافيًا[1]، حيث أكدنا هناك أن الإسلام أمَّن هذه الأسرة فى حاضرها وفى مستقبلها، وسنّ لها من التشريعات ما يكفل لها هذا، وأوجب على الأبوين والأبناء والأقارب والأرحام والمجتمع كله رعاية الأسرة، ووضعها من الحياة الإنسانية فى وضعها الصحيح، وشرع لها ما لم يسبق إليه من التشريعات وما لم يلحق فيه.

وقد أشرنا هناك إلى أهم هذه التشريعات وهى:

- قوامة الرجل على الأسرة.
- والولاية على النفس والمال.
- والنفقات.

(١) كان ذلك فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب - تحت عنوان: «رعاية الإسلام للأسرة» فليعد إليه القارئ الكريم.

كل ذلك لتأمين حاضر الأسرة.

وأمن مستقبلها بتشريعات أخرى هي:

- الوصية.

- والميراث.

وقد جعل الإسلام من أهم أهداف الأسرة تربية الجيل الصالح والمحافظة على آداب الإسلام وأخلاقه، وربط الأبناء بالمسجد وربطهم بالمجتمع، وتوجيههم نحو الإحسان والتفوق، ونحو ممارسة العمل الصالح والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل على إيجاد روابط بين الأسرة المسلمة.

إن الإسلام يعرف للأسرة هذه المكانة، ويحيطها بتلك الضمانات، ويوجب عليها تربية الأبناء، فكيف يقبل من بعض المسلمين اليوم -وهذا هو دينهم- أن تحدث هذه الجفوة بين الأبناء وأسرهم؟

إن الإسلام قد اهتم اهتمامًا كبيرًا بوجوب بر الأبناء بالآباء والأمهات، حتى اعتبر العقوق من أكبر الكبائر على نحو ما بينا فى الباب الأول من هذا الكتاب[1].

إن العودة إلى احترام الأسرة والعيش فى كنفها الدافئ الحانى وطاعة الوالدين وبرهما، هو توجيه الإسلام لعلاج هذا الجفاء، وهو الذى يعيد الصلة بين الأبناء وأسرهم.

إذا حدث هذا فإن المجتمع يستطيع أن يعيش آمنًا سعيدًا فى معاشه ومعاده، ويعود بذلك إلى أصالته الإسلامية التى تقدر للأسرة وللناشئين فيها المكانة الإنسانية الكريمة التى تليق بتكريم الله سبحانه للإنسان.

وبعد: فهذه صورة تقريبية لتوجيه الإسلام للناشئ المسلم أو الشاب المسلم أو المسلم عمومًا أيا كان عمره، وهو توجيه يقوم على دعامتين أساسيتين هما -كما بينا-:

- تنقية فكر الناشئ وسلوكه من أثر التيّارات الضارة به، وبالمجتمع الذى يعيش فيه.

- ووصله بدينه وبمنهج هذا الدين فى الحياة؛ ليستطيع أن يعيش حياة إنسانية كريمة.

فكيف يوظف الإسلام طاقات الناشئ المسلم؟ هذا ما نتحدث عنه فى الصفحات التالية، والله المستعان.

●●●●

(١) انظر الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب.

٢- كيف يوظف الإسلام طاقات الناشئ المسلم؟

سبق أن أشرنا فى بداية هذا الفصل إلى أن توظيف الناشئ المسلم بالمفهوم الذى حددناه للناشئ فى هذا الكتاب، يعنى أن نحدد له وظائف وأن نعاونه على القيام بها، وأن تتضافر فى سبيل ذلك جهود البيت والمسجد والمدرسة والنادى، والمجتمع، وكل قادر على الإسهام فى هذا العمل الجليل، وكل غيور على مستقبل الشباب ومستقبل الأمة الإسلامية.

وقد أشرنا كذلك إلى هذه الوظائف، وأدى بنا اجتهادنا إلى تحديد هذه الوظائف، بل حصرها فى عشر وظائف هى على سبيل السرد والإجمال ما يلى:

١- وظيفته فى عبادة الله سبحانه.

٢- وفى التعامل مع بيته.

٣- وفى المسجد الذى يؤدى فيه الفرائض.

٤- وفى المدرسة أو المعهد.

٥- وفى الحى الذى يسكن فيه.

٦- ومع أقربائه وأصدقائه وجيرانه.

٧- ومع زملائه فى العمل.

٨- وفى الدعوة إلى الله.

٩- وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

١٠- وفى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

ونحاول هنا أن نفصل هذا الوظائف فى حدود ما يفتح الله به من تصور، وما يعين به من توفيق.

الوظيفة الأولى: عبادة الله سبحانه وتعالى:

ليس بخاف على أحد من المسلمين أن الله تبارك وتعالى خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأنه سبحانه لا يعود عليه نفع من هذه العبادة، وإنما يعود النفع على العابد نفسه، هذه أمور مقررة فى الإسلام لا يمارى فيها أحد، وبها نزل قرآن كريم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فعبادة الله سبحانه وتعالى وظيفة كل إنسان على وجه الأرض - فضلاً عن أنها وظيفة الجن كذلك.

والناشئ المسلم أولى الناس بأداء هذه الوظيفة، بل التمسك بأدائها لما فيها من نفع يعود عليه فى الدنيا والآخرة، وحسبه نفعًا طاعة الله سبحانه وتعالى الذى نادى عليه وعلى كل الناس قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وما من أمة من الناس إلا أرسل الله إليهم رسولاً يطالبهم بعبادة الله وحده، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

إن توظيف طاقات الناشئ المسلم لعبادة الله سبحانه هو أول ما يجب أن يقوم به، وما يجب أن يلتزم بأدائه، تجاوبًا مع فطرته التى فطره الله عليها.

وإن هذا التوظيف يتطلب خطوات عديدة، من أهمها ما يلى:

١ - توضيح أبعاد هذه الوظيفة العبادية وأنواعها، وأنها ممتدة فى حياة المسلم، بحيث لا تدع جانبًا من جوانب حياته إلا وتدخل فيه بإحسان.

- فهناك عبادة هى أداء ما فرض الله على الناس من إيمان بمحتوى الشهادتين ونطق بهما وإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ومن صلاة وصيام وحج وزكاة.

- وهناك عبادة لله فى ممارسة العدل والإحسان.

- وعبادة فى ممارسة الدعوة إلى الله.

- وعبادة فى ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- وعبادة فى المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله.

- وعبادة فى الذكر والدعاء.

- وعبادة فى الفكر والتأمل والتدبر.

- وعبادة فى ممارسة كل أنواع البر والخير.

- وعبادة فى الامتناع عن كل أنواع الشر.

- وعبادة فى التنفل بأى عمل أو قول من جنس ما فرض الله سبحانه على الناس.

- وعبادة لله سبحانه فى عقد النية - عند ممارسة أى عمل من الأعمال العادية - على إرضاء الله بهذا العمل أو الاستعانة به على عبادة الله، فيصبح بتلك النية عبادة مقبولة بإذن الله تبارك وتعالى.

وهذا التنوع فى عبادة الله سبحانه وتعالى هو ما أعنيه بتحديد أبعاد العبادة وبيان أنواعها.

٢- وتحبيب الناشئين خصوصًا والناس عمومًا فى عبادة الله سبحانه بتيسيرها وإعانتهم عليها، بل وتشجيعهم على أدائها، والبيت والتربية المنزلية له أحسن الأثر فى ذلك؛ لأن البيت المسلم يدرب أبناءه ويشجعهم على عبادة الله؛ لأن الأبناء منذ أن تتفتح عيونهم وتعى عقولهم يرون العبادات تمارس فى البيت، وهم يذهبون مع آبائهم أو أمهاتهم إلى المسجد كى يتأثروا بما يحدث حولهم من ممارسة للعبادات.

إن البيت المسلم يعطى القدوة ويشجع الأبناء ويدفعهم إلى المسجد، والمسجد ينشر روحه وأخلاقياته فى الذين يترددون عليه، وخير ما يحصل عليه المسلم من خير هو أن يكون قلبه متعلقًا بالمساجد.

إن البيت الذى يدرب أبناءه على أداء عبادة الله، يغرس فى نفوسهم حب القيام بالواجب، ومن أدّى الواجب مع ربه كان قادراً على أداء الواجب نحو والديه وإخوته وأقاربه وأصدقائه والمجتمع الذى يعيش فيه، والذى يُقَصِّر فى هذا يقصر فى ذاك.

وإذا لم يفعل البيت ذلك فليس له أن ينتظر من أبنائه معاونة، فضلاً عن أداء واجب فى البيت أو المدرسة أو المسجد أو المجتمع أو أى مرفق من مرافق الحياة.

٣- وربط الناشئين بالأقارب والأصدقاء الملتزمين بالعبادة، وتعميق هذه الروابط ورعايتها من قبل البيوت المسلمة، وذلك أن هذه الروابط الخيِّرة تثرى العبادة وتزكيها وتنميها وتشعر

الناشئ خصوصًا والإنسان عمومًا بنيل الأهداف ونيل الرسائل، وتشعره كذلك بالرضا عن نفسه، والاطمئنان إلى العمل الذى يقوم به، والتأكد من أنه عمل يرضى الله تبارك وتعالى.

وبالتالى فإن ذلك يباعد بينه وبين الأمراض النفسية والعصبية؛ لأن مبعث هذه الأمراض أو أحد أسبابها ذا التأثير البالغ فيها هو رفض ما يجرى به قضاء الله وقدره، لسوء فهم مكان الإنسان فى الحياة ومكانته، وما يكون ذلك فى الغالب إلا من زعزعة الإيمان فى داخله.

وعبادة الله سبحانه وتعالى تطرد هذه المشاعر وتدعم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره.

وعلى قدر ما قرأت عن الأمراض النفسية والعصبية، فما أجد لها سببًا أكبر ولا أهم من رفض ما يجىء به القضاء والقدر، إن هذا الرفض هو الذى يولد فى النفس الاكتئاب والإحباط والكبت وسائر الأمراض النفسية.

أما منطق الإسلام فى قول الرسول ﷺ: «... **فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**...»[1] فهو المنطق الذى يعطى الإنسان قدرة على التكيف الصحيح مع جميع المواقف التى يمر بها أو تفرض عليه كائنة ما كانت، يقابل كل ذلك بروح راضية وعقل مستوعب ومشاعر بعيدة عن الأنانية، وحب الذات، والغرور، وكل تلك مداخل للأمراض النفسية والعصبية، وكل ذلك إنما يعالجه الإيمان عمومًا، والإيمان بالقضاء والقدر على وجه الخصوص.

إن الأضرار التى تصيب الإنسان فى مجال من مجالات حياته فى نفسه أو فى أهله أو ولده أو ماله ما هى فى الحقيقة إلا ابتلاء واختبار من الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال جل وعلا: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) رواه ابن ماجة بسنده عن أُبيّ بن كعب رضى الله عنه.

وإن البيت المسلم الذى يعين أبناءه على عقد الصلات الطيبة مع أهل الخير والصلاح والطاعة والعبادة لله سبحانه، إنما يجنبون بذلك أبناءهم كل هذه الأمراض.

ولا تتكامل صورة الواجب بالنسبة للبيت نحو الناشئين فيه، إلا بأن يجمعوا إلى كل ذلك مباعدتهم بين أبنائهم والمستهزئين بآيات الله والمستهترين من أهل الشر، أولئك الذين لا يجدون فى معصية الله إثمًا ولا حرجًا، ولا يستحيون أن يعصوه أمام الناس مجاهرة منهم بالإثم والمعصية، إن هؤلاء خطر شديد على الناشئين وعلى الناس عمومًا، فلابد أن يقاطعوا فلا يجالسوا أو يؤاكلوا أو يشاربوا، فضلاً عن أن يصادقوا ويزاروا.

إن الذين لا يلتزمون بطاعة الله وعبادته يلحقون بذلك أبلغ الضرر بمن يراهم من الناس ومن يراهم من الناشئين على وجه الخصوص؛ لأنهم بهذا البعد عن الطاعة والقرب من المعصية وإهمال عبادة الله، يكونون أعوان الشياطين، وهم بأنفسهم الذين يقال عنهم: إنهم شياطين الإنس.

الوظيفة الثانية: التعامل مع البيت:

إن الناشئ المسلم عضو فى بيت مسلم، وجزء أصيل من كيانه، بل إن البيت بدون أبناء تخيم عليه سحابة من القلق والإحساس بالعجز عن الامتداد فى أبعاد الحياة ومستقبل أيامها، والاستمرار فى الزمان والمكان بما يلائم الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها.

والبيت آباء وأمهات وأبناء، إنه بيت موظف من وجهة النظر الإسلامية، ولكل عضو فى هذا البيت حقوق على الآخرين، كما أن عليه واجبات نحو الآخرين، وما بين استخدام الحقوق وأداء الواجبات والالتزام بها تكون الحياة الأسرية الإسلامية التى تشق طريقها فى الحياة لتحقق سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا كان على الأبوين أو الآباء - الجدود والجدات - واجبات أوجبها عليهم الإسلام وسوف يحاسبهم على التقصير فيها - كما أوضحنا هذه الواجبات فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب - نحو الأبناء، وكما أوضحنا تلك الواجبات نحو الزوجة فى كتابنا عن المرأة المسلمة[١].

إذا كانت هذه الواجبات على الآباء، فإنه من المنطقى أن تقابلها واجبات على الأبناء

---

(١) وانظر للتوسع كتابنا: «فقه الدعوة إلى الله» الباب الثانى كله، نشر دار الوفاء ١٤١٠ - ١٩٩٠م.

نحو آبائهم ونحـو البيت الذى يعيشون فـيه، وهذه الواجبات حـددتها الشريعة الإسـلامية وليست من اجتهادات المجتهدين فى زمان بعينه أو مكان بذاته.

هذه الواجبات من الأبناء تحتاج إلى توضيح، نستعين الله على الحديث فيه فنقول سائلين الله التوفيق:

إنها تتمثل فى النقاط التالية:

١ - البر بالآباء والأمهات:

والبر كلمـة جامعـة تعنى التوسع فى فـعل الخير، فـيقال: بَرَّ العـبدُ ربَّه أى توسع فى طاعته.

وبر الوالدين هو التوسع فى الإحسان إليهما، وضد ذلك العقوق.

والبر نوعـان: نوع فى الاعتقاد ونوع فى الأعـمال، وقد اشتـمل على النوعين قول الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذه الآية الكريمة جامعة لصنوف البر:

- فَبِرُّ الاعتقاد يتمثل فيما يلى:

أ- الإيمان بالله، وما يستتبعه ذلك الإيمان من مفردات.

ب- والإيمان باليوم الآخر وما فيه.

جـ- والإيمان بالملائكة كما وصفهم الله تعالى فى كتابه الكريم.

د- والإيمان بالكتب التى أنزلها الله على رسله.

هـ- والإيمان بالأنبياء جميعًا وبما دعوا إليه أو أمروا به أو نهوا عنه.

- وبر الأعمال فى هذه الآية أمور كثيرة هى:

أ- بذل المال عن رغبة وطيب نفس وتوجيهه لمستحـقيه من الفقراء من الأقارب واليتامى وأصحاب الحاجـة والفقر من الناس، وللمسافرين الذين انقطعت بهم الطريق فـأصبحوا لا

يجدون ما يبلغهم مقصدهم، وللسائلين الذين اضطرتهم الحاجة إلى سؤال غيرهم، وللأرقاء حتى يحصلوا بهذا المال على الحرية التى فطر الله الناس عليها، وهذا البذل صدقة وقربة.

وذلك أن فى المال حقًا سوى الزكاة، أخرج الدارقطنى بسنده عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن فى المال حقًا سوى الزكاة» ثم تلا هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الآية[1].

ب- وإقامة الصلاة والمحافظة عليها، الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر - لا تلك التى تُؤدَّى ولا تؤثر فى أخلاق مؤديها.

جـ- وإخراج الزكاة التى فرضها الله تعالى على عباده القادرين وتوجيهها إلى عباده الذين حدَّدهم مصارف للزكاة، واعتبر إخراج هذا المال فرضًا لازمًا.

د- والوفاء بالعهد فيما بين العبد وربه، وفيما بين العبد وسائر الناس، بل فيما بين العبد ونفسه، سواء أكان هذا العهد ماديًا أم أدبيًا؛ إذ الوفاء بالعهد كله واجب شرعًا.

هـ- والصبر فى الشدة والفقر، وفى المرض والزمانة، قال ذلك ابن مسعود رضى الله عنه.

وروى الإمام مالك بسنده فى الموطأ عن عطاء بن يسار رضى الله عنه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أيما عبد من عبادى ابتليته ببلاء فى فراشه فلم يَشْكُ إلى عواده، أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، فإن قبضته فإلى رحمتى، وإن عافيته عافيته وليس له ذنب»، قيل: يا رسول الله، ما لحم خير من لحمه؟ قال: «لحم لم يذنب». قيل: وما دم خير من دمه؟ قال: «دم لم يذنب».

و- والصبر وقت الحرب، وتحمل لأوائها والتضحية فيها بالمال وبالنفس فى بعض الأحيان.

تلك صنوف البر من حازها فهو من الصادقين المتقين.

وأما بر الوالدين أى التوسع فى الإحسان إليهما فهو أول واجبات الأبناء نحو الآباء والأمهات، وفى هذا البر وردت آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية كثيرة.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٤١، مرجع سابق.

ونحن نذكر بعض النصوص دون استقصاء:

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ومعنى ذلك أن الله سبحانه قد ألزم وأوجب عبادته وحده وقرن بذلك الإحسان إلى الوالدين - كما نرى ذلك في الآيتين - قال العلماء: من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما، فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة الصحيحة، ففي صحيح مسلم ما رواه بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، هل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يَسُبُّ الرجل أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أمه فيسب أمه».

* ومن عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما.

* وقال العلماء: إن بر الوالدين لا يختص بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما، إذا كان لهما عهد، ففي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك».

* ومن الإحسان إليهما والبر بهما - إذا لم يتعين الجهاد - ألا يجاهد إلا بإذنهما، روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» فإن كان الجهاد فرضًا للنفير العام أو للعدوان على أرض المسلمين فلا يستأذنان.

* وقد ألزم الإسلام الأبناء بصفة خاصة - إذا بلغ الأبوان الكبر من العمر - لأنهما سيكونان حينئذ بحاجة أشد إلى الأبناء - ألزم الأبناء في هذه الحالة أن يقابلوهما بالقول الموصوف بالكرامة في القرآن الكريم: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وهو القول السالم من كل عيب، روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة».

* ولا يجوز له أن يقول لهما أو لأحدهما ما فيه أدنى تبرم وهو كلمة «أُفّ».

* ولا يجوز له نهرهما أو زجرهما وإنما يناديهما بكلام لين لطيف مثل: يا أبتاه، ويا أماه، من غير أن يسميهما أو يكنيهما، قاله عطاء.

* وعلى الأبناء أن يتذلَّلوا للآباء تذلل الرعية للأمير، والعبيد للسادة، كما أشار إليه سعيد بن المسيب.

* وعلى الأبناء أن يجعلوا التذلل للآباء نابعًا من الرحمة لهما.

* وعلى الأبناء أن يدعوا الله للآباء والأمهات طالبين منه سبحانه الرحمة لهما - بشرط أن يكونا مسلمين - فإن كان مشركين فهناك نهى عن طلب الاستغفار لهما[1]. ولا بأس أن يطلبوا لهما الهداية فى دعائهم لهما.

ومن الأحاديث النبوية الواردة فى وجوب بر الآباء على الأبناء ما يلى:

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزى ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه».

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مَنْ أحق الناس بحسن صحبتى؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أبوك».

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من آيات وأحاديث هناك آيات كريمة وأحاديث نبوية ليست بالقليلة فى بر الوالدين والإحسان إليهما أو فى التخويف من عقوقهما، تلتمس فى مظانها.

وبعد: فهذا هو واجب الأبناء الأول فى التعامل مع البيت، وهو بر الآباء والأمهات على اعتبار أن ذلك من أهم عوامل استقرار الحياة الأسرية فى الإسلام.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١/٥٣٦ - ٥٤٧، باختصار.

٢- التعاون فى البيت:

البيت المسلم لا تقوم فيه الحياة الأسرية إلا على أساس من التزام كل من فيه بأدب الإسلام فى التعامل والتعاون فيما بينهم.

وقد أوضحنا واجب الآباء وضرورة التزامهم بأدب الإسلام وأخلاقه مع أبنائهم فى الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا الكتاب.

ونتحدث الآن فى واجبات الأبناء داخل البيت، وهى واجبات كثيرة ينبغى أن توظف فيها طاقاتهم، ومن أهم تلك الواجبات ما يلى:

أ- الالتزام بأدب الإسلام وأخلاقه فى التعامل مع الوالدين والإخوة وكل من فى البيت؛ لأن هذا الالتزام هو الذى يدعم روح التعاون وينمى كل معانى الخير.

ب- والإسهام بالاستجابة لكل ما يطلبه البيت من متطلبات معنوية أو مادية أو خدمية مادام ذلك فى استطاعة الأبناء، ومن أمثلة حاجات البيت المستمرة: الهدوء والنظام والترتيب، والتنسيق، وحسن التعامل مع كل من فى البيت، والنظافة، والقيام بالأعباء التى يحتاجها البيت فى داخله أو من خارجه.

ومن حاجات البيت: تنظيف المكان الخاص بكل واحد من الأبناء وترتيبه، ومعاونة الأبوين فى كل ما يحتاجانه من أمور البيت كالالتزام بأدب الإسلام فى الطعام والشراب والنوم والاستئذان فى الدخول على الأبوين وخفض الصوت، وترك التطفل والتدخل فيما لا يعنى الأبناء.

جـ- والمسارعة إلى أداء الواجبات المدرسية دون إجبار الوالدين على الإلحاح فى ذلك، وإراحة الوالدين من هموم المتابعة والمراقبة أثناء أداء العمل المدرسى؛ لأن الإسلام يدعو إلى الإحسان بمعنى التجويد، وبمعنى مراقبة الله تعالى فى كل عمل يقوم به الأبناء.

د- ورحمة الصغير من الإخوة والأقارب، واحترام الكبير منهم؛ لأن ذلك هو خلق الإسلام وأدبه، بل إن ذلك هو ما أوجبه الإسلام على المسلمين جميعًا.

روى الترمذى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: جاء شيخ يريد النبى ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبى ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا».

٣- عدم إرهاق البيت بمطالب ثانوية:

وذلك أصل أصيل فى تعامل الأبناء مع البيت الذى يعيشون فيه، وهو مطلب للشريعة الإسلامية ينبغى أن يشب عليه الأبناء؛ إذ نهت الشريعة عن الإسراف والتكبر والمخيلة، بل دعت إلى التوسط والتواضع، قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال ابن عباس رضى الله عنهما: أحل الله فى هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة، فأما ما تدعو الحاجة إليه وهو ما سد الجوعة وسكن الظمأ، فمندوب إليه شرعًا وعقلاً؛ لما فيه من حفظ النفس. ولا يسرفوا فى كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشرب، وذلك يثقل المعدة ويثبط الإنسان عن خدمة ربه والأخذ بحظه من نوافل الخير.

روى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «من السرف أن تأكل ما اشتهيت».

وفى ترك الاختيال والتكبر، روى ابن ماجة بسنده عن بشر بن جحاش رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ بصق يومًا على كفه ووضع إصبعه عليه وقال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، جمعت ومنعت حتى إذا بَلَغَتْ التراقى قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة».

وروى البيهقى فى الشعب بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان»[1].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه».

وروى البزار بسنده عن طلحة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ عندنا، وكان صائمًا، فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن، وجعلنا فيه شيئًا من عسل فوضعه وقال: «أما إنى لا أُحَرِّمُهُ، ومن تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه الله، ومن اقتصد أغناه الله ومن بذَّر أفقره الله».

ذلك أدب الإسلام فى مقاومة الإسراف والتبذير، والدعوة إلى التواضع والاقتصاد، وهو ما يجب أن يكون من صفات الناشئين بل من واجبهم فى بيوتهم، فإن لم يفعلوا أثموا

(١) ورواه الإمام أحمد والطبرانى والحاكم وصححه.

وأرهقوا بيوتهم بتلك المطالب الثانوية التى لا يقبل عليها إلا الغافلون عن الحق، وعن أخلاق الإسلام وهديه فى ممارسة الحياة.

إن الإسلام بهذه الأخلاق يوظف طاقات الناشئين والشباب وأفراد البيت جميعًا، للتعامل الجيد الطيب مع بيوتهم وذويهم بروح التعاون والتراحم والتوادّ، وحسن تقدير الظروف قبل الطلب لهذه الثانويات من الحاجيات، فضلاً عن الإلحاح فى الطلب.

وإن بعض الأبناء إذا لم يستجيبوا لهذا الأدب الإسلامى، طامعين فى عطف الأبوين أو مزيد من الإشفاق والرحمة التى يجدونها من الأبوين، إن بعض الأبناء إذا لم يستجيبوا لهذا الأدب، فإن على الآباء ألا يضعفوا أمام هذه المطالب الثانوية للأبناء، فإذا استجاب بعض الآباء لهذه المطالب فإن النتيجة ليست لصالح الآباء ولا لصالح البيت ولا لصالح الأبناء.

إن النتائج بالنسبة للآباء هى إرهاق ميزانية البيت إن كانت قدرات البيت محدودة، وإفساد الأبناء بالاستجابة لكل ما يطلبون إن كانت ظروف البيت تسمح بذلك، وبالنسبة للبيت نفسه أن يصاب بالاضطراب وبممارسة الإسراف وتشجيع الأبناء على المبالغة فى مطامعهم الثانوية، وبالنسبة للأبناء يعودهم ذلك على الطمع والأنانية، وسوء تقدير الظروف، وكل تلك النتائج ليست فى صالح البيت عمومًا، وهى مما حرمه الإسلام أو كره فيه.

الوظيفة الثالثة: التعامل مع المسجد:

المسجد هو الدعامة القوية - إلى جوار البيت - التى يقوم عليها بناء المجتمع المسلم، وإذا كان الفرد قد حظى من الإسلام بقدر كبير من التربية والإعداد، وإذا كان البيت - الأسرة - قد نال قدرًا كبيرًا من الاهتمام، فإن المسجد قد نال فى الإسلام حظًا موفورًا من الاهتمام، وتبوأ فى المؤسسات الإسلامية أرفع مكانة، وحسبه أنه بيت الله سبحانه وتعالى.

المسجد يكمل بناء المجتمع المسلم، ويقوى أركانه ويعمق فى النفوس الإحساس بالفضائل التى غرستها الأسرة فى أبنائها، بل يغنيها وينميها ويوجهها إلى تحقيق الغاية الكبرى للمجتمع المسلم كله، وهى هداية الناس إلى الحق وإلى الخير وإلى ما يصلح لهم دنياهم وأخراهم.

الأسرة المسلمة تتجب الأبناء وترعاهم، وتغرس فى نفوسهم الفضائل، وتدفع عنهم الرذائل، ثم تدفع بهم إلى المسجد لتتكامل تربيتهم الإسلامية، البيت يعلم الأبناء والمسجد يعلم الأبناء والآباء جميعًا.

وكل من يتأمل فى تاريخ الخطوات الأولى لبناء الدولة الإسلامية، بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، يدرك أن أول الأعمال التى قام بها النبى ﷺ هو بناء المسجد.

والمسجد تدريب للمسلمين على الضبط والانضباط، فإذا صاح المؤذن الله أكبر، ترك المسلمون جميعًا كل ما هم فيه من عمل واتجهوا إلى المسجد إذ الدعوة موجهة من الله سبحانه، وإجابتها إجابة له سبحانه، الله أكبر من كل عمل، ومن كل أمر، ومن كل شىء، وما ينبغى أن يصرف المسلمين عن إجابة دعوته شىء.

فأى تدريب على الانضباط أكبر من هذا؟ يترك الإنسان كل شىء ويراه أصغر من أن يصرفه عن المسجد، إنها تربية عميقة الأهداف تلك التى تشد المسلم إلى المسجد خمس مرات فى اليوم والليلة[1].

إن المسجد يشارك البيت فى تربية الأبناء، وهو وقاية للإنسان المسلم من الذئب - الشيطان- فقد روى الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد».

قال عبد الرزاق: (عن معمر عن ابن إسحق عن عمرو بن ميمون الأودى قال: أدركتُ أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن المساجد بيوت الله فى الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها، ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله﴾، أى وحده وآمن بما أنزل ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى آمن بكل ما جاء به محمد ﷺ فيما يتصل باليوم الآخر.

- ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾، التى هى أكبر العبادات.

- ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾، التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلق.

- ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾، ولم يخف من أحد سواه، وقيل: لم يعبد إلا الله، ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: أى أن أولئك هم المفلحون.

(١) للمؤلف: «المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى» نشر دار المنار الحديث ١٩٨٩، ط: ثالثة.

- وكل عسى فى القرآن الكريم فهى واجبة - وقال محمد بن إسحق بن يسار: عسى من الله حق)[1].

وإن للمسجد وظيفة فى المجتمع المسلم يجب أن نوضحها، فهو فضلاً عن أنه مكان لعبادة الله سبحانه، فإن له وظيفة أخرى لا تقل أهمية، هى تعليم المسلمين شئون دينهم ودنياهم.

هكذا كانت وظيفة المسجد على عهد رسول الله ﷺ، يقول ابن تيمية رحمه الله عن المساجد فى ذلك الزمان:

(وكانت - أى المساجد - مواضع الأئمة ومجامع الأمة هى المساجد، فإن النبى ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم، والخطب، وفيه السياسة وعقد الألوية والرايات، وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم)[2].

ويؤكد العبدرى أن التدريس من ألصق الوظائف بالمسجد فيقول: (أفضل مواضع التدريس هو المسجد؛ لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تُحيا به سنة أو تُخمد به بدعة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافراً لأنه موضع لاجتماع الناس، رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم، بخلاف البيت، فإنه محجور على الناس إلا من أبيح له، البيوت تحترم وتهاب حتى لو أبيحت للجميع)[3].

وبعد: فإذا كان هذا هو المسجد، فماذا يجب على الناشئ المسلم نحوه، أو ما هى الوظيفة التى يجب على الناشئ المسلم أن يؤديها نحو المسجد؟

إنها ما نشير إليه فيما يلى:

١ - معرفة آداب المسجد والالتزام بها:

وذلك أن للمسجد أدبًا إسلاميًا فى دخوله وفى الصلاة فيه وفى المكث به قبل الصلاة أو بعدها، وفى الاعتكاف فيه والخروج منه.

* فَلِدُخول المسجد أدب يتمثل فى أن يدعو الداخل بدعاء ورد فى السنة، فقد روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا دخل

(١) السابق: ٢٧.
(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٣٩.
(٣) العبدرى: المدخل: ١/ ٨٥.

المسجد: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم»، قال: «فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفظ منى سائر اليوم».

أو يقول الداخل فى المسجد دعاء آخر رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى حميد رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقول عند دخول المسجد: «اللهم افتح لى أبواب رحمتك».

* ومن أدب المسجد أن يصلى من دخله ركعتين قبل أن يجلس، فقد روى البخارى بسنده عن أبى قتادة السلمى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس».

* ومن أدب الجلوس فى المسجد أن يجلس الإنسان حيث ينتهى به المجلس، ولا يتخطى رقاب الناس، وأن يجلس فيه هادئًا خفيض الصوت، وأن يكون على وضوء، بكل ذلك وردت الأحاديث النبوية فى كتب السنة.

روى البخارى بسنده عن أبى واقد الليثى قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد، فأقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فأما أحدهما فرأى فرجة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

وروى البخارى بسنده عن السائب بن يزيد رضى الله عنه، قال: كنت قائمًا فى المسجد، فحصبنى رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: اذهب فأتنى بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما - أو من أين أنتما -؟، قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلاد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ.

* ومن أدب المسجد ألا يباع فيه شىء، ولا تنشد فيه ضالة، ولا تتناشد فيه الأشعار.

روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع، وعن تناشد الأشعار.

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك».

إن الناشئ المسلم عليه أن يذهب إلى المسجد لأداء الفرائض أو لمدارسة العلم، وهو متقيد بهذه الآداب؛ لأن البيت المسلم الذى نشأ فيه قد حصنه وعلمه.

٢- حب المسجد والإقبال عليه:

هذا واجب الناشئ المسلم بل واجب كل مسلم، فإن المسلم لا يتكامل إيمانه إلا بالتردد على المسجد والمواظبة على حضور الجماعات.

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**» وزاد ابن ماجة: قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾ [التوبة: ١٨].

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة -لا يريد إلا الصلاة- لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه**».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أدلكم على ما يكفّر الله به الخطايا ويزيد به فى الحسنات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة**».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم تب عليه، ما لم يحدث فيه، ما لم يؤذ فيه**».

٣- اجتناب ما يكره فى المساجد:

وذلك أن المساجد بيوت الله، ويجب أن يكون لها من الاحترام والتقدير فى نفوس المسلمين ما يوازى هذه المكانة الرفيعة، إذ يكفى أنها بيوت الله.

من أجل ذلك حدد الإسلام أمورًا كثيرة وأشياء أو خصالاً لا يجوز أن تمارس فى المسجد، إذ ورد فى تحريمها أو كراهيتها أحاديث نبوية شريفة نذكر منها ما يلى:

ما رواه ابن ماجة بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «خصال لا تنبغى فى المساجد:

- لا تتخذ طريقًا.
- ولا يشهر فيه سلاح.
- ولا يقبض فيه بقوس.
- ولا ينشر فيه نبل.
- ولا يمر فيه بلحم نيئ.
- ولا يضرب فيه حد.
- ولا يقتص فيه من أحد.
- ولا يتخذ سوقًا».

وروى ابن ماجة بسنده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراركم، وبيعكم، وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم، وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها فى الجُمع».

وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ رأى نخامة فى قبلة المسجد فغضب حتى احمر وجهه، فجاءته امرأة من الأنصار فحكتها وجعلت مكانها خلوقًا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أحسن هذا».

٤ - تعهد المسجد وتنظيمه وتنظيفه:

وذلك أن المسجد - كما قلنا - هو بيت الله، وأولى مكان بالرعاية هو المسجد، وعلى الناشئ، بل على المسلمين بعامة أن يتعهدوا المسجد بالنظافة والتطهير والتطييب، وإخراج أى أذى منه.

فقد روى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «من أخرج أذى من المسجد بنى الله له بيتًا فى الجنة».

وروى ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بالمساجد أن تبنى فى الدور وأن تطهر وتطيب.

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ نخامة فى قبلة المسجد وهو يصلى بين يدى الناس فحتّها ثم قال حين انصرف من الصلاة: «إن أحدكم إذا كان فى الصلاة كان الله قِبَل وجهه، فلا يتنخمن أحدكم قِبل وجهه فى الصلاة».

وروى ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ حَكَّ بزاقًا فى قبلة المسجد.

وما أجمل أن يُعَوَّد الناشئ على ألا يقذر المسجد، وعلى أن يتولى هو تنظيفه من أى شىء لا يليق به.

وعلى سبيل المثال فإن كثيرًا من المساجد - فى العالم الإسلامى - فيها مكتبات وكتب، وكثير من هذه المكتبات والكتب غير منظمة أو مرتبة، وغير نظيفة بل يعلو كثيرًا منها التراب، وإن علينا أن نعود الناشئ المسلم على أن يسهم فى تنظيف هذه المكتبات وتلك الكتب وتنظيمها ورعايتها.

إن الناشئ المسلم إذا قام بهذا العمل فإنه المسلم الإيجابى الفاعل الذى يقدم من العمل ما يرضى به الله تبارك وتعالى، وما يجعله هو راضيًا عن نفسه أهلاً للحصول على ثواب الله فى الدنيا وحسن جزائه فى الآخرة.

الوظيفة الرابعة: التعامل مع المدرسة أو المعهد:

الإسلام يعامل الناشئ المعاملة التى تنضجه بل تبكر بنضجه، إذ يشعره بالمسئولية منذ زمن باكر فى حياته، وذاك أسلوب فى التربية عظيم الفائدة بعيد النظرة عميقها، وهو قادر على أن يحدث فى نفس الناشئ التغيير نحو الأحسن والأرضى لله.

إن الإسلام الذى أوجب على الناشىء المسلم واجبات نحو ربه سبحانه وهى العبادة، وواجبات نحو بيته، وواجبات نحو المسجد - كما أوضحنا آنفًا - لابد أن يكون قد أوجب عليه واجبات نحو المدرسة أو المعهد الذى يتعلم فيه، بل وواجبات نحو التعلم نفسه وتحصيل العلم.

ولكى نوضح ذلك نقول:

إن تحصيل العلم فى الإسلام واجب شرعى على كل قادر عليه؛ لأن الإسلام يقدر العلم ويرفع من قدر العلماء، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وروى ابن ماجة بسنده عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا عند أبى الدرداء رضى الله عنه فى مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء، أتيتك من المدينة مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغنى أنك تحدث به عن النبى ﷺ، قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا.

قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا.

قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين. إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبى ﷺ: «كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلمًا فجلس معهم».

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا، ثم يعلِّمه أخاه المسلم».

فالآية الكريمة - التى ذكرنا آنفًا - تفرق بل تفاضل بين من يعلمون ويعملون بما علموا والذين لا يعلمون، والاستفهام فى الآية للنفى أى ما يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

كما أن الآية الكريمة تدعو المسلمين إلى العلم حتى لا يكونوا كالذين لا يعلمون، وتذكرهم بأن هذه الحقيقة - وهى العلم وترك الجهل - إنما يعيها ويتذكرها ويتذكر أمثالها من الحقائق أصحاب العقول النيرة.

والحديث الشريف الأول يشجع المسلمين على طلب العلم بتوضيح ما ينتظرهم من حسن الجزاء عند الله، وتوضيح ما لهم من مكانة عند الله، بحيث تستغفر لهم مخلوقات الله كلها حتى الحيتان فى المياه، كما يؤكد الحديث الشريف أن العالم له فضل واضح على العابد، كما يفضل القمر فى ظهوره وقربه سائر الكواكب، وأن العالم هو وريث الأنبياء؛

لأن الأنبياء عليهم السلام لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا أى لم يورثوا مالاً ولا عقاراً، وإنما ورثوا العلم، فأوفر الناس حظًا فى هذا الميراث هم العلماء الذين أخذوا من هذا العلم بحظ وافر.

والحديث الشريف الثانى يؤكد أن المدارسة والتعليم والتعلم من الأعمال الأساسية التى تكون موضع رضا الله سبحانه وتعالى، ومن أجل ذلك آثر النبى ﷺ أن يجلس مع هؤلاء المعلمين والمتعلمين، وتوج هذا بقوله الكريم: «**إنما بعثت معلمًا**».

ويؤكد الحديث النبوى الثالث أن الحصول على العلم من أفضل أنواع الصدقات التى يتقرب الإنسان بها إلى الله، وأن تعليمه غيره من الناس هذا العلم يعد كذلك من أفضل الصدقات.

وقد يتصور بعض الناس أن العلم الذى دعت إليه الآية الكريمة وغيرها من الآيات المشابهة لها، أو العلم الذى شجعت عليه هذه الأحاديث النبوية الشريفة وغيرها أن هذا العلم منحصر فى علم أمور الدين وحدها دون علوم الدنيا، وهذا التصور غير صحيح، وفيه قصور شديد لأسباب عديدة من أهمها:

- أن علم الدين يتضمن كل علوم الدنيا؛ لأن الدنيا كلها وما فيها من قول أو عمل، إنما تخضع لمنهج الدين ونظامه، فلا يستطيع أحد أن يمارس حياته الدنيا ممارسة صحيحة إلا أن يكون متبعًا لمنهج الله سبحانه وتعالى ولنظامه.

- وأن كلمة العلم الواردة فى هذه النصوص الإسلامية ليست مقيدة بأنها علم الدين وحده وإنما هى مطلقة، وما دامت مطلقة فإنه يدخل فيها كل علوم الدنيا؛ لأن الدنيا وما فيها جزء من الدين، إذ هى دار عبور إلى الحياة الأبدية.

- وأن العلم بأمور الحياة وأسلوب إعمارها، وأداء الواجب فى الاستخلاف فى الأرض، كل ذلك مطلب من مطالب الإسلام، قامت على تأييده النصوص الإسلامية الكثيرة.

- وقد أشرنا إلى ذلك -فى الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب - أثناء حديثنا عن المنهج الصحيح للإسلام فى تربية العقل بدعوته للأخذ بأسباب العلم...

- وأن النبى ﷺ كان يدعو الله قائلاً - كما يروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علمًا، والحمد لله على كل حال**».

وهذا الدعاء النبوى يوظف العلم فيما ينفع، والنبى ﷺ يطلب الاستزادة من هذا العلم، ولا شك أن ما ينفع الإنسان فى دنياه مطلب دينى لأنه - أى الإنسان - لا يستطيع أن يعبد الله إلا أن يكون منتفعًا بدنياه، قادرًا على العمل والكسب والإعفاف.

هذا هو شأن العلم فى الإسلام، العلم بمعناه العام الذى يُدخل فى علوم الدين علوم الدنيا كلها، وبالتالى فإن الناشئ المسلم مطالب بأن يحصّل من العلم ما يعرف به دينه ويحفظه عليه بممارسة العمل وفق العلم، كما أنه مطالب بأن يعرف من علوم الدنيا ما تستقيم به أمور الدنيا، أى أن يعرف كل أنواع العلوم والمعارف التى تمكن من حسن استخدام ما جعل الله فى الأرض من مذخورات ومقدرات لصالح الإنسان.

إن هذا العلم واجب تمامًا كوجوب معرفة العلوم التى يَصح بها أمر الدين؛ لأن الدين - كما قلنا - أوسع وأرحب من أن يخرج عنه شىء من أمور الإنسان كلها فى معاشه أو معاده.

الناشئ المسلم يعيش فى هذا العصر مطلع القرن الخامس عشر الهجرى حياة تخضع لسُلَّم تعليمى معروف فى كل أقطار العالم الإسلامى، يبدأ بالمدرسة الابتدائية أو مرحلة التعليم الأساسى وينتهى بالمرحلة الجامعية، وقد يستمر مع بعض المتعلمين إلى مرحلة الدراسات العليا.

ويتخلل تلك المراحل التى تمتد إلى ستة عشر عامًا أو تزيد، أنماط وأنواع من التعليم الفنى فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعدين، والبيطرة، والطب، والصيدلة، والهندسة، وعلوم الفضاء والطيران، وغيرها مما لا نتعمد حصره هنا ولكن نشير إلى بعضه.

هؤلاء الناشئون المسلمون وهم يتلقون العلم فى هذه الفروع كلها، وغيرها، يوجب عليهم الإسلام واجبات بعينها فى طلب العلم، يمكن أن نجملها فيما يلى:

١- لا يجوز لمسلم أن يقعد عن طلب العلم بمعناه العام الذى تدخل فيه علوم الدنيا مع علوم الدين، ما دام قادرًا على هذا الطلب؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم - كما أوضحنا ذلك سلفًا فى هذا الكتاب.

٢- يطالب الإسلام كل متعلم بأن يحسن طلب العلم بالإخلاص فيه ومراقبة الله سبحانه فى تعلمه، وأن يخلص النية حتى ينال ثواب الله، وأن يجيد طلب العلم ويتفوق

فيه ما وجد إلى ذلك سبيلاً واستعداداً، حتى يتمكن بهذا العلم من إعمار الأرض الذى هو مطلب شرعى.

٣- ويطالب الإسلام الناشئ المسلم بأن يُصْحِب العِلْمَ العَمَلَ، أما العلم النظرى الذى يقف بصاحبه عند حدود الاستيعاب لقضايا العلم والتشدق بها والفيهقة فيها، فذلك لا قيمة له بل هو منهى عنه أو مكروه؛ إذ لا نفع فيه، والعلم فى الإنسان موظف أو وسيلة إلى غاية، وتلك الغاية هى جلب المصالح أو دفع المفاسد فى الدين والدنيا.

٤- كما يطالبه بالا يتوقف فى العلم عند حد بعينه، وإنما عليه أن يواصل طلب العلم والدرس والبحث والتحرى والتعمق، مستهديًا بقول القرآن الكريم على لسان محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الكلمة من دعائه الذى سقناه آنفًا.

٥- ومن المسلم به أن الإسلام لا يسمح لمتعلم بل ولا لأى مسلم أن يهمل أو يقصر أو يكسل، فإن هذه الصفات من الرذائل والآفات التى يجب أن يتخلى عنها المسلم، فإذا كان الناشئ أو الراشد طالب علم، فإن هذه الصفات تضر به وبأمته الإسلامية كلها.

٦- ولا يحجر الإسلام على نوع من العلم لذاته، وإنما يدعو إلى تعلم كل علم يعود على المسلمين بما يدفع عنهم الضرر فى دينهم ودنياهم أو يجلب لهم النفع فى دينهم ودنياهم كذلك.

ومن هنا ندرك ما أتاح الإسلام للمسلمين من حرية الفكر والبحث - كما أوضحنا ذلك فى الفصل الأول من الباب الثالث من هذا الكتاب.

٧- وإن على الناشئ المسلم خصوصًا وكل مسلم عمومًا أن يعرف ماذا ينقص وطنه أو أمته الإسلامية من العلوم والمعارف، وأن يدرس هذه العلوم ويحصل منها القدر الذى يغطى هذا الاحتياج، سواء أكان هذا الاحتياج لصالح الدين أم لصالح الدنيا.

وهكذا كان أسلافنا من المسلمين، فقد درسوا وبحثوا واكتشفوا وملأوا الدنيا علمًا ومعرفة، ولم تقتصر جهودهم على علوم الدين، وإنما كانت علوم الدنيا فى كل شعبة من شعبها موضع اهتمامهم وتفوقهم، بحيث سدوا فى ذلك المجال جميع الثغرات، وتركوا للأجيال التالية لهم ميراثًا ضخمًا - بل خَدَمُوا بذلك الإنسانية كلها وليس العالم الإسلامى وحده.

ولم يكن عجبًا أن تقيم أوربا فى نهضتها العلمية، دراساتها وبحوثها ومكتشفاتها، على ما قدمه المسلمون فى هذا المجال، كما سجل الأوربيون ذلك بأنفسهم[1].

٨- ومن أجل ذلك فإن الناشئ المسلم، وكل مسلم مطالب بأن يحافظ على وقته وأن يوظفه أحسن توظيف لتحقيق هذه الأهداف العلمية والعملية فى الحياة الإنسانية.

وكل من أهمل فى استثمار وقته أو ضيع منه شيئًا فيما لا يفيد، فإنه يضيع جزءًا مهمًا من عمره وأجزاء مهمة من عمر أمته الإسلامية، وما دام الوقت هو وعاء الحياة الإنسانية فسوف لا يستسيغ لمسلم أو غير مسلم أن يبدد هذا الوقت فيما لا يفيد فى الدين أو الدنيا.

٩- ولابد أن ننبه على أن الإسلام الذى دعا إلى طلب العلم والتعمق مع الإخلاص فى البحث والدرس لم يترك ذلك دون ضوابط، وإنما ألزم طلاب العلم كما ألزم العلماء بقواعد أخلاقية تحكم أعمالهم فى هذا المجال.

ونستطيع أن نشير إلى هذه الضوابط أو إلى بعضها فيما يلى:

أ- أن يكون موضوع البحث أو العلم محققًا لمصلحة من مصالح الدين أو الدنيا، وإلا ضاع الوقت والجهد والمال عبثًا.

ب- وألا يتسبب البحث أو العلم فى إلحاق ضرر بالمسلمين أو بأحد من الناس غير المسلمين، أو أن يكون مؤديًا إلى هذا الضرر.

جـ- وأن يقصد الباحث من بحثه وجه الله، أى أن يَـتَوَفَّر للبحث عنصر الإحسان والإخلاص، مع الأمانة.

د- وأن تكون الوسائل المستخدمة فى العلم والبحث مما أباح الإسلام ممارستها.

هـ- وأن يبتعد الباحث تمامًا عن الغش والتدليس والمبالغة.

و- وأن يتخلى عن الغرور والتعصب للرأى - وهذه آفة العلماء فى معظم العصور - وأن ينسب الرأى لصاحبه ولا يستنكف عن سؤال العلماء جريًا وراء الحق.

---

(١) انظر فى ذلك كتاب: «أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية»، وهو دراسة أعدها مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو)، ونشرته الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٠م.

وانظر: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - بحوث ودراسات إسلامية، محمد أحمد خلف الله، القاهرة ١٩٥٥م.

ز- وأن يتسلح بالصبر على مشقات العلم والبحث والدراسة مهما تكن هذه المشقات.

ح- وأن يكون رائده في عمله التعاون مع غيره من الباحثين والدارسين؛ لأن التعاون في مجال العلم يزيده ثراء وعمقًا وفائدة.

ط- وألا يغتر أو يفرح كثيرًا بما توصل إليه من نتائج، لأن هذا قد يخرجه عن الصواب في بعض الأحيان، فضلاً عن أنه خلق نهى عنه الإسلام، كما نهى عن أن ينسب إلى نفسه ما لم يفعل، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ى- وأن يتجرد في بحثه عن الهوى، لأن اتباع الهوى مهلك والعياذ بالله، وهو في ذات الوقت مضلل عن الوصول إلى الغاية أو النتائج الحسنة؛ لأن المسلم مطالب دائمًا بأن يعمل على إحقاق الحق.

ك- وأن يتحلى بالأناة والتمهل، ولا يتعجل الوصول إلى نتيجة، فالعجلة دائمًا لها عواقب سيئة وبخاصة في البحث والعلم، والنبي ﷺ يقرر أن «العجلة من الشيطان»[1]، وأن الله يستجيب للمسلم الدعاء ما لم يعجل الداعي: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي»[2].

هذه أخلاقيات الإسلام في ممارسة البحث العلمي، يجب أن تحكم أعمال الباحث في كل خطوة من خطواته، بحيث لا يتخلى عن شيء منها، لأن الإسلام يأمر بها[3].

١٠- ولم يرض الإسلام للناشئين خصوصًا ولا للمسلمين عمومًا أن يعيشوا حياتهم غير فاعلين أو غير مؤثرين، وإنما ألزمهم جميعًا بأن يعملوا ما وسعهم بأن يعمروا الأرض، وأن يمشوا في مناكبها وأن يسيروا، وأن ينظروا وأن يتفكروا وأن يتدبروا، وأن يفيدوا مما سخر الله لهم في هذه الأرض من نعم.

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل الساعدي وتمامه: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان» وقال: حديث غريب، وقد ضعف علماء الحديث عبد المهيمن في حفظه. (٣/٢٤٨) ط: الكتبي القاهرة، دون تاريخ.

(٢) رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح. (٥/١٣٢) السابق.

(٣) وانظر لنا: «نحو منهج بحوث إسلامي» نشر دار الوفاء، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م.

وكيف يتم هذا فى العصر الذى نعيشه اليوم عصر الأقمار الصناعية والصواريخ الفضائية والمشى على كوكب القمر؟

كيف يتم هذا دون بحث ودراسة وتعمق فى العلم والكشف والابتكار؟

وهل يليق بالمسلمين أن يظلوا -كحالهم اليوم- عالة على الغرب فى العلم والبحث والتقنية؟

وما الثمن الذى يدفعه المسلمون من حريتهم أولاً، ومن بلدانهم، ومن مقدراتهم الاقتصادية، ومن كرامتهم وهم راضون بأن يكونوا عالة على الغرب فى العلم والتقنية؟

إن الإسلام يوجب على المسلمين -خير أمة أخرجت للناس- أن يمارسوا أستاذيتهم بهذا الدين العظيم الخاتم للبشرية كلها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهل لذلك طريق إلا البحث والعلم والتقنية؟

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

الوظيفة الخامسة: التعامل مع الحى الذى يسكن فيه:

كل مكان يعيش فيه المسلم يجد نفسه مسئولاً أمام الله عنه نوعًا من المسئولية، تصغر أو تكبر، تبعًا لظروف المكان ولمكانة المسلم فى هذا المكان.

وقد رأينا فيما سلف مسئولية الناشئ عن بيته ومسجده ومعهده الذى يتعلم فيه، وأوضحنا مدى ما يجب عليه نحو هذه الأماكن من وظائف.

وكذلك الشأن فى الحى الذى يعيش فيه، لابد أن تكون عليه مسئولية، وأن يؤدى نحوه وظائف بعينها، وتلك من أبرز إيجابيات التربية الإسلامية للناشئين وللكبار على السواء.

ومعنى ذلك أن الإسلام لا يعفى حدًا من المسلمين من مسئولية من نوع ما، وإنما يحمله هذه المسئولية منذ أن يعى ويكون أهلاً لتحمل المسئولية، فيشب مقدرًا لواجباته حريصًا على أدائها، عارفًا لحقوقه نحوها قادرًا على ممارسة حقوقه وأداء واجباته.

وقد سبق أن أشرنا فى هذا الكتاب إلى أن التمتع بالحقوق يستوجب القيام بأداء الواجبات، وإلا عاش الناس كسالى متواكلين، لا هم لهم إلا أن يأكلوا ويتمتعوا كما تفعل الأنعام، كما أشرنا إلى أن أداء الواجبات دون ممارسة الحقوق ظلم للإنسان وقهر لإرادته، وسلب لكثير من حرياته التى كفلها له الإسلام.

أقول هذا لأؤكد أن الحى الذى يعيش فيه المسلم ناشئًا أو كبيرًا، هذا الحى له من الحقوق على ساكنيـه، ما ينعكس واجبًـا عليه، وذلك عدل اجتـماعى من شأنه أن يحـقق التوازن والتعاون والتكافل الذى ينشده الإسلام فى تشريعاته الاجتماعية كلها.

إن المكان نفسه -فضلاً عن أهله- له على الناشئ المسلم أو على المسلمين عمومًا حقوق يجب أن ترعى، وهى بالنسبة للمسلم واجبات يجب أن تؤدى.

وهذه الواجبات فى تصورى هى:

١- الرعاية.

٢- والتنمية.

٣- والتعاون والتناصر.

ولتوضيح هذه الواجبات نقول:

١- الرعاية:

ومعناها: أن المسلم يجب أن يربى من نشأته، وأن يعوَّد على رعاية المكان الذى يقع فيه بيته، سواء أكان ذلك المكان هو الشارع أم المرفق العام كحديقة أو غيرها.

وهذه الرعاية تتمثل فى مفردات أساسية من أهمها ما يلى:

أولاً: النظافة:

وهى فى مفهومنا السلبى تعنى ألا يتسبب فى تقذير مكان ما لأى سبب من الأسباب، وفى مفهومنا الإيجابى تعنى أن يعمل على تنظيف المكان إسهامًا منه فى رعايته، وذلك فى الإسلام مندوب إليه، كما نص على ذلك الحديث النبوى الذى ذكرناه فى التربية الإسلامية الجمالية: **«إن الله جميل يحب الجمال»**[1] والحديث النبوى الآخر الذى رواه الترمذى: **«إن الله نظيف يحب النظافة»**[2].

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريـرة رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: **«بينما رجل يمشى فى الطريق إذ وجد غصن شوك فأخره، فشكر الله له فغفر له»**.

---

(١) الترمذى: سننه: باب الإيمان

(٢) السابق: باب الأدب.

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون -أو: وسبعون شعبة- أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وروى الترمذى بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم -أو- نظفوا أفنيتكم».

ثانيًا: النظام والتنسيق:

وذلك أن المسلم مطالب دائمًا بأن ينظم ما حوله، وهذا النظام فى مفهومه السلبى -كذلك- يعنى ألا يتسبب المسلم فى إفساد نظام وجده لأى مكان وجد فيه، وفى مفهومه الإيجابى يعنى أن يمارس الإنسان تنظيم المكان الذى يوجد فيه وترتيبه على النحو الذى يجعله جميلاً ومنسقًا ونظيفًا، وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث النبوية الداعية إلى الجمال والنظافة.

والنظام والتنسيق جمال، وقد قلنا فيما سبق إن الجمال صفة تلحظ فى الأشياء وتبعث فى النفس سرورًا ورضا، والمسلم مطالب بأن يعمل على أن يبعث فى نفوس الناس السرور والرضا؛ لأنه مطالب بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

إن الناشئين إذا التزموا بذلك، فإن المرافق العامة كلها فى الحى الذى يسكن فيه لن يحدث فيها خلل أو إتلاف -على نحو ما يشاهد كثيرًا- وهذا يوفر على المجتمع جهودًا ضخمة وأموالاً كثيرة، ويربى الناشئين على حب النظام والترتيب والتنسيق والجمال.

٢- والتنمية لهذا الحى:

ونعنى بها أن يُربَّى الناشئ على أساس أنه مسئول عن بذل جهود مناسبة، ثقافية واجتماعية وعملية ميدانية، لكى يزيد بذلك من قدرة الناس على استغلال ما يتاح لهم من مرافق عامة -حدائق ومتنزهات ومكتبات وأندية ووسائل مواصلات واتصالات، وشوارع وغيرها- على أحسن وجه ممكن، ليتحقق للناس من وراء ذلك أكبر قدر من الفائدة التى تعود عليهم بالسعادة فى الدنيا والآخرة.

إن كل ما فى الحى أو الحِلَّة من مرافق عامة هو فى الحقيقة ملك للمجتمع كله لا للحكومة القائمة، لأن الحكومات ورجالها فى تغيير مستمر، وهم ليسوا مالكين على وجه الحقيقة وإنما رعاة يحافظون وينظمون، أما المالك الحقيقى فهم الناس عمومًا.

والناشئ المسلم مسئول -أمام الله سبحانه- ومن خلال ما تضمنه نظام الإسلام ومنهجه الشامل للحياة كلها عن أن يسهم فى تنمية هذه المرافق بأن يعمل ما وسعه على المحافظة عليها لكى تؤدى وظائفها بكفاية، وأن يزيد من قدرتها وعطائها على مر الأيام، وما يكون ذلك إلا بالمحافظة عليها ودعمها بكل ما تحتاج إليه مما يستطيع الناس أن يقوموا به.

إن الإسلام يطبع المسلمين جميعًا على هذه الأخلاق ويطالبهم دائمًا بالتمسك بها انطلاقًا من أنه يطالبهم بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإحسان، والعمل على ما يجلب للمسلمين مصلحة أو يدفع عنهم ضررًا فى دينهم ودنياهم.

والأحاديث النبوية الشريفة فى ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى موسى، رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**إذا مر أحدكم فى مسجدنا أو فى سوقنا ومعه نبل، فليمسك على نصالها بكفه أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشىء**»، أو قال: «**ليقبض على نصالها**». وفى رواية للحديث لجابر رضى الله عنه: «**... كى لا يخدش مسلمًا**».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: يقول أبو القاسم ﷺ: «**من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه**».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار**».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة**».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس**».

وما هذه الأحاديث النبوية الشريفة وغيرها مما يدعو إلى فعل الخير وترك الشر، إلا تنمية حقيقية للمجتمع بتحقيق مصالحه ومقاومة مفاسده.

٣- التعاون والتناصر:

وكذلك يربى الإسلام عمومًا والناشئين خصوصًا على التعاون فى القيام بكل عمل يحقق مصلحة للمسلمين أو يدفع عنهم مضرة، وذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده فى غنى عن الناس بحال من الأحوال.

وما دام الإنسان محتاجًا إلى غيره من الناس بالضرورة، فهم كذلك محتاجون إليه، ولا يتم تبادل الاستجابة لتغطية هذه الحاجات إلا بالتعاون.

والإسلام الحنيف قد قيد التعاون بقيد إنسانى رفيع القدر عالى القيمة، إذ شرط فيه أن يكون تعاونًا على البر والتقوى، وحرَّمه إن كان تعاونًا على الإثم والعدوان، قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

قال القرطبى: (هو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى، أى ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا عنه، وهذا موافق لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله»، وقد قيل: الدال على الشر كصانعه.

وقال الماوردى: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن فى التقوى رضا الله تعالى، وفى البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته.

وقال ابن خويز منداد فى أحكامه: والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه:

- فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه.

- ويعينهم الغنى بماله.

- والشجاع بشجاعته فى سبيل الله.

وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ويجب الإعراض عن المتعدى، وترك النصرة له، ورده عما هو عليه.

ثم نهى فقال: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾.

والإثم هو الحكم اللاحق عن الجرائم، وعن العدوان وهو ظلم الناس، ثم أمر بالتقوى وتوعد توعدًا مجملاً فقال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٤٧.

وقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] قال الإمام الشافعي: إن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبر هذه السورة.

والتواصي بالحق تعاون عليه، والتواصي بالصبر تعاون عليه كذلك، وكلاهما يقوى الروابط بين الناس.

وإن هذا التعاون والتناصر هو الذى يغرس المحبة بين المسلمين، روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**».

إن الناشئين يجب أن يتعاونوا فيما بينهم على أى عمل فيه صالح الناس فى الحى الذى يعيشون فيه، وصور التعاون فى الحى كثيرة نذكر منها ما يلى:

أ- التعاون فيما بين الناشئين على القيام بالأعمال التى تصون المرافق العامة وتحفظها وتمكنها من أداء وظيفتها.

ب- والتعاون على تنظيف هذه المرافق العامة وتنظيمها لتبدو جميلة نظيفة سارة للناظرين.

جـ- والتناصر بين الناشئين على حماية هذه المرافق العامة من عبث العابثين.

إن هذه الأنواع من التعاون لو ربى عليها الناشئون، مستجيبين فى ذلك لما أمرهم الإسلام به، لاستطاعوا أن يجنبوا مرافقهم العامة كثيرًا من صور الخلل والفساد التى تشاهد كثيرًا، ولا يكون لها سبب أو أسباب أقوى من السلبية والتواكل وعدم الاهتمام وسوء الفهم، وكل ذلك عالجه الإسلام ونهى عنه، وأقام فى مكانه التعاون على البر والتقوى، ومنع التعاون على الإثم والعدوان، حماية للمجتمع ولمرافقه العامة، واحترامًا عميقًا لإنسانية الإنسان أن تقع حواسه على ما يؤذيه أو يسيء إلى ذوقه وحسه الجماعى.

الوظيفة السادسة: التعامل مع الأقارب والأصدقاء والجيران:

كل مسلم ناشئًا كان أو كبيرًا مطالب بأن يحسن معاملة الناس جميعًا، وبخاصة من كانت تربطهم به علاقة ما، وأقوى هذه العلاقات بعد الآباء، والأمهات والإخوة والأخوات هم الأقارب، أرحامًا وأصهارًا، ثم الأصدقاء، ثم الجيران.

وقد سبق لنا حديث فيما يجب على الناشئين نحو الآباء والأمهات والإخوة والأخوات وكل من فى البيت.

ونتحدث الآن عما يجب عليهم نحو الأرحام ثم الأصهار ثم الأصدقاء ثم الجيران، على النحو التالى:

١ - الأقرباء- الأرحام والأصهار:

أما الأرحام فهم من يتصلون بالإنسان من جهة أنهم خارجون من رحم واحدة.

وأما الأصهار أو الأختان فهم أهل بيت المرأة أو الزوجة.

وفى هؤلاء وأولئك أوجب الإسلام على أبنائه واجبات بعينها قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

قال القرطبى: (أى اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها...

واتفقت المِلَّة على أن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة، وقد صح أن النبى ﷺ قال لأسماء وقد سألته: أأصل أمى؟ قال: «نعم، صلى أمك». فأمر بصلتها وهى كافرة، فلتأكيدها دخل الفضل فى صلة الكافر، حتى انتهى الحال بأبى حنيفة وأصحابه فقالوا بتوارث ذوى الأرحام إن لم يكن عصبة ولا له فرض مسمى، ويعتقون على من اشتراهم من ذوى رحمهم لحرمة الرحم، وعضدوا ذلك بما رواه أبو داود أن النبى ﷺ قال: «من ملك ذا رحم محرم فهو حر» وهو قول أكثر أهل العلم، روى ذلك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه، ولا يعرف لهما مخالف من الصحابة، وهو قول الحسن البصرى وجابر بن زيد وعطاء والشعبى والزهرى، وإليه ذهب الثورى وأحمد وإسحاق)[1].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]».

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٦ باختصار.

وفى رواية للبخارى: «فقال الله تعالى: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ، وأحلم عنهم ويجهلون علىّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك».

وروى البخارى بسنديهما عن أبى هريرة عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نَخْل، وكان أحب أمواله إليه بَيْرحَاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب مالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلتَ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

وروى الإمام البخارى بسنده عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها، أنها أعتقت وليدة -أى أمة- ولم تستأذن النبى ﷺ، فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أنى أعتقت وليدتى؟ قال: «أو فعلتِ؟» قالت: نعم، قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»(١).

وروى البخارى بسنده عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار، فقال النبى ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، وفى رواية: «ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحمًا» وفى رواية: «فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا» أو قال: «ذمة وصهرًا».

قال العلماء: الرحم التى لهم: كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، والصهر: كون مارية أم إبراهيم ابن النبى ﷺ منهم.

---

(١) ورواه مسلم أيضًا فى باب الزكاة.

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فَعَمَّ وخَصَّ وقال: «يا بنى مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة -بنت النبى ﷺ- أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها».

وروى الإمام مسلم عن أبى نجيح عمرو بن عبسة السلمى رضى الله عنه قال: كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شىء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتى فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جُرَءَاءُ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبى»، قلت: وما نبى؟ قال: «أرسلنى الله»، قلت: بأى شىء أرسلك؟ قال: «أرسلنى بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله ولا يشرك به شىء»، قلت: فمن معك على هذا؟ قال: «حُرٌّ وعَبْد» -ومعه يومئذ أبو بكر وبلال رضى الله عنهما- فقلت: إنى متبعك قال: «إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالى وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى»، قال: فذهبت إلى أهلى فجعلت أتخبَّر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم نفر من أهلى المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذى قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلتُ: يا رسول الله، أتعرفنى؟ قال: «نعم، أنت الذى لقيتنى بمكة»، قال: فقلت: يا رسول الله، أخبرنى عما علمك الله وأجهله، أخبرنى عن الصلاة، قال: «صل صلاة الصبح ثم اقصر عن الصلاة حتى ترتفع الشمس قيد رمح، فإنها تطلع بين قرنى شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صلِّ فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى يستقل الظل بالرمح، ثم اقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تُسجر جهنم، فإذا أقبل الفىء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى تصلى العصر، ثم اقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرنى شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار»، قال: فقلت: يا نبى الله، فالوضوء، حدثنى عنه، فقال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرَّت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ومجَّده بالذى هو له أهل، وفرغ قلبه لله تعالى إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه».

فحدَّث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول فى مقامٍ واحد يُعطى هذا الرجلُ؟ فقال عمرو: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنّى، ورقَّ عظمى، واقترب أجلى، وما بى حاجة أن أكذب على الله ولا على رسوله ﷺ، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا -حتى عدّ سبع مرات- ما حدثت أبدًا به، ولكنى سمعته أكثر من ذلك.

وبعد: فهذه هى النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة التى تؤصل وجوب صلة الأرحام والأصهار، وتقدم دليلاً قاطعًا على حرص الإسلام على أن تسود الناس علاقات إنسانية كريمة.

إن الناشئ المسلم يجب أن يربّى على ذلك، وأن توظف طاقاته ليمارس هذا الخير والبر.

٢- الأصدقاء والجيران:

الصديق هو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك، ولمكانة الصداقة فى الإسلام قرنها القرآن الكريم بالقرابة الوكيدة؛ لأن قرب المودة لصيق، قال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقد كان هذا القرآن فى آية سورة النور التى رفعت الحرج عن الأكل فى بيوت الأقارب والأصدقاء، وهى قوله تعالى ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

والجار من يقرب مسكنه منك، والجار من الأسماء المتضايفة، فإن الجار لا يكون جارًا لغيره إلا وذلك الغير جار له.

وكذلك كلمتا: الأخ والصديق.

وللجار فى الإسلام حق عظيم، ولمَّا استُعظم فى الإسلام حق الجار عقلاً وشرعًا، عبَّر عن كل من يَعْظُم حقه أو يُستعظم حق غيره بالجار، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

والجار ذو القربى هو الذى قرب جواره.

والجار الجنب هو الذى بعد جواره.

والصاحب بالجنب هو الرفيق فى نحو تعلّم وصناعة وسفر وغيرها.

وما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء.

وهؤلاء الأربعة يطالب الإسلام بالإحسان إليهم كالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين.

وقد ألزم الإسلام الناس بالإحسان إلى الصديق والجار فى كثير من النصوص القرآنية ومن الأحاديث النبوية الشريفة ومنها: الآية الكريمة التى ذكرناها آنفا من سورة النور: ﴿...ولا على أنفسكم ... أو صديقكم﴾.

قال القرطبى: (ذكر محمد بن ثور عن معمر قال: دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رطبًا فجعلت آكله، فقال: ما هذا؟ فقلت: أبصرت رطبًا فى بيتك فأكلت، قال: أحسنت، قال الله تعالى: ﴿أو صديقكم﴾ [النور: ٦١][1].

وكان على رضى الله عنه يقول: عليكم بالإخوان، فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة.

وجاء فى السنة النبوية ما رواه مسلم فى باب: «صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبدالله وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبدالله: إنّ أبا هذا كان ودًا - أى صديقا- لعمر بن الخطاب، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبّر البر صلة الولد أهل ود أبيه».

وروى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: .... وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة، فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة».

وروى الترمذى بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

وروى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: تفسير الآية ٦١ سورة النور.

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثنَّه» وفى رواية ابن عمر رضى الله عنهما: «حتى ظننت أنه سيورثه».

وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: إن لى جارين فإلى أيهما أهدى؟ قال: «إلى أقربهما منك بابًا».

وروى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: إن خليلى ﷺ أوصانى: إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف».

وروى مسلم بسنده عن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المسلمات.. لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة».

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» والبوائق: الغوائل والشرور.

هكذا يربى الإسلام الناشئين والكبار على احترام الأرحام والأصهار والأصدقاء والجيران، حرصًا منه على توظيف طاقات الناشئين فيما ينفع المجتمع.

الوظيفة السابعة: التعامل مع الزملاء فى العمل:

وهؤلاء هم الزملاء فى الدراسة أو فى العمل أو فى السفر، وهم درجة أقل من الأصدقاء والجيران، وهم أصحاب حق فى المعاملة الحسنة كذلك؛ لأن الإسلام جعل المعاملة الحسنة على المسلم لجميع الناس.

والزميل هو المقصود فى القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء:٣٦]، فى الآية الكريمة التى ذكرناها آنفا وهى آية: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قال العلماء: (الصاحب بالجنب هو الرفيق فى السفر أو المنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك، وكلا القولين عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وقيل: هو الرفيق فى أمر حسن كالتعلم والتصرف والصناعة والسفر، وعَدُّوا مِنْ ذلك من قَعَد بجنبك فى مجلس أو مسجد وغير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه، واستحسن جماعة هذا القيل لما فيه من العموم)[1].

قال القرطبى: (سند الطبرى أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين فدخل رسول الله ﷺ غيضة - أجمة أو مجتمع الشجر فى مغيض ماء- فقطع قضيبين أحدهما معوج، فخرج وأعطى لصاحبه القويم، فقال: كنتَ يا رسول الله أحق بهذا!! فقال: «كلاّ يا فلان، إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسئول عن صحابته ولو ساعة من نهار».

وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن: للسفر مروءة وللحضر مروءة، فأما المروءة فى السفر فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح فى غير مساخط الله، وأما المروءة فى الحضر فالإدمان إلى المساجد وتلاوة القرآن، وكثرة الإخوان فى الله عز وجل)[2].

وأدب التعامل مع الزملاء ذو شقين، شق يخص العمل الذى تكون فيه الزمالة، وشق يخص الزميل نفسه، وكلاهما يلزم الإسلام فيه بأخلاق معينة تقوم على الإحسان والبر.

أما العمل نفسه الذى تكون فيه الزمالة، فالإسلام يوصى فيه وفى كل عمل بالإحسان والتجويد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

(والعدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق.. والإحسان: فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء، ما هو مندوب إليه، ومنها ما هو مفروض، إلا أن حدّ الإجزاء منه داخل فى العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان)[3].

والإحسان فى هذه الآية الكريمة له معنيان:

أحدهما: الإجادة والإتقان وأداء العمل على أحسن وجه.

والثانى: الإحسان إلى الآخرين، أى توصيل ما ينفعهم إليهم.

وكلا المعنيين مطلوب فى تعامل الناس بعضهم مع بعض.

---

(١) الألوسى: روح المعانى: (٥/ ٢٩).

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٨٩) تفسير هذه الآية.

(٣) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: (١/ ١٦٦).

ومن إحسان العمل وتجويده وإتقانه: إحسان عبادة الله سبحانه ومراعاة آدابها، واستحضار عظمة الله تعالى فى حالة الشروع فيها وفى حالة الاستمرار، وقد ورد هذا المعنى فى تفسير النبى ﷺ للإحسان لما سأله جبريل عليه السلام عن معنى الإحسان حيث قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وإحسان العمل وتجويده مطلب شرعى فى كل حين؛ لأنه عمل اجتماعى جليل القدر، يسهم تمامًا فى تنمية المجتمع، ويثير فى الناس روح التنافس فى فعل النافع المفيد، وذلك يحقق للمجتمع مزيداً من الإنتاج والاستقرار والأمن.

وقد أكد الإسلام مطالبة المسلم بالإحسان فى العمل أيا كان هذا العمل، حتى لو كان ذبح دجاجة، أو قتل عدو، أو قتل من وجب قتله من الناس.

فقد روى الإمام مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

والمعنى الثانى من الإحسان، وهو الإحسان إلى الناس بتوصيل النفع لهم، هو الذى يحكم أدب التعامل مع الزملاء والأصحاب والإخوة فى الله، مع ضرورة اهتمام المسلم بأن يختار من يصاحب أو يزامل أو يؤاخى فى الله؛ لأن لذلك أدبًا فى الإسلام يجب أن يتبع.

فقد روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى».

وإذا أحسن المسلم اختيار زملائه وأصحابه وإخوانه فإن معاملته لهم تكون محكومة بأدب الإسلام وخلقه كذلك.

روى الترمذى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

ولو تبادل الناس التعامل بالخلق الحسن فقد أرضوا الله تبارك وتعالى، ونفعوا أنفسهم وغيرهم فى الدنيا والآخرة، وليس الخلق كلمة غامضة أو مبهمة الدلالة، وإنما وضح رسول الله ﷺ أبعادها عندما سأله أبو هريرة رضى الله عنه عن حسن الخلق.

---

(١) رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فقد روى البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، عليك بحسن الخلق»، قال أبو هريرة: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: «تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك».

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1].

وروى الحاكم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ما اصطحب اثنان -أو ما تحاب اثنان- قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه، أو أشدهما حبًا لصاحبه».

وروى الطبرانى بسنده عن أبى عتبة الخولانى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن لله أوانى فى أرضه وهى القلوب، فأحب الأوانى إلى الله أصفاها وأصلبها وأرقها» أى أصفاها من الذنوب، وأصلبها فى الدين، وأرقها للأصحاب والإخوان.

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرًا».

وروى الشيخان بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه فى حقوق المسلم على أخيه المسلم، فذكر منها عشر خصال هى:

١- أن يسلم عليه إذا لقيه.

٢- ويجيبه إذا دعاه.

٣- ويشمته إذا عطس.

٤- ويعوده إذا مرض.

٥- ويشهد جنازته إذا مات.

---

(١) ورواه الحاكم بسنده عن أبى هريرة.

٦- ويبر قسمه إذا أقسم

٧- وينصح له إذا استنصحه.

٨- ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه.

٩- ويحب له ما يحب لنفسه.

١٠- ويكره له ما يكره لنفسه.

وكل هذه العشرة الحقوق وردت فيها أحاديث نبوية شريفة رواها أئمة الحديث البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة وأحمد رحمهم الله، كل واحد منهم يذكر بعض هذه الحقوق، غير أن مجموعها لم يزد عن العشرة التى ذكرنا.

* ومن الإحسان إلى الناس: ألا يؤذى المسلم أحداً بقول أو فعل:

روى البخارى بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

* ومن الإحسان إلى الناس: التواضع لهم، وترك التكبر عليهم:

روى ابن ماجة بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر».

* ومن الإحسان إلى الناس: ألا يدخل المسلم على أحد إلا بإذنه.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع».

وروى الدارقطني في الأفراد بسنده: «الاستئذان ثلاث، فالأولى يستنصتون، والثانية يستصلحون، والثالثة يأذنون».

* ومن الإحسان إلى الناس: توقير الكبير منهم ورحمة الصغير فيهم:

روى البخارى بسنده عن عـبدالله بن عمر رضى الله عنهما قـال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا».

* ومن الإحسان إلى الناس: أن يلقاهم مستبشرًا طلق الوجه رقيقًا:

روى الترمذى بسنده عن عـبدالله بن مسعود رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون على من حُرمت النار؟» قالوا: الله ورسـوله أعلم، قال: «على اللّين الهيّن، السهل القريب».

وروى أبو نعيم فى الحلية بسنده عن معـاذ بن جبل رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى الله، وصدق الحـديث، ووفاء العهـد، وأداء الأمانة، وترك الخيـانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وخفض الجناح».

* ومن الإحسان إلى الناس: ألا يَعد المسلم أحدًا بشىء ثم لا يفى:

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث فى المنافق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهـو منافق وإن صـام وصلى وزعم أنه مـسلم» وتلك الصفـات هى التى وردت فى الحديث السابق.

* ومن الإحسان إلى الناس: إصلاح ما بينهم من نزاع وخلاف:

روى أبو داود بسنده عن أبـى الدرداء رضى الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجـة الصلاة والصيام؟» قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هى الحالقة».

وروى البخارى بسنده عن أم كلثوم بنت عقبة بن معيط رضى الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا».

وروى الحـاكم بسنده عن أنس بن مـالك رضى الله عنه قـال: بينمـا رسـول الله ﷺ جالس إذ ضحك حـتى بدت ثناياه، فقال عمـر رضى الله عنه: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما الذى أضحكك؟ قال: «رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقـال أحدهما:

يارب، خذ مظلمتي من هذا، فقال الله تعالى: رد على أخيك مظلمته، فقال: يا رب، لم يبق لي من حسناتي شيء، فقال الله تعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء؟ فقال: يا رب، فليحمل عني من أوزاري». ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء فقال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم»، قال: «فيقول الله تعالى -أي للمتظلم-: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا أو لأي صِدِّيق أو لأي شهيد؟ قال الله تعالى: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا يا رب؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب، قد عفوت عنه، فيقول الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة»، ثم قال ﷺ: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة».

* ومن الإحسان إلى الناس: ستر عوراتهم:

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة».

وروى أبو داود بسنده عن نعيم بن هزال رضي الله عنه -وهو مختلف في صحبته- قال: قال رسول الله ﷺ لما أخبره: «لو سترته بثوبك لكان خيراً لك».

وروى أبو داود بسنده عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاوية، إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم».

وروى أبو داود بسنده عن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته».

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافًى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل السوء سراً ثم يخبر به».

* ومن الإحسان إلى الناس: أن يشفع لكل من له حاجة إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه:

روى البخارى بسنده عن أبى دوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أوتى وأُسأل وتُطلب إلىّ الحاجة وأنتم عندى، فاشفعوا لتؤجروا، ويقضى الله على يَدَىْ نبيه ما أحب».

* ومن الإحسان إلى الناس: أن يبدأهم بالسلام قبل الكلام، وأن يصافحهم عند السلام:

روى الترمذى بسنده عن كلدة بن الحنبل رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ ولم أستأذن فقال ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل؟».

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شىء إذا عملتموه تحاببتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفشوا السلام بينكم».

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القاعد، والقليل على الكثير، والكبير على الصغير».

* ومن الإحسان إلى الناس: صيانة أعراضهم وأنفسهم وأموالهم عن ظلم وغيره، كلما قدر على ذلك، ويرد عنهم ويناضل لنصرهم:

روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: إن رجلاً نال من رجل عند رسول الله ﷺ، فرد عنه رجل، فقال النبى ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه كان له حجابًا من النار».

وروى الإمام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه المسلم إلا كان حقًا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة».

وبعد، فلو ذهبنا نستقصى أصناف الإحسان إلى الناس ما وسعتنا هذه الصفحات، وكلها أنواع من الإحسان وردت فيها آيات قرآنية أو أحاديث نبوية شريفة، ولكن حسبنا ما ذكرنا، ففيه الدلالة بإذن الله تعالى.

وهكذا يطالب الإسلام الناس عمومًا والناشئين خصوصًا بأن يحسنوا العمل وأن يحسنوا إلى الأصحاب والناس عمومًا، لما فى ذلك من دعم للأخوة بين المسلمين، وتقوية لروابط المحبة والتعاون والاستقرار فى حياة اجتماعية إسلامية راشدة، تنعم بها البشرية كلها.

الوظيفة الثامنة: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله تعالى واجب كل مسلم ومسلمة من أهل القدرة عليها، وليست واجب العلماء من المسلمين وحدهم؛ لأن الآية الكريمة التى أوجبت الدعوة لم تخص بها العلماء ولا الرجال، وإنما أطلقت هذا الوجوب على كل من اتبع محمداً ﷺ، قال الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

والبصيرة هنا هى أن يكون الدعاة إلى الله على علم وبصر بما يدعون إليه، مهما كان هذا الذى يدعون إليه يسيراً أو بسيطًا، وعلى سبيل المثال: فإن من علم من الإسلام أحكام الطهارة أو الصلاة أو نحوها كان عليه أن يدعو الناس ممن لا يعرفون هذه الأحكام إلى معرفتها والعمل وفق شرع الله فيها(١).

إن الناشئين إذا شبوا ودأبوا على ممارسة الدعوة إلى الله فى مجالاتها المتعددة، بعد فقههم لأهدافها وأساليبها ووسائلها، فإنهم بعون من الله سوف يجنون نتائجها من معرفة كل منهم بواجبه فى الدعوة إلى الله، ومن تأهل للقيام بأعباء الدعوة، ومن معرفة جيدة بطبائع المدعوين، وتعرف على أدواء الأمة الإسلامية، وعلى التيارات المعادية للإسلام، ومعرفة بأن الدعوة إلى الله ليست مجرد كلمات تقال، وإنما هى إلى جوار ذلك عمل وتنظيم ومؤسسات، تبدأ صغيرة ثم تنمو، حتى تغطى احتياجات العالم الإسلامى كله، وأنها علم على أعلى مستويات العلم فى كل فرع من فروع المعرفة التى تمكن الأمة الإسلامية من إعمار الأرض والاستفادة منها بما يحقق مصالح الدنيا والآخرة.

إن معظم مشكلات العالم الإسلامى تأخذ طريقها إلى الحل لو أن المسلمين فقهوا الدعوة إلى الله، ومارسوها ممارسة صحيحة، وذلك أن بداية التراجع الحضارى الذى يعيشه المسلمون اليوم كانت هى ترك الدعوة إلى الله والتخلى عن واجباتها، كما أن الإمساك بزمام التقدم والرقى الحضارى هو فقه الدعوة إلى الله وممارستها على كل مستوى من مستوياتها وفى كل مرحلة من مراحلها، مع التأسى بما كان عليه الدعاة الأصلاء وهم الأنبياء عليهم السلام، وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ.

إن التربية الإسلامية توظف طاقات الناس عموماً والناشئين خصوصًا لكى يمارسوا الدعوة إلى الله، وفق منهجها وأساليبها وكل وسائلها، بحيث لا يقعد أحد عن ممارسة الدعوة إلى الله، مادام قادراً على ذلك.

---

(١) لنا فى «فقه الدعوة إلى الله» كتاب موسع من جزءين، عالجنا فيه كل ما يتصل بالدعوة إلى الله، نشر دار الوفاء ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م.

وإن هذا التوظيف لتلك الطاقات لمن أقوى الأدلة على إيجابية الدين الإسلامى وفاعليته، وقدرته على تنظيم حياة الناس وفق منهج الدين ونظامه.

إن توظيف هذه الطاقات للدعوة إلى الله يعنى فى إيجاز شديد أن يكون الأمر كله لله، وإنما يتحقق ذلك بأن يُمكن الدعاة إلى الله للقرآن الكريم أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين ومكانته فى قلوبهم وفاعليته فى نظمهم، وسيادته على كل دين أو منهج أو نظام، تطبيقًا لما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

إن هذه الآيات الثلاث الكريمة تؤكد للدعاة المخلصين من المسلمين، أن تطبيق منهج الله على عباده تتطلب كما دلَّت هذه الآيات الكريمة اعتقادًا وعملاً.

أما الاعتقاد فيتمثل فيما يلى:

١- الإيمان الراسخ واليقين الجازم بأن دستور الإسلام الكامل التام الذى رضيه الله للبشرية كلها دينًا هو القرآن الكريم، لما جعله الله عليه من ملازمة دائمة للحق فى أحكامه وأخباره وتشريعه لكل ما يجلب للناس المصالح ويدفع عنهم المضار فى الدنيا والآخرة.

٢- واليقين بأن هذا القرآن الكريم جاء بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتب التى أنزلها الله قبل أن ينزله مثل التوراة والإنجيل -قبل أن يدخلهما التحريف- بل شاهد على هذه الكتب بالصحة، ورقيب عليها بما فيها من الحق، وأن هذا القرآن قد تكفل الله بحفظه فى حين استحفظ الناس على الكتب الأخرى، وشتان بين ما يحفظه الله وما يحفظه الناس.

٣- والاعتقاد الراسخ بأن هذا القرآن الكريم يجب أن يحكم به المسلمون فيما بينهم، وأن يحكموا به بين أهل الكتب السابقة؛ لأنه المنهج الذى لا يظلم ولا يحابى، وإنما يعطى لكل ذى حق حقه بغض النظر عن عرقه أو لونه أو جنسه أو مكانه الجغرافى من الأرض، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يتحاكموا إلى غيره من المناهج تحت ظل أى ظرف.

٤- والاعتقاد الجازم بأن الله جعل لكل أمة شرعة ومنهاجًا تختلف عن غيرها فى التفاصيل والمفردات، وأن هذا الاختلاف فى حقيقته نوع من الاختبار والابتلاء ليُعرف الطائع للمنهج من العاصى له، ولكى يتسابق أصحاب هذه الشرائع فى فعل الخير الذى جاءت به شريعتهم، ليكون حسابهم أمام الله سبحانه.

٥- والإيمان اليقينى بأن أى منهج غير منهج الله لا يمكن أن يحقق للناس مصالحهم فى الدنيا والآخرة، لما يتضمنه ذلك المنهج من قصور بشرى يؤدى إلى الظلم والتعادى، والعجز عن حسم الشر، أى أن أى منهج آخر لو قورن بمنهج الله فإنما يعد ذلك من الجاهلية وما تدل عليه الجاهلية من تخلف وضياع.

وأما العمل الذى تتطلبه هذه الآيات حتى تقيم المجتمع المهدى إلى الحق الراشد القادر على ممارسة حياة إنسانية لائقة بتكريم الله للإنسان، فيتمثل فيما يلى:

١- العمل على تطبيق منهج الله تطبيقًا عمليًا بين الناس فى كل شئون حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية، وكل ما يحيط بحياتهم جميعًا، مع رفض كل محاولة من المتحاكمين لاتباع الهوى والخروج عما أنزل الله.

٢- ولابد أن يكون هذا التطبيق للقرآن منهج الله سبحانه تطبيقًا كاملاً غير منقوص، أى رفض هجر بعض ما جاء به القرآن الكريم وقبول بعضه، لأن ذلك تعطيل للحكم بما أنزل الله.

٣- والتعامل مع الرافضين لمنهج الله إن كانوا مسلمين، بإلزامهم باتباع المنهج ولو عن طريق القهر إذا كان للمسلمين دولة وقوة تستطيع أن تفرض حكم الله على عباد الله، فإن كان الرافضون من غير المسلمين أو من المسلمين الذين لا يقدر عليهم، فإنهم ينذرون بأن الله سبحانه سوف يجازيهم على هذا الرفض بعذاب الدنيا بالقتل فى الحرب - كما حدث لليهود فى حياة الرسول ﷺ من جلاء وقتل - فضلاً عن مجازاتهم على ذلك فى الآخرة.

٤- والتعامل مع المعرضين عن منهج الله دون خوف منهم أو يأس من استجابتهم للحق، وإنما يستمر الدعاة فى دعوتهم إلى الحق وإلى منهج الله؛ لأن من طبائع بعض الناس أن يخرجوا عن الحق ويفسقوا عن أمر ربهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى متمردون على أحكام شريعة الله تعالى، وعلى المسلمين أن يعاملوهم بما يستحقون على النحو المفصل فى كتب الفقه الإسلامى.

هكذا يجب أن توظف الطاقات لتطبيق منهج الله، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الله على مستوى العمل فى كل مجال من مجالاته.

إن الناشئين يستطيعون أن يمارسوا الدعوة إلى الله مع أقرانهم وزملائهم ومع إخوانهم وأخواتهم فى منازلهم، ومع أصحابهم وإخوانهم من رواد المساجد.

وإذا شب الناشئون على ذلك دخلوا طور الرجولة وهم أكثر نضجًا وأوعى بظروف العالم الإسلامى، وأكثر قدرة على ممارسة الدعوة إلى الله، فزال بهم عن الأمة الإسلامية قعودها بل نكوصها عن مكانها الحضارى ومكانتها الإصلاحية بين أمم الأرض.

وإن كثرة الدعاة وانتشار عملهم فى مجال الدعوة يتطلب من المهتمين بالعمل الإسلامى أن يعملوا على تكوين جماعات من القادرين على التربية الإسلامية:

- نظريًا: بطرح أسسها وأهدافها ووسائلها وميادينها ومصادرها ومراجعها.

- وعمليًا: بالتعامل مع هؤلاء الذين استجابوا للدعاة وفق منهج التربية الإسلامية الذى يستهدف التعامل مع الطبيعة البشرية تعاملاً إسلاميًا، يمكنها من التعبير عن طاقاتها الروحية والعقلية والبدنية فى حدود ما شرع الله، لتحدث فيها تغييرًا نحو الأوفق والأرضى لله سبحانه من خلال وسائل هذه التربية.

إن التربية الإسلامية عمل أخص من الدعوة الإسلامية، وإن المربين أكثر خبرة بالتربية من الدعاة؛ لأن الدعاة ربما يقف عملهم عند حدود نقل الناس من الضلال إلى الهدى، أما المربون فعملهم مستمر لا يتوقف حتى يصلوا بالناس إلى أن يكونوا دعاة إلى الله.

وإن العمل الإسلامى فى كل مكان يعيش فيه مسلمون بحاجة مستمرة إلى الدعاة وإلى المربين، بل فى حاجة إلى أن يستمر كل منهم فى عمله، وإلى التنسيق بينهم فيما يعملون.

إننا ما لم نربِّ الناشئين والشباب بل الرجال والنساء على المفاهيم الصحيحة للدعوة إلى الله والممارسة الجادة لها، وما لم ندرب المربين على التربية الإسلامية الشاملة التى تستهدف تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة، ما لم نفعل هذا وذلك، فإن المسلمين سوف يظلون يعيشون مرحلة التبعية للثقافة الغربية والقيم الغربية، بل التبعية للغرب فى السياسة والاقتصاد والتسلح ونظم الحياة كلها.

وإن معنى استمرار هذه التبعية للغرب أن تظل الأمة الإسلامية ضعيفة ذليلة مقهورة تابعة، لا تملك من أمر نفسها شيئًا، وكم عانت الأمة الإسلامية من الغرب ولا تزال تعانى.

إن للغرب معنا قصة ذات أغوار بعيدة فى تاريخ أمتنا، كان من أبرزها فترة الحروب الصليبية ٤٩٢هـ- ٩٦١هـ، ثم أعقبها عمل المستشرقين، فواكبها عمل المنصِّرين «المبشرين»، وأنتج ذلك كله فترة استيلاء الغرب على معظم بلدان العالم الإسلامى، بعد تضافر جهود الغرب على إسقاط دولة الخلافة العثمانية، ثم استمرارهم فى السيطرة على معظم بلدان العالم الإسلامى سيطرة منظورة، أو غير منظورة، يغلفها الفكر الوافد والثقافة والتعليم، وكلها تتحدى قيم الإسلام وأخلاقه.

ثم تلا ذلك زرع إسرائيل بين أضلع العالم العربى، وتفتيت كل وحدة فى العالم الإسلامى، وتحويل معظم بلدانه إلى دول تمارس حياة دول العالم الثالث أو النامى أو الجنوبى، وإغراق جميع هذه البلدان بالديون واصطناع الحروب فيما بينها ليروج سلاح الغرب، وتتفاقم ديونه على بلدان العالم الإسلامى، ومن وراء ذلك كله ما يدعم هذه السيطرة ويعطيها شرعية دولية من عصبة الأمم، إلى هيئة الأمم، وكلاهما فى الحقيقة كانت وما تزال لصالح السادة الخمسة الكبار أصحاب حق النقض والاعتراض، وليس فى هؤلاء الخمسة الكبار دولة من دول العالم العربى أو الإسلامى.

إنها قصة ذات أبعاد وأهداف وأحداث طالما عانينا منها ولا نزال نعانى، ولن ينسدل الستار على الحدث الأخير طالما يعيش المسلمون فى غفلة عن القيام بواجب الدعوة إلى الله وواجب التربية الإسلامية، وفق منهج الإسلام وأهدافه ووسائله.

ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

إننا لن نستطيع أن نواجه الغرب القوى المتكتل الممسك بزمام الاقتصاد على مستوى العالم، الموجه لأجهزة الإعلام على مستوى العالم كذلك، المحرك لكل الفتن والقلاقل والانقلابات والحروب على مستوى العالم، المؤيَّد بمنظمات دولية عديدة تساند بالقرارات وممارسة الضغوط والجيوش فى بعض الأحيان ضد بلدان العالم الإسلامى كله من منتجى القمح والقطن وقصب السكر و«البترول»، بحيث تصبح كل هذه المنتجات فى أيديهم ويصبح منتجوها لا يملكون حق التصرف فيها إلا فى ظل التوجيهات ورسم السياسات، والتعليمات التى تصدر منهم وهى واجبة النفاذ.

وإن نظرة سريعة إلى الواقع الذى يعيشه العالم الإسلامى اليوم، لتؤكد ما نقول، وتقيم عليه من الشواهد والبراهين ما لا يرفضه إلا مكابر أو معاند أو تابع خائف.

إن الغرب هو الذى أرَّث ولا يزال يؤرث العداوات والخلافات بين بلدان العالمين العربى والإسلامى، وهو الذى أدخل كثيراً من هذه البلدان فى دائرة الأحلاف والتكتلات التى

تكرس انفصال العالم الإسلامى بعضه عن بعض، إنه الغرب الذى شق باكستان إلى شرقية وغربيـة، وهو الذى أسال بـحراً من الدمـاء فى أفغانـستان، وهو الـذى أغرى قصـار النظر الغافلين بحرب دامية بين العراق وإيران، وأضـرم العداوة فى لبنان، وأثار مشكلة الصحراء المغربية، وأغرى ليبيا بتشاد، والمغرب بالجزائر، وأخيرا العراق بالكويت.

إنه الغرب الذى تحدى المسلمين فى الفلبيين، وفى أندونيسيـا، وفى ماليزيا، وساق كثيراً من المسلمين فى أفريقـيا معظمها - كمـا شاهدت ذلك بنفسى - إلى الكنيسـة سوقًا، وهو الذى يشيع الفسق والعبث والانحلال فى المجتمعات الإسـلامية، وهو الذى يورد لنا وفى قعر بيوتنا من وسائل اللهو والفساد ما يقضى على كيان شبابنا.

إنه الغرب الذى مهـد لاختلاط النساء بالرجـال فى مراحل التعليم، ثم فى المجتـمعات الإسلامية كلها، وهو الذى عطل قوانين الشريعة الإسلامية وأحل محلها القوانين الوضعية، وهو الذى تحدى كل حركة إسلامـية إصلاحية منذ حركة محـمد بن عبد الوهاب إلى يومنا هذا...

وهو الذى يغرى كـثيراً من حكومات العـالم الإسلامى بقمع كل عـمل إسلامى وإبادة العـاملين فيـه... وهو... وهو... مما لا أسـتطيع أن أستـوعب الحـديث فيـه فى هذا المجال[1].

إن الخـلاص من ذلك يحتـاج إلى أناة وصـبر وهدوء وعـمل متـواصل وفـقه للدعـوة الإسلامية، وفـقه للتربية الإسلاميـة، وفقه للحركة الإسلاميـة، وإصرار على الوصول إلى تحقيق كل هذه الأهداف.

وما كـتـابنا هذا وغيره مما كتبنا إلا خطوة على الطريق والله من وراء القـصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

الوظيفة التاسعة: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

إن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ركن عظيم من أركان الدين الإسـلامى، بحيث لا تقوم لهذا الدين قائمة إلا بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولقد عبـر الإمام الغزالى أبو حامـد فى كتابه: «إحياء علوم الديـن» عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر بقـوله: (هو القطب الأعظم فى الدين، وهـو المهم الذى ابتـعث الله له

---

(١) لنا فى ذلك كتاب نعده، نسأل الله العون على إكماله سميناه: «التحدى الموجه للعالم الإسلامى».

النبيين أجمعين، ولو طُوى بساطه وأُهمل علمه وعلمه لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»[1].

ولقد نقلنا هذه الكلمة الواعية مرة من قبل ذلك، ولا نحب أن يفوتنا التذكير بها ثانيًا، لما فيها من خير ونفع واعتبار.

وإن تربية الناشئ المسلم على ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى ضوء ما قدمنا - فى فصل التربية الأخلاقية للناشئين فى الباب الثالث من هذا الكتاب - من توضيح لمفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبيان شروطه وآدابه فى الآمرين به والمأمورين، ومراتبه وممارساته، إن تربية الناشئ المسلم وفق ذلك الذى أوضحنا لواجب شرعى - كما بينا - ينبغى أن توظف له وفيه طاقات الشباب.

ونود أن نؤكد أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان واجبًا حتى فى الأمم المتقدمة فى التاريخ، بل هو فائدة الرسالة وهو خلافة النبوة، قال الحسن: قال النبى ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه».

وعن درة بنت أبى لهب رضى الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر فقال: من خير الناس يا رسول الله؟ قال: «آمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم لرحمه».

وفى التنزيل الكريم: ﴿ .. الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] ثم قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه[2].

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يترك أبدًا ما دام المسلم يعيش على هذه الحياة، فهو واجب مستمر أبدًا.

(روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم» قلنا: يا رسول الله، وما ظهر

(١) الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين: ٢/٢٦٩.

(٢) انظر: القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٤/٤٧.

فى الأمم قبلنا؟ قال: «الملك فى صغاركم، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رُذالتكم» قال زيد: تفسير معنى قول النبى ﷺ: «العلم فى رذالتكم»: إذا كان العلم فى الفساق»[1].

إن الناشئين إذا شبوا وكبروا على هذا الفقه أسهموا إسهامًا حقيقيًا فى بناء مجتمع مسلم سليم، خال من الفُساق والمرتكبين، وفى هذا أمان واستقرار للناس جميعًا.

إن الناشئين يستطيعون ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حدود طاقاتهم وذلك منهم مقبول، لكنهم لا يستطيعون أبدًا أن يتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا إذا قام مانع شرعى من ممارسته - وقد بينا ذلك بتوسع فى كتابنا: «فقه الدعوة إلى الله» فى الفصل الرابع من الباب الأول - وإن مجمل ما نقوله هنا: إن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أقرب القربات إلى الله سبحانه وتعالى.

الوظيفة العاشرة: الجهاد فى سبيل الله:

الجهاد فى سبيل الله - كما هو معروف - قد يكون فرض عين تخرج فيه الزوجة بغير إذن زوجها، والابن بغير إذن والديه، والعبد بغير إذن سيده، وذلك إذا اعتدى عدو على أرض المسلمين، أو إذا دعا الحاكم إلى نفير عام، وقد يكون فرض كفاية يحمل عبئه من المسلمين من تحقق بهم الكفاية، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى من هذا الكتاب[2].

ونود أن نوضح هنا أن تربية الناشئ المسلم على معانى الجهاد والاستعداد له، وتوظيف ما لديه من جهد وطاقة فى هذا المجال هو إكمال لتربيته حتى تتكامل شخصيته الإسلامية، وهذه التربية المتكاملة صفة بارزة فى منهج الإسلام ونظامه.

إن تربية الناشئين على الجهاد تتطلب أمرين هامين هما:

الأول: تعريف الناشئين بفقه الجهاد.

الثانى: إعداد هؤلاء الناشئين روحيًا وبدنيًا للقيام بأعباء الجهاد.

ولكل أمر من هذين الأمرين حديث وجيز، نذكره على النحو التالى:

أولاً: تعريف الناشئين بفقه الجهاد فى سبيل الله:

وذلك يستدعى أن نزيل ما علق فى أذهان الناس من غبار حول هذا الموضوع، نشره أولئك الذين كتبوا عن الجهاد فى الإسلام بانفعال، حال بينهم وبين الدقة والموضوعية، أولئك الذين كتبوا عن الجهاد باستخذاء واستحياء باعدًا بينهم وبين الحق والموضوعية كذلك.

---

(١) السابق: ٤/٤٩.

(٢) الفصل الثانى من الباب الثالث من هذا الكتاب.

ولسنا هنا بصدد تفصيل هذه القضية، ولكننا نشير ونلفت الانتباه ونوضح نقاط الضعف فى أولئك وهؤلاء، أما التفصيل فيلتمس فى مظانه من الدراسات الموسعة فى كتب الحديث النبوى والفقه الإسلامى، فنقول:

أما أولئك الذين كتبوا عن الجهاد فغلبهم الانفعال، فحال بينهم وبين الدقة، فهم الذين صوروا الجهاد فى سبيل الله على أنه سيف ممشوق فى وجه البشرية كلها، تدخل فى الإسلام أو يعمل فيها السيف!!!

ولست بحاجة إلى أن أسمى هؤلاء أفرادًا أو جماعات؛ لأن ذلك لا يتعلق به الغرض الآن، وإنما يتعلق الغرض ببيان وجه الحق والصواب.

ولابد لى - فى مجال الرد على هؤلاء - من أن أسوق بعض النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة التى غفلوا عنها أو أساءوا فهمها، عسى الله أن يهدينا ويهديهم جميعًا إلى سواء السبيل:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤١].

وهذه أول آية كريمة نزلت تشرع للمسلمين القتال واستعمال السلاح ردًا على أى عدوان يقع عليهم، حتى يتمكنوا فى الأرض، فيقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر.

قال القرطبى: (قال ابن العربى: قال علماؤنا: كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام لإقامة حجة الله عليهم ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] فاستمر الناس فى الطغيان، وما استدلوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم، فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى، فلما عتّت قريش على الله تعالى، وردوا أمره، وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحده وعبده،

وصدق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وأنزل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ إلى قوله: ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فهذه الآية هى التى فرضت الجهاد على المسلمين، قال القرطبى: (قال سعيد بن المسيب: إن الجهاد فرض على كل مسلم فى عينه أبداً -حكاه الماوردى. قال ابن عطية: والذى استمر عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين يسقط عن الباقين، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين)[2].

وقال الله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

إلى آخر الآية الكريمة التى تقول: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]

وسورة الأنفال كلها تقريبًا فى الجهاد.

وسورة التوبة كلها كذلك.

وسورة محمد «القتال» كلها كذلك.

وآيات عديدة متفرقة.

والأحاديث النبوية الشريفة يزيد عددها على الثلاثين حديثًا رويت كلها فى الكتب الصحاح.

وعند أدنى تأمل فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، يمكن الرد على من ادعوا أن الجهاد فى الإسلام سيف مصلت على غير المسلمين، كما يمكن من خلال هذه النصوص التعرف على الوضع الصحيح للجهاد فى الإسلام، وهو فى مجمله لا يخرج عن حكمين أساسيين هما:

١- فرض عين: عند رد أى عدوان على المسلمين أو عند النفير العام.

٢- وفرض كفاية: عند نشر الدعوة إلى الله فى ربوع العالم.

وليس فيه على أى حال إكراه أحد على الدخول فى الإسلام وإنما هو دعوة وإقناع وإزالة للشبهات أولاً، ثم تعامل مع الناس بمقتضى الشريعة بعد ذلك حسب أنواعهم دون غدر أو عدوان أو تشويه أو تعذيب فى القتال.

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٦٩/١٢.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٣٨/٢.

فالجهاد فى الإسلام عندما يكون قتـال، لا يبيح للمسلمين أن يعتدوا أو يمثلوا بالقتلى أو يسرقوا أو ينتهكوا حرمات الأعداء أو يقتلوا امرأة أو طفلاً أو عابدًا فى صومعة، وليس لهم أن يقطعوا نخلاً ولا شجراً ولا يقتلوا حيوانًا إلا لمأكلة.

وهذه القيود كلهـا هى آداب الجهاد فى الإسلام وأخلاقيـاته، وهى واجبة على المسلمين وردت بوجوبها أحاديث نبوية شريفة.

ثم إن مشروعـية الجهاد لنشـر الدعوة، أبلغ رد على أولئك المتخاذلـين الذين زعموا أن الجهاد شرع فقط لـرد العدوان، ولقد عالجنا هذه الموضوعات بتوسع فى كتـابنا «فقه الدعوة إلى الله»[1].

إن الناشئ المسلم يجب أن يعرف عن فـقه الجهاد ما لا بد منه عـلى نحو ما هو واضح فى كتب السنة والسيرة النبوية وكتب الفقه الإسلامى.

ثانيًا: إعداد الناشئ للجهاد روحيًا وعقليًا وبدنيًا:

ونشير إليه فى إجمال فيما يلى:

١- الإعداد الروحى، بتوثيق صلة هؤلاء الناشئين بالله عن طريق أداء العبادات والنوافل والأذكار والأوراد، وإيقاظ الإيمان باليوم الآخر، والجزاء والحساب على ما قدم الإنسان فى الدنيا من عمل، إن هذه الأرواح عندما تصفو وتتجه إلى الله تستطيع القيام بأعباء الجهاد فى سبيل الله.

٢- والإعداد العقلى بذلك التفـقيه الأساسى بالإسلام عمومًا وبالجـهاد خصوصًا، وإنما يكون بتثقيف الناشئين عن طريق القراءة والدرس والبحث والتعمق فى طلب العلم.

٣- والإعداد البدنى للناشـئين لكى يقوموا بأعباء الجهـاد وهذا الإعداد البدنى يجب أن يعمل فى اتجاهين:

الأول: تجنب كل أسباب الضعف البدنى.

والثانى: الأخذ بكل وسائل القوة البدنية.

وقـد أشرنا إلى ذلك الإعـداد الروحى والعقلـى والبدنى فى الفـصول الثـلاثة -الأول والثالث والرابع- من الباب الثالث من هذا الكتاب.

●●●●

---

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب.

الفصل الثانى

وصل الناشئ المسلم بأمته وبعالمه الإسلامى

١- مفهوما الأمة الإسلامية والعالم الإسلامى

أ- مفهوم الأمة الإسلامية:

الأمة كل جماعة يجمعهم أمر مّا؛ دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً، هكذا عرّف علماء المسلمين الأمة كما وردت فى القرآن الكريم(١).

ولعلماء الاجتماع المحدثين تعريف للأمة، حيث يرونها مرادفة للشعب أو للقوم، وبناء على ذلك يعرفونها بقولهم:

(الأمة مجموعة من الأفراد تجمعهم ثقافة مشتركة تستند إلى وحدة الأصل أو اللغة أو الدين، ويربط بينهم تاريخ وتراث اجتماعى ومصالح اقتصادية، ويعيشون على أرض واحدة، ويعملون على دوام هذه الروابط من الناحية السياسية فى إطار الدولة)(٢).

وسواء لدينا أن نعتمد التعريف الأول أو التعريف الثانى فيما نحن بصدده؛ لأن الخلاف بين التعريفين لا يمثل -فى مجالنا هذا- شيئًا ذا بال.

فنقول: إن الأمة الإسلامية مجموعة من الناس تجمع بينهم عقيدة التوحيد - الدين الإسلامى- وإن تفرقت بهم الأمكنة أو الأزمنة أو الأعراق أو اللغات.

وبالنظر إلى تعريف علماء الاجتماع فإن الأمة الإسلامية مجموعة من الناس تجمعهم ثقافة مشتركة تستند إلى وحدة الدين وتربط بينهم روابط تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية عديدة، وإن كانوا اليوم يفقدون إطار الدولة الواحدة، إذ هم يعيشون فى سبعة وخمسين دولة، بفعل عوامل التفرق والتمزق والشرذمة، التى فرضها عليهم عدو استطاع أن يغلبهم على أمرهم، وأن يستولى على بلادهم، وأن يتحكم فى مصائرهم، وأن يحولهم إلى أتباع له فى الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع إلا قليلاً ممن عصم الله.

---

(١) الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن.

(٢) د. أحمد زكى: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية.

فمفـهوم الأمة عند علماء الاجـتماع، هذا المفهوم الذى يلح علـى أن الأمة تعيش على أرض واحدة أو فى إطار دولة واحـدة، ليس موجودًا فى واقع الأمـة الإسلامية المعـاصرة، للسبب الذى ذكرته آنفًا وهو تحكم العدو وسيطرته.

إن الأمة الإسلاميـة اليوم تربط بينها عقيـدة التوحيد، وهذا مما لا يشك فيـه أحد، كما تربط بينها روابط تاريخيـة مشتركة،وروابط اجتـماعية نابعة من قيم الإسـلام وأخلاقه وما أحل الله وما حرم، ويحسـبها ذلك لتكون أمة واحدة اليوم، وأما غدًا فـالأمل كبير فى أن تجمعها أرض واحدة ودولة واحدة ومصالح اقتصادية وسياسة واحدة.

إن الأمل منوط بأبناء الأمة الإسلامية ناشئيها وشبابها ورجالها ونسائها، ويقول الحاقدون أو الغافلون: متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبًا.

ب- مفهوم العالم الإسلامى:

وهو مفهـوم جغرافى مكانى، نعنى به فى هذا المجال، كل أرض من العالم يعـيش فيه المسلمـون دولاً أو جاليات، أكـثرية أو أقليـة، ولا نعنى هنا المفهـوم الفلسفى للـعالم وهو الوجود كله آهلاً بالناس أو خاليًا منهم.

إن العـالم الإسلامى الذى نعنـيه هو كل بلاد المسلمـين فى شرقى الأرض وغـربيهـا، شماليهـا وجنوبيها، سواء أكانت هذه البلاد مـستقلة ذات سيادة أم كان يتحكم فـيها أعداء الإسلام، ويفرضون عليها من النظم والقوانين ما هو مخالف للإسلام.

إن الناشىء المسلم بل المسلمين عـمومًا يجب أن يعوا هذين المفـهومين للأمة الإسلامـية وللعالم الإسلامى، وألا ينخـدعوا بالحدود السياسـية المصطنعة التى فرضهـا أعداء الإسلام على بلدان المسلمين، وإنما يكون فى حسهم وشعورهم وفكرهم وثقافتهم أنه جزء من أمتهم الإسلامية ذات العـقيدة الواحدة وأنه جزء من عالمهم الإسـلامى الذى لا تفصل بين أجزائه الحدود السياسية التى اصطنعها أعداؤه.

●●●●

٢- كيف يُوصل الناشئ بأمته الإسلامية وعالمه الإسلامي؟

إن هذا الوصل أو التوصيل يحتاج إلى أعمال كثيرة وجهود كبيرة، تبدأ في البيت منذ نعومة الأظفار، وتمتد إلى المسجد، فالمدرسة بكل مستوياتها، فجميع مصادر الثقافة، وجميع وسائل الإعلام، كل ذلك عليه أن يعمل ما وسعه على وصل الناشئ المسلم بأمته الإسلامية وبعالمه الإسلامي.

إن كلمات الأبوين وأحاديثهما وقصصهما يجب أن تغذي هذه المعاني وتعمل على إيقاظ هذه المشاعر فيهم، وإن سرد القصص والأحداث تعمل على إيجاد تلك الرابطة بين الناشئ وأمته وعالمه الإسلامي، إن الناشئ جزء من كل، وعضو من جسد واحد، ولا حياة لعضو ولا قيمة له وحده، وإنما القيمة الحقيقية له إذا أخذ مكانه في هذا الجسد، إنه عندئذ يستطيع أن يؤدي وظيفته، وأن يعبر عن نفسه، وأن يساعد هذا الجسد على أداء وظيفته كذلك.

إن البيت بكل ما فيه ومن فيه، لابد أن يهيئ هذه المعرفة وهذا التوصيل، وإن ذلك لابد أن يدفع إلى الانتماء لهذه الأمة والاعتزاز بهذا العالم الإسلامي.

وكذلك يجب أن يفعل المسجد، فإن وحدة العبادات في المسجد، واشتراك المسلمين في كل بقاع الأرض في أدائها، لما يوقظ في المسلم الشعور العميق بأن كل من يشاركونه هذه العبادات هم أمته الإسلامية التي ينتمي إليها.

وإن ما يدور في المسجد من دروس ومحاضرات، يجب أن تدعم هذه المشاعر وتذكيها، وإن طرح قضية من قضايا الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي للمناقشة والحوار في المسجد في الخطب والمحاضرات والدروس، إن ذلك لما يؤكد هذه الصلة بين الناشئ المسلم وأمته الإسلامية وعالمه الإسلامي.

وأما المدرسة بمعناها الواسع- من المرحلة الأولى إلى المرحلة الجامعية- فإن لها أثرًا كبيرًا في إيقاظ هذه المشاعر بالانتماء عند الناشئين لأمتهم الإسلامية وعالمهم الإسلامي.

وإن الجهد الذي يجب أن تبذله المدرسة في هذا المجال لجد كبير، ولابد أن نعترف سلفًا بأن مدارسنا في معظم بلدان العالم الإسلامي قد دخلها غزو فكري وثقافي، أفسد فيها المناهج، وأربك الأولويات وجعلها صورة شائهة للمدرسة الإسلامية التي تربي النشء،

وتعدهم لكى ينتموا إلى الإسلام بعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم وخلقهم وسلوكهم، وأن يولوا إسلامهم كل ما يستحقه من ولاء.

إن هذه المدارس الإسلامية أصبحت بفعل الأعداء لا تؤدى هذه الوظيفة، بل لا تعطيها فى مناهجها وبرامجها أى اهتمام.

إن قضية التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى قصة مؤسفة، فمنذ أن وضع أعداء المسلمين أيديهم وبسطوا نفوذهم على بلدان العالم الإسلامى من منتصف القرن الرابع عشر الهجرى أو قبله بقليل - وتلك هى: فترة ضعف المسلمين وتراجعهم الحضارى لأسباب كثيرة ليس هنا مجال الحديث عنها- إذ يخطط الأعداء لفصل المسلمين بعضهم عن بعض بتلك الحواجز السياسية التى وضعوها، فقسموا بها العالم الإسلامى إلى سبع وخمسين دولة ذات أنظمة مختلفة وربما متعادية، منذ ذلك التاريخ وإلى يوم الناس هذا، والعدو يكيد للأمة الإسلامية أخبث كيد وأضراه عن طريق سيطرتهم على التعليم ومؤسساته، بحيث فرض على المسلمين مناهجه ونظمه التعليمية، بل تدخل فى اختيار المقررات الدراسية نفسها، وعمل على إفساد إعداد المعلم المسلم، والتجاهل للقيم الإسلامية فى المدرسة والمعلم والتلميذ، وظل العدو حينًا من الدهر يستهدف أن يُخرِّج من المدارس موظفين يتخدمون مصالحه، ويدينون بفكره، ويعطونه ولاءهم ليعيشوا آمنين فى ظل سيطرته.

إن قصة التعليم فى العالم الإسلامى قصة دامية لا نحب أن نفيض فى الحديث فيها هنا، ولكننا نكتفى بأن نقول: إن واجب الأمة الإسلامية كلها، وواجب كل دولة إسلامية على حدة أن تعيد النظر فى مؤسساتها التعليمية، بحيث يكون الهدف منها تخريج المسلم المنتمى إلى أمته الإسلامية العارف بظروف عالمه الإسلامى أولاً، القادر على أن يكون من أهل العلم والمعرفة والخبرة والقدرة على ممارسة الحياة، والإسهام فى ترقية أمته وتنميتها فى مختلف مجالات الحياة.

إن تنقيةً جيدة للمناهج المدرسية مما يوجد فيها من عيوب وآفات تعوق تحقيق هذه الأهداف، يجب أن توضع فى الاعتبار الأول، وتلقى من الاهتمام ما تستحق.

وإن إعادة النظر فى برامج إعداد المعلمين ومناهج كليات التربية، أمر ضرورى يمثل ركنًا ركينًا من العملية التعليمية، بحيث لا يحقق التعليم أهدافه بدونه.

وإن ذلك كله يجب أن يصاحبه رغبة فى التخلص من كثير من القيم والمعايير التى تتحكم اليوم فى إعداد المعلم، إننا نريد إعداد المعلم المسلم.

وكذلك تغيير المقررات الدراسية بحيث تختار اختياراً هادفًا يستمد من زادنا الفكرى والثقافى وقيمنا، ويستهدى عقيدتنا ويبرز تاريخنا ويعطى أهمية لعلمائنا ومفكرينا، ويخدم حاضرنا، ويرنو إلى مستقبلنا، كل ذلك لابد منه وهو خطوة من خطوات العمل الأساسية لتوليد هذا الانتماء الإسلامى.

وإن إصراراً على أن تكون القيم الخلقية الإسلامية هى التى تسود المدرسة إدارة ومعلمين ومتعلمين وعاملين لمما يساعد كثيراً على أن يشب الأبناء فى جو مدرسى غير ملوث بقيم غربية علينا وافدة مع أعدائنا لتسيء إلينا، وإن لتلك القيم تفاصيل، ومفردات كثيرة تتناول كل مرافق الحياة، فإن الإسلام فى تشريعه يربط كل قول يقوله الإنسان وكل عمل يقوم به بقيم خلقية ثابتة- على الرغم من تغير الزمان والمكان- هى قيم الإسلام التى تتمثل فى قائمة ضخمة من الفضائل يجب أن يتحلى بها المسلم، وقائمة مماثلة أخرى من الرذائل يجب أن يتخلى عنها المسلم.

ومن خلال هذا التحلى وهذا التخلى يمكن ممارسة حياة إنسانية لائقة بتكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان.

إن خللاً فادحًا قد حدث فى التعليم عندنا -فى بلدان العالم الإسلامى- نلمس أثره فى انتشار الجريمة والانحرافات السلوكية، وشيوع المفاسد الأخلاقية، وفصم الروابط بين أفراد الأسرة وأفراد المجتمع، وأبناء الأمة الإسلامية، وإن مقاومة هذا الخلل لمن أوجب الواجبات.

إن الاهتمام بالتعليم وإعطاءه ما يستحق من مكانة فى المجتمع ومكان، هو أهم الأسباب التى تصل الناشئ المسلم بأمته الإسلامية وبعالمه الإسلامى.

وأما وسائل الإعلام وأجهزته فلها فى نفوس الناس أبلغ التأثير؛ إذ هى أعمق وأشمل وأوسع مدى من البيت والمسجد والمدرسة، إن أجهزة الإعلام تقتحم اليوم على الناس بيوتهم بل مخادعهم، وتصاحبهم فى كل مجال يتحركون فيه.

إن أجهزة الإعلام ووسائله أصبحت اليوم مصادر معرفة للناس بل من المصادر التى تجد عند الناس قبولاً، وتحظى لديهم بمزيد من التقدير، وتستطيع هذه الوسائل والأجهزة أن تؤثر فى الناس أبلغ التأثير، وأن تولد لديهم كافة المشاعر والأحاسيس، وأن تمدهم بمختلف أنواع الثقافة، وأن تربيهم على القيم الخلقية التى تريد.

وأجهزة الإعلام ووسائله عند تحليلها نجد أنها تتكون من مؤلف يكتب الكلمة، ومخرج يخرجهـا إلى حيز السماع أو الرؤية أو القـراءة، وشخوص تقوم بهذه الأعـمال، وملابس وأضواء وآليات...

وإن كل واحـد من أولئك عليـه واجب فى العـمل على وصل الناشئ المسلم بأمـتـه الإسلامية وبعالمه الإسلامى، يتمثل هذا الواجب فى أن يكون كل واحد منهم شاعرًا شعورًا عمـيقًا بانتمـائه إلى أمته وعالمه الإسـلامى، ومعتزًا بـتراثه وتاريخه يستلهـمه ويستوحـيه، وملتزمًا بقيم الإسلام الخلقية التى تـشجع الفضائل، وتحارب الرذائل، فإذا وجد هذا الرجل فإنه لن يعجز عن أن يقدم للناس أحـسن القصص، وأنفع الكتب، وأمتع المقالات، وأجود الأفلام والمسرحيات، إنه بهذا يسهم إسهامًا حقيقيًا فى بناء الأمة التى ينتمى إليها.

أما أن تبـقى أجهزة الإعـلام على ما هى عليـه فى بلدان العالم الإسـلامى، فإن الناس الذين تخـاطبهم هذه الأجهـزة وتلك الوسائل سـوف يبقـون كذلك على ما هم عـليه من استهـتار، وسلبية، وانحراف، وجـريمة، وفقد للانتماء والولاء لأوطانهم وأمـتهم وعالمهم الإسلامى الذين هم جزء أصيل منه.

إن وصل الناشئ المسلم بأمته الإسلامية وبـعالمه الإسلامى ليس مجرد عمل يؤدى لذاته، وإنما هو عمل يجب أن يربى عليه الناشئ المسلم والمسلم عمومًا لغرس القيم التى لابد منها لكى يمارس حياته الإنسانية، قادرًا على تحقيق السعادة فى معاشه ومعاده.

وهذه القيم فى تصورى -وبإيجاز شديد- هى:

١- الالتزام بأخلاق الإسلام.

٢- والانتماء إلى الإسلام.

٣- والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

ولكل قيمة من هذه القيم الثلاث حديث نرجو ألا يطول...

أ- الالتزام بأخلاق الإسلام:

إن وصل الناشئ المسلم بأمتـه وعالمه الإسلامى، يستهـدف بالدرجة الأولى أن يلتزم هذا الناشىء بالقيم الأخلاقية الإسلامية التى يشاركه فى الالتزام بها جميع المسلمين فى كل بقاع الأرض.

ولابد لنا هنا من تساؤل قد يطرحه علينا واحد من غير المسلمين أو واحد من غافلى المسلمين وهو: لماذا أخلاق الإسلام بالذات؟ ولماذا لم تكن أخلاق سواها؟ فنقول:

إن الأخلاق ترجمة عملية لما يدين به الإنسان من عقيدة، والمسلم عقيدته التوحيد، توحيد الألوهية -لا إله إلا الله- وتوحيد الربوبية -لا خالق ولا رازق إلا الله- وهذه العقيدة مصدرها الأوحد هو كتاب الله- القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأجمعها وأكملها وأبعدها عن التحريف بسبب تكفل الله سبحانه بحفظه على حين استحفظ الناس على كتبه السابقة على القرآن، وشتان بين ما يحفظه الله وما يحفظه الناس.

وهذا المصدر المحفوظ النفيس الكامل، فسَّرته السنة النبوية وفصلت مجمله فهى مع القرآن إتمام لما يحتويه.

فماذا يجب أن تترك عقيدة التوحيد فى الناس الموحدين من قيم خلقية؟ إنها تركت فيهم القيم الأخلاقية التى يقوم عليها بناء مجتمع سليم من الآفات والعيوب والمنكرات، مجتمع يقوم بناؤه على المعروف، أى الأخلاق الإسلامية التى تستهدف أن يمارس الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والمعروف -كما قلنا غير مرة- هو كل خير تقبله الفطرة السوية للإنسان بل كل ما ترى فيه الإنسانية كلها لنفسها الرشد والسعادة، لما تلتزم به من حسنات وفضائل.

والمنكر -كما بينا فيما سلف- هو كل أمر تأباه الفِطْرة الإنسانية السوية وترى فيه الإنسانية لنفسها الضلال والتعاسة، لما تمارسه من سيئات ورذائل.

أى أن الأخلاق الإسلامية هى التى تقبلها ثم ترحب بها الفطرة السوية للإنسان، وهى كل أنواع الخير والمعروف والفضائل والحسنات.

وفى سبيل إقرار الإسلام لهذه القيم الخلقية الكبرى -أى المعروف- جعلت الشريعة هذا المعروف على مستويات ثلاثة:

الأول: المعروف الذى جعلته الشريعة فرضًا لازمًا، وذلك متمثل فى كل ما ألزمه به الإسلام وأوجبه على المسلمين، وهو أنواع كثيرة، تبدأ بوجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وتشمل نطق الشهادتين والعمل بمقتضاهما والطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج، والعدل والإحسان والصدق والعفاف واحترام حقوق الآخرين... إلخ.

والثانى: المعروف الذى ندب إليه الشرع واستحسنه، وذلك متمثل فى كل ما تقتضيه الشريعة أو تشجع على أن يقوم به الناس فى المجتمع بل يروج التعامل به، وذلك مثل النوافل كلها، فإن الشريعة ندبت إليها، نوافل الذكر والدعاء والصلاة والصيام والصدقة والعمرة وسائر النوافل التى من جنس الفرائض، وهى رواتب صَنَعَها الرسول ﷺ كثيرًا.

والثالث: المعروف المباح أو الجائز الذى لم تنه عنه الشريعة، وهو بناء على ذلك التحديد من أوسع الأبواب، إذ الأصل فى كل ما لم تنه عنه الشريعة أن يكون مباحًا أو جائزًا، ويتمثل فى التمتع بالطيبات من المآكل والمشرب والملبس والمسكن دون إسراف أو مخيلة.

وفى سبيل محاربة الإسلام للمنكر فى المجتمع، جعلته الشريعة السمحة على مستويين:

الأول: المحرم أو المحظور، وهو كل ما ألزمت الشريعة الناس باجتنابه وتطهير حياتهم منه، وأحكام هذا المنكر واضحة فى الشريعة لا لبس فيها ولا غموض، ويتمثل ذلك فى كل ما حرم الله على عباده مثل: الزنا والسرقة والكذب والظلم وغيرها مما هو معروف.

والثانى: المكروه، وهو كل ما أظهرت الشريعة كراهيتها له صراحة أو كناية، ومن هذه المكروهات ما هو قريب من المحرمات ويسمونه مكروهًا تحريميًا مثل مخالفة أدب الطعام والمشى ونحو ذلك، ومنه ما هو قريب من المباحات ويسمونه مكروهًا تنزيهيًا، ويتمثل فى اللعب بالشطرنج والنرد بغير مقامرة وكذلك كل لعب يخرج بصاحبه عن هيئة أهل المروءة، أو أن يؤدى إلى أن يوجد الإنسان فى مواطن التهم والشبهات.

إن الأخلاق الإسلامية بين هذين الحدين -المعروف والمنكر- تستطيع أن تبنى إنسانًا مسلمًا جيدًا، ومجتمعًا مسلمًا جيدًا وأمة إسلامية راشدة.

إن وصل الناشئ بأمته الإسلامية وبعالمه الإسلامى، هو الذى يمكنه من هذا الالتزام الأخلاقى بالإسلام ويعينه عليه، وتلك أول قيمة يجنيها الناشئ المسلم من هذا الالتزام، وهى من أرفع القيم وأرقاها؛ إذ هى تدعو إلى ممارسة كل معروف والأمر به، واجتناب كل منكر والنهى عنه.

إن الإسلام وهو يترجم عقيدته أعمالاً وسلوكًا، يعمد إلى إقرار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقرار أن هذه الأمور مما أحل الله، وتلك مما حرم ومنع.

ب- الانتماء إلى الإسلام:

نعنى بالانتماء إلى الإسلام، انتساب الفرد إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ونطق الشهادتين والعمل بمقتضاهما.. والاعتزاز بمنهج الإسلام في الحياة، بحيث لا يسمح المسلم لنفسه أن ينتمى فى أى أمر من أموره إلى غير منهج الإسلام ونظامه.

إنّ وَصْل الناشئ المسلم بأمته الإسلامية وبعالمه الإسلامى يغرس فى نفسه هذا الانتماء، ويرسخ أركانه مع القطع بأن هذا الانتماء إلى الإسلام هو مفتاح كل خير وتقدم للأمة الإسلامية كلها، لما يتصف به هذا الدين -من بين الأديان- بأنه أكمل الأديان وأتمها وأرضاها لله سبحانه، وبأنه نَسَخَ ما سبقه من الأديان، وبأنه خاتم الأديان وآخرها، وبأنه جاء بأكمل منهج للدنيا والآخرة.

ونحب أن نؤكد فى هذا المجال، بأن هناك مؤسسات بعينها تستطيع أن تولد هذا الانتماء إلى الإسلام، وأن ترعاه وتنميه فى نفوس الناس عمومًا وفى نفوس الناشئين على وجه الخصوص، تلك المؤسسات تبدأ بالبيت، ثم المسجد، ثم المدرسة، ثم وسائل الإعلام وأجهزته، فلو أن هذه المؤسسات أدى كل منها واجبه فى ذلك لزرعت الانتماء إلى الإسلام فى نفوس الناشئين خاصة والناس جميعًا[1].

إن الانتماء إلى الإسلام يعنى أمورًا كثيرة، تعود بأقصى درجات النفع الدنيوى والأخروى على المسلمين جميعًا.

إنه يشعر الفرد بأنه لا يعيش بمفرده ولا فى أسرته وحدها، بل ولا فى وطنه بذاته، وإنما يشعر بأنه يعيش جزءًا مهمًا من أمة إسلامية كبيرة وعالم إسلامى مترامى الأطراف، إن المسلم المنتمى إلى الإسلام يشعر بأن من يشاركونه فى عقيدته وعبادته وأخلاقه وسلوكه أكثر من ألف ومائتى مليون من المسلمين، وإن هذا الشعور يعالج فى النفس كثيرًا من سلبيات الإحساس بالوحدة والانفراد والقلة والذلة والهوان.

إن هذا الانتماء إلى الإسلام يشعر المسلم بأن همومه هموم دينه التى سوف يعينه الله عليها- لو أخلص النية والعمل فى التغلب عليها- هموم أمته الإسلامية وعالمه الإسلامى، وفى هذا الشعور ما فيه من بعث للأمل فى النفوس المسلمة فى التخلص من هذه الهموم، إذ يشاركه فى هذه الرغبة المسلمون فى العالم كله.

---

(١) ناقشنا وفصلنا الحديث فى الانتماء فى الباب الثانى من كتابنا: «فقه الدعوة إلى الله».

كما أن الانتماء إلى الإسلام يجعل المسلم يعتبر هموم دنياه هى هموم المسلمين جميعًا، وفى هذا ما فيه من معونة المسلمين بعضهم لبعض وتسخير طاقاتهم وإمكاناتهم للتغلب عليها، فضلاً عما فى ذلك الشعور من التعرض لرحمة الله والطمع فى عونه وتوفيقه، فقد روى ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جعل الهموم همًا واحدًا هم آخرته كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك».

وهم الآخرة الذى ورد فى الحديث الشريف هو الاهتمام بما يرضى الله وما يرجى به ثوابه، وليس ذلك أوضح فى هم منه فى هموم الأمة الإسلامية والعالم الإسلامى.

إن الانتماء إلى الإسلام يعنى أن يفكر المسلمون فى همومهم على اعتبار أنهم يعيشون فى عالم إسلامى متكامل من الناحية الاقتصادية؛ إذ ينتج من المواد الأولية ما يكفيه ويفيض عن حاجته، ولكن أعداءه يتحكمون فى هذه المواد الأولية، ويحملونه حملاً على أن يعيش محتاجًا إلى هؤلاء الأعداء، فكيف يمكن التغلب على هذا الهم؟

وعلى سبيل المثال:

فإن القمح والقطن وقصب السكر و«البترول» النفط وكثيرًا من المعادن، كل هذه المواد أرضها إسلامية ومنتجوها مسلمون، ولكن المتحكمين فيها وفيهم أعداء الإسلام والمسلمين.

والحديث فى هذا ذو شجون وهموم، ولكن المؤكد أن التكامل الاقتصادى بين بلدان العالم الإسلامى حقيقة قررها علماء الاقتصاد من المسلمين وغيرهم فى أكثر من مؤتمر إسلامى عقد فى السنوات الأخيرة من وقتنا هذا إن العالم الإسلامى متكامل البناء الاقتصادى لو أنه استطاع أن يخرج من سيطرة أعدائه عليه.

إن الانتماء إلى الإسلام يعنى أن يهتم كل قطر من أقطار العالم الإسلامى بأن يكون تعلم اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والسنة النبوية ومفتاحهما، إجباريًا للمثقفين عمومًا أو أصحاب الثقافة الخاصة فى بلدانهم، فإنه لا حياة لأمة القرآن إلا بلغة القرآن، وليتعلموا بعد ذلك ما شاءوا من لغات، ولكن المؤسف بل المعوق أن يسود كثيرًا من بلاد المسلمين لغة المسيطر عليهم، سواء أكانت سيطرته منظورة أم غير منظورة، أو يسود فيها عدد من اللغات المحلية، فإذا ذهبت تسأل عمن يعرفون لغة دينهم لغة القرآن ما وجدت إلا القليل!!!

إن حرب لغة القرآن من أكبر أهداف أعداء المسلمين، وإن من الغفلة أن من يعينهم على تحقيق هذا الهدف الخبيث المسلمون أنفسهم!!!

إن الانتماء إلى الإسلام يعنى أن يتمسك المسلمون فى كل بلد إسلامى بأن يكون نظام الحكم فيهم نظامًا إسلاميًا خاضعًا لأحكام الشريعة الإسلامية، أى يستمد مبادئه وقيمه وأنظمته من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويستعين بتراثنا الضخم من إبداعات فقهاء المسلمين، وبما يتضمنه تاريخ الصحابة والتابعين والسلف الصالح من معالم تهدى فى طريق الحياة الإنسانية، وأن يرفضوا كل نظام فيه مخالفة لمبدأ أو قيمة أو حكم إسلامى وألا يكتفوا بأن يُنَص فى دستور بلادهم على ذلك، ثم لا يكون هناك تطبيق فى واقع الحياة التى يعيشون - كما هو حادث فى بعض بلاد المسلمين.

وبعد: فهذا قليل من كثير مما يعنيه الانتماء إلى الإسلام، هذا الانتماء الذى يدعمه ويزكيه العمل على وَصْل المسلمين بأمتهم الإسلامية وبعالمهم الإسلامى، وتلك هى الفائدة الجليلة للانتماء إلى الإسلام.

جـ- الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين:

للولاء من المعانى العديدة ما نكتفى منه هنا بما يلى:

- القُرب.
- والنُصرة.
- والمحبة.

وقد جعل الإسلام الولاء بين العبد وربه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وجعل الولاء بين المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وهذه الأنواع من الولاء قرب ونصرة ومحبة، قرب من الله بطاعته والالتزام بشريعته، ونُصرة لله سبحانه بنصر دينه واتباع ما جاء به رسوله ﷺ، ومحبة الله هى طاعته والتزام البر والتقوى والتواضع وذلة النفس.

وقرب من المؤمنين برعايتهم والعناية بشئونهم، ونصرة لهم من عدوهم ومن أنفسهم، ومحبة لهم فى الله ماداموا فى رحاب الطاعة لله.

وكما جعل الإسلام الولاء لله جعله لرسوله ﷺ؛ لأن الولاء لله ولاء لرسوله؛ إذ هو المبلغ عنه بكل أمر ونهى، والقرب من الرسول ﷺ،ونصرته ومحبته لها نفس المعانى السابقة.

وإن الإسلام منع الولاء بين المؤمنين والكافرين، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، ومادامت الولاية قربًا ونصرة ومحبة، فلا يجوز أن تكون لغير المؤمنين.

ولكن الآية الكريمة تعترف بأن بين الكافرين ولاء -بعضهم أولياء بعض- قال علماؤنا: (حتى يتوارثوا فيما بينهم)[1].

وقد جعل الله سبحانه بين الكافرين والشياطين ولاية فى الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] بينما نفى هذه الولاية بينهم فى الآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقضية الولاء فى الإسلام تعنى أن المسلمين يجب أن يقيموا علاقاتهم مع الناس جميعًا على أساس العقيدة، فليس الولاء أو العداء بالنسبة للمسلم إلا تعبيراً عما توجبه العقيدة فى هذا المجال، كما أوضحت ذلك آيات قرآنية عديدة وأحاديث نبوية كثيرة، نذكر منها على سبيل الاستشهاد ما يلى:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٢١٦.

٢- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

٣- وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

ومن السنة النبوية:

١- روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» والحديث متفق عليه.

٢- وروى البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر» وهو متفق عليه.

وهناك أحاديث فى الأخوة فى الله والحب فى الله كثيرة.

وبناء على ذلك فليس بين المسلمين والملحدين ولاء بصورة ما؛ لأنه لا ولاء بين المسلمين وكل من يختلف معهم فى العقيدة الإسلامية التى تقوم على التوحيد.

إنما الولاء بين المسلمين وربهم، وبينهم وبين رسولهم ﷺ، وبينهم وبين إخوانهم المسلمين، الذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

والمسلمون الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا، إنما يشكلون بهذا الولاء حزبًا واحدًا هو حزب الله، والله سبحانه وتعالى يعدهم بالنصر والغَلَب والتأييد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

إن هذا الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين هو الذى يمكن المسلمين اليوم من أن يستعيدوا مكانتهم فى الحضارة الإنسانية، وبغير هذا الولاء فلن يستطيعوا.

وإنّ وصْلَ الناشئين بأمتهم الإسلامية وبعالمهم الإسلامى، هذا الذى يعزز هذا الولاء، ويحرره من الباطل والهوى، كما أن هذا الولاء هو الذى يؤكد أن المسلمين جميعًا أمة واحدة، تجمعها العقيدة الصحيحة فى الله سبحانه وفى أنبيائه ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر، ويجمعها كذلك منهج الإسلام فى الحياة، وتجمعها وحدة الهدف والمصير والآمال.

إن هذا الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، قيمة كبرى من القيم الإسلامية، التى تستيقظ بوَصْل المسلمين بأمتهم الإسلامية وعالمهم الإسلامى، قيمة كبرى لو أخذ بها المسلمون لكانوا خير أمة أخرجت للناس.

●●●●

الخاتمة

لله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين.

وعلى رسوله محمـد خاتم الأنبياء والمرسلين وسائر أنبيـائه ورسله أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وأوَد أن أختم هذا الكتاب بإقـرارى بأن ما تضمنه من حق وصواب فـهو من توفيق الله وحسن معونته، وما يحتمل أن يكون قد جاء فيه من غير ذلك فهو من قصورى وتقصيرى، فما أوتيت من العلم إلا قليلاً، وأستغفر الله من كل قصور أو تقصير ومن كل ذنب وأتوب إليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسبـحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

●●●●



ثبت موضوعات الكتاب

- أ -

الباب الثانى

الإسلام والناشئون

الباب الثالث

تربية الناشئ المسلم

الباب الرابع

مستقبل الناشئ المسلم

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً: فى الفكر الإسلامى وقضاياه:

١- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى- دارالتوزيع والنشر الإسلامية.

٢- مع العقيدة والحركة والمنهج- دار الوفاء بمصر.

٣- المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى- دار المنار بالقاهرة.

٤- الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى- دار المنار بالقاهرة.

٥- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم- وطرق التغلب عليه- دار الوفاء بمصر.

٦- التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧- نحو منهج بحوث إسلامى- دار الوفاء بمصر.

٨- السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب- دار عكاظ بالسعودية.

ثانيًا: فى التربية الإسلامية:

أ- سلسلة التربية فى القرآن الكريم:

٩- التربية الإسلامية فى سورة المائدة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٠- التربية الإسلامية فى سورة النور- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١- التربية الإسلامية فى سورة آل عمران- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢- التربية الإسلامية فى سورة الأنفال- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤- التربية الإسلامية فى سورة النساء- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٥- التربية الإسلامية فى سورة التوبة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ب- سلسلة مفردات التربية الإسلامية:

١٦- التربية الروحية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧- التربية الخلقية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٨- التربية العقلية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٩- التربية الدينية (الغائبة)- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠- التربية السياسية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١- التربية الاجتماعية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢- التربية الاقتصادية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣- التربية الجهادية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤- التربية الجمالية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٥- التربية الجسدية الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ- فى التربية الإسلامية المعاصرة:

٢٦- التربية الإسلامية فى البيت - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧- التربية الإسلامية فى المدرسة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٨- التربية الإسلامية فى المجتمع- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٩- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٠- منهج التربية عند الإخوان المسلمين- دار الوفاء بمصر.

ثالثًا: فى فقه الدعوة الإسلامية:

٣١- فقه الدعوة إلى الله- دار الوفاء بمصر.

٣٢- فقه الدعوة الفردية- دار الوفاء بمصر.

٣٣- فقه الأخوة فى الإسلام- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٤- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله- دار الوفاء بمصر.

٣٥- فقه المسئولية- دار الوفاء بمصر.

٣٦- عالمية الدعوة الإسلامية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٧- التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رابعًا: سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا:

٣٨- ركن الفهم- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٩- ركن الإخلاص- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٠- ركن العمل أو منهج الإسلام الإصلاحى- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤١- ركن الجهاد الذى لا تحيا الدعوة إلا به- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٢- ركن التضحية- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٣- ركن الطاعة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤- ركن الثبات- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٥- ركن التجرد- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٦- ركن الأخوة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٧- ركن الثقة- دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسًا: فى الأدب الإسلامى المعاصر:

٤٨- مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه- دار عكاظ بالسعودية.

٤٩- جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه- دار عكاظ بالسعودية.

سادسًا: فى الدراسات الأدبية:

٥٠- القصة العربية فى العصر الجاهلى- دار المعارف بمصر.

٥١- النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها- دار عكاظ بالسعودية.

سابعًا: كتاب معد للنشر:

- النفس فى الإسلام.

